المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

كازو إيشيجورو

عندما كنا يتامى

ترجمة وتقديم: طاهر البربرى

1255


mohamed khatab

عندما كنا يتامى

(رواية)

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة:الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: ١٢٥٥
- عندما كنا يتامى (رواية)
- كازو إيشيجورو
- طاهر البربرى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

هذه ترجمة رواية:
When We Were Orphans
by: Kazuo Ishiguro

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

عندما كنا يتامى

(رواية)

تأليف
كازو إيشيجورو

ترجمة وتقديم
طاهر البربرى



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

إيشيجورو، كازو
عندما كنا يتامى: رواية - تـأليف: كـازو إيشـيجورو، ترجمة وتقديم: طاهر البربرى. ط١ - القاهرة: المركـز القومى للترجمة، ٢٠٠٨م.
٤٧٠ ص، ٢٠سم. (المركز القومى للترجمة)
١- القصص الإنجليزية
أ- البربرى، طاهر (مترجم ومقدم)
ب- العنوان ٨٩١.٦٣

رقم الإيداع: ١٧٦٦٤ / ٢٠٠٨
الترقيم الدولى: 977-437-881-4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

مقدمة المترجم

عندما كنا يتامى

حقق كازو إيشيجورو Kazuo Ishiguro قفزة رائعة بعد إبداعه النثرى بالغ الروعة والحرفية فى انضباطه وشفافيته الذى انطوت عليه رواياته الثلاث الأولى، - رغم أنها بدرجةٍ ما كانت مُربكة للبعض - مِن الواقعيةِ إلى عالم الغموض والضبابية والحلم المرتبك؛ فى روايته الرابعة **من لا عزاء لهم The Unconsoled** (١٩٩٥). أما روايته الخامسة، عندما كنا يتامى When We Were Orphans، فإنها تزاوج بين هاتين التقنيتين فى استكشافها الثرى لنشوة الطفولة والأمتعة التى نَحْملُها مِنْ تلك "الأرضِ الغريبة". مع هذا فنزهاته السريالية تَفيدُ من علامات الطريق الأكثر وضوحًا، والإسهاب المُتَعرِّج فى رواية من لا عزاء لهم قد أفسحَ المجال للتشويق، والخداع وحتى فى خاتمته الخاطفة لها.

السارد فى رواية **عندما كنا يتامى** هو كرستوفر بانكس. أحد أعظم رجال البوليس السرى الإنجليزى فى الثلاثينياتِ من عمره؛ تستبد به رغبته الدائمة فى حلّ اللغزِ المعقد لاختفاءِ أبويهِ فى شنغهاى القديمة قبل أكثر من عشرين عاما. تَتجلَّى مُعظم الروايةِ من خلال الذاكرةِ حين يتذكر كريستوفر رحلته لقضاء الجزء الأخيرِ مِنْ طفولتِه مَع عمّتِه فى إنجلترا، مدققًا فى تفاصيل ماضيه، قراءته لمجتمع لندن الراقي كخريج كمبريدج أرعن فى العشرينياتِ، والأهم من ذلك

يكثير، صباه المغترب تحت كنيةِ "بفنِ" فى شنغهاى. كان أبوه يعمل لشركة بريطانية تتضمن وارداتها إلى الصين أفيونًا، مما كان مصدرًا لشقاق مُتزايد مَع أمِّه المثاليةِ.

إن ذاكرة الراوى فى روايةِ "عندما كنا يتامى" موصومة بالتشوش - مثل كل الرواة فى أعمال إيشيجورو الروائية - إيتسوكو Etsuko أرملة نجاساكى فى رواية (منظر شاحب للتلالِ، ١٩٨٢)، أونو Ono فى رواية (فنان من العالم الطافى، ١٩٨٦)، كبير الخدم، ستيفنس Stevens فى رواية (بقايا النهارِ، ١٩٨٩) - فهو، على مضض، يمارس خداعَ ذاته؛ كما أنه يَقمعُ الذكريات أو الأكاذيبَ المؤلمةَ لنفسه ليجعَلها أكثر لذةً. فهو يقدم أيامه المدرسية على أنها أفضل فترات حياته، ويصر على هذا بعناد وتصلب شديدين. وحينما يلتقى زملاء الدراسة يتضح أنه كان بالنسبة لهم نموذجًا شاذًا حتى فى عزلته وتعاسته للدرجة التى جعلت منه هدفًا للسخرية. إن ذاكرته تبلغ أقسى حالات الانفجار حينما يلتقى بسارة هيمنجس، وهى رفيقته فى اليتم، والتى تستغرق كريستوفر تمامًا، غير أنها تتزوج من السير سيسيل صاحب السطوة الاجتماعية الكبيرة فى الدوائر الاجتماعية الإنجليزية.

فى خطابِها الرسمى الملتبس الغامض ، قمع وعمى عاطفى عن نداءِ صفارةِ إنذار سارة (غالبًا ما يتم تصويرها وهى تطل من الشرفات، مثيرة للرغبة، لكنها صعبة المنال.)، إن كريستوفر فى رواية عندما كنا يتامى يذكرنا تمامًا بستيفنس، كبير الخدم الكتوم فى رواية بقايا النهار، الذى يَتطلّعُ إلى أنْ يَكُونَ خادمَ العظمةِ لكنه بدلاً

من ذلك يُساعدُ فى استرضاء النازى. رغم ذلك فهناك الكثير من الملامح المشتركة بينه وبين رايدر، عازف البيانو فى رواية من لا عزاء لهم، الذى تعتبر صدماته الشخصية مصدرًا أساسيًا لطموحِه وشهرتِه.

فى رواية عندما كنا يتامى هناك ما يشبه الإزاحة والخيانةِ من قِبل "العمّ" فيليب - أبٌ بديل غامض يشترك مَع أمِّه، فى حملات ضدّ تجارةِ الأفيونَ – يشعل طموحات كريستوفر. فهو يتوق فى سن النضج إلى تصحيح الأشياء التى لم يكن له حولٌ ولا قوة حيالها فى أيام طفولته، أثناء لعبه هو وصديق طفولته اليابانى، آكيرا لعبة تشبه لعبة (العسكر والحرامية) وذلك لإنقاذ أبيه مِنْ المختطفين المُتَخَيّلين.

حين تتشاجر والدة كريستوفر مع أبيه وذلك لتواطؤ الأب واشتراكه فى تجارة محرمة، يَشْعرُ بفن أنّه قد خيبَ أملهم بالإخفاق فى الظهور كإنجليزى بما يكفى – إنه تركيبة هجينية بدرجةٍ ما، على حد تعبير العم فيليب – فى عالم من القوميات المتصارعة بقسوة متزايدة. ومثلما آكيرا، أحد سكان شنغهاى، يقُولُ (من المثير للغواية أن يتم تناول الولدين فى ضوء كونهما مركبًا من إيشيجورو، يابانى المولد) "أنت لَسْتَ إنجليزيًا بما فيه الكفاية.... والأمر نفسه بالنسبة لى فأنا لست يابانيًا بما فيه الكفاية."

"بالنسبة لآكيرا، الأطفال مثل الخيوط التى تحافظ على ترابط مفردات العالم معًا، فهم (الأطفال) لا يوثقون عُرى العائلة بل والعالم كله" هذه المعتقدات هي التى يمكن أن نقتفى من خلالها أثر إحساس كريستوفر المتضخم برسالته، واندفاعه لكسب الحب والاستحسان من

خلال القيام بواجباته الجليلة، والبارانويا التى تصيبه من جراء مهامه القاسية.

ومع المخبر السرى، كريستوفر، الذى يحدق فى عدسته المكبرة على عالم يهرول باتجاه الخراب، تضرب الرواية بأحداثها حالة من العبث المتزايد، وجراح الطفولة وهى توجه النضج الآدمى وتصيبه بالاعتلال - على حساب الألفة، والسعادة الأسرية والشخصية. فبطل الرواية كريستوفر بانكس لا يفتقد إلى العلاقة الرومانسية فحسب بل يهمل تمامًا جينيفير، ابنته بالتبنى - يتيمة جديدة من يتامى الرواية - بسبب انهماكه الشديد فى محاولة حل مشاكل العالم؛ ويريد أن يجعلها فخورةً به.

مثل أبطال إيشيجورو الآخرين، يستخدم كريستوفر شخصيات أخرى ليعبر عن أبعاد ذاته. علاقة سارة المهشمة مع السير سيسيل العجوز، سارة التى تسعى إلى سيسيل من أجل الشهرة والصعود فى الأوساط الاجتماعية فى وقت لا يحتاج فيه هذا الرجل المسن إلا إلى الراحة والسكينة؛ هذه العلاقة ليست إلا انعكاسًا رمزيًا للعلاقة بين والديه، فالمعايير الصارمة التى تضعها أمه قد حطمت أباه. إن الرواية هنا تستعيد وتعيد استثمار التقنيات السردية فى رواية من لا عزاء لهم حيث تكون الشخصيات التى يضمها الحلم تعبيرًا عن مخاوف البطل ورغباته، الناس الذين يأتون من ماضيه الشخصى أو من تحولات ذاته هو فى مراحل حياتية متباينة.

إن الهواجس التى تستبد ببطل رواية "عندما كنا يتامى"، كريستوفر تقوم بتوجيه الأحداث. "طفولتنا تصبح أشبه بأرض غريبة

حينما نكبر،" هكذا يقول إيشيجوور على لسان شخصية من شخصيات الرواية. فالطفولة بالنسبة لكريستوفر أصبحت بالفعل مثل بلد غريبة، لكنها البلد التى يشعر فيها بأنه فى وطنه أكثر من إنجلترا. ومع تقدمه لفك طلاسم الماضى المستغلق عليه، ومطاردته لسارة التى لا يُصرح بها، يضطر للعودة إلى شنغهاى فى عام ١٩٣٧، ومن هنا يبدأ السرد فى التحرك فيما يشبه الدهاليز السيريالية. وتحت وطأة اعتقاد وهمى أن والديه ما زالا مُحتجزين فى منزل خارج المستعمرة الدولية، يتقدم المخبر السرى، كريستوفر للبحث حول الخطوط العسكرية للجيش اليابانى خلال تقدمه لغزو الصين، فى الوقت نفسه الذى تنتظره سارة للفرار معه إلى ماكاو هروبًا من أحلامها الفاشلة بالشهرة والثراء مع السير سيسيل. ثمة معركة مندلعة دائمًا بين الشعور بالواجب والرغبة فى إنجاز علاقة عاطفية تبدد الكوابيس الخاصة بطفولته، وأوهامه بقدراته ذات اليد العليا فى فض غموض العالم وإيقاف تقدمه صوب الانهيار.

يبدو أن كل مفردات الكارثة التى يعيشها بطل رواية لا تتنازل عن الطفو على السطح كفقاقيع مؤقتة لا تلبث أن تتلاشى وتفتح الطريق لفقاقيع أخرى على سطح يبدو ظاهريًا غاية فى الاستكانة بينما هو فى حقيقة الأمر فى حالة من الاضطراب بسبب المخاوف التى تفرضها عليه الطفولة من ناحية، ومعطيات الفشل التى تلاحقه من ناحية أخرى. ففى طريقه إلى البيت الذى يتوهم أن أمه وأباه يُحتجزان فيه منذ سنوات بعيدة يتعثر فى آكيرا صديق طفولته وهو جريح فى زى القوات اليابانية. آكيرا نفسه يتغير ويصبح متهمًا بالخيانة العظمى؛ آكيرا هو واحدة من فقاقيع الطفولة التى تعود للطفو

على السطح لتبيح ذاكرة كريستوفر لمساحة أكثـر اتسـاعًا قوامهـا المخاوف والشكوك. الحرب بين الصين واليابان في حد ذاتهـا هـي جرس إنذار جديد يرن بقسوة في أذن كريستوفر لتذكره بعجزه عـن حل مشاكل العالم، تلك المهمة التي ينفق سنوات عمره كاملة في أسر أوهامها. العم فيليب يأتي في الفصول الأخيرة مـن الروايـة لـيعلن الحقيقة بقسوة على كريستوفر. ولا يكتفي فيليب بإعلان حقيقة السـيد بانكس الذي فر مع رفيقته بسبب عجزه عـن التوافـق مـع المُثـل الصارمة لمدام بانكس. فيليب فقاعة جديدة تطفو على السطح لكنها لا تتلاشى إلا بعد أن تكاشف كريستوفر؛ وتخبره بحقيقة طفولتـه وبمـا آلت إليه حياة أمه.

إن إيشيجورو على امتداد الرواية يُظهـر تعاطفًـا هـائلاً مـع شخصياته، مهما كانت وطأة ما تقع تحته هذه الشخصيات من أوهـام وعبث. فقدر الجميع هو مواجهة العالم كيتامى، ومطاردة ظلال الآباء الذين اختفوا عبر سنوات طويلات. إن رواية (عنـدما كنـا يتـامى) تطرح إيشيجورو كأحد أكثر الروائيين في بريطانيا جرأة وقوة.

طاهر البربرى

القاهرة مارس ٢٠٠٨

عندما كنا يتامى

إلى:
لورنا وناعومي

الكتاب الأول

لندن، ٢٤ يوليو ١٩٣٠

الفصل الأول

كان صيف العام ١٩٢٣، الصيف الذى وصلت فيه من كمبريدچ. حيث قررت أن تكون العاصمة نقطة انطلاق لمستقبلى؛ رغم أمنيات خالتى التى كانت تنتظر عودتى إلى شروبشير. استأجرتُ شقة صغيرة فى البناية رقم ١٤ فى بيدفورد جاردينز فى كينسينجتون. الآن أذكره لأنه أروع مواسم الصيف على الإطلاق. فبعد سنوات كنت محاطًا خلالها بالزملاء، سواء فى المدرسة أو فى كامبريدچ، صرت أبلغ منتهى المتعة وأنا فى معية ذاتى. استمتعت بحدائق لندن، الهدوء فى غرفة الاطلاع بالمتحف البريطانى؛ أمضيت ظهيرات كاملات أتجول فى شوارع كينسينجتون، أضع خططًا لمستقبلى، أتوقف بغتةً ولبرهة لأعلن عن إعجابى باللبلاب والنباتات المتسلقة التى توجد هنا فى إنجلترا، حتى فى وسط المدينة العظيمة، وهى تزحف متشبثةً بواجهات البيوت الجميلة.

أثناء واحدة من تمشياتى الحرة تلك، التقيت مصادفة بأحد زملاء الدراسة القدامى، جيمس أوسبَورن، واكتشفت أنه أحد جيرانى. خُيِّل إلىّ أنه نادانى عند مروره إلى جوارى. وعلى الرغم من أننى لم أكن بعد مستعدًا لاستقبال زائرٍ واحدٍ فى غرفتى، فقد دعوته بثقة، وأنا أنتقى الكلمات بعناية بالغةً. لم يكن الإيجار مرتفع القيمة، لكن صاحبة البيت كانت قد أثثته بطريقة جميلة وذائقة رائعة استحضرت بتؤدة لمسة من العصر الفيكتورى الغابر؛ غرفة الصالون، التى تستقبل كثيرًا من الشمس فى النصف الأول من النهار، بها كنبة عتيقة

ومقعدان مريحان، وبوفيه عتيق أيضًا، وخزانة كُتُب، صُنِعَت من خشب البلوط تكتظ بموسوعات متهالكة - كل تلك الأشياء التى اقتنعت أنها ستنال إعجاب أى زائر. بالإضافة إلى أننى قد مضيت صوب كوبرى الفرسان فور استئجارى للشقة واشتريت من هناك طاقم شاى موديل الملكة آن، وعددًا من عبوات الشاى الفاخر، وكذا علبة بسكويت كبيرة. لذلك عندما فاجأنى أوسبورن ذات صباح بعد عدة أيام استطعت أن أقدم له المرطبات بثقة لم تسمح له ولو لمرة واحدة أن يظن أنه ضيفى الوحيد.

خلال ربع الساعة الأولى تقريبًا، كان أوسبورن يتحرك قَلِقًا فى غرفة الصالون، مجاملاً إياى على ترحابى، وهو يتفحص هذا وذاك، مُحَدِقًا عبر النافذة للخارج بانتظام مندهشاً من كل ما يحدث أسفل النافذة بالخارج. فى النهاية ارتمى على الكنبة، وأخذنا نتبادل الأخبار – أخبارنا وأخبار زملاء الدراسة القدامى. أذكر أننا قضينا وقتًا طويلاً فى مناقشة أنشطة اتحادات العمال، قبل أن نستغرق فى جدال طويلٍ وممتع حول الفلسفة الألمانية، مكننا من استعراض الجرأة العقلية التى اكتسبناها فى جامعاتنا المتخصصة. بعدئذٍ نهض أوسبورن وأخذ يروح ويجيء بخطوات وئيدة منتظمة ثانيةً، مُتحدثًا أثناء ذلك عن خططه العديدة للمستقبل.

"أتعرف أن لدى رغبة فى أن أبدأ النشر. فى الصحف والمجلات، وهكذا. فى الحقيقة، أتصور أن أكتب عمودًا بنفسى. فى السياسة، أو فى القضايا الاجتماعية. هكذا، كما أقول لك، إذا ما قررت ألا أمضى فى طريق العمل السياسى بنفسى. أعتقد، يا بانكس.

أحقًا، ليس لديك أية فكرة بخصوص ما تريد أن تفعل؟ انظــر، كــل شيء بالخارج أمامنا" – وأشار إلى النافذة – "بالتأكيد لــديك بعــض الخطط."

"أعتقد هذا،" أجبت وأنا أبتسم. "في ذهني شيء أو اثنان. ســوف أخبرك به في الوقت المناسب."

"ماذا في جعبتك؟ أخبرني، أفصح! سوف أجعلك تفصــح عمــا بداخلك الآن!" غير أنني لم أكشف له عن شيء، وأعدته ثانيــةً إلــى حوار طويل حول الفلسفة أو الشعر أو ما شابه. ثــم، فــي الظهيــرة تقريبًا، تذكر أوسبورن فجأة موعدًا على الغداء في بيكــاديللي وأخــذ يلملم متعلقاته. وعندما هم بمغادرتي، التفت عند الباب، قائلاً:

"انظر أيها الفتى العجوز، قصدت أن أقول لــك. ســأذهب لــيلاً لحضور حفل. على شرف ليونارد إيفرســت. أحــد ملــوك المــال والصناعة. أنت تعرفه. يقيمه أحد أعمامي. ملاحظة قصيرة إلى حــدٍ ما، لكنني أتساءل عما إذا كنت ترغب في الحضور أم لا؟ إنني جــاد جدًا. كنت أود أن أزورك زيارة خاطفة منذ وقتٍ طويــل، فقــط لــم أتعامل أبدًا مع الأمر. سيكون هذا في الكارينجورث."

عندما لم أرد عليه على الفور، تقدم خطوة صوبي وقال:

"لقد فكرت فيك لأنني دائمًا أتذكر. أتذكر كيف كنت دائمًا تســخر من كوني سليل "أسرة عريقة". آه، تقدم! لا تدعي النسيان! لقد كنــت معتادًا على استجوابي بفظاظة. من "أسرة عريقة"؟ فقط مــاذا يعنــي هذا، من أسرة عريقة" حسنًا، أظن أن في هذا فرصة جيــدة لبــانكس

القديم أن يفهم معنى "أسرة عريقة" بنفسه." حينئذٍ هز رأسه، وكأنه تذكر شيئًا ما قائلا: "يالطيبتى، لقد كنت شخصًا غاية فى الغرابة أيام المدرسة."

أعتقد أننى وافقت على اقتراحه، أخيرًا، بخصوص المساء وقتئذٍ – فقد كان مساءً، كما سأوضح، ذا أهمية أكبر بكثير مما كنت أتصور – وأظهرت له دون خداع مدى الامتعاض الذى شعرت به من جراء كلماته الأخيرة تلك.

لقد ازداد ضيقى ساعة عُدت للجلوس ثانيةً. فقد خمنت، كما حدث، على الفور ما الذى كان أوسبورن يشير إليه. والحقيقة أننى، أثناء سنوات المدرسة، كنت أسمعها تتردد بشكل متكرر، أوسبورن من "عائلة عريقة". وكانت هذه العبارة تبرز بشكل مطرد عندما يتحدث الناس عنه. وأظن أننى أيضًا استخدمت العبارة نفسها عنه كلما كان الأمر يقتضى ذلك. لقد فتننى هذا المفهوم فى الواقع، مسألة أنه بطريقةٍ ما غامضة ينتمى إلى عدة مراتب اجتماعية أرقى، حتى على الرغم من أنه لم يكن يتصرف بطريقةٍ مختلفةٍ عنا. مع ذلك، لا أتصور أننى "استجوبته بقسوة" مثلما ادعى. حقيقةً لقد فكرت فى الأمر كثيرًا عندما كنت فى الرابعة عشر أو الخامسة عشر، لكننى لم أكن أحد الأصدقاء المقربين من أوسبورن أيام المدرسة، فقط طرحت الأمر للمناقشة ذات مرة معه بشكل شخصى على ما أذكر.

ذات صباح خريفى مضبب، كنا معًا نجلس على حائطٍ خفيض خارج حانة ريفية. وقتئذٍ كنا فى الفرقة الخامسة. وكنا قد عُينّا مسجلين لأحد سباقات اختراق الضاحية، وكنا فى انتظار ظهور

العدائين من الضباب عبر حقلٍ مجاور حتى يمكننا توجيههم صوب الاتجاه الصحيح أسفل ممر ضيق موحل. كان لم يزل لدينا متسعٌ من الوقت قبل وصول أى من العدائين، ولذا فقد كنا نتبادل الحديث بتراخٍ. أنا على يقين أننى فى هذه المناسبة، قد وجهت له سؤالاً بخصوص أصوله العريقة. إلا أن أوسبورن، والذى رغم امتلائه بالحيوية والمرح، كان يتسم بطبيعة هادئة، حاول أن يغير الموضوع. غير أننى داهمته بإصرارى حتى أجابنى فى النهاية قائلاً:

"لا تبالِ بهذا الأمر، يا بانكس. إنه لا يتعدى كونه هراء، ليس ثم من شيء يمكن تفسيره. إن الإنسان يعرف الناس ببساطة. لكل إنسان أبوان، وأخوال وأعمام، وأصدقاء عائلة. لا أعرف ما المربك فى هذا." ثم تدارك ما قاله بسرعة، واستدار نحوى وهو يمسك بذراعى، "أنا فى غاية الأسف، يا صديقى العزيز، من صفاقتى هذه معك."

إن هذه الزلة السلوكية أغضبت أوسبورن أكثر بكثير مما أغضبتنى. حقيقةً، من الممكن أنها ظلت فى ذهنه طيلة هذه السنوات، حتى إنه كان بطريقةٍ ما يسترضينى، وهو يطلب منى مرافقته ذلك المساء إلى نادى كارينجروث. على أية حال، كما أقول، لم أكن غاضبًا، فى ذلك الصباح الضبابى، من تعليقه الأرعن المعلن. فى الواقع، لقد أصبح من المثير للسخط لدى، أن زملاء الدراسة، على الرغم من ميلهم للمزاح على ما يكتنف أى شخص من سوء طالع فعليًا، فقد كانوا يلاحظون على كآبة شديدة مع أول ذكر لغياب أبوى. لكن بالفعل، رغم غرابة هذا، فإن حاجتى لأبوين – حقيقةً، لأى من الأقارب وثيقى الصلة بى فى إنجلترا فيما عدا خالتى المقيمة فى

شروبشير – أصبح وقتئذٍ لا يسبب لى أى إزعاج. لأننى غالبًا ما كنت أُوَضِّح لرفاقى، أنه في مدرسة داخلية كتلك، درجنا جميعًا على المضى دونما آباء، وأن وضعى ليس متفردًا بشكلٍ عام أيضًا. إضافة إلى ذلك، حينما كنت أعيد النظر فى الأمر، يبدو من المحتمل أن افتتانى بعراقة أصل أوسبورن كان له علاقة باحتياجى الكامل وقتئذٍ لارتباطى بالعالم خارج أسوار مدرسة سانت دانستان. حتى إننى، عندما حان الوقت، أزيف هذا الارتباط لنفسى وأشق طريقى، بلا شك. لكننى ظننت أنه من الممكن أن أتعلم من أوسبورن شيئًا جوهريًا، شيئًا عن كيفية تفعيل مثل هذه الأشياء.

غير أننى عندما قلت، من قبل إن كلمات أوسبورن التى قالها وهو يغادر شقتى قد ضايقتنى إلى حدٍ ما، فإننى لم أكن أشير لمسألة إثارة أمر له طيلة تلك السنوات. بل إن ما اعترضت عليه هو حكمه العرضى على بأننى كنت "شخصًا شديد الغرابة أيام المدرسة".

حقيقةً لقد ظل الأمر دائمًا يبدو مُلغزًا أن يقول أوسبورن ذلك الشيء عنى ذلك الصباح، طالما أن ذاكرتى تؤكد أننى انغمست فى الحياة المدرسية الإنجليزية. حتى أثناء أسابيعى الأولى فى مدرسة سانت دانستان، لا أعتقد أننى فعلت أى شيء يسبب لى الارتباك. ففى أول يوم لى، على سبيل المثال، أذكر أننى لاحظت سلوكًا نهجه كثيرٌ من الأولاد أثناء الوقوف أو التحدث – حيث يدخلون اليد اليمنى فى جيب الصدَرِيّة ويحركون الكتف الأيسر لأعلى وأسفل ليؤكدون ثقتهم بملاحظاتهم. أذكر يقينًا أننى استطعت محاكاة هذا السلوك بإتقان بالغ لم يجعل أحدًا من زملائى يلحظ أى شذوذ أو يفكر حتى فى السخرية.

بالروح المتجاسرة نفسها، استطعت استيعاب الحركات الأخرى، انحرافات طرق التعبير وأنماط التعجب الشائعة بين أقرانى، وكذلك الإلمام بالعادات والآداب الأعمق المنتشرة فى بيئتى الجديدة. لقد أدركت يقينًا وبسرعة كافية أنه لن يفيدنى أن أقحم بانفتاح – كما كنت أفعل بصورة روتينية فى شنغهاى – أفكارى حول الجريمة واكتشافها. إلى حد أنه حتى فى أثناء عامى الثالث كانت هناك سلسلة من جرائم السرقة، وكانت المدرسة كلها تستمتع بلعبة المخبر السرى، وأحجمت أنا بحذر عن المشاركة تمامًا إلا بصورةٍ ضئيلة. بلا شك، كان هناك آثار من هذه السياسة التى تسببت فى إفصاحى عن قدرٍ ضئيل من خططى لأوسبورن فى ذلك الصباح الذى دعانى فيه.

لكن، ورغم كل حرصي، يمكننى أن أتذكر حادثتين على الأقل من أيام الدراسة أفترض بهما حتمية، على الأقل بشكل عارض، تنازلى عن حذرى بما يكفى وأعرب عن فكرتى بخصوص طموحى. لقد كنت غير قادرٍ حتى وقتئذٍ أن أبرر هذه الأحداث، وأنا لست قريبًا من ممارسة هذا اليوم.

أول هاتين الحادثتين وقعت فى عيد ميلادى الرابع عشر. أخذنى صديقاى الحميمان وقتئذٍ، روبرت ثورنتون براون وراسيل سانتون إلى أحد محلات الشاى فى القرية وقد استمتعنا بالكعك وكيك الكريم. كانت ظهيرة مطيرة فى أحد أيام السبت وكانت كل الطاولات الأخرى مشغولة. كان هذا يعنى دخول قرويين أغرقهم المطر كل بضع ثوان، يتلفتون، ويلقون بنظرات الازدراء علينا وكأنه يتحتم علينا فورًا أن نخلى طاولتنا من أجلهم. لكن مسز جوردان، صاحبة المكان، كانت

دائمًا تخصنا بترحابها. وفى ظهيرة عيد ميلادى تلك، أحسسنا بأن لدينا كل الحق فى أن نشغل الطاولة التى اخترناها بجانب النافذة النابتة المطلة على ميدان القرية. لا أذكر كثيرًا مما كنا نتحدث بشأنه فى ذلك اليوم؛ لكن بمجرد أن تناولنا طعامنا، تبادل رفيقى النظرات، ثم انحنى ثورنتون براونى على حقيبته المدرسية وقدم لى علبة ملفوفة بها هدية.

بدأت أفتحها، بسرعة أدركت أن العلبة قد لُفت فى عدة أفراخ من الورق، وأن أصدقائى سيقهقهون فى كل مرة أنزع طبقة منها، فقط لبياغتنى الفرخ التالى. كل الإشارات، إذًا، تقر أننى كنت سأجد شيئًا تافهًا مثيرًا للضحك فى نهاية هذا كله. الذى اكتشفته أخيرًا كان جرابًا جلديًا مُجَوّىً،(*) وعندما فككت الماسكة الصغيرة أخيرًا ورفعت الغطاء، وجدت عدسة مكبرة.

هى الآن أمامى. مظهرها الخارجى تغير قليلاً مع مرور السنوات؛ كانت فى تلك الظهيرة بالفعل كثيرة السفر. أذكر أننى لاحظت أنها، إضافةً إلى حدتها القوية، كانت ثقيلة بصورةٍ مذهلة، وأن مقبضها العاج كان مكسورًا أسفل أحد الجانبين. ولم ألاحظ إلا لاحقًا – كنت بحاجة إلى عدسة مكبرة أخرى لقراءة الأكليشيه المحفور عليها – أنها صُنِعَت فى زيورخ عام ١٨٨٧.

كان رد فعلى الأول تجاه هذه الهدية ينطوى على دهشةٍ هائلة. خطفتها لأعلى، وأثناء إزاحتى كومة الورق التى كانت تغطى سطح

(*) معالجٌ أو مغيرٌ التركيب أو الشكل بالتعريض للعوامل الجوية. (المترجم)

الطاولة – أشك أننى فى اندفاعى المتحمس قد تسببت فى تطاير بعض أفراخ الورق إلى الأرض – وبدأت على الفور فى تجريبها على بعض بقع الزبد التى كانت تلطخ مفرش الطاولة. صرت مستغرقًا للغاية لدرجة أننى كنت ألحظ بشكل باهت فقط أصدقائي وهم يضحكون بهذه الطريقة المبالغ فيها التى تعبر عن نكتة على شخص ما. عندما نظرت لأعلى، مستعيدًا وعيي أخيرًا، كانا قد سقطا فى مغبة صمت غامض. حينئذٍ كان ثورنتون براونى قد أطلق ضحكة مكتومة وفاترة وهو يقول:

"مادمت ستصبح رجل بوليس سرى، فقد فكرنا أنك ستحتاج هذه الأداة."

عند هذه النقطة، استعدت بسرعة حصافتى وفطنتى وتظاهرت بأن الأمر كله قد كان دعابة مضحكة. لكن عندئذٍ، تخيلت، كانت نوايا صديقى يشوبها الارتباك. وخلال ما تبقى من وقتنا فى المقهى، لم يحدث أبدًا أن استعدنا حالتنا النفسية السابقة المريحة تمامًا.

كما قلت، أمامى الآن العدسة المكبرة هنا. استخدمتها فى تحريات قضية مانارينج؛ استخدمتها مرةً أخرى، مؤخرًا جدًا، أثناء فضيحة ريتشاردسون. ربما لا تكون العدسة المكبرة هى الأداة المحورية كما فى الأسطورة الشعبية، لكنها تظل أداة مفيدة لجمع أدلة معينة، وأظن أننى سوف أحمل معى، فيما بعد، هدية عيد ميلادى من روبرت ثورنتون براونى وراسل ستانتون. وأنا أحدق فيها الآن، خطرت ببالى هذه الفكرة: لو كانت نوايا صديقى حقيقةً هى مضايقتى، حسنًا إذًا، فالنكتة الآن انقلبت عليهما. لكن المحزن أننى

الآن لا أملك الطريقة التى أتيقن بها مما كانا يُضمْرِان وقتئـذٍ، ولا كيف، فى الحقيقة، رغم كل حيطتـى، عرفـا طموحـاتى السـرية. ستانتون، الذى كذب فيما يخص سنه لكى يتطوع، قُتِل فى المعركـة الثالثة من معارك يبريس Ypres.(*) ثورنتون براونى، سمعت، مـات بالسل منذ عامين. على أية حال، كلاهما تركا مدرسة سانت دانستان فى السنة الخامسة وعندما سمعت بأنباء موتهما كان قـد مـر وقـتٌ طويل منذ أن فقدت اتصالى بهما. ما زلت أذكر، رغم هـذا، مـدى شعورى بخيبة الأمل عندما ترك ثورنتون براونى المدرسة؛ لقد كـان الصديق الحقيقى الوحيد لى منذ وصولى إلى إنجلترا، وقـد افتقدتـه كثيرًا خلال الجزء الأخير من وجودى فى مدرسة سانت دانستان.

الواقعة الثانية التى خطرت ببالى حدثت بعد ذلك ببضع سـنوات – فى السدس التمهيدى(**) – غير أن تَذَكُّرى لها ليس مفصلاً جيـدًا. فى الواقع، أنا لا أستطيع أن أتذكر جيدًا أى الأشياء حدث قبل الآخـر أو بعد الآخر من تلك اللحظة بعينها. ما أذكره هو أننى كنت أمشـى باتجاه أحد فصول الدراسة – غرفة رقم ١٥ فى الدير القديم – حيـث كانت الشمس تنسكب فى صورة أشعة متناثرة عبـر نوافـذ الـدير الضيقة، كاشفةً الغبار العالق بالهواء. لم يكن الأستاذ قد وصل بعـد،

(*) مدينة سوق فلمنكية صغيرة، خارج الحدود الفرنسية، تشبه فى كل شىء العديـد مـنْ المدن البلجيكية، وظلت كذلك حتى ١٩١٤، اندلاع الحرب العالمية الأولـى، لكنهـا منذئذٍ أصبحت مسرحًا لأبشع المعارك التى سجلت مقتل عددٍ مروع من النـاس قُـدر بنحو ٥٠٠,٠٠٠ قتيل فى منطقة لا تتجاوز مساحتها ٢٥ كيلـومترًا مربّعـا. بعـد الحربِ أصبحَت مسرحًا لأحد أهم الاحتفالات التذكارية الأوروبية. (المترجم)

(**) حلقة دراسية أو عام دراسى. (المترجم)

لكن لابد وأننى قد تأخرت قليلاً، لأننــى أذكــر أن زملائــى كــانوا يجلسون ملتفين حول بعضهم البعض فى مجموعات أعلــى أســطح الدكك، والنضد، وأفاريز النوافذ. كنت على وشك أن أنضــم لواحــدة من تلك المجموعات التى كانت تضم خمسة أو ســتة أولاد، عنــدما التفتت وجوههم جميعًا إلى، على الفور أدركت أنهم قد كانوا يتحدثون عنى. حينئذٍ، وقبل أن أتفوه بكلمة، أشار فرد من المجموعة، روبرت برنتورست، ناحيتى وأبدى ملاحظة:

"لكنه قصير إلى حدٍ ما بما لا يجعله يصلح لأن يكون شيرلوك."

قليلٌ منهم ضحكوا، لم يكن ضحكهم فظًا بالتحديد، وهذا، حســبما أتذكر، كل ما فى الأمر. أبدًا لم أسمع أى حــديث آخــر بخصــوص طموحاتى فى أن أصبح "شيرلوك"، لكن لبعض الوقت بعد ذلك انتابنى قلق مزعج بأن سرى قد أُفشى وأصبح موضوعًا للمناقشة فى غيابى.

بالمصادفة، كانت حاجتى لممارسة الحذر فيمــا يخــص مســألة طموحاتى قد أثرت على قبل وصولى إلى مدرسة ســانت دانســتان. لأننى قضيت بضعة أسابيع فى إنجلترا أتجول فــى الحديقــة العامــة بالقرب من بيت خالتى فى شروبشير، أقوم، بين أشــجار الســرخس الكثيفة، بأداء السيناريوهات البوليسية العديدة التى وضعناها أنا وآكيرا معًا فى شنغهاى. بالطبع، ولأننى الآن وحدى، اضطررت أن ألعــب كل أدواره أيضًا؛ إضافةً إلى أنه، وأنا فى غايــة الــوعى بإمكانيــة رؤيتى من المنزل، كان يتحتم على أن أمثل هذه الأعمــال الدراميــة بحركات مُقَيَّدة، وأنا أغمغم بالكلمات همسًا – فى تناقض واضح مــع الطريقة غير الحرة التى كنت أنا وآكيرا نمارس هذا بها.

مع هذا، ثَبَتَ أن مثل هذه الاحتياطات لم تكن كافية. لأننـــى ذات صباح سمعت بالصدفة، من غرفتـــى الصـــغيرة فـــى العِلِّيَّـــة التـــى خُصِصَت لى، خالتى وهى تتحدث مع بعض الأصدقاء فى الصالون. كان الانخفاض المفاجئ لأصواتهم هو أول ما أثار فضولى، وعلـــى الفور وجدت نفسى أتسلل للخارج إلى مُنْبَسَط السـلّم وأميـل فـــوق الدرابزون.

"لقد ذهب لساعات،" سمعتها تقول. "هذا ليس صحيًا، لولـــد فـــى سنه، أن يستغرق فى عالمه بهذا الشكل. لابد أن يبدأ التركيـــز فـــى مستقبله."

"لكن مع ذلك فهذا مُتَوقَع، بالتأكيد،" قال شخصٌ ما. "بعد كل مـــا حدث له."

"ليس ثم من نتيجة سيجنيها من التقوقع والاكتئاب، مطلقًا،" قالـــت خالتى. "إنه يلقى أفضل رعاية وتربية، وبهذا الشكل فهو محظوظ. لقد حان الوقت ليعتنى بمستقبله. أعنى أن يضع نهاية لهذا الاستبطان."

منذ ذلك اليوم وصاعدًا توقفت عن الـــذهاب للحديقـــة العامـــة، وبوجه عام، اتخذت خطوات كى أتجنب أى شىء يبرز "الاستبطان". لكننى وقتئذٍ كنت لم أزل صغيرًا جدًا، ومع حلول الليل، وأنا أســـتلقى فى تلك الغرفة العِلّيّة، منصتًا لصرير ألواح الأرضيات أثناء حركـــة خالتى فى البيت لتعبئة ساعات الحائط أو الاعتناء بقططها، كنت غالبًا ما أعيد تمثيل كل تمثيلياتنا البوليسية القديمة، ثانيةً فى خيالى، بالضبط الطريقة نفسها التى كنا نفعل بها هذا دائمًا أنا وآكيرا.

لكن لأرجع إلى ذلك النهار الصيفى فى شقتى فى كينســينجتون حين زارنى أوسبورن. لا أود أن ألمح إلى أن ملاحظته هــذه، التـــى تقول إننى "شخص غريب"، قد استغرقت مدة تزيد عن بضع لحظات. حقيقةً، لقد خرجت من ذاتى، بعد أوسبورن بفترة ليست طويلة، وكنت فى الحال موجودًا فى منتزه سانت جيمس، أتمشى فى مزاهر الحديقة، بعد أن أصبحت أكثر شغفًا بالليلة التى تنتظرنى.

مع إمعان التفكير ثانيةً فى تلك الظهيرة، اكتشفت أننى محق كــل الحق فى شعورى بقليل من العصبية، وأنها نمــوذج تــام للعجرفــة الحمقاء التى حملتنى عَبْر أيامى المبكرة الأولى فى لندن. بالطبع كنت واعيًا أن هذه الأمسية تحديدًا ستكون على مستوى مختلف تمامًا عــن أى شىء حضرته فى الجامعة؛ وأننى، إضافةً إلى هذا، ربما أصطدم بنقاط فى العادات غير مألوفة لى إلى حد بعيد. لكننى أحسست بيقــين فى أننى سوف، بيقظتى المعتادة، أتغلب على كل هــذه الصــعوبات، وبشكل عام سأبلى بلاءً حسنا. كانت اهتماماتى وأنــا أتجــول حــول المنتزه ذات ترتيب مختلف تمامًا. عنــدما تحــدث أوســبورن عــن المدعوين ذوى "الأصول العريقة"، افترضت على الفور أن من ضمن هؤلاء على الأقل بضعٍ شخصيات من أشهر أفراد البوليس السرى فى ذلك الوقت. تخيلت، إذًا، أننى قضيت وقتًا كثيرًا فى تلــك الظهيــرة أتدرب فقط على ما سأقول حال تقديمى إلى مــاتلوك ستيفنســـون، أو ربما حتى بروفيسور تشارلفيل. تدربت مرارًا وتكرارًا علـــى كيفيــة تقديم تصور موجز - باعتدال، لكن بوقــار واثــق - لطموحــاتى؛ وصورت لنفسى أحدهم أو الآخر وهــو يخصــنى برعايــة أبويــة،

ويعرض على كل أنواع النصائح ويصر على زيارتى له كى يرشدنى فى المستقبل.

بالطبع، تحول المساء إلى خيبة أمل كبيرة – رغم أنه، كما سترى الآن، قد حقق أهمية واضحة لأسباب مختلفة تمامًا. ما لم أكن أعرفه وقتئذٍ أن أفراد البوليس السرى، فى بلدٍ كهذه، لا يميلون للمشاركة فى التجمعات الاجتماعية. ليس هذا بسبب أى نقص فى الدعوات؛ فخبرتى الخاصة مؤخرًا ستثبت حقيقة أن الطبقات العليا فى المجتمع دائمًا ما تحاول تجنيد المشهورين من أفراد البوليس السرى اليوم واستقطابهم. المسألة بالفعل أن هؤلاء الأشخاص أنفسهم يميلون للحذر، وغالبًا يفضلون العزلة ويكرسون حياتهم لعملهم ولرغبتهم فى التلاقى مع بعضهم البعض ناهيك عن ممارستهم للسلوك نفسه مع المجتمع ككل.

كما أقول، لم أدرك هذا تمامًا عندما وصلت إلى نادى كارينجورث فى ذلك المساء وحذوت حذو أوسبورن فحييت البواب المُسِن الذى كان يرتدى زيًا رسميًا بابتهاج. لكننى كنت خلال دقائق من دخولنا الغرفة المزدحمة فى الطابق الأرضى قد تحررت من الفهم المخطئ. لا أعرف كيف حدث هذا بالضبط – لأننى لم أكن أملك من الوقت ما يمكننى من معرفة هوية أى من المدعوين – لكن نوعًا من الإيحاء البديهى قد طغى على جعلنى أشعر بمنتهى الحمق بسبب لهفتى السابقة. فجأةً بدا من غير المعقول أن أتوقع أن أجد ماتلوك ستيفنسون أو بروفيسور تشارلفيل يخادنون خبراء المال والوزراء الحكوميين ممن أدركت وجودهم حولى. حقيقةً، لقد ضللنى

هذا التناقض بين الواقع الذى وصلت إليه والواقع الذى أمضيت الظهيرة كلها فى تخيله، ورباطة جأشى، التى هجرتنى مؤقتًا على الأقل، ولمدة ساعة ونصف أو أكثر، بسبب شعورى بالضيق، لم أستطع أن أحمل نفسى على الابتعاد عن أوسبورن.

أنا واثق أن هذا الإطار العقلى الهائج نفسه يبرر حقيقة أننى كلما أعود بالتفكير الآن فى تلك الليلة، تبدو جوانب كثيرة جدًا مبالغ فيها وغير طبيعية إلى حدٍ ما. مثلاً، عندما أحاول الآن أن أستعيد صورة الغرفة، تبدو معتمة بشكل شاذ؛ هكذا على الرغم من المصابيح التى كانت معلقة على الحائط، والشموع التى كانت فوق الطاولات، والثريات التى كانت تتدلى فوق رؤوسنا – لم يكن لأى منها أدنى أثر على الظلام المنتشر حولنا. السجادة كانت سميكة جدًا، لذلك كان الواحد منا مضطر لجر قدميه كى يتحرك فى كل أنحاء الغرفة وفى كل مكان حولنا رجال يعترى شعورهم المشيب يرتدون معاطف سوداء يجرون أقدامهم فوق السجادة، حتى إن بعضهم كان يدفع بكتفيه للأمام وكأنهم يمشون فى مغبة عاصفة هوجاء. الخدم، أيضًا، بصوانيهم الفضية، يميلون إلى المحادثات فى زوايا معينة. نادرًا ما كنت ترى سيدات بين الحضور، وهؤلاء اللاتى رأيتهن ظهرن فى حالة محو للذات وبعيدات عن الأضواء، وعلى الفور تقريبًا كن يختفين عن مرمى البصر خلف غابة من حُلل السهرة السوداء.

كما أقول، أنا متأكد أن هذه الانطباعات ليست دقيقة، لكن هكذا ظلت الليلة باقية فى عقلى. أتذكر وقفتى هناك متجمدًا حرجًا، وأنا أشرب من كوبى مرة بعد مرة، بينما كان أوسبورن يدردش بود مع

ضيف بعد آخر، معظمهم كانوا أكبر منا بما يزيد عن ثلاثين عامًا. حاولت مرة أو اثنتين أن أشترك فى الحديث، لكن صوتى كانت تشوبه نبرة طفولية بصورةٍ منافية للذوق السليم، وعلى أية حال، كانت معظم الحوارات تدور حول ناس وقضايا لا أعرف شيئًا عنها.

بعد فترة، بدأ الغضب يزحف علىّ – على نفسى، على أوسبورن، وعلى كل ما يجرى. شعرت بأننى محق كل الحق فى ازدراء من حولى من الناس؛ وأنهم إلى حدٍ كبير موصومون بالأنانية والجشع، وتعوزهم القيم أو الإحساس بالواجب العام. فى النهاية، وبدافع قوى من غضبى، استطعت أن أنزع نفسى بعيدًا عن أوسبورن وأتحرك بعيدًا فى الظلام إلى جزء آخر من الغرفة.

وصلت إلى منطقة مضاءة بواسطة بقعة ضوء تسقط من مصباح حائط. كانت جموع الناس أقل هنا، ولاحظت وجود رجل أشيب الشعر فى حوالى السبعين من عمره وكان يدخن وظهره للغرفة. اقتضى الأمر لحظة منى لأدرك أنه كان يحدق فى مرآة، وحينئذٍ لاحظ أننى قد كنت أنظر إليه. كنت على وشك أن أبتعد مسرعًا، عندما قال، دون أن يستدير:

"هل أنت مستمتع؟"

"أوه نعم،" قلت وأنا أطلق ضحكة خفيفة. "شكرًا لك. نعم، مناسبة رائعة."

"لكنك تائه إلى حدٍ ما، هه؟"

ترددت، ثم أطلقت ضحكة أخرى. "ربما قليلاً. نعم، سيدى."

استدار الرجل ذو الشعر الأشيب وتفحصنى بعناية. ثم قال: "لو وددت، سأخبرك بهوية بعض هؤلاء الناس. ثم لو أن هناك من تريد التحدث إليه على وجه التحديد، فسوف آخذك إليه وأقدمك له. ماذا تقول فى هذا؟"

"هذا منتهى العطف منك. منتهى العطف فى الحقيقة."
"حسنًا."

اقترب منى خطوة ومسح بعينيه المرئى لنا من الغرفة. ثم مال للأمام على، وبدأ يشير إلى هذه الشخصية وتلك. حتى حينما يكون الاسم من النوع الوصفى، كان يتذكر أن يضيف لمعرفتى "خبير المال"، "المؤلف الموسيقى"، أو أى شىء أيًا كان. مع الشخصيات الأقل شهرة، كان يلخص ببعض التفصيل سيرة حياة الشخصية وسبب أهميتها. أعتقد أنه كان فى مغبة إخبارى عن أحد رجال الدين وكان يقف على مقربةٍ منّا، عندما توقف فجأةً وقال:

"آه. أرى أن انتباهك قد انجذب بعيدًا."
"أنا فى غاية الأسف...."
"وهو كذلك. مع هذا، طبيعى جدًا. من رفيق شاب مثلك."
"أؤكد لك، يا سيدى..."
"لست بحاجة للاعتذار." أطلق ضحكة ووكز ذراعى برفق. "تراها رائعة، هه؟"

لم أكن أعرف بالضبط بماذا أرد. ولم أستطع أن أنكر أن انتباهى قد انحرف بسبب المرأة الشابة التى كانت تقف على بعد عدة ياردات

إلى يسارنا، وكانت مستغرقة وقتئذٍ في حوار مع رجلين في منتصف العمر. لكن عندما حدث هذا، في تلك المرة الأولى التي رأيتها فيها، لم أفكر فيها على أنها رائعة مطلقًا. من الممكن حتى إنني أحسست إلى حدٍ ما، هناك وقتئذٍ، مع أول وقوع لعيني عليها، أن تلك المميزات التي كنت قد اكتشفتها هي جزءٌ منها بشكل مهم. الذي رأيته كان امرأة شابة ضئيلة قزمية القامة بشعر قاتم يطاول كتفيها. حتى على الرغم من أنها كانت، في تلك اللحظة، تتمنى بوضوح أن تفتن الرجلين اللذين كانت تتحدث إليهما، فقد رأيت شيئًا ما في ابتسامتها يجعلها في لحظة ربما تستحيل إلى سخرية. انحناءة خفيفة حول كتفيها، مثل تلك التي تسم الطيور الجارحة، تجعلك تفترض في وقفتها شيئًا من المكر. فوق كل هذا، لاحظت خاصية معينة حول عينيها – نوعا من القسوة، شيئًا جشعًا بطريقة حقيرة – أرى الآن، وأنا أستعيد الأحداث الماضية وأتأملها، أنها فاقت ما سواها وجعلني أحدق فيها بهذا الافتتان في تلك الليلة.

عندئذٍ، وبينما كنا لم نزل نرمقها، نظرت باتجاهنا، مدركةً رفيقي، ألقت إليه بابتسامة خاطفة وقاترة. حياها الرجل أشيب الشعر بانحناءة محترمة من رأسه.

"سيدة شابة فاتنة،" غمغم، وقد بدأ يشق بي الطريق. "لكن لا معنى أن يضيع رجلٌ مثلك وقته في مطاردتها. لا أقصد أن أكون عدوانيًا، فأنت تبدو من النوع المهذب والمحترم جدًا. لكن تعرف، هذه ميس هيمنجس. ميس *ساره* هيمنجس."

لم يكن للاسم أى معنىً عندى. لكن لما كان مرشدى من البداية حى الضمير للغاية فى إمدادى بخلفيات هؤلاء الذين أشار إليهم، فقد نطق اسم هذه المرأة وهو يتوقع بوضوح منى أن أكون على دراية به. ولذا لم يكن منى سوى أن أومأت وقلت:

"أوه نعم. إذن فهذه ميس هيمنجس."

توقف الرجل ثانيةً ومسح الغرفة من زاوية رؤيتنا الجديدة.

"الآن دعنى أرى. أنا أدرك أنك تبحث عن شخص يعطيك دفعة فى مستقبلك. صح؟ لا تقلق. لقد لعبت اللعبة نفسها كثيرًا فى شبابى. الآن دعنى أعرف. من لك هنا؟" ثم استدار بغتةً نحوى وسأل: "الآن ماذا قلت ثانيةً بخصوص ما تريد أن تفعله فى حياتك؟"

بالطبع، لم أكن حتى تلك اللحظة قد أخبرته بأى شىء. لكن الآن بعد قليل من التردد، أجبته ببساطة:

"بوليس سرى، يا سيدى."

"بوليس سرى؟ هممم." واصل النظر بتفحص فى كل أنحاء الغرفة. "تقصد...رجل شرطة؟"

"مستشار خاص بشكل أكثر دقة."

أومأ. "بطبيعة الحال." وواصل التدخين من سيجاره، وهو يمعن التفكير. ثم قال: "لست مهتمًا بالمتاحف، إن أمكن؟ الرجل الذى هناك، أعرفه لسنوات. متاحف، جماجم، رفات الجثث، أشياء من هذا القبيل. لا يهمك؟ لم أعتقد هذا." واصل النظر بتفحص فى أنحاء الغرفة،

أحيانًا يومئ برقبته لينظر إلى شخصٍ ما. "بالطبع،" أخيرًا قال، "كثير من الشباب يحلمون أن يصبحوا أفرادًا فى البوليس السرى. بإمكانى أن أقول إننى حلمت بهذا ذات مرة، فى لحظة ما كانت أكثر خيالية. الواحد يشعر بأنه مثالى فى سنك. ويتوق لأن يصبح أعظم رجل بوليس سرى فى عصره. ليقتلع وحده كل شرور العالم. هذا جدير بالثناء. لكن فى الحقيقة، يا صغيرى، إن هذا بالفعل أيضًا كأن، لنقُل، يكون لديك بضعة أوتار أخرى فى قوسك. لأنك بعد عام أو اثنين من الآن – لا أقصد أى هجوم أو عداء – لكن قريبًا جدًا ستتناول الأمور بطريقة مختلفة تمامًا. هل أنت مهتم بالأثاث؟ أنا أسألك لأن من يقف أمامنا هناك هو هاميش روبيرتسون فعلاً."

"مع احترامى لكل ما قلته، يا سيدى. فالطموح الذى صرحت به لك توًا ليس نزوة هذه اللحظة. إنه دعوة ومهنة أحسست بها طيلة حياتى."

"طيلة حياتك؟ لكن كم عمرك؟ واحد وعشرون؟ اثنان وعشرون؟ حسنًا، أظن أنه لا ينبغى ألا أشجعك. مع ذلك، إذا لم يكن شبابنا سيتبنون ميولاً مثالية فمن سيفعل هذا؟ ولا شك، يا بنى، أنك تعتقد أن عالم اليوم أكثر شرًا من العالم قبل ثلاثين عامًا مضت، أليس كذلك؟ وأن الحضارة على حافة الهاوية وكل هذا؟"

"فى واقع الأمر، يا سيدى،" قلت باقتضاب، "أعتقد أن الأمر هكذا."

"أتذكر عندما فكرت أنا أيضًا فى هذا." فجأةً تبدلت سخريته بنبرة أكثر تعاطفًا، أظن حتى إننى رأيت عينيه تمتلئ بالدموع. "لماذا هكذا،

هل لديك افتراض، يا بنى؟ هل أصبح العالم فعلاً أكثر شرًا؟ هل يتفسخ الإنسان وينحط بوصفه نوعًا بيولوجيًا؟"

"لا أعرف شيئًا عن هذا، يا سيدى،" أجبت لكن هذه المرة بلطف أكثر. "كل ما أستطيع قوله هو، من وجهة نظر المراقب الموضوعى، أن المجرم الحديث قد أصبح أكثر مهارة. لقد أصبح أكثر طموحًا، أكثر جرأة، والعلم قد وضع نظامًا كاملاً من الأدوات المعقدة تحت تصرفه."

"صحيح. وبدون رجال موهوبين مثلك بجانبنا، فالمستقبل يبدو قاتمًا، أليس كذلك؟" هز رأسه بأسى. "ربما لديك شيء هناك. شيء سهل جدًا بما لا يمكن رجلاً كبيرًا من السخرية. ربما تكون على حق، يا بنى. ربما نكون قد سمحنا للأمور بالانفلات إلى حدٍ متطرف جدًا.آه."

أحنى الرجل أشيب الشعر رأسه ثانيةً عند مرور سارة هيمنجس بنا. كانت تتحرك بين المدعوين برشاقةٍ مترفعة، ونظرتها تتنقل من اليمين إلى اليسار بحثًا – هكذا بدت لى – عن شخصٍ ما. بدت جديرة بحضورها. عند إدراكها لرفيقى، ألقت إليه بالابتسامة السريعة نفسها كما فعلت من قبل، لكنها لم تتوقف عن تقدمها فى طريقها. وقعت نظرتها علىّ، لمدة دقيقة واحدة فقط، لكنها على الفور – وقبل أن ألقى إليها بابتسامة – كانت قد طردتنى من عقلها وشقت طريقها صوب شخص ما كانت قد حددت موقعه فى الجانب الآخر من الغرفة.

متأخرًا فى تلك الليلة، عندما جلست أنا وأوسبورن معًا فى سيارة أجرة أسرعت عائدةً بنا إلى كينسينجتون، حاولت أن أكتشف شيئًا أعمق فيما يتعلق بسارة هيمنجس. أوسبورن، على الرغم من كل تظاهره بأن الليلة كانت مملة وثقيلة الظل، كان مستمتعًا، ولديه شغف لسرد الحوارات العديدة التى دخل فيها مع شخصيات ذات نفوذ وسلطة؛ وبالتفصيل. وبالتالى لم يكن من السهل استقطابه لموضوع ميس هيمنجس دون أن أبدو شغوفًا جدًا.

مع هذا، استطعت أن أحمله أخيرًا على أن يقول:

"ميس هيمنحس؟ أوه نعم، هى. كانت مخطوبة لهيربوت لويس. تعرف، الأخ الكمسارى. ثم مضى وقام بقيادة كونشرتو شوبيرت فى قاعة آلبرت الخريف الماضى. هل تتذكر هذه الكارثة؟"

عندما أعلنت عن جهلى بها، واصل أوسبورن كلامه:

"لم يقذفوه فعلاً بالكراسى، لكن أستطيع أن أقول إنهم كانوا على وشك أن يفعلوا هذا لو لم تكن الكراسى مثبتة فى الأرض. صحفى *التايمز* وصف العرض بأنه "محاكاة زائفة ومضحكة تمامًا". أو هل قال بأنه، "انتهاك وتدنيس؟ على أية حال، لم يكترث كثيرًا به."

"وميس هيمنجس..."

"أسقطته مثل قطعة بطاطا ساخنة. وألقت إليه بخاتم الخطوبة، جهارًا. ومنذ ذلك الحين وهى تترك بينها وبينه مسافة شاسعة."

"كل هذا بسبب هذا الحفل الموسيقى؟"

"حسنًا، لقد أجمعت كل الآراء على أنه كان فى منتهى البشاعة. وأحدث اضطرابًا هائلا. أعنى فسخها للخطوبة. لكن كم كانا مصدرًا للإزعاج الليلة، يا بانكس. هل تعتقد لو أننا فى تلك السن، كنا سنتصرف هكذا؟"

***

أثناء تلك السنة الأولى بعد كمبريدج، ومن خلال صداقتى بأوسبورن على وجه العموم، وجدت نفسى أحضر مناسبات اجتماعية ضخمة أخرى على أساس اعتيادى بشكل ملائم. عندما أعود وأمعن التفكير فى تلك الفترة من حياتى، أشعر بالدهشة لأنها كانت فترة من الطيش والعبث الغريب والمتفرد. كان هناك حفلات عشاء، وغداء، وحفلات كوكتيل تقام عادةً فى شقق فى كل أنحاء بلومسبرى وهولبورن. كنت قد قررت أن ألقى بالإحراج الذى ظهر فى سلوكى فى ليلة كارينجورث خلفى، وأصبحت سلوكياتى فى هذه الليالى أكثر ثقة واستقرارا. حقيقةً، من المنطقى أن أقول إننى أصبحت أحتل مكانًا داخل أرقى "تجمعات" لندن لفترة.

لم تكن ميس هيمنجس جزءًا من المجموعة التى تخصنى، لكننى وجدت أننى كلما ذكرت اسمها للأصدقاء، كانوا يعرفون عنها. إضافةً إلى أننى كنت أراها فى حفلة أو أخرى، وغالبًا فى قاعات تناول الشاى فى الفنادق الكبرى. على أية حال، فبطريقةٍ ما أو بأخرى استطعت القيام بتجميع كم معقول من المعلومات المتعلقة بسيرتها الشخصية فى مجتمع لندن.

كم هو غريب أن أتذكر وقتًا كانت فيه هذه الانطباعات الثانوية المبهمة هي كل ما كنت أعرفه عنها! لم أستهلك وقتًا طويلاً لأبرهن أن هناك كثيرين لا ينظرون إليها باستحسان. حتى قبل مسألة فسخ خطبتها على آنتوني هيربوت لويس، بدا أنها كونت عداوات بسبب ما أسماه الكثيرون بـ "صراحتها". أصدقاء هيربوت لويس - بحقيقته الموضوعية التي، للإنصاف، لا يمكن أن تتساوى مع هذه النقطة - وصفوا إلى أي مدى كانت مطاردتها للمُحَصِل قاسية وعنيفة. آخرون اتهموها بالتلاعب بأصدقاء هيربوت لويس كي تتقرب منه. تخليها التالي عن المُحَصِل وقطع صلتها به، بعد كل جهودها المضنية، كان ملغزًا من وجهة نظر البعض، آخرون تعاملوا مع هذا ببساطة على أنه دليل دامغ على دوافعها الكلبية. على الجانب الآخر، صادفت عددًا كبيرًا من الناس تحدثوا بصورة لائقة إلى حدٍ ما عن ميس هيمنجس. كثيرًا ما وُصِفَت بأنها "ذكية"، و"جذابة" و"معقدة". النساء على وجه التحدي دافعن عن حقها في فسخ خطبتها، أيًا كانت أسبابها. حتى من دافعوا عنها، مع هذا، اتفقوا على أنها "نفاجة(*) أو متأبهة بشعة من نوع جديد"؛ ولا تنظر بعين الاعتبار لشخص جدير بالاحترام ما لم يكن لاسمه دوى وشهرة. ولابد أن أقول، بملاحظتي لها عن بُعد كما فعلت خلال تلك السنة، صادفت قليلين يعترضون على هذه الادعاءات، حقيقةً، أحيانًا ما يداخلني انطباع بأنها غير قادرة على تنفس أي شيء بصورة ملائمة غير محاصرة الشخصيات اللامعة اجتماعيًا. ذات مرة أصبحت على علاقة بهنري كوين، المحامي في

(*) النفاج: المقلد لمن يعتبرهم أرقى منه، أو المعجب بهم بتملق. (المترجم)

المحاكم العُليا، فقط لتبعد نفسها ثانيةً بعد فشلها فى واقعة تشارلز براوننج. ثم بعد ذلك كانت الشائعات الخاصة بعلاقة الصداقة المتامية بينها وبين جيمس بيكون، الذى كان وقتئذٍ مفوضًا حكوميًا واعدًا. على أية حال، حينئذٍ أصبح واضحًا بجلاء لى أن ما كان يقصده الرجل أشيب الشعر، عندما أعلن عن عدم وجود فائدة تعود على رجل مثلى من مطاردتها، ليس صحيحًا تمامًا. بالطبع، لم أكن فى الحقيقة أفهم كلماته وقتئذٍ. الآن، ولأننى فعلت ذلك، خلال تلك السنة وجدت نفسى أقتفى أثر ميس همينجس وأتتبع أنشطتها باهتمام بالغ. رغم هذا كله، فأنا بالفعل لم أتحدث إليها حتى حدث هذا ذات ظهيرة بعد عامين تقريبًا من أول مرة رأيتها فى نادى كارينجورث.

***

كنت أتناول الشاى فى فندق وولدروف مع أحد معارفى عندما استُدعى لأمرٍ ما بغتةً. وهناك كنت أجلس وحدى على أرضية الـ Palm Court، مستغرقًا فى الكعكات والمربى، عندما لمحت ميس هيمنجس، تجلس وحدها أيضًا، على إحدى الطاولات الموجودة فى الشرفة. كما قلت، كانت هذه هى المرة الأولى على الإطلاق التى أراها فى مثل هذه الأماكن، لكن فى تلك الظهيرة كانت الأمور مختلفة. لأن هذا كان بالكاد بعد شهر من قضية المانرينج، وكنت لم أزل على ما يشبه السحابة. بالتحديد، شهدت تلك الفترة، التى تلت أول انتصاراتى العامة، حالة من العنف والاندفاع: فجأةً انفتحت أبواب جديدة كثيرة أمامى؛ وأُمطِرتُ بالدعوات من مصادر جديدة تمامًا؛ وهؤلاء الذين كانوا لا ينظرون إلى بأكثر من مجرد الرضا

تعجبوا بحماس شديد عند دخولي أي غرفة. لا عجب أنني فقدت بعضًا من علاقاتي.

على أية حال، في تلك الظهيرة في وولدروف، وجدت نفسي أنهض وأشق طريقي صوب الشرفة. لست واثقًا فيما كنت أنتظر أو أتوقع. ثانيةً كان من صميم اعتدادي بنفسي وقتئذٍ أنني لم أتوقف عن الاعتقاد في أن ميس هيمنجس ستكون حقًا في منتهى السعادة حال تعرفها علي. ربما ومض بعقلي شكٌ وأنا أخطو مارًا بعازف البيانو لأصل إلى الطاولة التي كانت تجلس إليها مستغرقةً في قراءة كتاب. لكنني أذكر شعوري بالرضا إلى حدٍ ما بسبب الطريقة التي خرج بها صوتي، فقد كان حضريًا ومازحًا، وأنا أقول:

"معذرةً، لكنني فكرت في أنه قد حان الوقت لأقدم لك نفسي. فبيننا العديد من الأصدقاء المشتركين. أنا كريستوفر بانكس."

استطعت أن أنطق اسمي بتباهٍ، لكن بالفعل كانت ثقتي، وقتئذٍ، قد بدأت في التلاشي. لأن ميس هيمنجس كانت ترمقني من أسفل بنظرة فاترة وفاحصة. وأثناء الصمت الذي غلف اللحظة التالية، ألقت نظرة خاطفة على كتابها، وكأنه قد أطلق آهة شكوى. أخيرًا، وبصوت مشحونٍ بالارتباك، قالت:

"أوه نعم؟ كيف حالك؟"

"قضية المانرينج" قلت، بحمق. "لابد وأنك قد قرأت عنها."

"نعم. أنت حققت فيها."

تلك كانت هى الجملة التى أخرجتنى، فى واقع الأمر، عن اتزانى تمامًا. لأنها قد تكلمت دون أى إشارة من أى نوع على التحقق أو الإدراك؛ لقد كانت جملة تقريرية سطحية تعنى ببساطة أنها كانت مدركة لشخصيتى طوال الوقت، وأنها كانت لم تزل بعيدة تمامًا عن إدراك السبب الذى لأجله أقف إلى جوار طاولتها. بغتةً شعرت أن الابتهاج الطائش الذى شهدته الأسابيع الماضية يتبخر. وأعتقد أنه حينئذٍ، عندما أطلقت ضحكة متعصبة، خطر ببالى أن قضية المانرينج، رغم الألمعية البديهية لتحرياتى، ورغم مديح الأصدقاء، إلى حدٍ ما لم تحقق أهمية كبيرة في العالم الأوسع حسبما ظننت.

من الممكن جدًا أن نكون قد تبادلنا تحية لطيفة للغاية قبل أن أبدأ فى التراجع إلى طاولتى. واليوم يبدو لى أن ميس هيمنجس كانت أكثر من محقة حين أجابت بهذه الطريقة؛ كم كان سخيفًا أن أتخيل أن شيئًا ما مثل قضية المانرينج سيكون كافيًا لترك انطباعٍ قوى عليها! لكننى أذكر، لحظة عُدت للجلوس ثانيةً، انتابنى شعورٌ بالغضب والاكتئاب. والفكرة التى سيطرت على هى أننى لم أتصرف فقط بحماقة مع ميس هيمنجس، لكننى ربما قد كنت أفعل هذا باستمرار طوال الشهر السابق؛ وأن أصدقائى، على الرغم من كل تهانيهم لى، قد كانوا يسخرون منى.

مع اليوم التالى، كنت قد قبلت فكرة أننى جديرٌ تمامًا باللكمة التى تلقيتها. لكن ما حدث فى فندق وولدروف فجر داخلى مشاعر الاستياء والامتعاض تجاه ميس هيمنجس، وأبدًا لم أتخلص منها تمامًا – والتى أسهمت بلا شك فى الأحداث السيئة ليلة أمس. مع هذا فقد حاولت فى

الوقت نفسه أن أنظر للحدث ككل على أنه من قبيل العناية الإلهيــة. فهذا الحدث، على أية حال، جعلنى أدرك مدى ســهولة أن ينصــرف المرء عن أهم الغايات التى علقت فى ذهنه. فنيتى كانــت مواجهــة الشر - الشر الماكر الغادر، على وجه التحديد - ومثل هذا لا علاقة له بتودد الشهرة فى الدوائر الاجتماعية.

بعدئذٍ بدأت أقلص وجودى الاجتماعى إلى أبعد حد وصرت أكثر استغراقًا فى عملى. قمت بدراسة قضــايا شــهيرة مــن الماضـــى، والتهمت مناطق معرفية جديدة ربما تعود على بالفائدة ذات يوم. فــى هذه الفترة، أيضًا، بدأت أدقق النظر فى سير حياة العديد مــن أفــراد البوليس السرى ممن أضحت أسماؤهم كبيرة، ووجدت أنه بإمكانى أن أتبين خطًا بين أنماط الشهرة التى انبنت على إنجاز أجــوف، وتلــك التى نتجت بالأساس من مكانة داخل وضعية مــؤثرة؛ وأدركــت أن هناك طريقًا حقيقيًا وزائفًا يكتسب عبره رجل البوليس السرى شهرته. باختصار، بقدر ما قد أثارتنى عروض الصداقة التى امتدت إلى مــا بعد قضية المانرينج، فقد، بعد الصــدام غيــر المتوقــع فــى فنــدق ولدروف، تذكرت ثانيةً المثال الذى أرساه والدى، وخلصت إلى عدم السماح لنفسى بالانشغال بالأمور التافهة.

الفصل الثانى

مادمت الآن أستعيد ذكرى تلك الفترة من حياتى التى تلت قضية المانرينج، فربما يكون جديرا بالذكر هنا لم شملى غير المتوقع على الكولونيل تشامبرلين بعد كل تلك السنوات. ربما يكون من المثير للدهشة أننا لم نظل على اتصالٍ حميم ومستمر، رغم الدور الذى لعبه فى إحدى الفترات المحورية من طفولتى. لكن أيًا كان السبب، فقد فشلنا فى أن نفعل هذا، وعندما قابلته مرةً ثانية - بعد شهر أو اثنين من هذا الصدام مع ميس هيمنجس فى فندق وولدروف - كان هذا محض صدفة.

كنت أقف فى مكتبة على تقاطع طريق تشارينج ذات ظهيرة مطيرة، أتفحص طبعة مصورة من إيفانهو. لبعض الوقت كنت أشعر بشخصٍ ما يحوم بالقرب من ظهرى، وظننت أنه يريد الدخول إلى ذلك الجزء من الرف، فتحركت جانبًا. لكن حينما ظل الشخص يتلكأ حولى، استدرت أخيرًا.

تعرفت عليه فورًا، لأن ملامحه الجسمانية لم تتغير كثيرًا. لكن، ومن خلال العين البالغة، بدا لى أكثر خنوعًا ورثاثة من الهيئة التى اعتدتها فى صباى. كان يقف هناك مرتديًا معطفه الواقى من المطر، يرمقنى بخجل، وفقط عندما تعجبت قائلاً: "آه، الكولونيل!" ابتسم ورفع يديه.

"كيف حالك، يا بنى؟ كنت واثقًا أنه أنت. يا إلهى! كيف حالـــك، يا بنى؟"

على الرغم من أن الدموع لاحت فى عينيه، فإن ســـلوكه ظـــل متحرجًا، وكأنه كان يخشى أن أكون قد شعرت بالضيق إثر تـــذكرى الماضى. بذلت قصارى جهدى لأنقل سعادتى لرؤيته، وعنـــدما بـــدأ انهمار المطر بالخارج، وقفنا هناك نتجاذب أطـــراف الحـــديث فـــى المكتبة الضيقة. اكتشفت أنه لم يزل يعيش فى وورسسترشير، وأنـــه أتى إلى لندن لحضور جنازة وقرر أن "يقضى بضـــعة أيـــام فيهـــا". عندما سألته عن مكان إقامته، رد بإجابة مبهمة، مما أدى بـــى إلـــى الشك فى أنه يقيم فى مسكن معقول. قبل أن نفترق، دعوتـــه للعشـــاء معى فى الليلة التالية، الاقتراح الذى تلقاه بحماس، رغم أنه بدا وقـــد جفل عند ذكرى للدورتشيستر. لكننى واصلت إلحاحى – "هذا أقل ما يمكن أن أفعله بعد كل ما شملتنى به من عطف فى الماضى" ناشدته – حتى وافق أخيرًا.

* * *

عندما أنظر الآن إلى الوراء، أندهش لأن اختيارى للدورتشيستر يمثل ذروة الطيش. فبالفعل قد حدَست، مع ذلك، أن الكولونيل لـــيس معه ما يكفى من النقود؛ كان ينبغى أيضًا أن أدرك كم كان جارحًا له ألا أقوم بدفع نصف فاتورته على الأقل. لكن فى تلك الأيام لم تخطر هذه الأمور ببالى؛ فقد كنت منهمكًا، أشك، فى إدهاش الرجل المُسِـــن بالتحول التام الذى حدث لى منذ آخر مرة رآنى فيها.

لقد نجحت إلى حدٍ ما فى تحقيق هذا الهدف الأخير. لأنه عندما حدث هذا، كنت قد دعيت إلى الدورتشيستر فى مناسبتين، لذلك فى المساء الذى قابلت فيه الكولونيل قابلنى النادل بـ "جميل أن أراك هنا ثانيةً، يا سيدى". ثم بعد أن شاهدنى أتبادل المزاح مع النادل مع بداية تناولنا للحساء، انفجر الكولونيل فى ضحك مباغت.

"وللعلم،" قال، "هذا هو السائل الضئيل نفسه الذى كنت أتمخطه جانبى على ذلك القارب!"

أطلق بضع ضحكات أخرى، ثم توقف فجأةً، ربما مخافة أنه لم يكن ينبغى أبدًا أن يلمح إلى الموضوع. لكننى ابتسمت بهدوء وقلت:

"لابد وأننى كنت محنة لك فى تلك الرحلة، يا كولونيل."

غيم وجه الرجل العجوز للحظة. ثم قال بوقار: "بالنظر إلى الظروف، أعتقد أنك كنت فى غاية الشجاعة، يا بنى. فى منتهى الشجاعة."

عند هذه النقطة، أذكر، طغى علينا صمت متحرج كسره تعليقنا معًا على النكهة الرائعة للحساء. على الطاولة المجاورة، سيدة ضخمة كانت ترتدى الكثير من المجوهرات وتضحك بابتهاج، ورمقها الكولونيل بحمق إلى حدٍ ما. ثم بدا أنه قد اتخذ قرارًا.

"تعرف، من المضحك أننى،" قال. "كنت أفكر فيها، قبل أن أخرج الليلة. فى تلك المرة التى التقيت معك فيها لأول مرة. أتساءل إذا ما كنت تتذكر، يا بنى. لا أظن أنك تتذكرها. ومع هذا، فهناك ذكريات أخرى كثيرة لديك منذئذٍ."

"بالعكس،" قلت، "فذكرى هذه المرة حية جدًا فى ذهنى."

لم يكن هذا كذبًا. حتى الآن، لو كان لى أن أغمض عينى للحظة، لاستطعت بسهولة أن أنقل نفسى إلى الوراء إلى هذا الصباح المشرق في شنغهاى ومكتب مستر هارولد آندرسون، رئيس أبى فى شـــركة Butterfield and Swire التجارية الضخمة. كنت أجلس فـــى كرســـى ينضح برائحة الجلد المصقول والبلوط، نموذج الكرسى الذى يوجـــد عادة خلف مكتب فخم، لكنه كان، فى هذه المناسبة، قد سُحِب للخارج إلى منتصف الغرفة. كنت أشعر أنه كرســـى محجـــوز فقـــط لأهـــم الشخصيات، لكن فى هذه المناسبة، وبسبب خطورة الظروف، وربما كنوعٍ من المواساة، مُنِحْت حق الجلوس عليه. أذكـــر أننـــى، بغـــض النظر عن كيفية المحاولة، لم أجد طريقة محترمة للجلوس فـــى هـــذا الكرسى؛ تحديدًا، لم أستطع أن أكتشف طريقة جلوس تمكننى مـــن أن أضع مرفقى فى الوقت نفسه على مسنديه المنعطفين بجمال. إضـــافة إلى أننى فى ذلك الصباح كنت أرتدى سترة جديدة من ماركـــة قيمـــة مصنوعة من خامة رمادية خشنة - وكنت أعى تمامًا قبح الطريقـــة التى زررت بها الجاكت حتى ذقنى تقريبًا.

الغرفة نفسها كانت ذات سقف عالٍ فخم، بخريطة كبيـــرة علـــى أحد الحيطان، وخلف مكتب مستر آندرسون، نافـــذة كبيـــرة كانـــت الشمس تسطع حارقةً عبرها ويهب النسيم. أظن أنه كان هناك مراوح سقف تتحرك فوقى، رغم أننى لا أتذكر هذا بالفعل. ما أذكره فعلاً هو أننى كنت أجلس فى منتصف الغرفة، ومركز اهتمام ومناقشة مهيبة. حولى، رجال بالغون يتشاورون، معظمهم كانوا واقفين على أقدامهم؛ قليلون منهم كانوا يمضون أحيانًا صوب النافذة، وكانوا يخفضون من أصواتهم أثناء مناقشتهم لنقطة ما. أتذكر أيضًا اندهاشى من الطريقـــة

التى تصرف بها مستر آندرسون، الرجل الكبيـــر الأشـــيب بشـــاربه الضخم، معي وكأننا أصدقاء قدامى – بمبالغة جعلتنى أظن لفترة أننا نعرف بعضنا البعض عندما كنت أصغر سنًا وأننى قد نسـيته. فقـط فيما بعد بفترة طويلة تيقنت أننا لا يمكن أن نكون قد التقينا قبل ذلـك الصباح. على أية حال، لقد افترض لنفسه دور العم، وكان باسـتمرار يلقى إلى بابتساماته، ويربت على كتفى، يدفعنى برفق ويغمـز لـى. ذات مرة قدم لى كوبًا من الشاى، وهو يقول: "الآن، يا كريسـتوفر، هذا سوف ينعشك،" وانحنى لأسفل ليحدق فىّ عندما أخذتها. بعد ذلك سمعت غمغمات ومشاورات أكثر فى كل أنحاء الغرفـة. ثـم ظهـر مستر آندرسون أمامى ثانيةً وقال:

"إذًا، يا كريستوفر. لقد حُسِم كل شىء. هذا كولونيل تشـامبرلين. لقد وافق بعطف كبير أن يوصلك آمنًا إلى إنجلترا."

أذكر فى هذه اللحظة الصمت الذى غلف الغرفة. فـى الحقيقـة، كان انطباعى هو أن كل الكبار انكمشوا للخلف حتى أصبحوا يبطنون الحوائط مثل المشاهدين. مستر آندرسون أيضًا تراجع إلـى الـوراء وعلى وجهه ابتسامة تشجيع أخيرة. حينئذٍ وقعت عينى للمرة الأولـى على كولونيل تشامبرلين. تقدم صوبى ببطء، وانحنى لأسفل لينظر فى وجهى، ثم مد يده. انتابنى شعور بحتمية الوقوف لمصـافحته، لكنـه أبعدها بسرعة كبيرة، وأحسست بأننى ملتصق فـى ذلـك الكرسـى، لدرجة أننى تشبثت بيده وأنا لم أزل جالسًا. ثم تذكرته وهو يقول:

"يا طفلى المسكين. أبوك فى البداية. والآن أمك. لابد وأنك تشعر بأن العالم كله قد انهار حول أذنيك. لكننا سنذهب إلى إنجلترا غدًا، أنا

وأنت. خالتك فى انتظارك هناك. لذلك كن شجاعًا. ثانيةً ستستطيع أن تلملم الأشلاء توًا."

للحظة لم أكن قادرًا على إخراج صوتى. عندما استطعت هذا أخيرًا، قلت: "إنه منتهى العطف منك، يا سيدى. أنا فى غاية الامتنان لعرضك، وأتمنى ألا تظن أننى وقح جدًا. لكن إذا لم يكن لديك مانع، يا سيدى، أظن أنه لا يجب على الذهاب إلى إنجلترا الآن." ثم، عندما لم ينطق الكولونيل برد على الفور، استأنفت كلامى:

"لأنه كما تفهم، يا سيدى، أفراد البوليس السرى يعملون بجد ليجدوا أبى وأمى. وهم أفضل رجال البوليس السرى فى شنغهاى. أعتقد أنه من المحتمل أن يجدوهما فى أقرب وقت."

كان الكولونيل يومئ. "أنا واثق بأن السلطات تبذل قصارى جهدها."

"لذا فأنت ترى، يا سيدى، رغم أننى أقدر كثيرًا تعاطفك، فإننى أظن أن ذهابى إلى إنجلترا ليس ضروريًا فى مغبة هذا كله."

أتذكر همسات دارت فى كل أرجاء الغرفة فى تلك اللحظة. استمر الكولونيل فى الإيماء كأنه يزن الأمور بعناية.

"ربما تكون مُحقًا تمامًا، يا بنى،" أخيرًا قال. "وأتمنى بإخلاص أن تكون محقًا. لكن فى هذه الحالة بالفعل، لماذا لا تأتى معى على أية حال؟ ثم فى حالة إيجاد والديك، سيمكنهم أن يرسلوا لإعادتك. أو من يدرى؟ ربما يقررون المجيء إليك فى إنجلترا أيضًا. ما رأيك إذًا؟ لنذهب أنا وأنت إلى إنجلترا غدًا. ثم نستطيع أن ننتظر ونرى ما يحدث."

"لكنك تعرف، يا سيدى، معذرةً. لكنك تعرف، رجال البوليس السرى يبحثون عن والدى. إنهم من أفضل رجال البوليس السرى."

لست متأكدًا بالتحديد من رد الكولونيل على هذا. ربما يكون فقط قد استمر فى الإيماء. على أية حال، في اللحظة التالية، مال علي مقتربا أكثر ووضع يده على كتفى.

"انظر هنا. أنا أعرف بماذا تشعر. عالم بأكمله ينهار حول أذنيك. لكن ينبغي عليك أن تتحلى بالشجاعة. إضافةً إلى أن خالتك فى إنجلترا. وهى فى انتظارك، ألا تفهم؟ ليس بإمكاننا أن نخذل السيدة بهذه الصورة في هذه المرحلة، أليس كذلك؟"

عندما سردت عليه، أثناء جلوسنا لتناول العشاء فى تلك الليلة، ذكرياتى عن آخر كلماته تلك، توقعت بشكلٍ ما أن يضحك. لكنه بدلاً من ذلك قال بوقار:

"لقد شعرت بالأسى لأجلك، يا بنى. بمنتهى الأسى." ثم ربما شعر بأنه قد أساء تقدير حالتى فأطلق ضحكة قصيرة وقال بخفةٍ أكثر: "أذكر انتظارى في الميناء معك. ظللت أقول: "انظر هنا، سنستمتع كثيرًا على متن تلك السفينة، أليس كذلك؟ سنستمتع بوقتٍ غاية في الروعة." وظللت أنت تقول: "نعم، يا سيدى. نعم، يا سيدى. نعم، يا سيدى.""

تركته، خلال الدقائق العديدة التالية، يوغل فى ذكريات تتعلق بالعديد من معارفه القدامى الذين كانوا حاضرين فى مكتب مستر آندرسون فى ذلك الصباح. لم يكن لأسمائهم بلا استثناء أية دلالة عندى. توقف الكولونيل وغيمت لحظة تجهمٍ على وجهه.

"أما بخصوص آندرسون هذا نفسه،" قال أخيرًا، "دائمًا ما كان ذلك الرجل يُشعرنى بعدم الارتياح. لو سألتنى لقلت، ثمة شىء فيه كان يثير شكوكى. ثمة شىء كان مثيرًا للشك فى المسألة الملعونة هذه برمتها."

ما لبث أن قال هذا حتى نظر بإجفال لأعلى إلىّ. ثم، وقبل أن أرد، بدأ يتكلم بسرعة، منتقلاً بنا إلى ما اعتبره دون شك من المناطق الأكثر أمنًا فى حديثنا عن رحلة إنجلترا. قبل فترةٍ طويلة، كان يضحك بينه وبين نفسه وهو يحكى ذكرياته عن رفاقنا من الركاب، ضباط السفينة، حوادث صغيرة مرحة نسيتها منذ عهدٍ بعيد أو لم أتذكرها لأول وهلة. كان يستمتع وأنا شجعته على هذا، حتى إننى تظاهرت بأننى أتذكر شيئًا ما فقط لأسعده. لكن وبينما كان يتواصل مع ذكرياته، وجدت نفسى وقد تلبسنى الغضب إلى حدٍ ما. لأنه وبالتدريج، من خلف حكاياه المرحة، بدأت تظهر صورة لى فى هذه الرحلة ذات قسمات استثنائية. كرر تلميحًا مفاده أننى كنت أتجول فى السفينة مكتئبًا ومنطويًا على نفسى، وعُرضة للبكاء لأتفه الأسباب. لا شك فى أن الكولونيل كان له غرض فى إعطاء نفسه دور الحارس البطولى، وبعد كل هذا الوقت، رأيت أنه من سوء الأدب والفظاظة أن أعارضه. لكن كما أقول، بدأت أشعر بالغضب يتزايد. لأننى وفقًا لذاكرتى شديدة الصفاء قد تكيفت ببراعة مع الوقائع المتغيرة لظروفى. إننى أتذكر جيدًا، بعيدًا عن شعورى بالتعاسة خلال تلك الرحلة، أننى كنت أشعر بإثارة إيجابية تجاه الحياة على متن السفينة، وكذا تجاه نظرتى للمستقبل الذى ينتظرنى. بالطبع فقدت والدى أحيانًا، لكننى أذكر أننى كنت أقول لنفسى إنه سيكون دائمًا هناك كبار

سأحبهم وأثق فيهم. فى الحقيقة، كان هناك عددٌ من السيدات فى الرحلة سمعن بما حدث لى وجئن، ذات مرة، يغمغمن حولى بتعبيرات الشفقة، وأذكر أننى كنت فى الحالة نفسها من الغضب تجاههن تمامًا مثلما شعرت تجاه الكولونيل فى تلك الليلة فى الدورتشيستر. والحقيقة هى أننى لم أكن أشعر بالكرب بالصورة التى ظنها البالغون من حولى. بقدر ما يمكننى أن أتذكر، كانت هناك مرة وحيدة فقط أثناء تلك الرحلة الطويلة استحققت فيها هذا اللقب "النافورة الصغيرة الباكية"، وحتى ذلك قد حدث فى أول أيام الرحلة.

السماء فى ذلك الصباح كانت ملبدة بالغيوم، المياه حولنا كانت عكرة جدًا. كنت أقف على ظهر السفينة وأحدق للخلف على الميناء، باتجاه خط الشاطئ وما يكتنفه من فوضى القوارب، وألواح المعبَر إليها، وأكواخ الطين، ومصدات الماء الخشبية القائمة، وخلفها جميعًا بنايات شنغهاى الضخمة، كلها الآن كانت تتلاشى آخذةً هيئة كتلة ضبابية الملامح.

"حسنًا، يا غلام؟" قال صوت الكولونيل بالقرب منى. "أتظن أنك ستعود مرةً أخرى ذات يوم؟"

"نعم، يا سيدى. أظن أننى سأعود."

"سنرى. لحظة تستقر فى إنجلترا، بإمكانى أن أتجاسر وأقول إنك ستنسى كل هذا بأقصى سرعة. شنغهاى ليست بالمكان الردىء. لكن ثمانى سنوات تعتبر فترة كبيرة جدًا على ما يمكن أن تأخذه منها، وأظن أن لديك أكثر مما تحتاج. وأكثر من هذا سيحولك إلى أحد أبناء الصين."

"نعم، يا سيدى."

"انظر هنا، أيها الرفيق القديم. حقيقةً لابد أن تبتهج. مع كل هذا، فأنت ذاهبٌ إلى إنجلترا. أنت ذاهبٌ إلى الوطن."

هذه العبارة الأخيرة، هذه الفكرة القائلة بأننى "ذاهبٌ إلى الوطن"، جعلت مشاعرى تأتى بأفضل ما عندى - أنا واثق من هـذا - لأول وآخر مرة خلال تلك الرحلة. حتى وقتئذٍ، كانت دموعى نتاج الغضب لا الأسى. لأننى شعرت بعميق الامتعاض والاستياء من كلمات الكولونيل.كما تناولت الأمر، لقد كنت فى طريقى إلى مدينة لم أكن أعرف فيها شخصًا واحدًا بينما كانت المدينة التى تتراجع إلى الوراء متلاشيةً تنطوى على كل ما عرفت. إضافةً إلى أن والدىّ كانا ما يزالان هناك، فى مكانٍ ما خلف ذلك الميناء، فيما وراء ذلك الأفق المهيب لشنغهاى، بعد أن كفكفت دموعى، ألقيت بنظرة عميقة أخيرة صوب الشاطئ، متمنيًا حتى فى تلك اللحظة أن ألمح أمى - أو حتى أبى - تجرى على رصيف الميناء، تلوح وتصرخ لى كى أعود. لكننى كنت مدركًا حتى وقتئذ أن مثل هذه الأمنية لا تتجاوز كونها استغراقًا طفوليًا. وبينما كنت أشاهد المدينة التى كانت موطنى تتلاشى رويدًا رويدًا، أتذكر التفاتتى للكولونيل بنظرة مبتهجة وأنا أقول: "لابد أننا سنبلغ البحر على الفور تقريبًا، ألا تظن هذا، يا سيدى؟"

* * *

لكن أعتقد أننى لم أستطع أن أخفى غضبى من الكولونيل فى تلك الليلة. تحديدًا، وقتما استقل سيارة أجرة فى شارع ساوث أودلى،

وتبادلنا كلمات الوداع، كان في حالة مزاجية رائعة. فقط عندما سمعت بموته بعد ذلك بعام شعرت بالذنب لأنني لم أكن أكثر دفئًا معه في الدورتشيستر. مع هذا، فقد أسدى إليّ معروفًا ولعب لأجلي دورًا جيدًا، ومن كل ما قد لاحظت، فقد كان رجلاً طيبًا معي. لكنني أعتقد أن الدور الذي لعبه في حياتي - حقيقة كونه مرتبطًا بعمق بكل ما حدث وقتئذٍ - سيؤكد بقاءه كشخص متناقض ومتأرجح في ذاكرتي للأبد.

***

بعد ما حدث في فندق وولدروف بثلاث أو أربع سنوات على الأقل، كانت علاقتي بساره هيمنجس ضئيلة. أذكر أنني رأيتها ذات مرة خلال هذه الفترة في حفل كوكتيل في إحدى شقق مايفير. كانت هذه المناسبة شديدة الازدحام، لكنني لم أكن أعرف كثيرين من جمهور الحضور فقررت أن أغادر مبكرًا. كنت في طريقي إلى الباب، عندما لمحت ساره هيمنجس تتحدث مع شخصٍ ما، وهي تقف في طريقي مباشرةً. كان اختياري الأول هو أن أستدير وآخذ طريقًا أخرى. لكن هذا كان تقريبًا في فترة نجاحي في قضية روجر باركر، وخطر ببالي أن أختبر إذا ما كانت ميس هيمنجس ما زالت مُصِرة تمامًا على ترفُّعها كما كانت في فندق وولدروف منذ بضع سنوات مضت أم لا. لذلك واصلت طريقي بمشقة بين الضيوف وتأكدت من أنني سأمر مباشرةً أمام وجهها. عندما فعلت، رأيت أن نظرتها تتحول وتتفحص ملامحي. طغت نظرة ذهول وارتباك على وجهها وهي تناضل ذاكرتها كي تتذكرني. ثم رأيت إدراكها لي بازغًا على

وجهها، وبدون ابتسامة، ولا إيماءة، استدارت بنظرتها إلى الشخص الذى كانت تتحدث إليه.

لكننى لم أعط هذا الحدث أى اهتمام. لأنه قد حدث فى أثناء استغراقى فى كثيرٍ من القضايا الإشكالية. وعلى الرغم من أنه قبل أكثر من عام من اكتساب اسمى للشهرة التى حققها اليوم، كنت بالفعل قد بدأت أقدر للمرة الأولى مدى المسئوليات التى تقع على عاتق أى رجل بوليس سرى يتمتع بأى قدر من الشهرة. لقد كنت دائمًا أفهم، بالطبع، أن مهمة اقتلاع الشر فى أكثر صوره انحرافًا ومراوغة، غالبًا عندما يكون على وشك أن يمضى فى طريقه دون تحقيق، تعتبر مهمة قاسية وصعبة الإنجاز. لكن لم أدرك إلى أى مدى يمثل هذا قيمة فعلية عند الناس – ليس فقط من أصابهم الضرر بشكل مباشر، لكن الناس أجمعين بشكل عام – حتى كانت تجربتى فى قضايا مثل جريمة قتل روجر باركر. وبالتالى، أصبحت أكثر عزمًا، من ذى قبل، على ألا أنجرف فى الأولويات السطحية للحياة فى لندن. وربما بدأت أفهم أحد الأسباب التى مكنت والدى من اتخاذ الوضع الذى هو عليه الآن. على أية حال، لم يكن أمثال سارة هيمنجس يعلقن بقوة فى أفكارى أو يمسسننى مسًا وثيقًا خلال تلك الفترة، حتى إنه كان من الممكن أن أنسى وجودها تمامًا لو لم أذهب إلى جوزيف تيرنر فى كينسينجتون جاردينز ذلك اليوم.

خلال تلك الفترة كنت أحقق فى قضية فى نورفولك وكنت قد عُدت إلى لندن منذ بضعة أيام مشحوذًا بنية دراسة الملاحظات المُطوَلة التى جمعتها. وبينما كنت أتمشى حول كينسينجتون جاردينز

ذات صباحٍ كئيب قاتم، ممعنًا التفكير فى التفاصيل العديـدة المثيـرة للفضول والمحيطة باختفاء الضحية، نادانى من بعيد شخصٌ أدركـت سريعًا أنه تيرنر، رجل عرفته بطريقة مبهمة مـن خـلال جـولاتى الاجتماعية. أتى صوبى مسرعًا، وبعد أن سألته عن سبب "ظهـوره النادر فى المكان هذه الأيام"، دعانى لعشاء كان يقيمه هو وصديق فى أحد المطاعم تلك الليلة. عندما رفضت بأدب مـتعللاً بـأن قضـيتى الحالية تتطلب أن أكرس لها كل وقتى وانتباهى، قال:

"يا للعار. إن سارة هيمنجس مدعوة، وهى تريد أن تتحدث إليـك بإلحاح."

"ميس هيمنجس؟"

"تتذكرها، أليس كذلك؟ إنها تتذكرك بالتأكيـد. قالـت إنكمـا قـد تعارفتما بشكل سطحى منذ بضع سنوات مضت. دائمًا ما تشكو مـن أنك لم تعد تظهر."

قلت ببساطة، وأنا أقاوم الرغبة الملحة فى النطق بـأى تعليـق: "حسنًا، من فضلك أبلغها بخالص أمنياتى."

تركت تيرنر على الفور تقريبًا بعد ذلك، لكن مع عـودتى إلـى مكتبى أعترف أننى وجدت نفسى مرتبكًا إلى حدٍ ما بسبب ما أُشـيع عن رغبة ميس هيمنجس فى رؤيتى. فى النهاية، قلت لنفسى إن كـل الافتراضات تقر أن تيرنر قد ارتكب خطأً ما؛ أو على الأقـل، كـان يبالغ فيما قال محاولاً غوايتى لحضور العشاء الذى يقيمه. لكن بعـد ذلك وخلال الأشهر التالية نما إلى مسامعى إخباريات مماثلـة. لقـد

كانت سارة هيمنجس تعبر عن ضيقها لأنه قد أصبح من المستحيل، رغم أننا قد كنا أصدقاء فى وقتٍ ما، الآن عليها أن تجدنى. إضافة إلى أننى سمعت من مصادر عديدة كيف أنها تهدد بـ "إقلاقى واقتفاء أثرى". حينئذٍ، فى النهاية، عندما كنت أقيم فى قرية شاكتون بأكسفوردشاير الأسبوع الماضى، للتحقيق قضية ستاندلى جرانج، ظهرت ميس هيمنجس شخصيًا، ولديها نية، حسبما افترضت، أن تنفذ ما هددت به فعلاً.

***

لقد وجدت الحديقة المُسَوَّرة – التى تضم البركة التى وُجِدَت بها جثة تشارلز إمرى – فى المساحات الخفيضة للمنزل. ثلاث درجات حجرية قادتنى لأسفل إلى مساحة مستطيلة الشكل تأوى إليها الشمس بانحراف لدرجة أنه مع سطوع الشمس فى الصباح يكون كل شىء حولى مستغرقًا فى الظلال. الحوائط نفسها لا يمكن أن تتجنب انطباعًا بأنها قد مشت ودخلت زنزانة بلا سقف.

البركة تستعمر هذا المكان المُسَيَّج. رغم أن كثيرا من الناس أخبرونى بوجود سمك ذهبى بها، فإننى لم أر أثرًا للحياة؛ فى الواقع، كان من الصعب على أن أتخيل كيف يستطيع أى شىء أن ينمو ويزدهر فى مثل هذا الماء العطن – مكان ملائم فى الحقيقة لوجود جثة. حول البركة كان هناك دائرة من شرائح طحلبية تتطمر فى الوحل. أظن أننى قد كنت أتفحص هذه المنطقة حوالى ثلث الساعة – كنت منكفئًا على وجهى، أمعن النظر بالعدسة المكبرة فى واحدة من

الشرائح التى كانت طافية فوق الماء - عندما أدركت أن هناك شخصٌ ما يترقبنى. فى البداية ظننت أن هذا الشخص من أفراد الأسرة يريد أن يزعجنى بأسئلته. فمنذ فترة مبكرة كنت قد تمسكت بفترة من الوقت بدون إزعاج، قررت، بادعاء الوقاحة، أن أتظاهر بعدم ملاحظتى لأى شىء.

ثم أخيرًا سمعت صوت حذاء يقرقع على الحجر فى مكانٍ ما بقرب المدخل إلى الحديقة. وقتئذٍ بدأ يبدو من الشاذ أن أظل منكفئًا على بطنى طيلة كل هذا الوقت، وعلى أية حال، كنت قد استنفدت كل التحريات التى يمكن أن أنجزها بعناية فى هذا الوضع. إضافةً إلى أننى كنت قد نسيت تمامًا أننى أرقد تقريبًا فى البقعة نفسها التى ارتكبت فيها الجريمة بالضبط، وأن المجرم لم يزل مطلق السراح. سرى فى جسدى شعورٌ بالقشعريرة وأنا أنهض بمشقة على قدمى، واستدرت إلى الوجه المتطفل بعد أن نفضت التراب عن ملابسى.

بالطبع كانت رؤيتى لساره هيمنجس مثيرة للدهشة إلى حدٍ ما، لكن أنا متأكد أن وجهى لم تظهر عليه أى تعبيرات غير طبيعية. هيأت ملامحى لتنقل مشاعر الضيق، وأظن أن هذا هو ما رأته، لأن أولى كلماتها معى كانت:

"أوه! لم أقصد التجسس عليك. لكنها بدت فرصة جيدة. أعنى أن أشاهد الرجل العظيم فى عمله."

تفحصت وجهها بعناية، لكننى لم ألمح عليه ما يشى بالسخرية. مع ذلك حافظت على نبرة الفتور فى صوتى وأنا أقول: "ميس هيمنجس. هذا غير متوقع بالمرة."

"سمعت أنك هنا. أنا أقضى بضعة أيام مع صديقتى فى بيملـــى. إنها أعلى الطريق بالفعل من هنا."

توقفت عن الكلام، وبلا شك كانت تتوقع ردًا منى. عندما ظللت صامتًا، لم تظهر أى علامة على القلق أو التشوش، لكن على العكس من ذلك تقدمت نحوى.

"أنا صديقة حميمة لإمرى، هل كنت تعرف؟" وواصلت كلامهـــا. "قضية بشعة، هذه الجريمة."

"نعم، بشعة."

"آه. إذًا أنت أيضًا تعتقد أنها جريمة. حسنًا، أعتقد أن هذه الفكرة تحسم الأمر. هل لديك فكرة أو تفسير، يا مستر بانكس؟"

قمت بهز كتفى بلامبالاة. "نعم، لقد توصلت لقليلٍ من الأفكار."

"سيئ جدًا من عائلة إمرى أنهم لم يفكروا فى طلب مساعدتك مع بداية حدوث هذا فى إبريل الماضى. بعبارةٍ أخرى، استدعاء ســيلوين هيندرسون لقضية كهذه! ماذا كانوا يتوقعون؟ كان ينبغــى أن يُطــرد ذلك الرجل ليرعى مع الماشية منذ وقتٍ طويل مضى. بالفعــل هــذا يبين لك كيف يعيش الناس هنا فى حالة من الانفصال عــن العـــالم. بالطبع، لابد أن أى شخص فى لندن قد أخبـــرهم عــن كــل شـــيء بخصوصك."

هذه الملاحظة الأخيرة، ينبغى أن أعترف، أسرتنى بالفعل، لذلك بعد لحظة تردد، وجدت نفسى أسألها: "معذرةً، لكن أخبــرهم بمـــاذا، تحديدًا؟"

"لماذا، إنك أذكى عقلية تحريات فى إنجلترا، بالطبع. لابد وأننا جميعًا أخبرناهم بهذا فى الربيع الماضى، لكن عائلة إمرى - لابد وأنهم قد أخذوا وقتًا طويلاً للمصادقة على هذا. ربما يكون التأخير أفضل من لا شيء، لكننى أعتقد أن الأثر قد أصبح ضعيفًا إلى حدٍ ما بالنسبة لك الآن."

"كما ترين، هناك بعض المميزات فى المجيء إلى قضية بعد مرور بعض الوقت عليها."

"حقًا؟ مدهش. كنت دائمًا أظن أنه من الضرورى الوصول على وجه السرعة، لرفع آثار الروائح، كما تعرف."

"بالعكس، ليس الوقت متأخرًا أبدًا، كما قررت، على رفع آثار الروائح."

"لكن أليس هذا ضاغطًا، أن هذه الجريمة قد نهشت فى معنويات الناس هنا؟ ليس فقط فى أهل البيت. إن شاكتون كلها قد بدأت تتهرأ وتتفسخ. لقد كانت دائمًا بلدة تَسَوُّق سعيدة ومزدهرة. الآن انظر إليهم، نادرًا ما تلتقى عيونهم. لقد غاصت بهم هذه القضية فى مستنقعات الشك والريبة. أقول لك، لو أنك تستطيع حل هذا اللغز، سيتذكرونك للأبد."

"هل تعتقدين هذا بالفعل؟ إن ذلك مثيرٌ للفضول ومُحَفِز."

"لا شك فى هذا. سيكونون فى منتهى الامتنان والشكر لك. نعم، سيظلون يتحدثون عنك لأجيال."

أطلقت ضحكة قصيرة. "يبدو أنك تعرفين القرية جيدًا، يا ميس هيمنجس. وكنت أظن أنك أمضيت وقتك كله فى لندن."

"أوه، من الممكن أن آخذ من لندن الكثير، ثم أنجذب كثيرًا للابتعاد. تعرف، أنا لست فتاةً حضرية فى الأساس."

"لقد أدهشتنى. كنت دائمًا أظن أنك منجذبة جدًا لحياة المدينة."

"أنت محقّ تمامًا، يا مستر بانكس." شابت صوتها نبرة امتعاض، وكأننى وضعتها فى مأزق. "ثمة شىء يجذبنى إلى المدينة. إن لها... لها جاذبيتها بالنسبة لى." لأول مرة تشيح بوجهها بعيدًا ونظرت حولها على كل أنحاء الحديقة المُسَوَّرة. "التى تذكرنى،" قالت. "حسنًا، للأمانة، لا تذكرنى على الإطلاق. لماذا ينبغى على أن أتظاهر؟ لقد كنت أفكر فيها طيلة كلامنا معًا. أود أن تُسْدى إلىّ معروفًا."

"وما هو، يا ميس هيمنجس؟"

"مصادر موثوق منها أخبرتنى أنك قد دُعيت إلى العشاء الذى تقيمه مؤسسة ميريديث هذا العام. هل هذا صحيح؟"

ترددت قليلاً قبل أن أرد: "نعم. هذا صحيح."

"عظيم أن تُدعى إلى هذا الحدث فى مثل هذه السن. لقد سمعت أن هذا العام سيكون على شرف السير سيسيل ميدهورست."

"نعم، أعتقد هذا."

"لقد سمعت أيضًا أنه من المتوقع حضور تشارلز وولف."

"عازف الكمان؟"

ضحكت بإشراق. "هل يفعل شيئًا آخر؟ وتوماس بايرون أيضًا، بالتأكيد."

أصبحت مُثارة بشكل واضح، لكنها الآن قد أشاحت مرةً ثانية بوجهها بعيدًا وحدقت فى الأشياء المحيطة بنا برعدةٍ خفيفة.

"هل قلت،" في النهاية سألت، "إنك تودين منى معروفًا؟"

"أوه نعم، نعم. أريدك أن... أود أن تطلب منى اصطحابك. إلى عشاء مؤسسة ميريديث."

كانت الآن ترمقنى بنظرة متوترة. استغرقت دقيقة لأجد إجابة، لكن عندما فعلت هذا، تكلمت بمنتهى الهدوء.

"كان بودى أن ألزمك، يا ميس هيمنجس. لكن لسوء الحظ فقد أرسلت للمنظمين بردى منذ عدة أيام مضت. أخشى أن يكون الوقت قد تأخر على إخبارهم برغبتى فى اصطحاب ضيف..."

"هراء!" قاطعتنى بغضب. "اسمك على كل لسان اليوم. إذا ما أردت اصطحاب رفيق، فسوف يكونون فى غاية السرور بالفعل. مستر بانكس، أنت لست على وشك أن تخذلنى، أليس كذلك؟ هذا لا يجدر بك فعله مطلقًا. ومع هذا، فنحن قد أصبحنا صديقين حميمين منذ فترة الآن."

كانت هذه الملاحظة الأخيرة – التى ذكرتنى كما فعلت بالتاريخ الفعلى "لصداقتنا" – هى التى أعادتنى إلى نفسى.

"ميس هيمنجس،" قلت بحسم، "ليست لدى القـوة التـي تضـمن تحقيق هذا المعروف."

لكن الآن كانت هناك نظرة تصميم فى عينى ساره هيمنجس.

"أنا أعرف كل التفاصيل، يا مستر بانكس. فى فندق كلاريـدج. مساء الأربعاء القادم. سأكون هناك. سوف أتطلع لهذه الليلة، وسأكون بانتظارك فى اللوبى."

"اللوبى فى فندق كلاريدج، حسبما أعرف، مفتوح للمحترمين من العامة. لو اخترت الوقوف هناك مساء الأربعاء الماضى، فليس هناك بيدى ما يمكن أن أفعله لأمنعك، يا ميس هيمنجس."

رمقتنى بتفحص شديد، غير واثقة الآن من نواياى. أخيرًا قالت: "إذًا فبالتأكيد ستراني هناك الأربعاء القادم، يا مستر بانكس."

"كما قد قلت، هذا شأنك، يا ميس هيمنجس. الآن، معذرةً، أريـد الانصراف."

الفصل الثالث

لم يستغرق كشف غموض مقتل تشارلز إمرى منى سوى بضعة أيام. لم يحقق الأمر شعبية فى ميزان تحرياتى الأخرى، لكن عميق الامتنان من عائلة إمرى - حقيقةً، من مجتمع شاكتون كله - جعل القضية مُرْضية لى مثل أى قضية أخرى فى سيرتى المهنية. رجعت إلى لندن فى سعادة متقدة وبالتالى فشلت فى أن أمعن التفكير فى لقائى غير المتوقع بساره هيمنجس فى الحديقة المُسَوَرة فى أول أيام تحرياتى. لا أقول إننى نسيت تمامًا نواياها المُعلَنة فيما يخص عشاء مؤسسة ميريديث، لكن كما قلت، كنت فى حالة من الشعور بالنصر وأعتقد أننى اخترت ألا أمعن التفكير فى هذه الأشياء. ربما فى أعمق أعماقى كنت أعتقد أن "تهديدها" لم يتجاوز كونه حيلة أو خدعة للحظة.

على أية حال، عندما نزلت من التاكسى خارج فندق كلاريدج مساء أمس، كانت أفكارى فى مكانٍ آخر. كنت، لسبب واحد، أذكر نفسى بأن انتصاراتى الأخيرة كان لها أثر أكبر من مجرد جدارتى بما يصلنى من دعوات؛ وأنه بعيدًا عن السؤال حول حضورى لهذا التجمع، من المحتمل أن يكرهنى ضيوف آخرون على الإدلاء بمعلومات عميقة تخص قضاياى. كنت أذكر نفسى أيضًا بقرارى ألا أغادر الأحداث بطريقة مبتسرة، حتى لو كان هذا يعنى أن أتحمل فترة انعزال من الوقوف وحيدًا فى المكان. عندما دخلت هذا اللوبى الكبير، لم أكن مستعدًا لرؤية ساره هيمنجس تنتظر هناك مبتسمةً.

كانت طريقة لبسها مثيرة إلى حدٍ ما فكانت ترتدى فستانًا من الحرير الأسود ومجوهرات متحفظة لكنها أنيقة. كان سلوكها وهى تتقدم نحوى فى غاية الثقة، لدرجة أنها وجدت وقتًا لتلقى بابتسامة لاثنين كانا يمران بنا.

"آه، ميس هيمنجس،" قلت، بينما كنت أحاول بسرعة استعادة كل ما حدث بيننا فى ذلك اليوم فى ستاندلى جرانج. فى تلك اللحظة، لابد أن أعترف، بدا لى ممكنًا تمامًا أن تكون مُحِقة فى توقعها أن أعرض ذراعى لأقودها للداخل. لا شك أنها أحست بترددى وبدا أنها قد صارت أكثر ثقةً.

"عزيزى كريستوفر،" قالت، "أنت تبدو غاية فى الأناقة والحيوية. أنا أُقْهَر! أوه، ولم تواتنى الفرصة لتهنئتك. كان ذلك مروعًا، ما فعلته لأجل عائلة إمرى. منتهى الذكاء والمهارة منك كالعادة."

"شكرًا لك. لقد كانت قضية بالغة التعقيد."

والآن كانت قد أخذت ذراعى ولو أنها كانت قد تحركت صوب الخادم الذى يوجه ضيوف العشاء إلى السلم، أنا واثق أننى لم أكن لأملك القوة لفعل شىء سوى دعوتها. لكن هنا، الآن أرى، ارتكبت خطأً. ربما كانت تود أن تستمتع باللحظة؛ ربما خانتها جرأتها للحظةٍ واحدة. على أية حال، فهى لم تتقدم خطوة واحدة لصعود السلم، لكنها بدلاً من هذا كانت تحدق فى الضيوف الآخرين الذين كانوا يملأون اللوبى، وهى تقول:

"السير سيسيل لم يصل بعد. أتمنى فعــلاً أن تــواتينى فرصـــة التحدث إليه. مناسب جدًا أن يكون هو المُكرّم هذا العام، أليس كذلك؟"

"هذا صحيح."

"تعرف، يا كريستوفر، لا أظن أنه لن تمر سنوات طوال قبل أن نتجمع هنا لتكريمك."

ضحكت. "لا أظن..."

"لا، لا. أنا أشعر بالثقة فى هذا. وهو كذلك، ربما ينبغى أن نمنح هذا بضع سنوات أكثر. لكن هذا اليوم سيأتى، سترى."

"قولك هذا كرم منك، يا ميس هيمنجس."

ظلت متعلقةً بذراعى ونحن نقف هناك نتجاذب أطراف الحديث. كثيرًا ما كان يمر بنا شخص ما ويبتسم أو يلقــى بالتحيــة علــىّ أو عليها. ولابد أن أقول، وجدت أننى كنت إلى حدٍ ما أستمتع بانطبـــاع كل هؤلاء الناس – كثيرون منهم شخصيات معروفة جــدًا – وهـــم يرون ذراعى فى ذراع ساره هيمنجس. تخيلت أننى أرى فى عيونهم، حتى أثناء تحيتهم لنا، فكرة: "أوه، والآن قد أوقعته فى شَرَكِها، ألـــيس كذلك؟ حسنًا، هذا طبيعى جدًا." بعيدًا عن حملى على الشعور بالحمق أو بطريقة ما بالإذلال، بطريقةٍ ما ملأتنى هذه الفكرة بـــالخيلاء. ثـــم فجأةً – لست واثقًا من سبب هذا – وبدون أى إنذار علـــى الإطـــلاق بدأت أشعر بعميق السخط عليها. أنا واثق أنه لم يكـــن هنـــاك تغيـــرٌ ملموس فى سلوكى فى تلك اللحظة ولبضع دقـــائق أخـــرى اســـتأنفنا دردشتنا بصورةٍ ودودة، نومئ لتحية المارة بين الحين والآخر. لكـــن

عندما حررت ذراعى من ذراعها واستدرت إليها، فعلت هـذا بعـزمٍ فولاذى.

"حسنًا، يا ميس هيمنجس، كان رائعًا جدًا أن أراك ثانيـةً. لكـن الآن ينبغى أن أغادر وأصعد لحضور هذه المناسبة."

ألقيت إليها بانحناءة خفيفة وبدأت أتحرك بعيدًا. بدا أن هـذا قـد فاجأها، ولو أنها كانت قد أعدت استراتيجية ما لفشلى فـى التعـاون معها، لكانت فى تلك اللحظة غير قادرة على التعامل بها. فقط عندما ابتعدت عدة خطوات عنها، وانضممت حقيقةً بخطوتى إلى زوجـين عجوزين ألقيا على التحية، أتت مندفعةً.

"كريستوفر!" قالت بهمسٍ مسعور. "لن تجرؤ! لقد وعدتنى!"

"أتمنى لك ليلة جميلة، يا ميس هيمنجس."

استدرت بعيدًا عنها – وأيضًا عن الزوجين العجوزين اللذين كانا فى صحبتي بصورة عارضة، وكانا يبذلان قصارى جهدهما كـى لا يسمعان شيئًا – وبدأت أشق طريقى أعلى السلم الضخم.

***

عند وصولى إلى الطابق الأعلى، وُجهت إلـى غرفـة انتظـار مشرقة بأنوارها. وهناك انضممت فى حينى لصف مـن الضـيوف يقفون بمحاذاة مكتب يقف خلفه رجل فى زى رسمى بوجه متجمـد، كان يراجع أسماء الناس فى دفتر. عندما أتى دورى، سُـرِرت وأنـا أرى ومضة إثارة ترف على وجه الرجل المتجمد وهو يُعَلِّـم علـى

اسمي. وقعت فى دفتر الزائرين، ثم تحركت صوب مدخل باب يقود إلى قاعة كبيرة، داخلها، رأيت، حشدا كبيرا من الضيوف. عندما عبرت عتبة الباب واستغرقنى الصخب، حيانى رجلٌ فارع الطول له لحية قاتمة وكثيفة وصافحنى. ظننت أنه أحد المضيفين، لكننى فشلت فى استيعاب كثيرٍ مما قاله لى لأننى، بصراحة، كنت فى تلك اللحظة أجد من الصعوبة التفكير فى أى شىء سوى ما قد حدث توًا فى اللوبى. انتابنى إحساس فضولى أجوف، وكان على أن أُذَكِر نفسى أننى لم أوقع ميس هيمنجس بأى شكل فى شرك؛ وأن أى شعور بالإذلال قد ألمّ بها كان، وبصورةٍ مطلقة، من صنيع يدها.

لكن عندما غادرت الرجل المُلتَحى ودلفت أكثر إلى داخل الغرفة، ظلت ساره هيمنجس مهيمنةً على أفكارى. كنت بشكل مبهمٍ واعيًا باقتراب نادل منى يحمل صينية عليها مُشهيات؛ وبالتفات العديد من الناس لتحيتى. فى لحظةٍ ما كنت مستغرقًا فى حوار مع مجموعة من ثلاثة أو أربعة رجال – اكتشفت أنهم جميعًا من العلماء، وبدا أنهم جميعًا يعرفون من أنا. ثم عندما ظللت فى القاعة لمدة تقارب ربع الساعة، أحسست بتغيرٍ طفيف في الجو المحيط، بالنظر حولى، أدركت من النظرات والهمسات في كل مكان حالة من الهياج والفوضى تحدث بالقرب من مدخل الباب الذى دخلنا عبره.

لم ألبث أن لاحظت هذا حتى انتابنى وطغى على إحساس بهاجس خطير مُهلِك، ردة فعلى الأولى كانت الهروب إلى عُمق الغرفة. لكن كان الأمر وكأن هناك قوة غامضة كانت تجذبنى للخلف إلى مدخل الباب، وعلى الفور وجدت نفسى مرةً ثانية إلى جوار

الرجل المُلتَحى – الذى كان فى تلك اللحظة يقف وظهره للاستقبال، يشاهد بتعبيرات منزعجة الدراما التى تُعرَض فى غرفة الانتظار.

عندما أمعنت النظر عَبْرَهُ، تيقنت أن ميس هيمنجس، بالفعل، كانت فى قلب هذه الجلبة. لقد أوقفت عملية توقيع الضيوف بأسمائهم فى دفتر الاستقبال. لم تكن تصرخ تحديدًا، لكنها بدت غير آبهةٍ تمامًا بمن يهتم بالاستماع إليها. شاهدتها تهز رجلاً من موظفى الفندق كبار السن؛ ثم تميل فوق المكتب لكى تحملق بكل تركيز فى الرجل متجمد الوجه الذى كان لم يزل جالسًا هناك كما كان من قبل، قالت بصوت يوشك على النشيج:

"لكنك ببساطة لا تعرف شيئًا! ببساطة لابد أن أدخل، ألا تفهم؟ إن لدى الكثير من الأصدقاء بالداخل، إننى *أنتمى* لمن بالداخل، هذا حقيقى! أوه، كن متعقلاً!"

"أنا آسف فعلاً، يا ميس..." بدأ الرجل متجمد الوجه. لكن ساره هيمنجس، التى كان شعرها قد انهار متراكمًا على جانبٍ واحدٍ من وجهها، لم تعطه الفرصة حتى ينتهى.

"إنه أسخف مزيج على أية حال، ألا تفهم؟ كله هكذا، أسخف مزيج قديم! وكله بسبب كونك بهيمى وبغيض بإفراط، لا أستطيع أن أصدق! بالفعل لا يمكننى أن أصدق..."

جميعنا ونحن نشاهد هذا المشهد بدا أننا للحظة قد توحدنا فى حالة من الذهول البليد. ثم استعاد الرجل المُلتَحى سلامته العقلية ودخل إلى غرفة الانتظار بطريقة سلطوية.

"ماذا حدث؟" قال بهدوء لطيف. "عزيزتى السيدة الشـابة، هـل حدث أى خطأ؟ هناك، سنصلحه، أنا واثق. أنا فى خدمتك." ثم جفـل متسائلاً: "لماذا، هذه ميس هيمنجس، أليس كذلك؟"

"بالطبع هى! ألا ترى؟ هذا الرجل كـان فـى غايـة الفظاظـة معى..."

"لكن يا ميس هيمنجس، يا عزيزتى السيدة الشابة، لست بحاجـة لإزعاج نفسك بهذا الشكل. تعالى، لنذهب إلى هناك للحظة..."

"لا! لا! لن تبعدنى! لن آخذها! قلت لك لابد، لابد حتمًا أن أدخل! لقد حلمت بهذه الليلة كثيرًا..."

"بالتأكيد، بالإمكان عمل شىء للسيدة الشابة،" قال صوت رجـل من بين مشاهدى ما يحدث. "لماذا لا يتعاملون بطريقة لطيفة؟ مادامت أنها تحملت مشقة المجىء، فلماذا لا يسمحون لها بالدخول؟"

تسبب هذا فى همسات موافقة عامة، رغم أن بعض الوجوه، كما لاحظت أيضًا، ظهرت عليها علامات الاستياء. تردد الرجل المُلتحى ثم ظهر وقد قرر أن الأولوية تقتضى وضع حد لهذا المشهد.

"حسنًا ربما فى هذه الحالة تحديدًا..." ثم اسـتدار إلـى الرجـل متجمد الوجه الواقف خلف المكتب، واستأنف كلامه: "أنا واثق من أنه بالإمكان إيجاد طريقة لتسوية مشكلة ميس هيمنجس، ألا تظن هذا يـا مستر إدوارد؟"

كان يمكننى البقاء فى مكانى لفترة أطول، لكن خلال هذا النقاش سيطر على شعور بالخوف من احتمالية أن تلمحنى ميس هيمنجس فى

أى لحظة وتزج بى فى هذا المشهد غير اللائق باتهام. حقيقةً، بمجرد أن بدأت فى التراجع، حدقت مباشرةً فى اتجاهى. لكنها لم تفعل شيئًا، وفى اللحظة التالية عادت بعينيها الساخطتين إلى الرجـل المُلتَحـى. انتهزت الفرصة وأسرعت مبتعدًا.

خلال ثلث الساعة التالية أو أكثر، حَجَمْت حركتى بحيث أظل فى منطقة المرقص التى تمثل أبعد نقطة عن مدخل الباب. عـددٌ مثيـر للدهشة من الحضور كانوا يشعرون برهبةٍ غير مبررة من المناسـبة، بصورة ضخمة لدرجة أن معظم الحـوارات - التـى اسـتطعت أن أسمعها تدور حولى وأيضًا التى اشتركت فيها - انطوت فى معظـم الأحيان تقريبًا علـى مجـاملات متبادلـة. عنـدما اسـتُهلِكَت كـل المجاملات، ارتد الناس إلى مديح ضيف الشرف. فى لحظةٍ ما، بعـد أن عَدّد أحد هذه الأحاديـث بشـكل تـام منجـزات سـير سيسـيل ميدهورست، قلت للرجل كبير السن الذى فرغ لتوه من هذا الحديث:

"أود أن أستفسر إذا ما كان سير سيسيل قد وصل بعد؟"

أشار رفيقى بالكأس الذى كان فى يده، ورأيـت علـى مسـافة صغيرة بعرض القاعة كيانًا فارع الطول لرَجُل الدولة العظيم يتنازل محاورًا سيدتين فى منتصف العمر. ثم رأيت ساره هيمنجس، بينمـا كنت أنظر إليه، تظهر بين الناس، وتتجه مباشرةً صوبه.

لم يكن هناك أى أثر للمخلوق المثير للشفقة الذى كان فى غرفـة الانتظار. بدت متألقة وفى منتهى الثقة. وبينما كنت أترقب المشـهد، اتجهت مباشرةً إلى سير سيسيل دون أى ترددٍ يُذكَر ووضعت يـدها على ذراعه.

بدأ الرجل كبير السن يقدمنى إلى شخصٍ ما، ولـذا اضـطررت للالتفات. بعد ذلك عندما نظرت صوب سـير سيسـيل، رأيـت أن السيدتين الشابتين كانتا تقفان على جانب، وتنظران بتحرج، وأن ميس هيمنجس قد نجحت فى جذب انتباهه تمامًا. حتى وأنا أشـاهد، مـال سير سيسيل برأسه للخلف وهو يقهقه على شيء كانت تقوله.

فى الوقت المحدد دُعينا إلى قاعة طعام وأُجلِسْـنا حـول مائـدة شاسعة ممتدة تحت ثريات تتألق بالنور. ارتحت إذ وجدت أن مـيس هيمنجس قد أُجلِسَت فى مكانٍ ما بعيدا عنى، ولبرهة، استمتعت إلـى حدٍ ما بالمناسبة. دردشت بدورى مع السيدتين الجالستين على جـانبى – كانتا، كل واحدة بطريقتها المختلفة، فاتنتين للغاية – والطعام كـان فخمًا بطريقة رائعة. لكن أثناء تناول الطعام، وجدت نفسـى مـرارًا وتكرارًا أميل للأمام لألمح ميس هيمنجس التى كانـت علـى مبعـدة بامتداد الطاولة، وبدأت مع هذا ثانيةً أستعيد فى رأسى الأسباب التـى أهلتنى للتصرف بهذه الطريقة التى تصرفت بها.

ربما كان بسبب الاهتمامات التى لا أستطيع أن أذكر منهـا الآن أكثر مما يخص العشاء نفسه. فى لحظةٍ ما قرب النهاية كانت هنـاك خُطَب؛ شخصيات عديدة نهضت واقفة لتمطر سير سيسـيل بالمـديح لإسهاماته فى الشئون العالمية، وبالتحديد، دوره فى إنشـاء عُصـبة الأمم. ثم فى النهاية نهض سير سيسيل نفسه واقفًا.

كانت خطبته، حسبما أذكر، متفائلة وتنطوى علـى كثيـرٍ مـن نكران الذات. كان من وجهة نظره أن الآدمية قد تعلمت من أخطائها، وأن البناء قد أخذ مكانه بصرامة ليضمن فى الوقـت الحـالى عـدم

العودة مطلقًا للكارثة التى شهدتها كرتنا الأرضية من جراء الحرب العُظمى. فالحرب، ببشاعتها المعروفة، لم تقدم أكثر من "نافذة غير ملائمة في نشوء الإنسان" عندما أصبح تقدمنا التقنى متقدمًا على قدراتنا التنظيمية منذ بضع سنوات. لقد أذهلنا أنفسنا بالتطور السريع في القدرة التسليحية الحديثة، لكننا الآن قد صنعنا فجوةً جديدة. مع تذكيرنا بالمخاوف والفزع الذى تُرك في حالة من الانفلات بيننا، انتشرت قوى الحضارة والشرعية. كانت خطبته تتضمن مثل هذه السطور، وصفقنا جميعًا لها بحرارة من قلوبنا.

بعد العشاء، لم تغادرنا السيدات، لكن طُلب منا جميعًا أن ندخل إلى المرقص. وهناك وجدنا عزفًا رباعيًا وثريا، وخدمًا يتحركون فى كل مكان وهم يحملون صوانى الشراب، والسيجار والقهوة. بدأ الضيوف على الفور ينتشرون، وكان جو المكان أكثر هدوءًا منه قبل العشاء. عند نقطة ما، صادف أن جاءت عينى فى عين مسيس هيمنجس عبر الغرفة، واندهشت إذ رأيتها تبتسم لى. فكرتى الأولى فسرت هذه الابتسامة على أنها ابتسامة خصم يدبر للانتقام المروع؛ لكننى واصلت ملاحظتها خلال الأمسية، وقررت أننى كنت مخطئًا فى هذا. أدركت أن ساره هيمنجس كانت فى تمام سعادتها. بعد شهور، ربما عام من التخطيط، نجحت فى التواجد فى هذا المكان هذه المرة، وعندما حققت هدفها، سلّمت – تمامًا مثل امرأة وضعت جنينها، هكذا قالوا لنا – لنسيان كل ذكريات الألم التى تحملتها طوال الطريق. شاهدتها تتنقل من جماعة إلى أخرى، وتتجاذب أطراف الحديث بمنتهى الود. خطر ببالى أن أذهب إليها وأعقد معها حالة

سلام وهى فى تواصل مع حالتها المزاجية تلــك، لكــن إمكانيــة أن تتحول بغتةً وتخلق مشهدًا آخر جعلتنى أظل على مسافة آمنة منها.

بعد نصف ساعة من هذا الجزء من السهرة قُدِمْتُ أخيـرًا إلـى سير سيسيل ميدهورست. لم أكن قد بذلت أى جهد خـاص لمقابلتـه، لكننى أظن كنت سأشعر بقليل من خيبة الأمل لو كنت قـد غـادرت مسرح الأحداث دون أن أتبادل أى حوار مع رجل الدولة اللامع. كما حدث، فهو الذى اصطُحِب إلىّ - بواسطة ليدى آدمز، التى كنت قـد قابلتها منذ عدة أشهر أثناء إحدى التحقيقات. قبض سير سيسيل علـى يدى بحرارة، وهو يقول: "آه، صديقى الشاب! إذًا أنت هنا!"

لبضع ثوان، تُرِكنا وحدنا معًا فى منتصف القاعة. وفى كل مكانٍ حولنا، فى ذلك الوقت، حالة حية من المرح والصخب، وعندما تبادلنا المزاح المعتاد، اضطُرِرنا لأن نميل على بعضـنا الـبعض ونرفـع أصواتنا. فى لحظةٍ ما، مسنى برفق وقال:

"كل ذلك الذى قلته من قبل على العشاء. عن هذا العالم ليصـبح أكثر أمنًا، أكثر تَحَضُرًا. أنا أعتقد هذا، تعرف. على الأقـل" - هنـا أمسك يدى وألقانى بنظرة مُضحِكة - "على الأقل، أود أن أصدق هذا. أوه نعم، أحب بعمق أن أصدق هذا. لكن لا أعـرف، يـا صـديقى الشاب. لا أعرف إذا ما كان بإمكاننا فى النهاية أن نمسـك الخـيط. سنفعل كل ما فى وسعنا. ننظم، نتباحث. سنأتى بأعظم الرجـال مـن أعظم الأمم لنضع رؤوسنا معًا ونتحاور. لكن سيكون هناك شر كامنٌ فى الأركان أمامنا دائمًا. أوه نعم! إنهم منشغلون، حتـى فـى هـذه

اللحظة، حتى أثناء كلامنا، منشغلون بالتآمر لوضع الحضارة في مهب اللهب. وهم مَهَرة، أوه، مَهَرة بشكل جهنمي. الرجال الأفاضل والنساء الفضليات يستطيعون عمل ما يريدون، يكرسون حياتهم لوضعهم دائمًا في مأزق وموقف حرج، لكن أخشى ألا يكون هذا كافيًا. الأشرار أكثر مكرًا وخبثًا مقارنةً بمواطنك الطيب. سيغلقون الدوائر حوله، سيفسدونه، وسيقلبونه على رفاقه في الآدمية. أرى هذا، أرى هذا الآن طوال الوقت وسيزداد الطين بلة. ولهذا السبب سنحتاج جميعًا للاعتماد بصورة أكبر من ذي قبل على أمثالك، يا صديقي الشاب. القليلون الذين يقفون بجانبنا في كل خطوة بمهارتهم المعتادة نفسها. من سيستطيعون كشف ألاعيبهم بسرعة، ويدمرون الفطريات قبل أن تمسك بزمام الأمور وتنتشر."

ربما كان في حالة تجاوزت كونه ثملاً قليلا؛ من الممكن أن تكون المناسبة قد استغرقته وهيمنت عليه. على أية حال، فقد واصل هذه الحالة المزاجية لبعض الوقت، وهو يمسك بذراعي بحميمية وهو يتكلم. وربما كان هذا ببساطة لأن ذلك الرجل المعروف اللامع مسرف في التعبير عن عواطفه – أو ربما كان هذا لأنني كنت أتحين الفرصة طيلة المساء لأوجه له سؤالاً بعينه كان يُلِح على ذهني – وعندما توقف أخيرًا عن الكلام، قلت له:

"سير سيسيل، أظن أنك قد قضيت مؤخرًا فترة في شنغهاي."

"شنغهاي؟ بالتأكيد، يا صديقي. كنت أسافر وأعود. ما يحدث في الصين على درجة كبيرة من الأهمية. تعرف، لم يعد بإمكاننا النظر بمحدودية إلى أوروبا فقط. لو أردنا أن نحتوي الفوضى التي تعيشها

أوروبا، فينبغي الآن أن تمتد نظرتنا بصورة أعمق إلى خارج الحدود."

"أنا أسأل، يا سيدى، لأننى وُلِدتُ فى شنغهاى."

"هكذا؟ حسنًا، حسنًا."

"كنت فقط أود أن أتساءل عما إذا كنت قد صادفت واحدًا من أصدقائى القدامى أثناء وجودك هناك. بالطبع ليس هناك أى سبب منطقى لحدوث هذا. لكن اسمه ياماشيتا. آكيرا ياماشيتا."

"ياماشيتا؟ همم. يابانى. فهمت. يابانيون كثيرون يعيشون فى شنغهاى، بطبيعة الحال. إن لهم تأثيرا أكبر اليوم. قلت، ياماشيتا."

"آكيرا يامشيتا."

"لا أستطيع القول بأننى صادفته. هل هو دبلوماسى أوشىء من هذا القبيل؟"

"حقًا، يا سيدى، لا أعرف. لقد كان أحد أصدقاء طفولتى."

"أوه، فهمت. فى تلك الحالة، هل تعرف بالتأكيد إذا ما كان لم يزل فى شنغهاى؟ ربما يكون صديقك قد رحل وعاد إلى اليابان."

"أوه لا. أنا متأكد من أنه لم يزل هناك. لقد كان آكيرا مغرما جدًا بشنغهاى. إضافةً إلى أنه كان قد عقد العزم على ألا يعود لليابان أبدًا. لا، أنا متأكد من أنه لم يزل هناك وسيظل."

"حسنًا، لم يصادفنى. كثيرًا ما قابلت ذلك الرجل الذى كان يُدعى سايتو. وعددًا قليلاً من الرفاق العسكريين. لكن لم أصادف أحدًا بهـذا الاسم."

"حسنًا..." أطلقت ضحكة غطيت بها خيبة أملى. "دائمًا ما يكـون هذا بعيد الاحتمال. لكننى كنت فقط أتساءل."

فى هذه اللحظة تحديدًا، وكنذيرٍ لى بشكلٍ ما، أدركت أن سـاره هيمنجس كانت تقف بجانبى.

"إذًا أخيرًا قد وضعت رجل البوليس السرى العظيم فـى موقـف حرج، سير سيسيل،" قالت بابتهاج.

"حقيقةً، يا عزيزتى،" أجاب الجنتلمان العجـوز، وهـو يبتسـم بإشراق فى وجهها. "كنت فقط أقول له كيف أننـا سـوف نضـطر للاعتماد عليه خلال السنوات القادمة."

ابتسمت ساره هيمنجس لى. "ينبغى أن أقول، سير سيسيل، دائمًا لم أجد أن مستر بانكس يمكن الاعتماد عليه كليةً. لكن ربمـا يكـون أفضل شىء نفعله هو الاعتماد عليه."

قررت عند هذا الظرف المفصلى أنه يتحـتم علـى أن أغـادر بسرعة قدر المستطاع، قدمت تعذرى وتحركت بعيدًا، مُـدّعيًا أننـى لمحت شخصًا ما عَبْر الغرفة.

***

لم أثبّت عينى على ميس هيمنجس مرةً أخرى إلا بعد فترة. حينئذٍ، كان عدد كبير من الضيوف قد بدأ فى الانصراف وأصبح المرقص أقل ازدحامًا. إضافةً إلى أن الخدم كانوا قد فتحوا عددًا من الأبواب على البلكونات، لذلك بدأ نسيم ليلى منعش يهب فى الغرفة. على الرغم من كل هذا، ظل المساء دافئًا، ويعوزه قليل من الهواء، اتجهت إلى واحدة من البلكونات. كنت على وشك أن أدلف إليها قبل أن أدرك أن ساره هيمنجس كانت تقف هناك فعلاً، ظهرها للغرفة، فى يدها سيجارة، وتحدق للخارج على السماء الليلية. بدأت العودة للخلف، لكن حينئذٍ أخبرنى شىء ما بأنها قد أدركت حضورى رغم أنها لم تتحرك. لذلك دلفت إلى داخل البلكونة وقلت:

"هكذا، يا ميس هيمنجس. لقد حضرت السهرة رغم كل شىء."

"لقد كانت من أروع السهرات،" قالت دون أن تلتفت. أطلقت تنهيدة رضا، وسحبت نفسًا من سيجارتها، ثم ألقت إلى بابتسامة خاطفة عبر كتفها قبل أن تعود وتحدق ثانيةً فى السماء الليلية. "إنها كما تخيلت بالضبط. كل هؤلاء الناس المدهشون. تهتم بالنظر بإمعان فى كل مكان. أناس مدهشون. وسير سيسيل، يا له من رجل أثير، ألا تظن هذا؟ لقد كان حديثى مع إيرك ميتشيل عن معرضه رائعًا. سوف يدعونى إلى العرض الخاص الأسبوع القادم."

لم أرد على هذا بكلمة، ولبضع لحظات واصلنا الوقوف ببساطة هناك جنبًا إلى جنب وظهرينا إلى درابزون البلكونة. الغريب – ربما لوجود علاقة ما بالعزف الرباعى الوترى، الذى كانت موسيقاه تنسل

للخارج إلينا – أن الصمت لم يكن مُقلِقًا كما يمكن أن يتوقع أى شخص. أخيرًا قالت:

"أظن أنك مندهشٌ منى."

"مندهش؟"

"من قوة إرادتى. وتصميمى على الدخول الليلة."

"نعم، اندهشت." ثم قلت: "لماذا تفكرين بهذا الشكل، يا ميس هيمنجس؟ أن ينبغى أن تجدى من الإلزام الذهاب إلى رِفقَةٍ كهذه، الليلة."

"إلزام؟ تعتقد أننى أنظر إلى هذا بعين الإلزام؟"

"أريد أن أقول هذا. وما شاهدته على الباب فى أول السهرة يميل إلى تدعيم وجهة النظر هذه."

ومن المثير للذهول إلى حدٍ ما أنها ردت بضحكة خفيفة، ثم ألقت إلى بابتسامة. "لكن لماذا لا ينبغى على أن أتعامل بهذا الشكل، يا كريستوفر؟ لماذا لا ينبغى على أن أرغب فى الانضمام لرفقةٍ كهذه. أليس هذا ببساطة... سعادة قصوى؟"

عندما ظللت صامتًا، تلاشت ابتسامتها.

"أعتقد أنك تستهجننى إلى حدٍ ما،" قالت، بنبرة صوتٍ مختلفة.

"أنا فقط لاحظت..."

"وهو كذلك. أنت محقٌ جدًا. وجدت كل هذا، فى بداية السهرة، وجدته مُحَيِرًا، ولم تستحسنه. لكن هل على فعل أى شىء آخر؟ لا

اود أن أنظر إلى الوراء على حياتى عندما أصبح طاعنة فى الكبر وأرى أن هناك شيئًا فارغًا. أريد أن أرى شيئًا أستطيع أن أفخر به. فهمت، يا كريستوفر، أنا *طموحة*."

"أنا غير متأكد إذا ما كنت أفهمك. أنت واقعة تحت تأثير أنك ستعيشين حياة ذات قيمة لو أنك اندمجت بالمشاهير؟"

"أهكذا فعلاً ترانى؟"

أشاحت بوجهها بعيدًا، ربما أكون قد جرحتها فى الصميم، وسحبت ثانيةً نفسًا من سيجارتها. رأيتها تنظر تحتها إلى الشارع الخالى أسفلها، وعلى البنايات ذات الواجهات المزخرفة بالجِصّ الأبيض. ثم قالت فى هدوء:

"أفهم أن الأمور ربما تبدو هكذا. على الأقل بالنسبة لشخصٍ يرمقنى بعينٍ ساخرة مستهزئة."

"أتمنى ألا أنظر إليك بهذه الطريقة. سيزعجنى أن أحسبنى قد فعلت ذلك."

"إذًا لابد أن تحاول أن تكون أكثر تفهمًا." استدارت لى بتعبير ذى معنى، قبل أن تشيح بوجهها بعيدًا مرةً ثانية. "لو أن والدىّ على قيد الحياة اليوم" قالت، "لأخبرانى أنه قد حان وقت زواجي. وربما يكون الأمر هكذا. لكننى لن أفعل ما رأيت بنات كثيرات يفعلنه. لن أضيع كل حبى، كل طاقتى، كل أفكارى – هكذا بتواضع – على رجلٍ عديم الفائدة يكرس نفسه وحياته للعبة الجولف أو بيع الأربطة فى المدينة. عندما أتزوج، سيكون هذا من شخص قادر فعلاً على *العطاء*. أعنى

للإنسانية، لأجل عالمٍ أفضل. هل هذا طموح ردىء؟ أنا لا آتى إلى مثل هذه الأماكن بحثًا عن مشاهير الرجال، يا كريستوفر. أنا آتى بحثًا عن المتميزين. ماذا يعنينى فى انبهار ضئيل هنا أو هناك؟" – لوحت باتجاه القاعة – "لكننى لن أقبل أن يكون مصيرى هو ضياع حياتى على رجلٍ ما لطيف ودمث ولا قيمة أخلاقية له."

"عندما وضعت هذا التفسير،" قلت، "يمكننى أن أرى إلى أى مدى ترين نفسك، حسنًا، تقريبًا متعصبة."

"بطريقةٍ ما، يا كريستوفر، أنا أفعل ذلك. أوه، ما هذه المقطوعة التى يعزفونها الآن؟ إنها مقطوعة أعرفها. هل هذه لموتسارت؟"

"أعتقد أنها لهايدن."

"أوه نعم، أنت مُحِق. نعم، هايدن." لعدة ثوان، ظلت تنظر للسماء وبدا أنها منصتة.

"ميس هيمنجس،" قلت، أخيرًا، "أنا لست فخورًا بالطريقة التى تصرفت بها معك فى أول السهرة. في الواقع، أنا الآن في غاية الندم والأسف على هذا. أتمنى أن تغفرى لي."

استأنفت النظر للخارج إلى الليل، وهى تُمَسِّد خدها بيدها التى تحمل السيجارة. "هذا منتهى اللطف منك، يا كريستوفر،" قالت بهدوء. "لكن يتحتم على أن أبادر بالاعتذار. لقد كنت فقط أحاول استغلالك. بالطبع حاولت. أنا متأكدة أنى أظهرت نفسى بمظهرٍ كريه فى بداية السهرة، لكن لا يهمنى ذلك. ما يهمنى، رغم ذلك، أننى عاملتك بطريقة رديئة. ربما لا تصدقنى، لكن هذه هى الحقيقة."

ضحكت. "حسنًا، إذًا، فليحاول كلٌ منا أن يغفر للآخر."

"نعم، لنفعل هذا." استدارت إلى وأشرق وجهها بغتةً بابتسامة كانت طفولية فى مرحها تقريبًا. ثم خيم الإرهاق والسأم عليها مرةً ثانية واستدارت ثانيةً نحو الليل. "غالبًا ما أعامل الناس برداءة" قالت. "أعتقد أن هذا يتوافق مع كونى طموحة. وليس لدى كثير من وقت الفراغ."

"هل فقدت والديك منذ وقتٍ طويل مضى؟" سألت.

"يبدو الأمر هكذا أبدا. لكن بطريقةٍ أخرى، فهما معى دائمًا."

"حسنًا، مع ذلك فأنا سعيد لأنك استمتعت بالسهرة. فقط لا أستطيع سوى أن أقول ثانيةً أنا آسف على ما فعلته أنا الليلة."

"أوه انظر، الجميع يغادرون المكان. ياللخسارة! وأنا كنت أريد أن أتحدث معك فى كل شىء. عن صديقك، مثلاً."

"صديقى؟"

"الذى كنت تسأل عنه سير سيسيل. صديقك الذى يعيش فى شنغهاى."

"آكيرا؟ لقد كان فقط أحد أصدقاء طفولتى."

"لكن بإمكانى أن أقول إنه كان من الأهمية بمكان بالنسبة لك."

اعتدلت ونظرت خلفنا. "أنت على حق. الجميع يغادرون المكان."

"إذًا أظن أنه ينبغى على أن أغادر أيضًا" قالت. "وإلا فسيكون لانصرافى الوقع نفسه الذى سببه حضورى."

لكنها لم تبادر بحركة للانصراف وفى النهاية كان أنا من بادر بالاستئذان والعودة إلى داخل القاعة. فى لحظةٍ ما، عندما نظرت إلى الوراء ظننتها وقفت امرأة وحيدة هناك فى البلكونة، تنفث دخان سيجارتها فى هواء الليل، والغرفة خلفها كانت تخلو سريعًا من الضيوف. حتى إننى فكرت فى العودة كى أعرض عليها أن أرافقها للخارج. لكن ذِكرِها لآكيرا قد أنذرنى بخفةٍ، وقررت أننى قد فعلت ما يفيض عما تحتمله ليلة واحدة لأجل تحسين العلاقات مع ساره هيمنجس.

الكتاب الثانى

لندن، ١٥ مايو ١٩٣١

في مؤخرة حديقتنا في شنغهاي، كانت هناك رابية عشبية على قمتها شجرة قَيقَب وحيدة باسقة. منذ كنت أنا وآكيرا في حوالي السادسة من العمر، كنا نستمتع باللعب على تلك الرابية وحولها، وكلما صرت الآن أفكر في رفيق صباي، أميل لِتَذَكُرِنا ونحن نجري أعلى منحدراتها وأسفلها، أحيانًا كنا نتقافز تمامًا عند أشد جوانبها انحدارًا.

من وقتٍ لآخر، عندما يكون التعب قد استنفذنا تمامًا، كنا نجلس في حالة من اللهاث أعلى الرابية وظهورنا تستند إلى جذع شجرة القَيقَب. من هذه الزاوية صافية الرؤية كنا نطل على حديقتنا والبيت الكبير الذي يبزغ سامقًا في نهايتها. لو أغلقت عيني للحظة، أستطيع استعادة المشهد بمنتهى القوة والحيوية: المَرْجة "الإنجليزية" التي تحظى بعناية فائقة، الظلال التي تسقط في الظهيرة بسبب صف من شجر الدَردار كان يفصل بين حديقتنا وحديقة آكيرا؛ والبيت نفسه، صرح ضخم بأجنحة عديدة وشُرفات مُعَرّشة. أشك أن تكون ذكرى البيت هذه إلى حدٍ كبير رؤية طفل، وأنه في الحقيقة لم يكن شيئًا ضخمًا بهذه الدرجة. بالتأكيد، فحتى في ذلك الوقت، كنت في تمام وعيي أنه قلما يضاهي فخامة البيوت القائمة في ناحية بلبلينج ويل رود. لكن ذلك البيت بالتأكيد كان كافيًا جدًا لأسرة تتكون ببساطة من والدي، وأنا وماي لي وخدمنا.

لقد كان من ممتلكات شركة Butterfield and Swire، بما يعنى أنه كان محرمًا علىّ المساس بكثير من التحف واللوحات المحيطة بالمكان. ويعنى أيضًا أننا كنا بين الحين والآخر نستضيف "ضيفًا" – أحد الموظفين الوافدين حديثًا فى شنغهاى لم يكن بعد قد ألِف المكان. لا أعرف إذا ما كان والدىّ قد اعترضا على مثل هذا الترتيب. لم أكن أمانع على الإطلاق، مادام أن الضيف عادةً كان شابًا يحمل معه جو الأزقة والمروج الإنجليزية التى كنت أعرف بها من الرياح فى الصفصاف The Wind in the Willows، أو الشوارع المضببة فى روايات كانون دويل البوليسية. هؤلاء الشباب الإنجليز، بما كان لديهم من رغبة فى ترك انطباع جيد بلا شك، كانوا يستغرقون فى الإجابة عن استفساراتى المطولة وأحيانًا طلباتى غير المنطقية. معظمهم، كما خطر ببالى، كانوا أصغر منى سنًا الآن، ومحتمل أنهم قد كانوا فى البحر بعيدًا جدًا عن أوطانهم. لكنهم كانوا بالنسبة لى وقتئذٍ نماذج أفحصها عن قرب وأحاكيها.

لكن لأرجع إلى آكيرا: هناك لحظة بعينها من تلك الظهيرة قد استعادها عقلى، بعد أن كنا نجرى بهياج أعلى الرابية الصغيرة وأسفلها لتمثيل أحد أعمالنا الدرامية المُطوّلة. كنا نجلس للحظةٍ إلى جوار شجرة القَيقَب لنستعيد أنفاسنا اللاهثة، وكنت أحدق عبر المرجة باتجاه المنزل، فى انتظار توقف صدرى عن اللهاث، عندما قال آكيرا من خلفى:

"احترس، أيها الفتى العجوز old chip. أم أربعة وأربعين. إلى جوار قدمك."

لقد سمعت بوضوح يقول "الفتى العجوز old chip"، لكننى وقتئذ لم أفكر فى أى شىء بخصوصها. لكن عندما استخدمت هذه العبارة ذات مرة، بدا أن آكيرا كان فى غاية السعادة بها، وخلال الدقائق الكثيرة التالية، عندما عُدنا لاستئناف لَعِبنا، بدأ يناديني كثيرًا: "هذا الطريق، أيها الفتى العجوز old chip!" "أسرع، أيها الفتى العجوز old chip!"

"على أية حال، لا تنطق هكذا old chip" قلت له أخيرًا، أثناء واحدة من مشاجراتنا على كيفية مواصلة اللعب. "لابد أن تُنطَق old chap."

وآكيرا، كما كنت أعرف، اعترض بحماس وقوة. "مُطلَقًا. مُطلَقًا. ميسز براون. جعلتنى أقولها مرارًا وتكرارًا. Old chip. Old chip. النطق الصحيح، وكل شىء. إنها تقول old chip. إنها معلمة!"

كانت محاولة إقناعه عديمة الجدوى؛ فمنذ بداية تعلمه للإنجليزية، وهو فى غاية الفخر بموقعه بين أفراد أسرته كمتحدث خبير للإنجليزية. ومع ذلك لم أسلم بهذا الأمر، وفى النهاية بلغ الشجار هذه الدرجة، ابتعد آكيرا متشامخًا فى غضب، وتركنا لعبتنا، عبر "بابنا السرى" – فجوة فى الوشيع(*) الذى يفصل الحديقتين.

فى المناسبات القليلات التاليات التى لعبنا فيها معًا، لم ينادنى بـ "الفتى العجوز Old chip"، ولم يلمح بأى شكل إلى الشجار الذى حدث على الرابية. كنت قد نسيت الأمر تمامًا عندما فجأةً تفجر الأمر ثانيةً

(*) الوشيع: سياج من شجيرات يفصل بين بنايتين أو حديقتين. (المترجم)

ذات صباح بعد بضعة أسابيع بينما كنا نمشى عائدين إلى بابلينج ويل روود مرورًا بالبيوت الفخمة والمروج الجميلة. لا أذكر بالضبط ما الذى قد قلته له. على أية حال، فقد رد على قائلاً:

"هذا منتهى العطف منك أيها الفتى العجوز Old chap."

أذكر أننى قاومت غواية داخلتنى فلم أوضح له أنه قد أذعن لوجهة نظرى. لأننى وقتئذٍ كنت أدرك مليًا وعيه التام بأنه لم يكن يقول "Old chap" بطريقة تنطوى على اعتراف مهذب بأنه كان مخطئًا فيما سبق؛ لكن بطريقة ما غريبة كان يفهمها كلانا، كان يلمح إلى أنه هو الذى كان دائمًا يدعى أن نطقها الصحيح "Old chap"؛ وأنه الآن كان يعلن عن مجرد تأكيد لوجهة نظره، وأن افتقارى للاعتراض تؤكد ببساطة على انتصاره النهائى. فى الحقيقة، طيلة ما تبقى من فترة الظهيرة، ظل ينادينى بـ "Old chap" بنبرة تنم عن اعتداد بالنفس، وكأنه يقول: "لذلك أنت لم تعد مضطرًا للسخرية. أنا سعيد لأنك تُظهر درجة أكبر من الحساسية."

لم يكن هذا النوع من السلوك غريبًا على آكيرا، ورغم أننى دائمًا كنت أراه مثيرًا للغيظ، لسبب ما نادرًا ما كنت أجهد نفسى بالاعتراض. فى الواقع – واليوم أجد من الصعب تفسير هذا – شعرت بأننى فى حاجة مؤكدة لأن يكون لآكيرا وحده الحق فى مثل هذه النزوات، ولو كنت، مثلاً، بالغًا وحاولت الفصل فى الخلاف حول "Old chap"، كنت فعليًا سأنحاز لآكيرا.

لا أريد أن أقصد بهذا سطوة آكيرا على، أو أن صداقتنا لم تكن علاقة متوازنة بشتى الصور. ففى ألعابنا معًا كان لى القدر نفسه من

المبادرة، ورغم كل شيء، كان لى السبق فى اتخاذ أكثــر القــرارات الحيوية والحرجة. والحقيقة هى أننى حسبتنى الأكثر تفوقًا عليه مــن الناحية العقلية، وبدرجة ما، من المحتمل أن يكون آكيرا قد سلم بهذا. على الجانب الآخر، كانت هناك أشياء عديدة منحت صديقى اليابــانى بعض السلطة فى عينى. على سبيل المثال، طريقته فى تشبيك ذراعيه غالبًا حال قيامى بممارسات مزعجة له، أو – أثنـــاء تمثيــل إحــدى مسرحياتنا – إذا ما تبنيت موقفًا مقاومًا لانعطافة فى حبكــة دراميــة تحمس هو لها. بعمومية أكثر، على الرغم من أنه كان يكبرنى فعليًــا بشهر واحد فقط، فإننى كنت أحمل شعورًا يقينيًا بأنه أكثر منى خبــرة على المستوى الحياتى. كان يبدو فعليًا أنه يعرف الكثير عن أشياء لم أعرفها أنا. فوق هذا كله، ادّعاءاته بأنه قام بمغامرات عديــدة فيمــا وراء حدود المستعمرة.

واليوم إذ أعود بذاكرتى للوراء، يدهشنى قليلاً أن أفكــر كيــف تمكن طفلان صغيران فى مثل عمرينا أن يروحا ويجيئا هكذا دونمــا قيود؛ وإلى هذه الدرجة. لكن بالطبع، كان هذا كله يحدث فى إطــار الأمن النسبى للمستعمرة الدولية. ذات مرة مُنِعْت من دخول المنــاطق الصينية للمدينة، قدر ما أتذكر، والدى آكيرا لم يكونا أقل صرامة فى التعامل مع الأمر. فقد أخبرونا، أن كافة أنــواع الأمــراض البشــعة تستوطن هذه الأماكن، وكذا الرجال القذرون المقززون. حدث أننــى كنت على مقربة من الخروج من المستعمرة عندما حملتنى أنا وأمــى عربة وأخذت طريقًا غير متوقعة تمر بذلك الجزء من نهر سونشــو المتاخم لضاحية تشابى؛ رأيت القمم الخفيضة للأسطح المُهْمَلة عبــر

القناة، وحبست أنفاسي أطول فترة ممكنة خشية أن يـــأتي الطـــاعون محمولاً على أجنحة الهواء عبر شريط الماء الضيق. لا عجــب إذن أن ادعاء صديقي بأنه قد قام ببعض الغزوات السرية في هذه المناطق قد ترك أثرًا ما عليّ.

أذكر استفساراتي المستمرة لآكيرا عن هذه المغامرات. أخبرنـــي أن حقيقة ما يخص الضواحي الصينية أسوأ بكثير حتى من الشائعات. ليس هناك بنايات حقيقية، فقط أكواخ فوق أخرى يتم تشييدها بالقرب من بعضها البعض. رغم أن جميعها يشبه، إلى حدٍ كبير، السوق فـــي طريق بون، باستثناء تلك العائلات الكاملة التي تعيش في كل "كشك". بالإضافة إلى أن هناك، جثث منكومة في كل مكان، والـــذباب يطـــن فوقها، وليس هناك من يفكر فيها. في إحدى المناسبات، كـــان آكيـــرا يتجول في إحدى الحارات المزدحمة ورأى رجلاً – أحد سادة الحرب الأقوياء، كما أعتقد – يُنقَل على مقعد متحرك، يصحبه عملاق يحمل سيفًا. كان أحد سادة الحرب هذا يشير إلى أي شخصٍ يريد، فيتحـــرك هذا العملاق ويقطع رأسه أو رأسها. بطبيعـــة الحـــال كـــان النـــاس يحاولون الاختباء منه قدر ما يستطيعون. رغم ذلك، كان آكيرا يقـــف هناك لا مبالٍ، وهو يرمق سيد الحرب هذا بتحد. ظل الأخيـــر يفكـــر للحظة إذا ما كان سيأمر بقطع رأس آكيرا أم لا، لكنه، وقد بانت عليه علامات الدهشة بوضوح من شجاعة صديقي، ضـــحك فـــي النهايـــة وانحنى ليربت على رأسه. ثم استمر موكب سيد الحرب في طريقـــه، مُخلّفًا الكثير من الرؤوس المقطوعة في طريقه.

لا أذكر أننى حاولت أبدًا أن أجادل آكيرا فى هذه المـزاعم. ذات مرة أخبرت أمى عَرَضًا بشىء من مغـامرات صـديقى فيمـا وراء المستعمرة، وأذكر أنها ابتسمت وأعربت عن شىء يشى بشكوكها فى هذا الأمر. انتابتنى نوبة غضب منها، منذئذٍ أعتقد أننى تحاشيت تمامًا مصارحتها بأى شىء حميم له علاقة بآكيرا.

كانت أمى، بالمصادفة، شخصٌ ينظر إليه آكيرا برهبة خاصـة. فمثلاً، لو كنتُ لم أزل مترددًا فى الاعتراف له بشىء ما، كنت دائمًـا ألجأ إلى إعلان أنه سيضطر للاستعانة بأمى للإجابـة عليـه؛ رغـم هزيمته لى فى مباراة لمصارعة الساعدين. بالطبع، لـم يكـن هـذا بالشىء الذى أحب أن أفعله عن طيب خاطر؛ فبدرجةٍ ما كان يجـرح كبريائى أن أضطر إلى مناشدة سلطة أمى فى مثل هذه السن. لكن فى هذه المناسبات كنت أضطر لهذا، كنت دائمًا أشعر بالـذهول حيـال التحول الذى يطرأ عليه ١- كيف يتحول شريرٌ قاس له قبضة مهيمنة فى لحظة إلى طفل مصاب بالهلع. لم أتأكد أبدًا كيف كان لأمى مثـل هذا التأثير على آكيرا؛ فعلى الرغم من أنه كـان دائمًـا فـى غايـة التهذب، فإنه كان بشكل عام لا يكترث بتهديدات الكبار. إضافةً إلـى أننى لا أذكر أن أمى تحدثت ذات مرة معه بطريقة ما غير ودودة أو لطيفة. أذكر أننى فى تلك الفترة تأملت هذا السؤال كثيرًا، وخرجـت بالعديد من الاحتمالات.

لبرهة، تصورت أن آكيرا كان يحترم أمى بهذا الشـكل لأنهـا "جميلة". لقد قبلت مسألة جمال أمى بشىء من الحيـاد، كواقـع فـى مراحل نضجى. دائمًا ما كان يُقال عنها، وأظن أننى اعتبـرت هـذا

النعت "جميلة" على أنه سمة ألصقت نفسها بأمى ببساطة، ولـم تكـن ذات دلالة تتجاوز كونها "طويلة" أو "صغيرة" أو "شابة". فى الوقـت نفسه، لم أكن مدركًا لتأثير "جمالها" على الآخرين. بالطبع، فى مثـل تلك السن، لم يكن لدى أى إحساس بالأثر العميق للفتنة الأنثوية. لكن مع مرافقتى لها من مكانٍ لآخر كما كنت أفعل، تعاملت مـع الأمـر على أنه مسلم به، على سبيل المثال، نظرات الإعجاب من الغربـاء أثناء نزهاتنا فى الحدائق العامة، أو المعاملة المتميزة من كل نادل فى المقهى الإيطالى على طريق نانكينج حيث كنا نذهب لتناول الكيك فى صباحات السبت. الآن كلما أمعنت النظر فى صورها التى أحتفظ بها – كنت فى السابعة تقريبًا، فى الألبوم الذى رافقنى إلـى هنـا مـن شنغهاى – تذهلنى بجمالها وهيئتها القديمـة التـى تنتمـى للتقاليـد الفيكتورية. اليوم ربما يُنظر إليها على أنها سيدة "أنيقة"؛ يقينًا، ليسـت "جميلة". لا أستطيع أن أتخيل، مثلاً، أنها كانت تمتلك كل ذخيرة الغنج والدلال المتضمنة لفتاة اللامبالاة وإيماءات الرأس التى نتوقعها مـن شاباتنا هذه الأيام. فى الصور – جميعها كانت قد التُقِطت قبل مولدى، أربعة فى شنغهاى، اثنتان فى هونج كونج، وواحدة فـى سويسـرا – كانت بالفعل رائعة ورشيقة، مستقيمة الظهر، لدرجة أنها ربما تبـدو متغطرسة، لكنها كانت عارية من الرقة التى أذكر أنها كانت تحـيط بعينيها. على أية حال، الأمر الذى أريد توضيحه هو أنه كان طبيعيًـا بالنسبة لى أن ينتابنى الشك، بدايةً على الأقل، فى أن اتجـاه آكيـرا الغريب تجاه أمى كان نتيجة لجمالها، مثل كل الأشياء الأخرى. لكـن عندما كنت أمعن النظر فى الأمر بدقة أكثر، أذكر أننى استقريت على تفسير أكثر مواءمة: وهو بالتحديد أن آكيرا كان مندهشًا بشكل غيـر

طبيعى بسبب ما شاهده صباح زيارة مفتش الصحة التابع للشركة لبيتنا.

كان من المقبول أن يزورنا بين الحين والآخر موظفٌ من شركة Butterfield and Swire، رجل كان يقضى ساعة أو أكثر متجولاً فى المنزل، ويدون أشياء فى دفتره، بينما يغمغم بأسئلة عرضية. أذكر أمى وهى تخبرنى ذات مرة أنه عندما كنت صغيرًا جدًا، كنت أحب أن ألعب وأمثل دور "مفتش الصحة التابع للشركة"، وأنها غالبًا ما أثنتنى عن إنفاق أوقات طويلة فى تفحص تجهيزات حمام منزلنا وأنا أمسك بقلم رصاص فى يدى. ربما كان الأمر هكذا بشكل عام، لكن بقدر ما أتذكر، لم تكن لهذه الزيارات أية تبعات على الإطلاق، ولسنوات لم أتوقع منها أى شىء. الآن أدرك، أن نوبات التفتيش هذه، رغم أنها لم تركز فى التفتيش على أمور النظافة فقط بل والعلامات الدالة على الأمراض أو الطفيليات بين أفراد المنزل، كانت بالفعل مثيرة لكثير من الإرباك والحرج، ومما لا شك فيه أن الأفراد الذين كان يقع عليهم الاختيار من قبل الشركة للقيام بها كانوا يتسمون بالكياسة والرقة. بالفعل، أتذكر سلسلة من الرجال الوديعين الفطنين - إنجليز فى المعتاد، على الرغم من أن بعضهم كانوا فرنسيين أحيانًا - ممن كانوا يتعاملون بدرجة كبيرة من التبجيل ليس فقط مع أمى، بل ومع مى لى - الأمر الذى كان يلقى استحسانًا منى. غير أن المفتش الذى أتى إلينا ذلك الصباح - لابد وأننى كنت فى الثامنة وقتئذ - لم يكن من هذا النوع مطلقًا.

اليوم، بإمكانى أن أتذكر شيئين محددين بخصوصه: كان له شارب متدلٍ، وكانت هناك علامة بنية اللون - ربما بقعة شاى -

على مؤخرة قبعته تختفي تحت رباطها. كنت ألعب وحدى أمام المنزل، على الجزيرة المعشوشبة التى يحيطها مسار عربتنا. أذكر أن الجو فى ذلك اليوم كان غائمًا. كنت مستغرقًا فى لعبتى عندما ظهر الرجل على البوابة وتقدمت خطواته صوب المنزل. عندما مر بى، تمتم قائلاً: "مرحبًا، أيها الصغير. هل أمك بالداخل؟" ثم واصل تقدمه دون انتظار إجابتى عليه. عندما استدرت لأنظر إليه من الخلف لمحت البقعة استقرت على قبعته.

ما أذكره فيما بعد لابد وأنه قد حدث بعد ساعة تقريبًا. وقتئذ كان آكيرا قد وصل وكنا منهمكين فى غرفة اللعب الخاصة بى. كانت جلية صوتهما - التى لم تكن مرتفعة لكنها كانت مشحونة بتوتر متزايد - قد جعلتنا ننصرف عن اللعب، ثم فى النهاية، تحركنا خلسة للخارج إلى المهبط وجثمنا بجانب الغرفة المصنوعة من خشب السنديان خارج باب غرفة اللعب.

كان لبيتنا سلم كبير، ومن زاوية الرؤية بجوار الغرفة المصنوعة من خشب السنديان، رأينا العمود اللامع الذى يلى انعطافة درج السلم الهابط صوب صالة الاستقبال الفسيحة. هناك، كانت أمى والمفتش يقفان وجهًا لوجه، كانا فى منتهى التصلب والاستقامة، بالقرب من منتصف الأرضية، لدرجة أنهما ظهرا وكأنهما قطعتا شطرنج متقابلتين تركتا على الرقعة. لاحظت أن المفتش كان يقبض على القبعة ذات البقعة بالقرب من صدره. أما أمى، فقد كانت تشبك يديها تحت صدرها تمامًا، بطريقتها نفسها قبل أن تندفع فى الغناء فى تلك

الليالى التى كانت مسز لويس، زوجة الخورى(*) الأمريكـــى، تـــأتى للعزف على البيانو.

المشاجرة التى وقعت بعد ذلك، رغم أنها لا تحمل فى ذاتها أيـــة أهمية، أعتقد أنها أتت لتدلل على شىء خاص للغاية بالنسبة لأمـــى، ربما تقدم لحظة رئيسة من الانتصار الأخلاقى. أذكر أنها كانت تشير إليها بانتظام كلما كبرت، وكأنها شىء أرادتنى أن أحفظه عن ظهـــر قلب؛ وأتذكر أننى استمعت إليها كثيرًا وهى تعيد سرد الحكاية مرات إلى زوارها، وعادةً تنتهى من السرد بضـــحكة قصـــيرة وملاحظـــة مفادها أن المفتش قد خلع من وظيفته بعد فترة قصـــيرة مـــن ذلـــك الصدام. لذلك، ليس بمستطاعى أن أجزم اليوم بأن مقدار ما بذاكرتى بخصوص ذلك الصباح مُستَمَد مما شاهدته من موقعى أعلى المهبط، وإلى أى مدى اندمج مع مرور الزمن مع إعادة سرد أمـــى للواقعـــة. على أية حال، كان انطباعى يتمثل فى أنه بينما كنت أنا وآكيرا نحدق حول حافة الغرفة المصنوعة من خشب السنديان، كان المفتش يقـــول شيئًا من قبيل:

"أنا أكن كل الاحترام لمشاعرك، يا مدام بانكس. مع هـــذا، هنـــا بالخارج، لا يمكن أن يكون الشخص فى منتهى الحـــذر. والشـــركة تتحمل مسئولية رفاهية كل الموظفين، حتى الأكثر حنكة ووعيًا، مثلك أنت ومستر بانكس."

(*) الخورى (فى الكنيسة الإنجيلية) قس مسئول عن الكنيسة أو الكنائس فى منطقة معينة. (المترجم)

"معذرةً، يا مستر رايت،" ردت أمي، "لكن اعتراضاتك لم تتضح بعد لي. لقد أدى هؤلاء الخدم الذين تتحدث عنهم مهامًا جليلة لسنوات. أستطيع أن أجزم تمامًا بمستوياتهم في النظافة. وأنت بنفسك قد اعترفت أنهم لا يحملون أي علامات لمرض معدٍ من أي نوع."

"مع هذا، يا مدام، فهم من شانتنغ. والشركة مضطرة لنصح جميع موظفيها بعدم تشغيل سكان هذه المنطقة في منازلهم. إنه تقييد، اسمح لي أن أقول، ناتج عن تجربة مريرة."

"أبإمكانك أن تتحدث بشكل منطقي وجاد؟ أنت تريدني أن أطرد هؤلاء الأصدقاء – نعم، لقد اعتبرناهم أصدقاء منذ زمن طويل! – لا لشيء سوى أنهم من شانتنغ؟"

عند هذه النقطة، تغيرت طريقة المفتش واتسمت بالغرور إلى حدٍ ما. وواصل كلامه مع أمي موضحًا أن اعتراضات الشركة على الخدم القادمين من شانتنغ قائمة على شكوك في أمانتهم أيضًا وليس في نظافتهم وصحتهم فقط. وأنه مضطر لتكرار توصياته بشدة – تحرك المفتش في أرجاء المكان – خاصةً مع وجود أشياء قيمة تابعة للشركة. عندما انفجرت أمي ثانيةً لتسأل على أي أساس تم الاتفاق على هذه التعميمات المذهلة، أطلق المفتش تنهيدة مُتْعَبَة، ثم قال:

"باختصار، يا مدام، الأفيون. إدمان الأفيون في شانتنغ قد وصل إلى مستويات محزنة لدرجة أن قرىً بأكملها وُجِدَت غارقة في عبادة البايب. ومن ثم، يا مدام بانكس، فانخفاض مستوى النظافة وارتفاع مستوى العدوى. وحتميًا، هؤلاء من أتوا من شانتنغ للعمل في

شنغهاى، حتى ولو كانوا بالفعل من ذوى الطبـاع الأمينـة، فسـوف يميلون إن عاجلاً أم آجلاً إلى السرقة، لأجل آبائهم، وإخوتهم، وأبناء عمومتهم، وأخوالهم وأعمامهم؛ ماذا بوسعك أنت، جميـع مـن لهـم اشتهاءات حتميًا لابد من إرضائها إلى حد ما.... يا لطيف، يا مدام! أنا فقط أحاول توضيح الأمر....."

لم يكن المفتش فقط هو من تراجع عند هذه النقطة؛ آكيرا، إلـى جوارى، نفث كمية حادة من الزفير، وعندما رمقته كان ينظر لأسفل إلى أمى وقد انفتح فمه من الدهشة. صورته هذه في تلك اللحظة هى التى جعلتنى فيما بعد أعتقد أن هلعهِ لاحقًا حين رؤية أمى كان نتيجة ذلك الصباح.

لكن لو أن المفتش وآكيرا انتقدا شيئًا ما فعلته أمـى فـى هـذه اللحظة، فأنا لم أر شيئًا غير معتاد. بالنسبة لى، بدت أنها لـم تفعـل شيئًا سوى استعادة ثباتها قليلا استعدادًا لما كانت مُقدِمة على تأكيـده. لكن حينئذ، أظن أننى كنت معتادًا على طباعها؛ التى من الممكـن ألا تكون مألوفة بالنسبة لهما، واثقًا من أن نظـرات ووضـعيات أمـى المألوفة فى مثل هذه المواقف ربما جاءت مقلقة فى الحقيقة.

هذا لا يعنى أننى لم أكن منتبهًا للانفجار التالى. حقيقةً، منـذ أن نطق المفتش بكلمة "أفيون"، كنت أعرف أن الرجل سيئ الحظ قد أُعِد هدفًا لذلك الانفجار.

لقد توقف بغتةً، متوقعًا أن تقاطعه أمى. لكننى أذكر أن أمى قـد تركت رجفة صمتٍ مُعلَّقة - طيلتها لم تنزل عينها عن المفتش - قبل أن تسأل بصوت هادئ لم يهدد أبدًا أن يطفح غضبًا:

"إنك تفترض، يا سيدى، أن تتحدث إلىّ، نيابةً عن كل هذه الشركات، عن الأفيون؟"

ثم بعد ذلك أتت نوبة من الشراسة المنضبطة وضحت فيها للمفتش الدعوى التى كنت وقتئذٍ أعرف بها فعليًا، والتى سمعت بها مرارًا بصورة موجزة: وهى أن البريطانيين على وجه العموم، وشركة Butterfield and Swire على وجه التحديد، قد أصابوا الأمة كلها بحالة من التعاسة والمهانة الفادحة باستيرادهم الأفيون الهندى إلى الصين بهذه الكميات الهائلة.

كان صوت أمى يزداد توترًا وشدة وهى تواصل كلامها، لكنه لم يفقد أبدًا خصائصه المعروفة. فى النهاية سألت خصمها وهى تشمله برمقة ثابتة غير متراجعة:

"ألا تشعر بالخزى، يا سيدى؟ كمسيحى، كرجل إنجليزى، كرجل تحكمه القيم الأخلاقية؟ ألا تشعر بالخزى لأنك تعمل فى خدمة مثل هذه الشركة؟ أخبرنى، كيف ينعم ضميرك بالراحة وأنت تدين بوجودك لهذه الثروة الشريرة؟"

لو كان المفتش متهورًا لأوضح لأمى سخف توبيخها له بهذا الشكل، بهذه الكلمات التى تنطق بها زوجة موظف زميل فى الشركة، وتسكن فى بيت تابع للشركة ذاتها. لكن عند هذه النقطة كان قد أدرك أنه قد طرد إلى ما وراء قدراته، فتمتم بعبارات قليلة لحفظ ماء وجهه، وتراجع مندفعًا خارج المنزل.

في تلك الأيام، كان مذهلاً لي عندما يُظهر أي من الكبار – كما فعل المفتش – جهله بحملات أمي ضد الأفيون. طيلة سنوات نضجي، استعمرني اعتقاد بأن أمي اشتهرت وأصبحت مثارًا لإعجاب كبير كعدو رئيس لتنين الأفيون العظيم في الصين. ظاهرة الأفيون، يجب أن أصرح، لم تكن شيئًا بذل الكبار جهدًا هائلاً لإخفائه عن الأطفال، لكن بطبيعة الحال، عندما كنت صغيرًا جدًا، استوعبت قدرًا قليلا من أبعاد الموضوع. كنت معتادًا يوميًا على رؤية الرجال الصينيين، من العربة التي تقلني إلى المدرسة، ينبطحون على الأبواب في شمس الصباح على امتداد طريق نانكينج، ولبعض الوقت، عندما كنت أسمع بحملات أمي، تخيلت أنها تقدم يد العون لهذه الطائفة المعينة من الرجال. رغم أنني لاحقًا، عندما كبرت، كانت لدي فرصٌ أكثر لإدراك شيء ما يكتنفه التعقيد يحيط بهذه القضية. على سبيل المثال، طُلِب مني أن أقدم نفسي على مآدب الغداء التي تقيمها أمي.

كانت هذه المآدب تُقام في بيتنا، عادةً ما تكون أثناء الأسبوع الذي يكون فيه أبي في المكتب. دائمًا، تصل أربع أو خمس سيدات، وكن يدعون إلى الكونسيرفاتوري،[1] حيث توضع طاولة في وسط أشجار النخيل والزواحف. كنت أساعد في حمل الأكواب والصحون والأطباق ووضعها حول الطاولة، وأنتظر اللحظة التي كنت أدرك أنها ستصل: وهي، عندما تطلب أمي من ضيوفها كيف، عندما "سألوا قلوبهم وضمائرهم"، رأوا سياسات شركاتهن. عند هذه اللحظة

(١) غرفة ذات حوائط زجاجية وسقف زجاجي أيضًا، تُشيَّد بجانب المنزل؛ وتستخدم للاستمتاع بالشمس، ولحماية النباتات من الطقس البارد. (المترجم)

ستتوقف الثرثرة الممتعة وسوف تنصت السيدات عندما تمضى أمى فى التعبير عن عميق تعاستها بسبب "ممارسات شركتنا"، التى تعتبرها "غير مسيحية وغير بريطانية". حسبما أتذكر، كانت مآدب الغداء هذه يعتريها من الهدوء والصعوبة عند هذه المرحلة وما يليها، حتى تأتى اللحظة، التى لا تتأخر كثيرًا، حيث تتمتم السيدات بكلمات وداع متجمدة ويمضين للخارج فى طريقهن إلى العربات والسيارات التى تنتظرهن. لكننى عرفت من خلال ما قالته لى أمى أنها حققت "انتصارًا" لعدد من زوجات الموظفين فى هذه الشركة، وبدأت التحولات تظهر فى اجتماعاتها.

هذه الاجتماعات كانت أمورًا من الخطورة والأهمية بحال ولم يكن يُسمَح لى بحضورها. كانت تُعقَد فى غرفة الطعام خلف الأبواب المغلقة، وإذا صادف وجودى بالمنزل أثناء انعقاد أحد الاجتماعات، كان يُطلَب منى أن أتحرك على أطراف أصابعى فى سكون. بين الحين والآخر كانت أمى تقدمنى لإحدى الشخصيات ذات المكانة الخاصة عندها - رجل دين/ مثلاً، أو دبلوماسى - لكن على وجه العموم، كانت مى لى تتلقى تعليمات بإبعادى عن الطريق قبل حضور أول الضيوف. بالطبع، كان العم فيليب دائم الحضور، وكنت غالبًا أجتهد لكى أقع فى مرمى بصره أثناء رحيل المشاركين. كان، حال رؤيته لى، يتقدم صوبى بابتسامة وكنا نتبادل حوارًا قصيرًا. أحيانًا، إذا لم يكن لديه ارتباط مهم، كنت آخذه جانبًا ليرى اللوحات التى رسمتها خلال أسبوع، أو كنا نخرج لنجلس معًا لفترة فى التراس الخلفى.

ساعة يغادر الجميع، يتغير جو المنزل تمامًا. فدائمًا ما تكون أمي في حالة معنوية مرتفعة، وكأن الاجتماع قد أسفر عن غسل كل همومها. فأسمعها تغني لنفسها أثناء تنقلها في أرجاء البيت كي تعيد الأشياء إلى سالف وضعها وترتيبها، وبمجرد أن تفعل ذلك، أندفع للخارج باتجاه الحديقة لأنتظر. لأنني كنت أعرف أنها ما إن تنتهي من ترتيب البيت، فستخرج للبحث عني، وأيًا كان مقدار الوقت المتبقي قبل الغداء فستكرسه لي.

ذات مرة وكنت قد كبرت، أثناء هذه الفترات، بعد أحد الاجتماعات مباشرةً، أخذتني أمي لنتمشى في منتزه جيسفيلد. لكن عندما كنت في السادسة أو السابعة من عمري، كنا نميل للبقاء في البيت ونلعب دور طاولة، وأحيانًا نلعب بجنودي الدُمى. لم يزل بإمكاني أن أتذكر روتينا بعينه ألفناه في هذه الفترة. في تلك الأيام، كانت هناك أرجوحة في المساحة العشبية المحيطة بالبيت والتي لم تكن تبعد كثيرًا عن التراس. كانت أمي تخرج من البيت، وهي لم تزل تغني، تخطو فوق العشب، وتجلس على الأرجوحة. وكنت أنا أنتظر على رابيتي في الحديقة الخلفية، وكنت أجري صوبها، متظاهرًا بالغضب.

"انزلي، يا أمي! ستحطمينها!" كنت أقفز لأعلى وأسفل أمام الأرجوحة، وأنا ألوح بيدي. "أنت كبيرة جدًا! ستحطمينها!"

وأمي، متظاهرةً بعدم رؤيتي أو سماع صوتي، كانت تدفع نفسها على الأرجوحة لأعلى وأعلى، وهي تواصل التغني بأعلى صوتها

بأغنية مثل: "ديزى، ديزى،[٢] هيا امنحنى إجابتك، هيا." عندما تفشل كل محاولاتى فى استجدائها، كنت – يراوغنى الآن هذا المنطق – أحاول تنفيذ سلسلة من حركات الوقوف على الرأس فوق العشب أمامها. حينئذٍ، يتقاطع غناؤها مع نوبات من الضحك، حتى تنزل فى النهاية عن الأرجوحة، وتأتى لتعلب معى ما أعددته من الألعاب. حتى اليوم، لا يمكن أن أفكر فى اجتماعات أمى دون أن أتذكر هذه اللحظات المتوقعة بشغف التى كانت تلى تلك الاجتماعات.

منذ بضع سنوات مضت، قضيت بعض الأيام فى غرفة الاطلاع بالمتحف البريطانى أبحث فى المناقشات التى تتناول تجارة الأفيون فى الصين خلال تلك الفترات. وبينما كنت أدقق النظر فى بعض مقالات الصحف، والرسائل والوثائق التى تنتمى لتلك الأوقات، اتضحت لى عدة قضايا كانت تحيرنى أيام طفولتى. لكن – وينبغى علىّ أن أُقِر هذا – الحافز الرئيس لقيامى بهذا البحث كان الأمل فى العثور على تقارير بخصوص أمى. مع هذا، كما ذكرت، لقد انسقت وأنا طفل إلى الاعتقاد بأنِ أمى كانت شخصية رائدة فى الحملات المناوئة للأفيون. كان شيئًا مخيبًا للآمال أننى لم أجد اسمها ولو لمرة واحدة. آخرون طالهم المديح والاقتباس من كلامهم، شُوِهَت سمعتهم، لكن فى كل المواد التى رتبتها، لم أجد ذكرًا واحدًا لأمى. رغم ذلك تعثرت عيناى مرات عديدة فى ذكر اسم العم فيليب. مرة، فى رسالة إلى نورث تشاينا ديلى نيوس North China Daily News، تبشيرى سويدى، يشرع فى إدانة عدد من الشركات الأوروبية، إشارةً إلى العم

---

(٢) ديزى daisy يعنى الأقحوان. (المترجم)

فيليب على أنه "منارة الاستقامة المثيرة للإعجاب". كان غياب اسم أمى مخيبًا للآمال بما فيه الكفاية، غير أن هذا كان منعطفًا قاسيًا فى الحقيقة، ومنذ ذلك الحين هجرت البحث في هذا الموضوع.

لكني لا أود أن تستعيد ذاكرتي العم فيليب هنا الآن. حدث مرة هذا المساء حينما أُقنِعت بأننى قد ذكرت اسمه لسارة هيمنجس أثناء ركوبنا للباص ظهيرة اليوم - وأننى أخبرتها، حتى، بشيء أو اثنين جوهريين عنه. لكن مع إمعان النظر فى كل ما حدث، تأكدت بما لا يترك مساحة للشك أن العم فيليب لم يظهر ولم يرد ذكره مطلقًا - ولابد أن أعلن عن شعورى بالارتياح. ربما يكون من الحماقة أن أعتقد، لكن هذا قد كان شعورى دائمًا، أن العم فيليب سوف يبقى كيانًا أقل واقعية بينما وجوده فقط كائنٌ فى ذاكرتى.

رغم ذلك حكيت لها قليلاً عن آكيرا بعد ظهر اليوم، والآن مادام لدى فرصة للتفكير فى الأمر، فأنا بالفعل لست نادمًا على هذا. لم أخبرها، على أية حال، بالكثير، وفعلاً بدت بصدق مهتمة. حقيقةً ليس لدى ما يبرر انجرافى المباغت فى الكلام معها فى هذه الأمور؛ بالتأكيد لم تكن لدى النية بدايةً عندما صعدت الباص معها فى هايماركت.[٣]

ديفيد كوربيت، رجل جاء تعرفى عليه مشوبًا بالغموض، دعانى للغداء معه هو و"عدد قليل من الأصدقاء" فى أحد مطاعم شارع لوير

---

(٣) Haymarket شارع فى الطرف الغربى من لندن، يضم اثنين من أشهر مسارح لندن: Her Majesty's و The Royal Theatre.

ريجينت. مكان عصرى لتناول الغداء، وكان كوربيت قد حجز طاولة كبيرة تكفى دزينة من البشر فى آخر القاعة. فرحت لرؤية سارة بين الجمع - واندهشت قليلاً لأنى لم أكن أعرف عن صداقتها بكوربيت - لكننى لم أتمكن من الجلوس فى نطاق الحديث معها، بسبب وصولى متأخرًا إلى حدٍ ما.

وقتئذٍ كانت الغيوم قد تراكمت فى السماء، فقام النادل بإشعال شمعدان على طاولتنا. ظن أحد أفراد الجمع، صديق يُدعى هيجلى، أن إطفاء الشموع، واستدعاء النادل لإعادة إشعالها مزحة لطيفة. فعل هذا ثلاث مرات على الأقل فى فترة لا تتجاوز ثلث الساعة - كلما رأى أن الجو الصاخب قد أخذ فى الهدوء -- ولم يبد أن الآخرين وجدوا ذلك مضحكًا بدرجة كبيرة. كانت سارة، حسبما رأيت، مستمتعة، إذ كانت تضحك مع باقى الناس. ربما قضينا هناك حوالى الساعة - قام رجلان بالاستئذان للعودة إلى عمليهما - بينما تحول الانتباه إلى إيما كاميرون، فتاة حادة إلى حدٍ ما، كانت تجلس على طرف الطاولة إلى جوار سارة. كل ما عرفته أنها كانت لبعض الوقت تتكلم فعلاً مع المجاورين لها على الطاولة عن مشاكلها؛ لكن عند هذه اللحظة، حيث طغت فترة مفاجئة من الهدوء على باقى الطاولة مما جعلها بؤرة اهتمام المجموعة كلها. ثم بعد ذلك انخرطوا فى مناقشة نصف جادة ونصف ساخرة عن علاقة إيما كاميرون المضطربة بأمها - التى كانت مؤخرًا قد صعّدت أزمة جديدة بسبب خطبة إيما مؤخرًا إلى رجل فرنسى. شملوها بكل أنواع النصائح. على سبيل المثال، افترض الرجل، الذى يُدعى هيجلى، أن كل

الأمهات – "والخالات أيضًا بطبيعة الحال" – لابد من احتجازهم فـــى مؤسسة تشبه حديقة حيوان كبيرة ليتم تعليمهن إلى جوار الأفعـــوان. آخرون طرحوا تعليقات مفيدة منبثقة من تجاربهم الشخصـــية، وإيمـــا كاميرون، المستمتعة بكل الاهتمام المنصب عليها، أبقت الموضـــوع مشتعلاً بحكايات أكثر مسرحية كي تصور طبيعة هذا الراهن الممعنة فى إثارتها للسخط. كانت المناقشة قد استمرت حوالى ربـــع الســـاعة عندما رأيت سارة وهى تنهض وتنصرف من القاعة، بعد أن تمتمـــت بكلمة فى أذن المُضيف. كانت غرفة المكياج الخاصة بالسيدات فـــى لوبى المطعم، الآخرون، أولئك الذين لم يلحظوا خروجها مطلقًا – لا شك قد افترضوا أنها هناك. لكننى لمحت شيئًا فـــى وجههـــا عنـــدما انصرفت، وبعد بضع دقائق، نهضت أنا أيضًا وخرجت فى أثرها.

وجدتها واقفة فى مدخل المطعم، تنظر للخارج عبر النوافذ على شارع لوير ريجينت. لم تلاحظ تقدمى نحوها إلا عندما لمست ذراعها وسألتها:

"هل كل شىء على ما يُرام؟"

بادرت، ولاحظت آثارًا خفيفة للدموع فى عينيها، حاولت بسرعة أن تلقى عليها قناعا من الابتسام.

"أوه نعم، أنا بخير. شعرت بأننى مختنقة قليلا، هذا كل مـــا فـــى الأمر. أنا الآن على ما يُرام." أطلقت ضحكة خفيفة، وحدقت بإمعـــان خارج المطعم فى الشارع. "معذرةً، لابد وأن الأمر بدا علـــى درجـــة كبيرة من الوقاحة. حقيقة لابد وأن أعود للداخل."

"لا أجد مبررًا لعودتك مادمت لا ترغبين فى هذا."

تفحصتنى سارة بإمعان، ثم سألت: "أما زالوا يتحدثون عما كانوا يتحدثون عنه؟"

"كانوا كذلك عندما انصرفت." ثم أضفت: "أعتقد أننا لن نسهم كثيرًا فى ندوة حول الأمهات المزعجات."

فجأة ضحكت وجففت دموعها، دموعها التى لم تعد تحاول أن تواريها عنى. "لا،" قالت، "أظن أننا مؤهلان." ثم ابتسمت مرة أخرى ومرة ثانية وقالت: "إنها لحماقة بالغة منى. رغم كل هذا فإنهم فى مأدبة غداء ممتعة."

"هل تقفين فى انتظار سيارة؟" سألت، لأنها كانت لم تزل تمعن النظر خارج المطعم على المرور.

"ماذا؟ آه لا، لا. أنا كنت أنظر فقط." ثم قالت: "كنت أتساءل إذا ما كان الباص سيأتى. ترى، انظر، أعلى الشارع. هناك موقف باص. اعتدت أنا وأمى أن نقضى وقتًا طويلاً فى الباصات. فقط للمتعة. أنا أتحدث عنى وأنا صغيرة. لو لم يكن بمستطاعنا أن نأخذ المقعد الأمامى فى الدور العلوى، كنا ننزل فورًا ونقف فى انتظار آخر. وكنا أحيانًا نقضى ساعات حول لندن، نحدق فى كل شىء، ونحن نتجاذب أطراف الحديث، ونشرح الأشياء لبعضنا البعض. كنت أستمتع بهذا. هل حدث أن ركبت الباصات من قبل، يا كريستوفر؟ لابد أن تفعل. سوف تشاهد الكثير من أعلى."

"لابد أن أعترف بأننى أميل للمشى أو ركوب التاكسى. أنا أخاف من باصات لندن إلى حدٍ ما. أنا مقتنع بأنه إذا ما ركبت أحدها فسوف يأخذنى إلى مكانٍ ما لا أريد الذهاب إليه، وسوف أقضى ما تبقى من اليوم فى محاولة معرفة طريق العودة."

"هل لى أن أخبرك بشىء، يا كريستوفر؟" أصبح صوتها فى غاية الهدوء. شىء من الحماقة بحال، لكننى أدركته مؤخرًا. لم يحدث لى مطلقًا من قبل. لكن أمى لابد وأنها تعانى الكثير من الألم. لم تكن قوية بما يكفى لتمارس أشياء أخرى معى. ولهذا السبب كنا ننفق كثيرًا من الوقت فى ركوب الباصات. شىء لم يزل بإمكاننا القيام به معًا."

"هل ترغبين فى ركوب الباص الآن؟" سألت.

نظرت للخارج باتجاه الشارع ثانيةً. "لكن ألست مشغولاً جدًا الآن؟"

سيكون ممتعًا. كما أقول، أنا خائف إلى حدٍ ما من ركوب الباص وحدى. ومادمت مخضرمة، فهذه فرصة لى."

"رائع جدًا." توهجت بغتةً. "سأريك كيف ترتاد أحد باصات لندن."

أخيرًا ركبنا ليس فى شارع لوير ريجنت – لم نكن نريد أن تظهر مجموعة الغداء وترانا ننتظر – لكن من شارع هايماركت القريب. عندما صعدنا إلى الدور العلوى، أظهرت بهجةً طفولية حين وجدت مقعدها الأمامى شاغرًا، وجلسنا فيه وأخذنا نتمايل معًا والباص يتثاقل فى شق طريقه باتجاه ميدان ترافالجار.

بدت لندن قاتمة وغائمة، والناس أسفلنا على الرصيف فى تمـــام الاستعداد بمظلاتهم ومعاطفهم. أظن أننا قضينا نصف ساعة فى ذلك الباص، وربما أكثر. شاهدنا ستراند، وتشانسرى لـــين وكليركنويـــل. أحيانًا كنا نمضى فى مشاهدة المنظر تحتنا فى صمت؛ فـــى أحـــايين أخرى، كنا نتجاذب أطراف الحديث، عادةً عن أشياء بريئة. ارتفعـــت حالتها المزاجية بشكل واضح منذ الغداء، ولم تذكر أمها ثانيةً. وجدت نفسى أتحدث عن آكيرا. لست متأكدًا من كيفية طرحنـــا للموضـــوع، لكن تم هذا مباشرةً بعد نزول عدد كبير مـــن الركـــاب فـــى هـــاى هولبورن، وكنا نتحرك أسفل طريق جراى إنْ. أعتقد أننى فى البداية لم أفعل سوى أن ذكرته بشكل عابر، واصفًا إياه ك- "صديق طفولة". لكن لابد وأنها تقصت منى عنه، لأننى أذكر أننى قلت لها، ليس بعـــد فترة طويلة، ضاحكًا:

"دائمًا أفكر فى أننا ذات مرة سرقنا شيئًا ما معًا."

"يااااه!" تعجبت. "لهذه الدرجة! المخبر العظيم له تاريخ إجرامـــى سرى! عرفت أن هذا الولد اليابانى كان على قدر كبير من الأهميـــة. أخبرنى عن السرقة."

"لا تكاد تكون سرقة. لقد كنا فى العاشرة من العمر."

"لكن ألم تزل حتى الآن مصدرًا لتعذيب ضميرك؟"

"لا على الإطلاق. لقد كان مجرد شىء صغير. لقد سرقنا شـــيئًا من غرفة أحد الخدم."

"لكن ياله من شىء مثير للدهشة. وكان هذا فى شنغهاى؟"

أظن أنني لابد قد أخبرتها عن بضعة أشياء أخرى من الماضى. لم أبح لها بشىء ذى أهمية من أى نوع، لكن بعد المغادرة معها فى هذه الظهيرة – نزلنا أخيرًا فى شارع نيو أكسفورد – اندهشت وانتابنى قليل من الخوف خشية أن أكون قد أخبرتها بأى شىء يذكر. مع أننى لم أتحدث مع أى شخص عن ماضى طيلة فترة وجودى فى هذه البلد، وكما أقول، ولم تكن لدى النية أبدًا فى الشروع فى هذا اليوم.

لكن ربما ثمة شىء من هذا النوع كان محتمل الوقوع فى وقتٍ ما. لأننى فى الحقيقة أصبحت مشغولاً بصورة متزايدة بذكرياتى خلال العام الماضى، انشغالا شجعه اكتشافى أن هذه الذكريات – الخاصة بطفولتى، ووالدى – بدأ التشوه يشوبها مؤخرًا. لعدة مرات فى الفترة الأخيرة وجدت نفسى أكافح من أجل تَذَكُر شىء ما حدث منذ عامين أو ثلاثة مضت وكنت قد اعتقدت أنه رسخ فى ذهنى للأبد. اضطررت لقبول، بعبارة أخرى، أن كل عام يمر، سيزداد تلاشى حياتى فى شنغهاى، حتى يأتى اليوم الذى سأجد فيه أن ما تبقى لن يتعدى بعض الصور المشوشة. حتى هذه الليلة، عندما جلست هنا وحاولت أن أجمع بشىء من الترتيب هذه الأشياء التى لم أزل أذكرها، صُدِمت من جديد بمدى الخفوت الذى يعترى كل شىء فى ذاكرتى. لنأخذ، مثلاً، الحكاية التى حكيتها توًا عن أمى ومفتش الصحة: فبينما أنا على يقين لا بأس به أننى قد تذكرت أساسها بدقة كافية، لكننى حينما قلبتها فى ذهنى ثانيةً، وجدت نفسى غير متأكد تمامًا من بعض التفاصيل. لسبب واحد، لم أعد متأكدًا من أنها وجهت

الكلمات التالية بنصها للمفتش: "كيف لضميرك أن يرتاح وأنت تـدين بوجودك لهذه الثروة الشريرة؟" الآن يبدو لى أنها حتـى فـى حالـة الهياج والإثارة، كانت ستدرك ما تنطوى عليه هـذه الكلمـات مـن إحراج لها، وستدرك أيضًا أن هذه الكلمات تجعلها عُرضة للسخرية. لا أظن أن أمى قد فقدت حتى سيطرتها على الموقف لهذه الدرجـة. على الجانب الآخر، من الممكن أن أكون قد نسبت هذه الكلمات لهـا تحديدًا لأنها كانت قد وجهت مثل هذا السؤال لنفسها باستمرار أثنـاء حياتنا فى شنغهاى. والحقيقة أننا "كنا ندين بوجودنا" لشركة كانت هى قد عرفت ممارساتها بأنها شر لابد وأن يُنتَقَد بشدة، وهذا النقد الشديد لابد وأنه كان مصدرًا حقيقيًا لعذابها.

فى الواقع، من الممكن أننى لم أتذكر بدقة السياق الذى تفوهـت فيه بهذه الكلمات؛ وأنها لم تكن موجهة إلى مفتش الصحة، لكن إلـى أبى، فى صباح آخر غير هذا بالأساس، أثناء تلك المشـاجرة التـى وقعت فى غرفة الطعام.

أنا لا أتذكر الآن إذا ما كانت حكاية غرفة الطعام قد حدثت قبل أم بعد زيارة مفتش الصحة. كل ما أذكره أن الجو كان مطيرًا فى تلك الظهيرة، مما جعل الجو كئيبًا في كل أنحاء المنزل، وأننى كنت أجلس في المكتبة، وكانت مى لى تعتنى بى وأنا أذاكر فى كتب الحساب.

سميناها "المكتبة"، لكننى أعتقد أنها فى الحقيقة كانت فقط مجرد غرفة انتظار تصادف أن حوائطها قد اصطفت عليها الكتب. فقط كان هناك مساحة كافية فى منتصف أرضيتها لطاولة من الماهوجنى، وعليها كنت دائمًا أقوم بأداء واجباتى المدرسية، وظهرى للباب المزدوج الذى يقود إلى غرفة الطعام. مى لى، المربية الخاصة لى، كانت تعتبر تعليمى أمرًا بالغ الأهمية، حتى عندما كنت أذاكر لمدة ساعة، لم يحدث أبدًا أن تسند طولها إلى الرف الذى كانت تقف أمامه، أو تجلس على الكرسى المقابل لى؛ فقد كانت تقف على رأسى بصرامة. منذ وقت طويل تعلم الخدم ألا يدخلوا علينا أثناء أوقات المذاكرة تلك، حتى والدى قبلا بعدم إزعاجنا إلا فى حالات الضرورة القصوى.

وبالتالى، كان مثيرًا للدهشة أن يتقدم أبى بخطوات صاخبة إلى المكتبة فى فترة بعد الظهر تلك، غافلاً عن وجودنا، ويدخل غرفة الطعام، ويغلق الأبواب خلفه بقوة. خلال دقائق من هذا التدخل كان

هناك آخر من أمي، التي دخلت بخطوات مسرعة واختفت داخل غرفة الطعام. خلال الدقائق التي تلت ذلك، حتى من خلف الأبواب الثقيلة تلك، استطعت أن أسمع بعض الكلمات والعبارات العارضة التي أخبرتني بأن والدي في مناقشة حادة. لكن وبصورة محبطة، كلما حاولت أن أسترق السمع لكلمات أكثر، كلما تردد قلمي لفترة طويلة على الأرقام، تأتي كلمات التوبيخ الحتمية من مي لي.

لكن وقتئذ - لا أتذكر تمامًا كيف حدث هذا - تم استدعاء مي لي، وفجأة تُركت وحدي على طاولة المكتبة. في البداية، واصلت مذاكرتي فقط، تنتابني حالة من الهلع مما يمكن أن يحدث لو عادت مي لي ووجدتني قد تركت مقعدي. لكن كلما طال غيابها، كلما ازدادت رغبتي في استماع أوضح للحوار المكتوم في الغرفة المجاورة. أخيرًا نهضت وتقدمت إلى الباب، لكن حتى مع هذا، كنت أهرع عائدًا إلى الطاولة كل بضع ثوان، مقتنعًا بإمكانية سماعي لدبيب خطوات مربيتي. في النهاية، تمكنت من البقاء خلف الباب فقط وأنا أحمل مسطرة في يدي، حتى إذا ما باغتتني مي لي، ادعيت أنني كنت أقوم بقياس أبعاد الغرفة.

حتى على الرغم من هذا، تمكنت أن أسمع جملاً كاملة فقط عندما ينسى والدي نفسيهما ويرفعان صوتهما. استطعت أن أحدد في صوت أمي الغاضب النبرة المستقيمة نفسها التي استخدمتها مع مفتش الصحة صباح ذلك اليوم. سمعتها تردد: "خزي!" عدة مرات، غالبًا كانت تقصد ما أسمته، "التجارة المحرمة". عند نقطة ما قالت: "إنك تجعل منا جميعًا شركاء فيها! جميعنا! هذا عار!" أبي أيضًا بدا

غاضبًا، رغم أن غضبه قد أخذ صورة دفاعية يائسة. ظل يردد كلمات من قبيل: "الأمر ليس بسيطًا جدًا. الأمر ليس فى غاية البساطة تقريبًا." وعند نقطة بعينها زعق قائلاً:

"هذا فى غاية الرداءة! أنا لست فيليب. أنا لست بهذا الشكل. هذا فى منتهى الرداءة، بالفعل فى منتهى الرداءة!"

ثمة شيء كان يشوب صوته وهو يزعق بهذا الكلام، نوع مخيف من الإذعان، وبغتةً انتابنى الغضب من مى لى لأنها تركتنى فى هذا الموقف. وربما حينئذ، عندما كنت أقف جوار الباب، ومسطرتى فى يدى، حائرًا بين رغبتى فى مواصلة الاستماع وشوقى للفرار إلى ملجأى فى غرفة اللعب وعساكرى الدُمى، سمعت أمى تتفوه بهذه الكلمات:

"ألا تشعر بالخزى لأنك فى خدمة مثل هذه الشركة؟ كيف لضميرك أن ينعم بالراحة ووجودك مدين لهذه الثروة الشريرة؟"

لا أنكر ماذا حدث بعد ذلك: إذا ما كانت مى لى قد عادت، إذا ما كنت لم أزل فى المكتبة مع ظهور والدى. رغم هذا فأنا أتذكر أننى بشرت بواحدة من أطول فترات الصمت بين والدى – بعبارةٍ أخرى، واحدة استمرت لأسابيع، وليس لأيام. بالطبع أنا لا أعنى أنهما لم يتواصلا تمامًا أثناء هذه الفترة، لكن كل أشكال الحوار ظلت فى حدود الضرورة.

لقد كنت معتادًا على مثل هذه الفترات ولم أنشغل بها كثيرًا. على أية حال، فهى لم تؤثر على حياتى مطلقًا إلا فى أضيق الحدود. على

سبيل المثال، كان أبى يظهر على الإفطار بـ "صباح الخير، على الجميع!" وكان يلقيها ببشاشة. ويضرب كلتا يديه ببعضهما البعض، بينما تتلقاه أمى فقط بنظرتها البليدة. فى مثل هذه المناسبات، ربما يحاول أبى مواراة إحراجه بالالتفات إلىّ، وهو لم يزل بنبرته البشوشة نفسها، ليسأل:

"وماذا عنك، يا بفن؟[٤] هل من أحلام شيقة ليلة أمس؟"

وكما عرفت من خبرتى كان لابد أن أجيبه بحركة صوتية غامضة وأواصل تناولى للطعام. فيما عدا ذلك، كما أقول، كنت أستطيع ممارسة حياتى بصورة أكبر أو أقل من المعتاد. لكن أعتقد أنه كان يتحتم على، أحيانًا على الأقل، أن أمعن التفكير فى هذه الأمور، لأن لدى ذكرى حوار بعينه مع آكيرا ذات مرة عندما كنا نلعب في منزله.

ذكرياتى عن منزل آكيرا أنه، من وجهة النظر المعمارية، كان مثل بيتنا تمامًا؛ فى الحقيقة، أذكر أن أبى أخبرنى بأن المنزلين قد شيدتهما الشركة البريطانية نفسها قبل حوالى عشرين عامًا. لكن الأمر كان مختلفًا تمامًا داخل بيت صديقى، وكان مصدرًا للإدهاش والسحر بالنسبة لى. لم تكن المسألة فى تفوق اللوحات والزخارف الشرقية – ففى شنغهاى، فى تلك المرحلة من عمرى، لم أر فى ذلك ما يفوق العادة – لكن إلى حدٍ ما الأفكار الغريبة لعائلته فيما يخص

---

(٤) بفن طائر أبيض وأسود الريش، ذو منقار متوهج الألوان، يعيش بالقرب من البحر، ويوجد بكثرة عند شمال الأطلنطى. (المترجم)

استخدام عناصر الأثاث الغربى. السجاجيد التى حسبما كنت أتوقع أن أراها على الأرضيات كانت معلقة على الجدران؛ الكراسى كانت ذات ارتفاع غريب بالنسبة للطاولات؛ المصابيح كانت تتأرجح تحت مظلات كبيرة. الأكثر إدهاشا كان زوجا من الغرف اليابانية المتطابقة قام والدا آكيرا بإنشائهما أعلى المنزل. هاتان الغرفتان كانتا صغيرتين، لكنهما كانتا مرتبتين ومزينتين بالتاتامى(٥) والحصير اليابانى الذى يغطى الأرضيات، واللوحات الورقية المثبتة على الجدران، ومن ثم لحظة تكون بالداخل - على الأقل من وجهة نظر آكيرا - لا يمكن لأى شخص أن يقول بأنه لم يكن فى بيت يابانى أصلى شُيِّد من الخشب والورق. أستطيع أن أتذكر إلى أى مدى كانت أبواب تلك الغرف على وجه التحديد مثيرة للفضول؛ فمن الخارج، الجانب "الغربى"، كانت مبطنة بمقابض نحاسية براقة؛ من الداخل، الجانب "اليابانى"، كانت مبطنة بورق رقيق بحشوات مائية الألوان.

على أية حال، فى أحد الأيام الحارة، كنت أنا وآكيرا نلعب فى إحدى هذه الغرف اليابانية. كان يحاول أن يعلمنى لعبة تتضمن كومات من الكروت عليها صور شخصيات يابانية. تمكنت من التقاط مبادئ اللعبة وكنا نواصل ممارسة اللعب لعدة دقائق عندما سألته فجأةً:

"هل تتوقف أمك أحيانًا عن الكلام مع أبيك؟"

---

(٥) غطاء أرضيات تقليدى يابانى مصنوع من الروش المجفف. والروش نبات طويل يشبه العشب وينمو بالقرب من الماء. (المترجم)

نظر إلى نظرة عارية من المعنى، ربما لأنه فشل فى استيعابى؛ كانت لغته الإنجليزية تخذله إذا ما تحدثت إليه خارج السياق هكذا. ثم، عندما كررت عليه السؤال، هز كتفيه بعدم اكتراث وقال:

"أمى لا تتحدث إلى أبى عندما يكون. أمى لا تتحدث مع أبى عندما يكون فى الحمام!"

بهذا، انتابته حالة من الضحك المسرحى الهادر، وانقلب على ظهره وأخذ يركل الهواء بقدميه. ولهذا اضطررت فى هذه اللحظة إلى إسقاط الموضوع. لكننى طرحت الموضوع وقد قررت أن أفهم وجهة نظره، وبعد بضع دقائق طرحت الأمر للنقاش ثانيةً.

فى هذه المرة بدا وقد استشعر جديتى، فترك لعبة الورق جانبًا، وسألنى عدة أسئلة حتى إننى بشكل ما أو بآخر أخبرته بطبيعة قلقى. حينئذ انقلب على ظهره ثانيةً، لكن فى هذه المرة حدق مليًا فى مروحة السقف التى كانت تدور فوقنا. بعد بضع لحظات قال:

"أعرف لماذا توقفا. أعرف السبب." ثم التفت إلى، وقال: "كريستوفر، أنت لا الرجل الإنجليزى بشكل كاف".(٦)

عندما طلبت منه توضيح الأمر، نظر ثانيةً إلى السقف واستكان هادئًا. أنا أيضًا انقلبت على ظهرى وحذوت حذوه فى التحديق فى

---

(٦) نلاحظ أن الجملة ناقصة على مستوى الشكل والمعنى، ذلك أننا بصدد طفل يابانى يتحدث الإنجليزية مع طفل إنجليزى؛ ومن ثم يبدو الأداء اللغوى عاكسًا لواقع معرفة الطفل بلغة أجنبية هو مضطر للتحدث بها مع صديق طفولته. (المترجم)

المروحة. كان يستلقى بعيدًا عني قليلا بعرض الغرفة، وعندما تحدث ثانيةً، أذكر أن صوته بدا منفصلاً بشكل لافت الغرابة.

"الشيء نفسه عندي"، قال. "أبى وأمى يتوقفان عن الكلام لأننى لا الرجل اليابانى بشكل كاف."

كما قد قلت بالفعل، كنت أميل لاعتبار آكيرا سلطة كونية فى العديد من جوانب الحياة، ولذا كنت أستمع إليه بمنتهى الانتباه فى ذلك اليوم. قال لى إن والدى توقفا عن الكلام مع بعضهما البعض عندما يصبحان فى غاية التعاسة بسبب سلوكى - وفى حالتى، كان هذا بسبب عدم تصرفى مثل الرجل الإنجليزى بصورة مُرضية. لو كنت قد فكرت في الأمر، قال، كنت سأربط بين مرات صمت والدى وحالات فشلى فى هذا الشيء. من جانبه، كان دائمًا يعرف متى يخذل دمه اليابانى، ولم يحدث أنه صُدم عند اكتشافه أن والديْه قد توقفا عن الكلام مع بعضهما البعض. عندما سألته لماذا لا يعنفوننا حين نسيء التصرف فى هذا الأمر، أوضح لى آكيرا أن الأمر ليس على هذا النحو؛ لقد كان يتحدث عن الدفاعات التي تختلف تمامًا عن الجُنَح العادية التى يمكن أن نُعاقَب لأجلها. كان يشير إلى اللحظات التى تُحبِط آباءنا بقسوة لدرجة أنهم لا يتمكنون حتى من عقابنا.

"أمي وأبي يحبطان جدًا جدًا،" قال بهدوء. "حتى إنهما يتوقفان عن الكلام."

ثم نهض وأشار إلى واحدة من ستائر الشمس المضلعة التى كانت فى تلك اللحظة تتدلى جزئيًا على إحدى النوافذ. قال، نحن

الأطفال مثل المفصلة التى تحفظ ارتباط الألواح ببعضها. ذات مرة أخبرنى بهذا راهب يابانى. غالبًا ما نفشل فى إدراك هذا، لكن نحن الأطفال لا نوثق عُرى الأسرة فقط، بل والعالم كله معًا. لو لم نلعب دورنا، فسوف تسقط الألواح وتتداعى على الأرض.

لا أذكر من محادثتنا فى ذلك اليوم أكثر من هذا، إضافةً إلى، كما أقول، أننى لم أنفق وقتًا طويلاً أمام هذه الأمور. مع ذلك، أذكر أكثر من مرة ميلى للاستفهام من أمى عما قاله صديقى. فى النهاية، لم أفعل هذا، رغم أننى فتحت الموضوع مع العم فيليب ذات مرة.

لم يكن العم فيليب عمًا حقيقيًا. لقد أقام بعض الوقت مع والدىّ ك- "ضيف عليهما" عند وصوله إلى شنغهاى قبل ميلادى بفترة، أيام كان موظفًا فى Butterfield and Swire. ثم، وبينما كنت أنا صغيرًا جدًا، استقال من الشركة بسبب ما كانت أمى دائمًا تصفه بأنه "اختلاف جوهرى مع رؤسائه حول الطريقة التى ينبغى بها أن تنضج". عندما صرت كبيرًا بما فيه الكفاية لمعرفته، كان يدير مؤسسة مُحبة للبشر، تسمى الشجرة المقدسة، كرست أعمالها لتحسين ظروف المناطق الصينية من المدينة. كان دائمًا صديقًا للعائلة، لكن كما قلت، أصبح زائرًا دائمًا أثناء سنوات حملات أمى المناوئة للأفيون.

أستطيع أن أتذكر غالبًا الذهاب مع أمى إلى مكتب فيليب. كان مقر هذا المكتب داخل الأراضى التابعة لإحدى الكنائس فى وسط المدينة – فى ظنى الآن أنها الكنيسة المتحدة فى طريق سوتشو. كانت عربتنا تمضى مباشرةً داخل هذه الأراضى وتقف إلى جوار مرج

كبير تظلله أشجار الفاكهة. كان الجو هادئًا هنا، رغم ضجيج المدينة من حولنا، وكانت أمي، أثناء نزولها من العربة، تتوقف، وترفع رأسها وتقول: "الهواء. أكثر نقاءً هنا." كانت حالتها المزاجية تعتدل بشكل ملحوظ، وأحيانًا – لو كان الوقت مبكرًا قليلا – كنت أنا وأمي نمضي بعض الوقت في اللعب على العشب. لو لعبنا لعبة المطاردة، نطارد بعضنا البعض بين أشجار الفاكهة، كانت أمي تضحك غالبًا، وتزعق بالإثارة نفسها التي كنت أزعق أنا بها. أذكر أننا ذات مرة، توقفنا فجأة، وكنا في مغبة اللعب، عند رؤيتنا لرجل دين يخرج من الكنيسة. وقفنا وقتئذٍ في هدوء على حافة المرج وتبادلنا التحية معه عند مروره. لكن ما لبث أن اختفى من أمامنا حتى استدارت أمي، وأطلقت قهقهة تآمرية، وهي تنحني على. من الممكن حتى أن تكون هذه الواقعة قد حدثت أكثر من مرة. على أية حال، أذكر أنني كنت مفتونًا بمسألة مشاركة أمي في شيء ما يمكن، مثلي تمامًا، أن "تُوبَّخ" لأجله. وربما كان هذا الجانب العفوي من تلك اللحظات حول فناء الكنيسة هو ما جعلها تبدو دائمًا ذات خصوصية بدرجة ما بالنسبة لي.

ذكرياتي عن مكتب العم فيليب أنه كان آيلاً للسقوط. في كل مكان كان هناك صناديق مختلفة الأحجام، كومات من الأوراق، وأدراج مفككة، لم تزل بمحتوياتها، تتكدس بصورة مُهْمَلة فوق بعضها البعض. كنت أنتظر ألا تستحسن أمي تلك الفوضى، لكنها كانت تتحدث عن مكتب العم فيليب على أنه إما مريح أو مزدحم فقط.

لم يفته أبدًا أن يظهر اهتمامه بي في هذه الزيارات، يصافحني بحرارة، ويُجلسني ثم يُشركني في الحوار لعدة دقائق بينما أمي تراقبنا

مبتسمةً. غالبًا ما كان يعطينى هدية، شيئًا ما كان يتظاهر بأنه أعـده وانتظرنى به - رغم أننى أدركت سريعًا أنه كان يهدينى أول شـىء تقع عليه عيناه فى كل مرة. "خمن ماذا أحضرت لك، يا بفن!" كـان يصرخ، بينما يحدق فى كل أنحاء الغرفة بحثًا عن شىء مناسب. بهذه الطريقة حصلت على مجموعة كبيرة من مكونات المكتب، حفظتهـا فى صندوق قديم فى غرفة اللعب: مرمدة سجائر، حامل أقـلام مـن العاج. مرة واحدة فقط فشلت عيناه فـى أن يجـد شـيئًا لـى علـى الإطلاق، بعد أن كان قد أعلن أنه يحمل هدية لأجلى. بعدها جـاءت لحظة من التوقف الحرج، قبل أن ينهض ويبدأ التجول فـى مكتبـه، وهو يتمتم: "وأين وضعتها؟ ماذا فعلت بها بحق الجحيم؟" - وأخيـرًا، ربما من يأسه، تقدم صوب الحائط وخلع من عليـه خريطـة لإقلـيم يانتجزى، وقد أدى هذا إلى تمزيق أحد أركانها، ولفها وأهداها لى.

فى تلك المرة وضعت ثقتى فيه، كنت أنا والعم فيليب نجلس معًا فى مكتبه، فى انتظار عودة أمى من مكان ما. أقنعنى أن أجلس على كرسيه خلف مكتبه، بينما ظل هو يحوم بلا هدف فى أنحاء المكـان. كان يُسر إلى بكلامه المسلى القليل المعتاد، ومن الطبيعى أن يجعلنى أضحك فى أسرع وقت، لكن فى تلك المناسبة - بعد أيام فقـط مـن مناقشتى مع آكيرا - لم أكن فى تلك الحالة المزاجية. علـى الفـور أدرك العم فيليب ذلك وقال:

"إذن، يا بفن. نحن اليوم فى حالة اكتئاب إلى حدٍ ما."

رأيتها فرصة سانحة لى وقلت: "عم فيليب، كنـت فقـط أود أن أسأل. فى ظنك كيف يمكن للواحد أن يكون إنجليزيًا بشكل أكبر؟"

"إنجليزيًا بشكل أكبر؟" توقف عن القيام بأى شىء كان يفعله وحدق فى. ثم، بتعبير متأمل، اقترب، وسحب كرسيًا إلى المكتب وجلس.

"الآن لماذا تريد أن تصبح إنجليزيًا بشكل أكبر مما أنت عليه، يا بفن؟"

"فكرت فقط... حسنًا، فكرت فقط فى ضرورة أن أصبح."

"من قال إنك لست إنجليزيًا بما يكفى فعلاً؟"

"فى الحقيقة، لا أحد." ثم بعد ثانية أضفت: "لكننى أظن أن والدىّ ربما يظنان هذا."

"وماذا تظن، يا بفن؟ أتظن أنه ينبغى عليك أن تكون إنجليزيًا بشكل أكبر؟"

"حقيقةً، لا يمكننى أن أقول، يا سيدى."

"لا، أعتقد أنك لا تستطيع. حسنًا، هذا حقيقى، بالخارج هنا، أنت تكبر وحولك العديد من الصنوف المختلفة للأشياء؛ صينيين، فرنسيين، ألمان، أمريكيين، ماذا عليك. ليس ثم من عجب إذا ما كبرت وصرت هجينًا بدرجة ما." ثم أطلق ضحكة قصيرة واستأنف كلامه: "لكن هذا ليس بالشىء الردىء. أتعرف ماذا أعتقد، يا بفن؟ أعتقد أنه لن يكون رديئًا لو أن الأولاد أمثالك كبروا بشىء ولو قليل من كل شىء. حينئذ، سنعامل بعضنا البعض بصورة أفضل كثيرًا. لتكن أقل هذه الحروب لقاء شىء واحد. آه نعم. ربما ذات يوم، تنتهى

كل هذه الصراعات، ولن تنتهى بفضل العظام من رجال الدولـــة، أو الكنيسة، أو المنظمات المماثلة لهذه. سيحدث هــذا لأن النـــاس قــد تغيرت. سيكونون جميعًا مثلك، يا بَفِن. مزيجا. لذا لمـــاذا لا تصـــبح هجينًا؟ إنه شىء صحى."

"ولكن إذا ما فعلت، كل شىء ربما...." توقفت.

"كل شىء ربما ماذا، يا بفن؟"

"مثل ذلك الشيش هناك" – أشرت – "لو سقطت المفصلة. ربمـــا يتداعى كل شىء."

حدق العم فيليب فى الشيش الذى أشرت إليه. ثم نهــض، ذهــب إلى النافذة ولمسها برفق.

"ربما يتداعى كل شىء. محتمل أن تكون على صواب. أظن أنه شىء لا يمكن أن نتجنبه بسهولة. النـــاس يحتـــاجون إلـــى الشـــعور بالانتماء. إلى أمة، إلى سلالة. وإلا، من يدرى ما يمكن أن يحـــدث؟ حضارتنا هذه، ربما تنهار بالفعل. ويتداعى كل شىء، كمـــا قلـــت." تنهد، وكأننى قد هزمته توًا فى المناقشة. "لذا فأنت تريـــد أن تصـــبح أكثر إنجليزية. حسنًا، حسنًا، يا بفن. إذًا ماذا علينا أن نفعـــل حيـــال هذا؟"

"كنت أتساءل، لو كان مناسبًا، يا سيدى، لو أنك لا تمانع تمامًـــا. أتساءل إذا ما كان لى أن أحاكيك أحيانًا."

"تحاكينى؟"

"نعم، يا سيدى. أحياناً فقط. فقط لأتعلم القيام بالأشياء على الطريقة الإنجليزية."

"هذا إطراء كبير، أيها الصديق العجوز. لكن ألا تظن أن والدك هو من يستحق هذا الامتياز العظيم؟ أقول، فيما يخص القيام بالأشياء بالطريقة الإنجليزية كما أُنزِلَت."

أشحت بوجهى بعيدًا، ولابد أن العم فيليب قد استشعر أنه أخطأ فى قول شىء ما. عاد ثانية إلى كرسيه وجلس مرة أخرى أمامى.

"انظر،" قال بهدوء. "سأخبرك بما سوف نفعل. إذا ما انتابك القلق حول كيفية القيام بأداء الأشياء، أى شىء، إذا ما انتابك القلق حول الطريقة المناسبة للقيام بها، حينئذٍ فقط تأتى إلى وسوف نتناقش بعمق فى الأمر. سوف نتناوله باستفاضة حتى تخرج بالمفيد. الآن، تشعر أنك أفضل؟"

"نعم، يا سيدى، أظننى أفضل." استطعت أن أبتسم. "لك الشكر، يا سيدى."

"انظر هنا، يا بفن. ينتابك خوف بسيط وصحى، أنت نموذج رائع بالفعل. أنا واثق أن أمك وأباك فى منتهى الفخر بك."

"أتظن هذا فعلاً، يا سيدى؟"

"نعم. بالفعل. لذلك، تشعر أنك أفضل؟"

عند هذا، نهض على قدميه ليواصل تجواله فى أرجاء مكتبه. ولكى يعود إلى حالة خفة الدم المعروفة عنه، بدأ يسرد قصة غير

معقولة عن السيدة التى فى المكتب المجاور، مما جعلنى أنهار ضاحكًا.

كم كنت معجبًا بالعم فيليب! ولم يكن هناك أى سبب يجعلنى أفترض أنه لم يكن فى الأصل مغرمًا بى؟ هذا ممكن جدًا فى هذه المرحلة، لم يتمن لى شيئا سوى الخير، ولم يكن لديه أية فكرة، مثلى تمامًا، حول المسار الذى اتخذته الأمور.

عندما بدأت جوانب بعينها فى سلوك آكيرا تضايقنى بشدة، كنا فى الفترة نفسها تقريبًا – ذلك الصيف نفسه. تحديدًا، ثرثرته التى لا تنتهى عن الإنجازات اليابانية. لقد كان دائمًا يستهدف القيام بهذا، لكن فى ذلك الصيف، بدا أن الأمور قد وصلت إلى مستويات جائرة. كان صديقى، وبصورة متكررة، يوقف اللعب لمجرد أن يلقى على محاضرة حول أحدث الأبنية اليابانية التى تم تشييدها فى منطقة المال والأعمال، أو عن الوصول الوشيك لقارب مسلح يابانى آخر إلى الميناء. حينئذٍ كان يُجبرنى على الاستماع إلى أدق التفاصيل، وكل بضع دقائق، أكون مضطرًا للاستماع إلى زعمه بأن اليابان قد أصبحت، "دولة كبرى وعظيمة تمامًا مثل إنجلترا". أكثر الأشياء إثارة كانت تلك المناسبات التى يحاول فيها فتح باب الجدال عمن ينخرط فى البكاء بسهولة، اليابانى أم الإنجليزى. لو أننى انتصفت للإنجليز فى أى وقت، كان صديقى، على الفور، يطلب وضع الأمر فى حيز الاختبار، بما يعنى عمليًا وضعى فى مباراة مخيفة لمصارعة الساعدين حتى يحدث أحد شيئين، إما أن أستسلم أو أنخرط فى البكاء.

فى ذلك الوقت، بررت هوس آكيرا ببطولة سلالته بأنه فى الواقع سيبدأ دراسته فى اليابان فى الخريف التالى. لقد رتب والداه إقامته مع أقاربه فى نجاساكى، ورغم أنه سيعود فى العطلات المدرسية إلى شنغهاى، فإننا أدركنا أن لقاءاتنا ستقل كثيرًا جدًا وعلى الفور جعلتنا

تلك الأنباء تشعر باليأس. لكن مع مقدم الصيف، بدا آكيرا وقد أقنع نفسه بتفوق الحياة بكافة جوانبها فى اليابان وأصبح فى حالة إثارة متزايدة بفكرة مدرسته الجديدة. بدورى انتابنى بالغ القلق من افتخاره المُلِح بكل ما هو يابانى لدرجة أننى مع أواخر الصيف كنت فعليًا أتطلع إلى التخلص منه. حقيقةً، عندما أتى اليوم المنتظر، ووقفت خارج منزله ألوح للسيارة التى أقلته إلى الميناء، أعتقد أننى أبدًا لم أشعر بالأسى.

لكننى، بعد فترة قصيرة جدًا، بدأت أفتقده. ليس لأننى لم أقم صداقات أخرى. على سبيل المثال، كان هناك أخوان إنجليزيان يعيشان بالقرب منى، وكنت ألعب معهما بانتظام، ورأيتهما بصورة أكثر بعد رحيل آكيرا. كنت على علاقة جيدة بهما، خاصة عندما يكون ثلاثتنا فقط فى اللعب. لكن زملاءهم فى المدرسة كانوا يشاركوننا اللعب أحيانًا – أولاد آخرين من مدرسة شنغهاى الحكومية – ثم تغير سلوكهما تجاهى، وكنت أحيانًا هدفًا لمقالب بعينها. بالطبع لم أهتم بهذا مطلقًا، مادمت رأيت أنها جميعًا كانت مقالب من النوع اللطيف لا تضمر بالأساس أى بغض حقيقى. حتى فى ذلك الوقت، كنت أدرك أنه إذا ما كان هناك مجموعة من خمسة أو ستة أولاد، جميعهم إلا واحد زملاء فى المدرسة نفسها، فإن الدخيل سيكون عرضة فى هذه الحالة لأن يصبح هدفًا لمزاح لا ينطوى على أذى. ما أعنيه هو لم أفكر بشكل سيئ فى أصدقائى الإنجليز؛ لكن مع ذلك، منعتنى هذه الممارسات من الوصول بعلاقتى معهم إلى المستوى نفسه من الحميمية والألفة مع آكيرا، ومع مرور الشهور، أعتقد أننى بدأت أفتقد صحبته أكثر وأكثر.

لكن ذلك الخريف الذى شهد أول غياب لآكيرا على وجه التحديد لم يكن كئيبًا على الإطلاق. أذكر ذلك الخريف فترة كنت فيها غالبًا فى حالة من الفراغ، ظهيرات خاوية تمر الواحدة تلو الأخرى، تلاشى معظمها الآن من ذاكرتى. مع ذلك، عددٌ ضئيل جدًا من الأحداث وقع خلال تلك الفترة. أحداث أصبحت لاحقًا أعتبرها ذات دلالة معينة.

على سبيل المثال، الحادثة التى ارتبطت برحلتنا إلى مضمار سباق الخيول مع العم فيليب، تلك التى وقعت بكل تأكيد بعد أحد اجتماعات أمى صباح سبت ما. كما يمكن أن أكون بالفعل قد قلت، رغم تشجيع أمى لى للاندماج مع رفاقها فى الحملات المناوئة للأفيون فى حجرة الصالون، فلم يكن مسموحًا لى بدخول غرفة الطعام لحضور الاجتماعات نفسها. أذكر أننى ذات مرة سألتها عما إذا كان بإمكانى أن أحضر، والمثير للدهشة أنها أمعنت التفكير طويلاً فى الأمر. وأخيرًا قالت:

"معذرةً، يا بفن. لا السيدة آندروز ولا مدام كالّو تستحسنان اصطحاب الأطفال. إنه لشيء يُرثى له. فربما يمكنك أن تتعلم بعض الأمور بالغة الأهمية."

أبى، بطبيعة الحال، لم يكن محظورًا عليه حضور الاجتماعات، لكن بدا أن هناك فرضية قائمة تلزمه بالإحجام عن حضورها. من الصعب الآن أن أقرر ما إذا كان أيهما مسئولاً عن هذه الحالة؛ لكن بكل تأكيد، دائمًا ما كان إفطار صباح السبت الذى يعقد فيه أحد الاجتماعات مشوبًا بجو غريب. بالفعل لم تكن أمى تذكر الاجتماع نفسه لأبى، لكنها كانت تحيطه بنظرة اشمئزاز أثناء تناول الطعام.

يصبح أبى، من جانبه، مصابًا ببشاشة اضطرارية تستمر معه طيلة الصباح وقدُمًا حتى يبدأ ضيوف أمى فى الوصول. كان العم فيليب دائمًا أول من يصل، وكان من المعتاد أن ينهمك مع أبى فى دردشة مصحوبة بكثير من الضحك تستمر لبضع دقائق فى الصالون. ثم مع وصول عدد أكبر من الضيوف، تأتى أمى لتأخذ العم فيليب جانبًا، حيث يبدءان فى التشاور بجدية بخصوص الاجتماع التالى. عند هذه النقطة دائمًا يقوم أبى بتغييب نفسه عادةً بأن يذهب إلى غرفة مكتبه.

فى ذلك اليوم الذى أجتره الآن، أذكر أننى سمعت الزوار وهم

يهمون بالمغادرة بعد انتهاء الاجتماع، وخرجت إلى الحديقة لأنتظر أمى – التى ظننت أنها، كالعادة ستظهر بعد قليل للاستيلاء على أرجوحتى، وهى تتغنى طيلة الوقت بنغماتها الآسرة. وعندما لم يظهر لها أى أثر بعد فترة، دخلت البيت لأتحرى الأمر، وحين دخلت إلى المكتبة وجدت باب غرفة الطعام مواربًا؛ بما يعنى أن الاجتماع قد انتهى بالفعل، غير أن العم فيليب وأمى كانا ما زالا هناك. ثم ظهر أبى خلفى، وكان يظن، دون شك، أن المهمة الصباحية قد انتهت. عندما سمع الأصوات الآتية من غرفة الطعام، أوقفنى وقال لى:

"أوه، إنهم ما زالوا بالداخل."

"العم فيليب فقط."

ابتسم أبى، ثم تقدمنى إلى داخل غرفة الطعام. عبر الباب كنت أرى العم فيليب واقفًا على قدميه، ثم سمعت الرجلين وهما يضحكان بصوت مرتفع وتلا ذلك ضحك أكثر تشوبه روح الدعابة. حينئذ،

وبينما كنا ننتهى من تناول طعامنا، طرح العم فيليب اقتراحه: لماذا لا نذهب جميعًا إلى مضمار سباق الخيول لقضاء فترة بعد الظهر؟ فكرت أمى فى الأمر وأعلنت أنها فكرة رائعة. قال أبى أيضًا إنها فكرة جيدة، لكنه تحتم عليه الاعتذار بسبب الأعمال التى تنتظره فى غرفة المكتب.

"لكن بشكل ما يا حبيبتى،" قال وهو يلتفت لأمى، "لماذا لا تذهبين أنت مع فيليب؟ يبدو أنها ستكون ظهيرة رائعة."

"حسنًا، فى الواقع، أظن أن هذا ممكنًا،" قالت أمى. "قليل من الإثارة من الممكن أن يترك أثرًا جيدًا علينا. وعلى كريستوفر أيضًا."

وفى تلك اللحظة نظر جميعهم إلى. ورغم أننى كنت وقتئذٍ فى التاسعة فقط من العمر، فقد نجحت فى قراءة الموقف بدرجة ما من الدقة. بطبيعة الحال، كنت أعرف أننى فى وضع اختيار عرض: أن أخرج للذهاب إلى مضمار سباق الخيول أو البقاء فى البيت مع أبى. لكننى أعتقد أننى فهمت أيضًا المعانى الضمنية بعمق: لو أننى اخترت البقاء بالبيت، حينئذ سترفض أمى الذهاب إلى مضمار سباق الخيل وحدها فى صحبة العم فيليب. بعبارةٍ أخرى، الخروج متوقف على ذهابى معهما. إضافةً إلى أننى عرفت – وقد أدركت هذا بيقين هادئ – أن أبى وقتئذٍ كان يعتريه أمل ميئوس من تحققه فى عدم ذهابنا، لأن قيامنا بهذا سيتسبب فى ألم بالغ له. لم تش سلوكياته بما جعلنى أفترض هذا، لكن فى الحقيقة، كان هذا نتاج ما استوعبته خلال الأسابيع والشهور الماضية – ربما دون قصد. كانت هناك، بالطبع، أمورٌ لم أفهمها مطلقًا تلك الأيام، غير أننى تقريبًا أدركت هذا

بوضوح بالغ: في تلك اللحظة، كان أبي يعتمد على تمامًا في إنقاذ الموقف.

لكن ربما لم أفهم بما فيه الكفاية. لأنه عندما قالت أمي: "هيا، يا بفن. أسرع وأحضر حذاءك،" فعلت ذلك بحماس واضح، حماس اختلقته للاستعراض. وبإمكاني أن أحمل في ذاكرتي من هذا اليوم صورة أبي وهو يشيعنا إلى الباب الأمامي، وهو يصافح العم فيليب، ضاحكًا وملوحًا لنا عندما أخذت العربة أمي، والعم فيليب وأنا بعيدًا في طريقنا لنزهة ما بعد الظهر.

الذكريات القلائل التي ظلت واضحة من ذلك الخريف كانت أيضًا تخص أبي. تحديدًا، تلك اللحظات الغريبة من "تفاخره". كان أبي دائمًا معتدلاً في طباعه وكان يرى التفاخر في الآخرين ضعفًا. ولهذا السبب انتابني الذهول في ذلك الوقت لأنه من الشاذ جدًا أن أسمعه يتكلم بالطريقة التي تكلم بها في عدة مناسبات متفرقة خلال تلك الفترة. تلك كانت جميعها لحظات قصيرة أصابتني باندهاش ضئيل، ومع ذلك بقيت مع مرور السنوات في ذاكرتي.

على سبيل المثال، تلك المرة التي كنا فيها على العشاء عندما قال لأمي بغتة:

"هل أخبرتك، يا حبيبتي؟ هذا الزميل عاد لرؤيتي، هذا المندوب عن عمال رصيف تحميل السفن وتفريغها. أراد أن يشكرني على كل ما فعلته لأجلهم. كان يتحدث إنجليزية جيدة للغاية أيضًا. دائمًا ما يتكلم هؤلاء الصينيون بإسراف حين التعبير عن عواطفهم، بطبيعة

الحال. لابد أن يتناول الواحد أحاديثهم مع مقدار من الملح. لكن أتعرفين، يا عزيزتى، لدى انطباع واضح بأنه صادق فيما قال. قال إننى "بطلهم المبجل". ما رأيك فى هذا؟ بطل مبجل!"

ضحك أبى، ثم ترقب أمى بعناية. واصلت تناولها للطعام للحظة، ثم قالت:

"نعم، يا حبيبى. لقد سبق وأخبرتنى بذلك."

بدا أبى متضائلاً قليلا، لكنه في اللحظة التالية ابتسم ثانيةً ببشاشة وضحك مرة أخرى وهو يقول: "فعلاً أخبرتك!" ثم التفت إلى، قائلاً: "لكن بفن هنا لم يسمع بهذا بعد. أليس كذلك، يا بفن؟ بطل مبجل. هكذا يلقبون أباك."

لا أذكر عن أى شيء كان ذلك، ومن المحتمل ألا أكون قد أعرت الأمر كثيرًا من الاهتمام. لقد تذكرت الواقعة فقط لأنها، كما قلت، كانت غريبة على أبى أن يتحدث عن نفسه بهذه الطريقة.

حادثة أخرى من هذا النوع وقعت ذات ظهيرة كان والدىّ خلالها فى الطريق إلى الحدائق العامة كى يستمعا إلى فرقة الآلات النحاسية. كنا قد خرجنا من العربة لتونا عند الطرف الأعلى من رصيف الميناء، وكنت أنا وأمى نحدق عبر الجادة(٧) العريضة باتجاه البوابة داخل الحديقة. كانت إحدى ظهيرات أيام الأحد المشمسة، وأذكر أن الأرصفة على كلا الجانبين كانت مزدحمة بمتنزهين يرتدون ملابس

(٧) الجادة: شارع عريض تكتنفه الأشجار. (المترجم)

مبهجة وجميلة ويستمتعون بالنسيم الذى كان يهب من الميناء. رصيف الميناء نفسه كان مزدحمًا بالعربات، والسيارات والجِنْرِكْشات،[٨] وكنت أستعد أنا وأمى لعبوره، حين تقدم أبى خلفنا، بعد أن دفع للسائق أجرته، وقال بغتةً بصوت مدوٍ للغاية:

"هل ترين، يا حبيبتى، إنهم فى الشركة الآن يعرفون. يعرفون أننى لست الشخص الذى يتزحزح عن مطالبه. بينتلى يعرف هذا، أيضًا. آه نعم، إنه الآن يعرف هذا تمام المعرفة!"

فى البداية لم تُظهر أمى بأى شكل أنها سمعت، تمامًا مثلما حدث فى واقعة العشاء. أخذت يدى وشققنا طريقنا وسط الزحام صوب الحديقة. "أحقًا يعرف؟" كل ما تمتمت به همسًا عندما بلغنا الجانب الآخر.

غير أن هذا لم يكن حقيقةً تتمة الأمر. دخلنا الحديقة العامة ولفترة، مثل كل أسرة أخرى دخلت الحديقة بعد ظهيرة أحد أيام الأحد، تمشينا حول المروج والمزاهر ونحن نلقى التحية على الأصدقاء والمعارف، ونتوقف بين الحين والآخر لدردشة قصيرة. أحيانًا كنت أرى أولادًا أعرفهم – من المدرسة أو من دروس البيانو فى منزل مدام لويس – لكنهم كانوا، مثلى، يمشون إلى جوار آبائهم متظاهرين بأعلى مستويات السلوك، وكنا نتعرف على بعضنا البعض بخجل، وربما أبدًا. كانت فرقة الآلات النحاسية ستبدأ العزف فى

---

(٨) الجِنْرِكْشة: عربة صغيرة بدولابين تتّسع لشخص واحد عادةً ويجّرها رجل واحد، تُستعمل فى اليابان. (المترجم)

الخامسة والنصف تمامًا، ورغم أن الجميع كانوا يعرفون هـذا، فـإن معظم الناس كانوا ينتظرون حتى تندفع الأبواق بعرض الحديقة قبـل أن يتحركوا حركة واحدة صوب منصة الفرقة الموسيقية.

دائمًا ما كنا نتأخر في التحرك، حتى إن كل المقاعد تكـون قـد شُغِلَت مع وصولنا. لم أكن أهتم بذلك كثيرًا، مادام أنه كان مسـموحًا لنا نحن الأطفال بحركة أقل تقيدًا حول منصة الفرقة، وأحيانًا ما كنت أيضًا أختلط مع الأطفال الآخرين للعب هناك. في تلك الظهيرة بعينها - لابد أننا كنا في الخريف لأنني أذكر أن الشمس كانت بالفعل آخـذة في الغروب فوق الماء خلف منصة الفرقة - كانت أمي قد تحركـت بضع خطوات بعيدًا لتتحدث مع بعض الأصدقاء الواقفين على مقربة، وبعد دقائق عدة من الاستماع إلى الموسيقى، طلبت من أبي أن يـأذن لي بالذهاب إلى بعض الأولاد الأمريكيين الذين كنت أعرفهم وكـانوا يلعبون على الحافة الخارجية من تجمعات النـاس. واصـل النظـر بإمعان إلى الفرقة الموسيقية ولم يرد، لذلك كنت على وشـك تكـرار طلبي، عندما قال بهدوء:

"كل هؤلاء الناس هنا، يا بفن. كل هؤلاء الناس. استفسر مـنهم وسوف يقرون أن لديهم معايير وقيمًا. لكنك سترى كلما كبـرت، أن قليلين جدًا منهم لديهم بالفعل معايير وقيم. على الرغم من هذا، أمـك تختلف. لا تخذل نفسها أبدًا. وتعرف، يا بفن، لهذا السبب تنجح فـي النهاية. لقد جعلت من أبيك رجلاً أفضل. أفضل كثيرًا. حسـنًا جـدًا، ربما كانت صارمة، لست بحاجة لأن أعرفك هذا، ها ها! حسنًا، إنها في منتهى الصرامة معي مثلما هي معك تمامًا. والمدهش أنني بهـذا

إنسان أفضل. أخذت وقتًا طويلاً، لكنها نجحت. أريدك أن تعرف هذا، يا بفن، والدك لم يعد اليوم الشخص نفسه الذى رأيته فى ذلك الوقت، تعرف، وقت أن اندفعت أنت وأمك على. أتذكر ذلك، بالطبع نعم. تلك المرة حين كنت في مكتبي. آسف لأنه حدث واضطررت أن ترى والدك هكذا. حسنًا على أية حال، لقد كان هذا فيما مضى. اليوم، شكرًا لأمك، بإمكانى أن أقول أنا الآن شخص أقوى بكثير، يا بفن، ذات يوم ستفخر بى."

استوعبت قليلاً مما قاله، إضافةً إلى أننى شعرت لو أن أمى – التى كانت على مقربة منا – سمعت كلمة من هذه الكلمات، كانت ستغضب. لهذا لم أرد على أبى حقيقةً. لدى إحساس بأننى ببساطة سألته ثانيةً، بعد بضع لحظات، عما إذا كان بإمكانى أن أذهب لأنضم إلى أصدقائى الأمريكيين، وكان ذلك نهاية الأمر.

لكن خلال الأيام اللاحقة، وجدت نفسى أمعن التفكير فى الكلام الغريب الذى قاله أبى، وتحديدًا، ذكره لحادثة ما قمت فيها أنا وأمى بمداهمته فى مكتبه. لوقتٍ طويل، لم يكن عندى فكرة عما أشار إليه، وحاولت، دون جدوى، أن أضاهى ذكرى أو أخرى مع كلماته. أخيرًا استقر فكرى على ذكرى واحدة من سنوات حياتى الأولى، حيث لم يكن عمرى قد تجاوز الخامسة أو الرابعة بأى حال من الأحوال – ذكرى قد أصبحت بالفعل غامضة ومضببة فى عقلى، حتى حينئذٍ عندما كنت فى التاسعة من العمر.

كانت غرفة مكتب أبى فى أعلى طابق من المنزل وتطل على الحديقة الخلفية. لم يكن يسمح لى عادةً بدخولها، وبشكل عام لم يكن

مُحَبَّذًا أن ألعب فى أى مكان بالقرب منها. لكن كان هناك ممر ضيق يقود من منبسط الدرج إلى باب غرفة المكتب، على امتداده، صف من اللوحات ذات براويز ثقيلة ذهبية الطلاء. كانت لوحات دقيقة تشبه تصميمات لميناء شنغهاى إذا ما شوهد من منظور شخص يقف على الشاطئ فى بووتانغ؛ بعبارة أخرى، كل المراكب الكثيرة فى الميناء كانت تظهر ومعها أبنية الميناء العظيمة فى الخلفية. ربما يرجع تاريخ الصور على الأقل إلى ثمانينيات القرن التاسع عشر وأظن أنها ملك للشركة مثل الكثير من التحف والصور فى المنزل. الآن، أنا نفسى بالفعل لا أتذكر هذا، لكن أمى غالبًا ما كانت تخبرنى كيف كنا نقف أمام هذه اللوحات ونسمى المراكب الكثيرة التى فى الماء بأسماءٍ مضحكة. وفقًا لأمى، كنت أنخرط سريعًا فى الضحك وكنت أحيانًا أرفض إنهاء اللعبة حتى نكون قد أطلقنا اسمًا على كل مركب نراه. لو كان الأمر هكذا – لو كان الضحك الصاخب بالفعل من عادتنا طيلة هذه اللعبة – فمن المؤكد إذن أننا لابد لم نكن نصعد لنُسلّى نفسنا بهذه الطريقة أثناء وجود أبى فى غرفة مكتبه. لكن عندما أمعنت التفكير فى كلام أبى أثناء وقوفنا عند منصة الفرقة الموسيقية فى ذلك اليوم، بدأت أتذكر موقفًا لى أنا وأمى وكنا نقف معًا بالفعل على أرضية العِلِّيَّة تلك، كنت فى تمام استغراقى فى ممارسة لعبتنا تلك، عندما بغتةً توقفت واستكانت تمامًا.

ظننت فى البداية أننى على وشك التعرض لنوبة من التعنيف، ربما بسبب شىء ما تفوهت به تَوًا ولم يعجبها. لم يكن حتى معروفًا عن أمى أن يتغير مزاجها فجأةً فى مغبة الانسجام وتعنفنى بسبب

سوء تصرف كنت قد ارتكبته فى أول اليوم وهى قد تذكرته بغتةً. لكن عندما لزمت الصمت استعدادًا فقط لمثل هذا الانفجار، أدركت أنها تسترق السمع. ثم فى اللحظة التالية استدارت ودفعت الباب الذى انفتح بصورة فجائية جدًا على أبى فى مكتبه.

لمحت داخل الغرفة عبر كتلة جسم أمى. الصورة الثابتة هى لأبى ينهار فجأة على مكتبه، ووجهه يغطيه العرق وتلتوى قسماته من الإحباط. ممكن جدًا أنه كان ينشج وأن صوت نشيجه هو ما استلفت انتباه أمى. أمامه، وفى كل بقعة على مكتبه، كانت هناك أوراق، دفاتر، كراسات. لاحظت – أظن أننى تتبعت اتجاه نظرة أمى – ورق وكراسات أكثر على الأرض، كما لو كان قد قذف بها أرضًا فى نوبة عصبية حادة. كان ينظر لأعلى علينا، وهو فى حالة إجفال، ثم فى اللحظة التالية قال بصوت صدمنى بلا شك:

"ليس بإمكاننا أن نفعلها! لن نرجع أبدًا! أنت تطلبين الكثير جدًا، يا ديانا. هذا كثير جدًا!"

همست أمى له بشيء ما، شيء من التأنيب بلا شك كى يستعيد رباطة جأشه. فى هذه اللحظة استعاد أبى توازنه قليلاً، وحدق عبر أمى، نظر إلى لأول مرة. لكن وجهه تغضن على الفور تقريبًا باليأس، وقال ثانية وكان قد التفت لأمى وهو يهز رأسه بضعف:

"هذا ليس فى مستطاعنا، يا ديانا. سوف ننهار جميعًا. لقد فكرت فى كل شيء. لن نعود أبدًا إلى إنجلترا. لن نجد ما يكفى للحياة. بدون الشركة، نصبح مشردين."

ثم بدا وقد فقد السيطرة مرةً أخرى، وعندما بدأت أمى تقول شيئًا آخر – شيئًا بصوتها الهادئ الغاضب – بدأ أبى فى الصراخ، لم يكن صراخه فى وجهها بقدر ما كان فى جدران غرفة المكتب.

"لن أفعل هذا، يا ديانا! يا إلهى، إلى ما تدفع بى؟ إن هــذا فــوق تحملى، فوق تحملى، أتسمعين؟ فوق تحملى! لا أستطيع هذا."

من الممكن أن تكون أمى فى هذه اللحظة قد أغلقت الباب عليه، وأخذتنى بعيدًا. لا أتذكر عن هذه الواقعة أكثر من ذلــك. وبــالطبع، لست متأكدًا من أحاسيسى بالضبط، ناهيك عن نص الكلام، الذى تفوه به أبى ذلك اليوم. لكن هكذا تشكلت هذه الذكرى فى عقلى، وأعترف أننى أضفت إدراكى البعدى لها.

فى ذلك الوقت، كانت تلك تجربة مربكة بالنسبة لى فعليًا، ورغم أننى ربما وجدت من المثير أن يمر أبــى، مثلــى، بلحظــات بكــاء وصراخ، فإننى لم أسأل كثيرًا عن سبب هذا كله. إضافةً إلــى أننــى عندما رأيت أبى فى المرة التالية، وجدته قد عاد لطبيعته مرة أخرى، أمى، من جانبها، لم تُلمح إلى هذه الحادثة مرةً أخرى أبــدًا. ولــو أن أبى، فيما بعد بسنوات، لم يتفوه بكلامه الغريب ونحن نقــف بجانــب منصة فرقة الآلات النحاسية، ربما ما كنت أبدًا لألتقط هذه الــذكرى مطلقًا.

لكن كما أقول، بعيدًا عن كل هذه الحكايات الصــغيرة الغريبــة، فهناك قليل منها جدير بالتذكر فى ذلك الخريف والشتاء الكئيب الــذى حل بعده. كنت فاتر الهمة لوقت طويل من تلك الفترة وابتهجت عندما

ألقت مى لى، إلى بمحض الصدفة، بأخبار عن عـودة آكيـرا مـن اليابان، وأن أمتعته، فى هذه اللحظة، يتم إنزالها من السيارة الواقفـة فى الممشى بجوار الباب.

شعرت بالبهجة لأن آكيرا قد عاد إلى شنغهاى ليس فقط للزيارة، لكن لأجل غير مسمى، ومعه خطط لاستئناف دراسته فـــى مدرســـته القديمة فى نورث سيشوان روود مع بداية الفصل الدراسى الصـــيفى. لا أذكر أن أيًا منا قد احتفل بعودته بطريقة خاصة من أى نوع. لدى انطباع بأننا واصلنا صداقتنا من حيث انتهينا بها فى الخريف الســـابق بأقل قدر من الجلبة. كنت أشعر بفضول كبير لسماع تفاصيل تجربـــة آكيرا فى اليابان، لكنه أقنعنى بأنه من الطفولى - وإلى حدٍ ما أقل من مستوى اهتماماتنا - أن نناقش مثل هذه الأمور، ولذلك أعلنّـــا عـــن رغبتنا فى استئناف صداقتنا وفقًا للروتين القديم وكأننا لم ننقطع أبـــدًا عن ذلك الروتين. خمنت بالطبع ألا تكون الأمور قد سارت معه على ما يُرام فى اليابان، لكننى لم أبادر بالشك فى نصف هذا إلا فى هـــذا اليوم الربيعى الدافئ عندما مزق كُمَّ الكيمون(٩) الذى كان يرتديه.

عندما كنا نلعب بالخارج، كان آكيرا يرتـــدى ملابـــس مماثلـــة لملابسى إلى حدٍ كبير - قميص، وشورت، فى الأيام الحارة، وقبعـــة ضد الشمس. لكن فى ذلك الصباح بعينه وأثناء لعبنا على رابية فـــى الحديقة الخلفية لمنزلنا، كان يرتدى الكيمون - وهذا ليس اســـتثنائيًا، كان مجرد ثوب غالبًا ما يرتديه حول بيته. كنا نجرى أعلى وأســـفل الرابية ونحن نؤدى دراما، عندما توقف فجأةً على قمة الرابية وجلس

(٩) الكيمون: ثوب فضفاض واسع الرُدنين يرتديه اليابانيون. (المترجم)

مقطب الجبين. ظننت أنه جرح نفسه لكن، عندما تقدمت نحوه، رأيته يتفحص قطع في كُمّ الكيمونو. كان يفعل هذا بمنتهى التركيز، وأعتقد أنني قلت له شيئًا ما مثل:

"ماذا جرى؟ سوف تقوم خادمتك أو أى شخص آخر بحياكة ذلك فى أسرع وقت."

لم يرد - بدا للحظة أنه قد نسي وجودى كليةً - وأدركت أنه كان غارقًا فى كرب عميق أمام عيني. استمر فى فحص القطع لبضع ثوان أخري، ثم أرخي ذراعه، وحدق باندهاش فى الأرض أمامه وكأن مأساة هائلة قد حلت به توًا.

"هذه ثالث مرة،" تمتم بهدوء. "للمرة الثالثة فى أسبوع واحد أتعرض لفأل نحس."

حينئذٍ، عندما واصلت النظر إليه بارتباك إلى حدٍ ما، قال: "ثالث فأل نحس. الآن سيعيدنى أبى وأمى مرةً أخرى إلى اليابان."

بطبيعة الحال، لم أستطع أن أفهم كيف أن قطعا صغيرا فى كيمون قديم يمكن أن يفضى إلى كل هذه العواقب، لكننى فى هذه اللحظة كنت منتبهًا جدًا على إثر هذا المشهد لأهمية أن أربض إلى جواره وأطلب منه بإلحاح تفسيرًا لكلماته. لكننى لم استطع أن أخرج من صديقى إلا بأقل القليل ذلك الصباح - فقد ازدادت حدة تجهمه وانغلاقه - ويبدو أننى أذكر تفرقنا وعلاقتنا ليست فى أفضل حال. مع هذا، فخلال الأسابيع اللاحقة، اكتشفت تدريجيًا ما كان كامنًا وراء سلوكه الغريب هذا.

منذ أول يوم له في اليابان، وآكيرا في منتهى التعاسة. ورغم أنه لم يُعلن عن هذا صراحةً، فقد حدست أنه نُبِذ بجلافة بسبب "غرابته"؛ طباعه، وتصرفاته، وكلامه، ومئات الأشياء الأخرى التي جعلته موصومًا بالاختلاف، وأنه لم يُوَبَّخ بطريقة مهينة من قِبَل أقرانه اليابانيين فقط، بل ومن معلميه وحتى - لقد ألمح إلى هذا أكثر من مرة - من الأقارب الذين كان يُقيم في بيتهم. في النهاية، كان حزنه عميقًا، واضطر والداه لإعادته لبيته في منتصف الفصل الدراسي.

استولت على صديقي فكرة أنه ربما يضطر للعودة إلى اليابان مرةً أخرى. والحقيقة أن والديه افتقدا اليابان بصورة مزعجة وغالبًا ما تحدثا عن عودة الأسرة إلى هناك. لقد أدرك آكيرا - مع أخته الكبرى، إتسوكو، التي لم تكن كارهة للعيش في اليابان على الإطلاق - أنه الوحيد في الأسرة الذي يتمنى أن يظل في شنغهاي؛ وأن اعتراضه القوي فقط على الفكرة هو ما منع والديه من حزم الأمتعة والإبحار إلى نجاساكي، ولم يكن متأكدًا بالمرة من طول المدة التي ستظل خلالها اختياراته تحظى بالأولوية على اختيارات أخته ووالديه. كانت الأمور في أفضل حالات التوازن، وأي استياء يجلبه على نفسه - أي خطأ، أدنى فشل دراسي - كان يمكن أن يقلب الموازين ضده. ومن ثم فقد افترض أن قطعًا صغيرًا في كُمّ الكيمونو ربما ينشق بسهولة عن أسوأ العواقب.

كما حدث، لم يُسفِر الكيمونو الممزق تقريبًا عن الغضب الشديد الذي كان يخشاه من قِبَل والديه، ولم يسفر الأمر بالمرة عن شيء ذي بال. لكن خلال تلك الشهور التي تلت عودته، كان كل حادث مؤسف

صغير يقع تلو الآخر يدفع صديقى للعودة إلى كهف القلق والجـزع. أعتقد أن أهم هذه الحوادث المؤسفة كانت المسألة الخاصة بلينغ تـين وعملية السرقة التى قمنا بها – "جريمة ماضيى" التى أثارت فضـول سارة كثيرًا أثناء ركوبنا للباص هذه الظهيرة.

كان لينغ تين مع أسرة آكيرا طيلة فترة إقامتها فى شنغهاى. ومن بين ذكرياتى الأولى عن ذهابى إلى البيت المجاور للعب كانت عـن هذا الخادم العجوز وهو يمشى متثاقلاً خلف مقشته. كان يبدو عجوزًا للغاية، ودائمًا ما كان يرتدى عباءة ثقيلة حتى فـى أيـام الصـيف، وقَلَنسُوَة وضفيرة تتدلى من مؤخرة الرأس. نادرًا مـا كـان يبتسـم للأطفال، على عكس كل الخدم الصينيين فى البيوت المجاورة، لكن لم يحدث أيضا أن قطّب جبينه أو نهرنا، ولولا سلوك آكيرا معـه، لمـا كان محتملاً أن أعتبره مصدر خوف. فى الواقع، أنكر أننى كنت فى البداية الأكثر ارتباكًا من جراء الذعر الذى يستولى على آكيرا كلمـا اقترب الخادم منا. على سبيل المثال، لو أن لينـغ تـين كـان يمـر بالكوريدور، كان صديقى يقطع أى شيء كنا نقوم به ويقف متصـلبًا فى مكان جزء من الغرفة لا يراه الرجل العجوز ولا يتحـرك ثانيـةً حتى يزول الخطر. فى تلك الأيام الأولى من صداقتنا، لم أكن بعد قد أصبت بعدوى الإحساس بالفزع الذى أصاب آكيرا، مفترضًا أنه ناتج عن شيء ما محدد حدث بين آكيرا ولينغ تين. كما أقول، لقـد كنـت مرتبكًا للغاية، لكن كلما سألت آكيرا عـن تفسـير لسـلوكه. كـان يتجاهلنى بمنتهى البساطة. بعد فترة اعتدت أن أقدر عميـق ارتباكـه لعدم قدرته على التحكم فى فزعه من لينغ تين وتعلمت ألا أقول شيئًا كلما كانت مبارياتنا تتعطل بهذه الطريقة.

لكن ومع تقدمنا فى السن، أتصور أن آكيرا بدأ يشعر بالحاجة إلى مبرر لخوفه. مع بلوغنا سن السابعة أو الثامنة، لم تعد رؤية لينغ تين تسبب لصديقى أى تَجَمُد؛ وبدلاً من ذلك، كان يقطع أى شىء يقوم به وينظر إلى بابتسامة عريضة مشوبة بالغرابة. ثم يضع فمه بالقرب من أذنى، ويسرد باطّراد رتيب وفضولى - لا يختلف عن الرهبان الذين سمعناهم أحيانًا يترنمون فى سوق بوونى روود - أكثر الإيحاءات فزعًا بالنسبة للخادم العجوز.

لهذا عرفت عن لينغ تين ولعه المخيف بالأيدى. حدث ذات مرة أن آكيرا نظر أسفل الكوريدور المؤدى إلى غرفة لينغ تين فى مناسبة نادرة كان الخادم قد ترك فيها بابه مواربًا، ورأى الأيدى الكالحة للرجال والنساء والأطفال والقردة مُكومة على الأرض. مرة أخرى، رآى آكيرا الخادم فى وقت متأخر من الليل وهو يحمل سلة إلى داخل البيت متخمة بأذرع قردة صغيرة ممزقة. نبهنى آكيرا بأننا ينبغى دائمًا أن نكون تحت أعين تحرسنا. لو أننا أعطيناه أقل فرصة، فسوف لن يتردد لينغ تين فى قطع أيادينا.

عندما تساءلت عن سبب ولع لينغ تين الشديد بالأيدى، بعد عدد من هذه التعليمات، نظر آكيرا إلىّ بإمعان، ثم سأل عما إذا كان من الممكن أن يأتمننى على أهم أسرار الأسرة. عندما أكدت له إمكانية هذا ، أمعن التفكير لفترة أطول قليلاً قبل أن يقول فى النهاية:

"إذن سأخبرك، أيها الفتى العجوز! سببٌ مفزع! سبب قطع لينغ تين للأيدى. سوف أخبرك!"

من الواضح أن لينغ تين قد اكتشف وسيلة يحول بها الأيدى الكالحة إلى عناكب. فى غرفته كانت هناك أحواض كثيرة بها سوائل عديدة ينقع فيها الأيدى الكثيرة التى مرة واحدة. ببطء تبدأ الأصابع فى الحركة وحدها - فى البداية ارتعاشات قليلة فقط، ثم حركات التفافية، وأخيرًا تخرج شعرات قاتمات، ثم يأخذها لينغ تين من السائل ويضعها مفككة مثل العناكب، فى كل أنحاء المنطقة المجاورة. غالبًا ما كان آكيرا يسمع الخادم العجوز وهو يتسلل فى جوف الليل إلى الخارج فقط ليفعل هذا. حتى إن صديقى ذات مرة إحدى متحولات لينغ التى أُخِذَت من محلولها قبل الأوان ولم تصبح بعد شبيهة بعنكبوت ويمكن بسهولة تسميتها يد كالحة، تتحرك فى الحديقة تحت العشب.

رغم أننى حتى فى هذه السن لم أستطع مطلقًا أن أصدق هذه القصص، فقد كانت بالفعل تقلقنى وتزعجنى ولبعض الوقت كانت مجرد رؤية لينغ تين كافية لإثارة الفزع داخلى. فى الواقع، مع تقدمنا فى السن قليلا، لم يستطع أينا أن يتخلص تمامًا من هلعه من لينغ تين. كان هذا الشيء دائمًا ما يخدش كبرياء آكيرا، وحينما بلغنا الثامنة من العمر تقريبًا، بدأ يتزايد احتياجه المستمر لتحدى هذه المخاوف القديمة. غالبًا ما أتذكره وهو يسحبنى لمكان ما فى بيته حيث يمكننا التجسس على لينغ تين وهو يمسح الحمام أو يقوم بأى شىء آخر. لم أكن أمانع كثيرًا فى القيام بهذه الطلعات التجسسية، لكن الذى كان يصيبنى بالفزع هى تلك المرات التى كان آكيرا فيها يحملنى بإلحاح على التجاسر والاقتراب من غرفة لينغ تين.

حتى هذه النقطة حافظنا على ابتعادنا عن تلك الغرفة، مادام آكيرا دائمًا ما أكد أن الأبخرة التى تتصاعد من سوائل لينغ تسين كان من الممكن أن تنومنا مغناطيسيًا وتسحبنا إلى الداخل عبر الباب. أصبحت الآن فكرة الاقتراب من الغرفة بالنسبة لصديقى هاجسًا يستحوذ عليه ويستبد به. ربما نكون فى حالة استغراق تام فى حوار حول أمر مختلف تمامًا، ثم بغتةً، تظهر هذه التكشيرة الغريبة على وجهه ويبدأ فى الهمس: "هل أنت خائف؟ كريستوفر، هل أنت خائف؟"

حينئذٍ كان يُجبرنى على أن أتبعه داخل بيته، عبر تلك الغرف ذات الأثاثات الغريبة، إلى المدخل المقوس بدعاماته الثقيلة الذى يُعَين بداية الجزء الخاص بالخدم. ساعة نمر تحت قوس المدخل، نجد أنفسنا نقف فى كوريدور معتم أرضه مكسوة بألواح خشبية عارية ولامعة، على الطرف الآخر المواجه لنا، كان باب غرفة لينغ تين.

فى البداية، كان يُطلَب منى أن أقف على المدخل وأراقب بينما كان آكيرا يدفع نفسه خطوة بعد أخرى فى الكوريدور حتى قطع نصف المسافة تقريبًا باتجاه تلك الغرفة الكريهة. ما زلت أرى صديقي، بجسمه القصير المكتنز وقد تصلب من التوتر، ووجهه الذى كلما استدار لينظر نحوى يلمع من جراء العرق، ممنيًا نفسه ببضع خطوات أبعد قبل يلتفت إلىّ مرارًا بابتسامة نصر عريضة. بعدئذٍ تأتى كل تحفيزاته وتنمراته حتى أتمكن من استجماع شجاعتى وأحذو حذوه فى عمله البطولى هذا. لفترة ملحوظة، كما أقول، استبدت بآكيرا، إلى حدٍ ما، اختبارات الشجاعة الخاصة بغرفة لينغ تين، واستهلكت كثيرًا من متعة الذهاب للعب فى بيته.

مع ذلك، ولبعض الوقت أيضًا، ظلت مسألة التقدم مباشرةً صوب الباب أكبر من كلينا، هذا بغض النظر عن الدخول عبره إلى الغرفة. عندما دخلنا غرفة لينغ تين أخيرًا، كنا فى سن العاشرة، وكان هذا – رغم أننى لم أكن أعرف ذلك وقتئذٍ – هو عامى الأخير فى شنغهاى. كان ذلك عندما ارتكبت أنا وآكيرا حادثة السرقة الصغيرة – فعلة متهورة، ولدهشتنا، فشلنا تمامًا فى تحاشى أصدائها الواسعة.

كنا دائمًا على دراية بأن لينغ تين يرحل لمدة ستة أيام فى أوائل أغسطس لزيارة قريته الأم بالقرب من هانغتشو، وكنا قد تحدثنا كثيرًا عن كيفية انتهاز الفرصة حينئذٍ لدخول تلك الغرفة أخيرًا. وبالتأكيد، فى أول ظهيرة بعد رحيل لينغ تين، انطلقت إلى منزل آكيرا لأجد صديقى فى تمام الاستغراق بالأمر. يجب أن أقول إننى عمومًا كنت، وقتئذٍ، شخصا تزيد ثقته بنفسه كثيرًا حتى العام السابق من عمره، ولو أننى كنت لم أزل أشعر بقليل من تلك الرهبة القديمة من لينغ تين، فأنا بالتأكيد لم أكن أظهرها. فى الحقيقة، أظن أننى كنت الأكثر هدوءًا فى مشهد دخول الغرفة – وهذا شىء لاحظه صديقى بكل تأكيد ورأى أنه جانب إضافى فى هذا التحدى.

انقلب الأمر، فخلال تلك الظهيرة، كانت أم آكيرا تحيك فستانًا؛ ولسببٍ ما تطلب هذا الفستان منها أن تتحرك باستمرار من غرفةٍ إلى أخرى، وأعلن آكيرا أنه من المخاطرة بحال مجرد التفكير فى مغامرتنا. بالتأكيد لم أتضايق لهذا، لكننى على يقين بأن آكيرا كان الأكثر امتنانًا بهذا العذر.

لكن اليوم التالى، كان يوم سبت وعندما وصلت منزل آكيرا مع منتصف الصباح تقريبًا، كان والداه قد خرجا. لم يكن لآكيرا مربية، مثلى، وعندما كنا فى سن أصغر كنا نتجادل غالبًا حول الأكثر حظًا منا. كان دائمًا يتبنى موقفًا مفاده أن أطفال اليابان ليسوا بحاجة إلى مربية لأنهم أكثر شجاعة من أطفال الغرب. ذات مرة سألته، أثناء واحدة من مجادلاتنا حول هذا الموضوع، من سيلبى حاجاته حال خروج أمه من المنزل، مثلا، لو أنه أراد بعض الماء المثلج، أو لو أنه جرح نفسه. أتذكر أنه أخبرنى أن الأمهات اليابانيات لا يغادرن البيت أبدًا لو لم يسمح الأطفال تحديدًا لهن بهذا - ادعاء وجدت أن من الصعب الأخذ به، مادمت أعرف بحقيقة أن السيدات اليابانيات يتقابلن في دوائرهن بكثرة، مثلما تفعل السيدات الأوربيات، فى آستور هاوس أو فى قاعة مارسيل للشاى فى سيتشوان رود. لكن عندما أوضح أنه فى حالة غياب أمه تكون الخادمة موجودة لرعايته، وفى الوقت نفسه تكون له مطلق الحرية للقيام بما يحلو له دون أى قيود من أى نوع، بدأت أعتقد أننى الوحيد الذى يُختَم. بشكل غريب ظللت أتبنى وجهة النظر هذه، حتى رغم أنه على المستوى الفعلى كانت هناك خادمة أو أخرى يتم تفويضها لمتابعة كل حركة نقوم بها، فى تلك المناسبات التى نلعب فيها ببيته بينما تكون أمه غائبة عنه. فى الحقيقية، كان هذا يعنى وجود شخص عبوس، خاصةً عندما كنا أصغر سنًا، خائف، بلا شك، من العواقب الوخيمة إذا ما حل بنا أى شر، يقف فى منطقة قريبة تمكنه من كبح جماحنا بينما نحن نبذل قصارى جهدنا فى اللعب.

على الرغم من أننا، مع حلول ذلك الصيف، سُمِح لنا، بطبيعة الحال، أن نتحرك بحرية أكبر كثيرًا دون متابعة. في ذلك الصباح الذي دخلنا فيه غرفة لينغ تين، كنا نلعب في واحدة من غرف آكيرا قليلة الأثاث ذات الأرضيات المغطاة بالتمامي في الطابق الثالث بينما الخادمة العجوز – الشخص الوحيد غيرنا الموجود في المنزل – كانت مستغرقة ببعض أعمال الخياطة في الغرفة التي تقع تحت غرفتنا بالضبط في في الطابق الثاني. أذكر أن آكيرا توقف في لحظة بعينها عما كان يفعل، ومشى على أطراف أصابعه إلى البلكونة ومال على قضبانها، بشكل جعلني أخاف عليه من السقوط. ثم حينما عاد مسرعًا، لاحظت أن الابتسامة العريضة الغريبة قد ظهرت على وجهه. أخبرني همسًا أن الخادمة قد غطت في النوم كما توقع.

"الآن لابد أن ندخل! هل أنت خائف، يا كريستوفر؟ هل أنت خائف؟"

أصبح آكيرا بغتةً في حالة من التوتر الشديد لدرجة أن مخاوفي القديمة من لينغ تين عادت واستغرقتني للحظة. لكن عند هذه النقطة كان تراجع أينا مستحيلا، وشققنا طريقنا بهدوء قدر الإمكان إلى جناح الخدم حتى وقفنا معا مرة أخرى في ذلك الكوريدور المعتم بألواحه اللامعة العارية.

ما أذكره هو أننا مشينا بخطى واسعة وقليل من التردد أسفل الكوريدور حتى أصبحنا على بعد أربع أو خمس ياردات فقط من باب غرفة لينغ تين. حينئذ ثمة شيء جعلنا نتوقف، ولثانية، لم يكن أينا قادرًا على مواصلة التقدم؛ لو أن آكيرا في هذه اللحظة كان قد استدار

وجرى، كنت سأفعل مثله دون أدنى شك. لكن يبدو أن صديقى حينئذٍ كان قد وجد قدرًا أكبر من التصميم، وقال وهو يمد يده إلـــى: "هيــا، أيها الفتى العجوز! سنذهب معًا!

شبك ذراعه فى ذراعى وقطعنا الخطوات القلائل الأخيرة علـــى ذلك النحو. ثم دفع آكيرا الباب وأمعنا النظر داخل الغرفة.

رأينا غرفة قليلة الأثاث، مُرتَبَة، أرضيتها المبطنة بالألواح كانت مكنوسة بشكل جيد. النافذة مغطاة بستارة حاجبة للشـــمس، غيـــر أن الضوء كان يرشح للداخل عبر حوافها. جو الغرفة كان ينضح برائحة بخور شاحبة، مَزَار فى الركن القصى من الغرفـــة، ســـرير ضـــيق خفيض، وخزانة ذات أدراج كبيرة بشكل مذهل، صقيلة بشكل رائـــع، ولها مقابض منمقة تتدلى من كل درج صغير.

دخلنا، ولبضع ثوان، ظللنا فى حالة من السكون، نتنفس بالكـــاد. ثم أطلق آكيرا تنهيدة واستدار لى بابتسامة هائلة، فى غاية الابتهـــاج بالتأكيد لأنه انتصر على مخاوفه القديمة. لكنه فى اللحظة التالية تبدل سريعًا إحساسه بالانتصار إلى قلق مفاده أن خلو الغرفة من أى ملمح واضح للشر سيجعله مثار سخرية واستهزاء. وقبـــل أن أتفـــوه بـــأى شىء، أشار بسرعة إلى خزانة الأدراج وهمس بإلحاح.

"هناك! هناك بالداخل! احترس، احترس، أيها الفتـــى العجـــوز! العناكب، إنها هناك بالداخل!"

لم يكن مقنعًا على الإطلاق ولابد أنه قد أدرك هذا. مع ذلك، لمدة ثانية أو اثنتين، انسلت إلى رأسى صورة تلك الأدراج الصغيرة وهى

تتفتح أمام عيوننا بينما المخلوقات - في مراحل متعددة بين تحولهـا من أيدى إلى عناكب - تُخْرج أطرافها التجريبية. لكن آكيـرا كـان حينئذٍ يشير بصورة مثيرة إلى زجاجة صغيرة تقف علـى طاولـة خفيضة إلى جوار سرير لينغ تين.

"غَسُول!" همس. "الغَسُول السحرى الذى يستعمله! ها هو هناك!"

أغوتنى فكرة أن أصب السخرية على هـذه المحاولـة البائسـة للحفاظ على خيال جامح قد تجاوزه عمرنا، لكن في تلـك اللحظـة، داهمنى طيفٌ آخر مباغت للأدراج وهي تتفتح، وبقيـة مـن خـوفى القديم منعنى من أن أتفوه بكلمة. إضافةً إلى أننى كنت قد بدأت أشعر بالقلق بسبب احتمالية قابلة للتحقق بشكل أكثر قوة: تحديدًا، أنـه مـن الممكن أن تكتشف الخادمة أو أى شخص آخر من الكبار وجودنا فى تلك الغرفة. لم أستطع أن أبدأ فى تخيل الخزى الذى كان سيلحق بنا، العقوبات، المناقشات الطويلة بين والدىّ ووالدىْ آكيرا. لـم أسـتطع حتى أن أفكر كيف سنبدأ تفسير سلوكنا.

حينئذٍ فقط تحرك آكيرا للأمام، وقبض على الزجاجة وضمها إلى صدره.

"اذهب! اذهب!" هسهس، انتزعنا الهلع. اندفعنا خـارج الغرفـة باتجاه أسفل الكوريدور، ونحن نقهقه بصوت مكتوم.

عندما عدنا إلى الأمان في الطابق العلوى - كانت الخادمـة قـد بقيت نائمة - أكد آكيرا، ثانيةً، زعمه بـأن الأدراج كانـت مكتظـة بالأيدى الكالحة. كنت أرى الآن أنه فعليًا قلق بشأن استهزائى مـن

وهمنا الذى استقر طويلا وبدرجةٍ ما شعرت أنا أيضًا بالحاجة إلى الإبقاء عليه. ولذا لم أقل شيئًا يشوه هذا الادعاء، ولا طرحت أى افتراض يقول بأن غرفة لينغ تين قد خذلتنا أو أننا استدعينا شجاعتنا بناءً على ادعاءات زائفة. وضعنا الزجاجة على طبق فى منتصف أرضية الغرفة، ثم جلسنا كى نتفحصها.

نزع آكيرا السدادة بحرص. داخلها سائل شاحب ينضح برائحة ينسون غامضة. حتى اليوم لا أعرف لأى غرضٍ كان الخادم العجوز يستعمل ذلك الغَسُول؛ فى تخمينى أنه دواء مُرَخّص قام بشرائه لعلاج حالة مرضية مزمنة. على أية حال، فشكله الغريب خدم أهدافنا. بحرصٍ شديد، غمسنا غصينًا فى الزجاجة وتركناه يَقْطُر على ورقة. حذر آكيرا أنه لا يجب أن نترك أى قطرة تلمس أيدينا خشية أن نستيقظ فى اليوم التالى بعناكب فى أطراف أذرعنا. فى الواقع لم يصدق أى منا هذا، لكنه بدا مهمًا بالنسبة لآكيرا أن نتظاهر، ثانية، بذلك، ولهذا قمنا بأداء مهمتنا بحرص مبالغ فيه.

فى النهاية، أعاد آكيرا السدادة إلى مكانها ووضع الزجاجة فى الصندوق المخصص للأشياء الخاصة، قائلاً إنه يود القيام ببضع تجارب أخرى على الغَسُول قبل إعادته. على وجه العموم، عندما افترقنا ذلك الصباح، كنا نشعر بأننا فى قمة الاستمتاع.

لكن عندما أتى آكيرا إلى بيتى فى اليوم التالى بعد الظهر، أدركت على الفور أن هناك مشكلة ما قد ظهرت؛ كان مهمومًا للغاية، غير قادرٍ على التركيز فى أى شىء. تجنبت لبعض الوقت أن أسأله عما يزعجه، لفزعى من أن يكون والداه بطريقةٍ ما قد اكتشفا ما قمنا

به في اليوم السابق. رغم ذلك، في النهاية، لم أعد قادرًا على التحمل وطلبت منه أن يخبرني عن أسوأ ما لديه. مع هذا، أنكر آكيرا أن يكون لدى والديه أي شك في أي شيء، ثم غرق ثانيةً في كآبته. وبعد كثير جدًا من الضغط، استسلم أخيرًا وأخبرني بما قد حدث.

حين وجد أنه من المستحيل أن يسيطر على شعوره بالنصر، كشف آكيرا لأخته، إيتسوكو، كل ما فعلناه. ومن المثير للذهول أن رد فعل إيتسوكو كان مفزعًا. أنا أسميته ذهولا لأن إيتسوكو – التي كانت تكبرنا بأربع سنوات – لم تتفق أبدًا مع وجهة نظرنا بخصوص الطبيعة الشريرة للينغ تين. لكن الآن، مع سماعها لقصة آكيرا، حدقت فيه وكأنها توقعت أن يلتف على نفسه ويموت أمام عينيها. ثم أخبرت آكيرا أن الحظ ساعدنا في النجاة؛ ذلك لأنها شخصيًا عرفت خدمًا عملوا من قبل في المنزل، تجاسروا وفعلوا ما قد فعلنا، وكان عقابهم على ذلك أن تلاشوا – اكتُشِفت بقاياهم بعد أسابيع في إحدى الحارات خارج حدود المستعمرة. قال آكيرا لأخته إنها تحاول أن ترهبه ليس أكثر، وإنه لا يصدقها مطلقًا. لكن من الواضح أنه صُدم، وأنا أيضًا أحسست برجفة انتابتني عندما سمعت هذا "التصديق" – ومن مصدر ثقة مثل إيتسوكو – على كل مخاوفنا القديمة فيما يخص لينغ تين.

حينئذٍ أدركت أن ما يزعج آكيرا للغاية: هو أن شخصا ما ينبغي عليه أن يعيد الزجاجة إلى غرفة لينغ تين قبل عودة الخادم العجوز خلال ثلاثة أيام. علاوةً على إدراكنا أن تظاهرنا بالشجاعة في اليوم السابق قد تبخر تمامًا، وإمكانية دخول الغرفة مرةً أخرى بدا يفوق قدراتنا.

لعدم قدرتنا على الاستقرار على أى لعبة من ألعابنـــا المعتـــادة، قررنا أن نمضى إلى مكاننا الخاص بجانب القناة. طوال الطريق إلى هناك، ناقشنا مشكلتنا من كل زواياها. ماذا سـيحدث لـو لـم نعـد الزجاجة إلى مكانها؟ ربما كان الغَسُول ثمينا جدًا وربما يتم اسـتدعاء الشرطة للتحقيق. أو ربما لا يخبر لينغ تين أى شخص عن اختفائـه، لكنه سيقرر أن يُنْزِل بنا انتقامًا مروعًا. أذكر إلى حدٍ أصـبحنا فـى غاية الارتباك لرغبتنا فى الحفاظ على خيالاتنا بخصوص لينغ تـين، وإلى أى مدى أردنا أن نمعن التفكير فى أفضـل طريقـة لتحاشـى الدخول فى مشاكل خطيرة. أذكر، على سبيل المثـال، تفكيرنـا فـى لحظة من اللحظات أن الغَسُول عبارة عن دواء قام لينغ تين بشـرائه بعد شهور من الادخار، وأنه سيصبح بدونه فى حالة مـن الإعيـاء الشديد؛ لكن حينئذٍ فى اللحظة التالية، دون إغفال هذه الفكرة الأخيرة، فكرنا فى افتراضات أخرى تُسلِّم بأن الغَسُول هو ما فكرنا فيه دائمًا.

كان مكاننا بجوار القناة، والذى يبعد عن بيتِنا حـوالى ربـع الساعة، يقع خلف بعض المخازن التابعة لشركة جاردين ميثوسين. لم نتأكد أبدًا إذا ما كنا نتعدى على حرمة مكان ما؛ لأننا كى نصل إلـى المكان كنا نمر عبر بوابة مفتوحة دائمًا، ونعبـر سـاحة خرسـانية مرورًا ببعض العمال الصينيين، الذين كانوا يرمقوننا بشكوكية، لكنهم لم يعترضوا سبيلنا أبدًا. بعدئذٍ كنا ندور حـول جانـب دار متداعيـة لصناعة المراكب وعلى امتداد فُرْضَة،(١٠) قبل أن ننزل إلى رقعتنـا من الأرض السوداء الصلبة التى تقع مباشرةً على ضفة القناة. كـان

(١٠) محطّ السفن فى البحر. (المترجم)

ذلك المكان يتسع فقط بما يكفى لجلوسنا جنبًا إلى جنب قُبَالــة المـــاء، لكن حتى فى أشد الأيام قيظًا كانت المخازن التى تقع خلفنـــا تمنحنـــا ظلاً مؤكدًا، وفى كل مرة يمر بنا قارب أو يَنْك،[11] كان الماء يمـــس أقدامنا بنعومة. على الضفة المقابلة كان هناك عدد أكبر من المخازن، لكن أتذكر أنه كان هناك، تقريبًا أمامنا مباشرةً، فجوة بين بنايتين كنـــا نرى عبرها طريقًا تصطف على جانبيه الأشجار. غالبًا ما كنت أنـــا وآكيرا نأتى إلى المكان، رغم حرصنا على ألا نخبر آباءنا أبدًا خشية ألا يثقوا فى لعبنا بالقرب من حافة الماء.

فى تلك الظهيرة، لحظة جلسنا، حاولنا لفترة أن ننسى مخاوفنـــا. أتذكر آكيرا وهو يبادر بسؤالى، كما يفعل غالبًا عنـــدما نصـــل إلـــى مكاننا الخاص، عما إذا كنت أستطيع أن أسبح إلى هـــذه المركـــب أو تلك، فى حالة الخطر. لكنه لم يكن يستطيع الاستمرار، وبغتـــةً، يبـــدأ فى البكاء مما يصيبنى بالذهول.

نادرًا ما كنت أرى صديقى يبكى. اليوم فى الحقيقة، هـــذه هـــى الذكرى الوحيدة عندى لصديقى وهو يبكى. حتى عندما سقطت علـــى قدمه كتلة كبيرة من المِلاط حين كنـــا نلعـــب خلـــف دار الإرســـالية التبشيرية الأمريكية، ورغم ما استحال إليه من وجهه من شحوب فإنه لم يبك. لكن فى تلك الظهيرة على ضفة القناة، بلغ آكيرا بالفعل ذروة تحكمه فى نفسه.

أذكر أنه كان يمسك فى يده قطعة من لحاء خشب مبلـــل، كـــان يقطع منها أثناء نشيجه قطعًا ويقذف بها إلى الماء. كانت لدى رغبـــة

---

(١١) سفينة شراعية صينية. (المترجم)

كبيرة فى التخفيف عنه، لكننى تذكرت لحيرتى أن أنهض لأجد الكثير من قطع الأخشاب تلك لأقطعها وأعطيها له، وكأنه علاج عاجل. ثـم لم يبق له خشب كى يقذف به إلى الماء، وتمكن آكيرا من السـيطرة على دموعه.

"عندما يكتشف والدىّ"، أخيرًا قال، "سيغضبا بشدة. حينئـذٍ لـن يسمحا لى بالإقامة هنا. حينئذٍ سنذهب جميعًا إلى اليابان."

كنت لم أزل غير قادرٍ على التفوه بشىء. ثم، تمتم وهو يحـدق فى قارب كان يمر بنا: "لا أريد أن أعيش فى اليابان أبدًا."

ولأن هذا ما كنت أقوله دائمًا عندما يصرح بذلك، فرددت صدى جملته: "وأنا لا أريد أبدًا أن أعيش فى إنجلترا."

بهذا، استغرقنا الصمت لبضع لحظات أخرى. لكن ونحن نواصل النظر بإمعان إلى القارب، انشق ذهنى عن الطريقة الأكيدة الوحيـدة التى يمكن بها منع كل هذه الأصداء المروعة، وأخيرًا أخبرته ببساطة أن كل ما ينبغى علينا عمله هو أن نعيد الزجاجة إلـى مكانهـا فـى الوقت المناسب، وسيكون كل شىء على ما يُرام.

بدا أن آكيرا لم يسمعنى، ولذلك كررت النقطة عليه. استمر فـى تجاهله لى، حينئذٍ أدركت إلى أى مدى أصبح خوفه مـن لينـغ تـين حقيقيًا منذ أن قمنا بمغامرتنا فى اليوم السابق؛ فى الواقـع، كنـت أرى أن الخوف قد أصبح وقتئذٍ كبيرًا تمامًا مثلما كان دائمًا عندما كنـا فـى سنٍ أصغر، باستثناء أن آكيرا لم يعد قادرًا على الاعتراف بـه. كنـت أدرك مأزقه وحاولت جديًا التفكير فى مخرج. فى النهاية، قلت بهدوء:

"آكيرا. سنفعلها معًا، مرةً أخرى. تمامًا مثل آخر مرة. سنشـبك أذرعنا ثانيةً، وندخل، لنضع الزجاجة حيث وجدناها. لو فعلناها معًـا هكذا، سنكون فى أمان، لن يلحق بنا أى سوء. لا شىء مطلقًا. حينئذٍ لن يعرف أحد شيئًا عن فعلتنا."

أمعن آكيرا التفكير فى هذا. ثم استدار ونظر إلى فرأيت نظـرة امتنان عميق ومهيب فى عينيه.

"غدًا، بعد الظهر، فى الثالثة"، قال. "ستخرج أمى إلى المنتزه. لو ذهبت الخادمة فى النوم ثانيةً، سيكون لدينا فرصة".

أكدت له أن الخادمة من المرجح أن تذهب فـى النـوم ثانيـةً، وكررت عليه أننا لو دخلنا الغرفة معًا، فلن يكون هنـاك مـا يثيـر مخاوفنا.

"سنفعلها معًا، أيها الفتى العجوز!" قال وعلـى شـفتيه ابتسـامة مفاجئة ونهض على قدميه.

فى طريق عودتنا، أنهينا وضع خططنا. وعدت بـالمجىء إلـى بيت آكيرا فى اليوم التالى قبل خروج أمه بفترة، وبمجرد أن تخـرج، سنصعد إلى الطابق العلوى وننتظر معًا، زجاجة لينغ تـين مسـتعدة حال ذهاب الخادمة فى النوم. ارتفعت معنويات آكيرا بشكل ملحوظ، لكننى أذكر، لحظة افترقنا بعد ظهيرة ذلك اليوم، صديقى وهو يلتفـت إلى برباطة جأش غير مقنعة محذرًا إياى ألا أتأخر فى اليوم التالى.

كان اليوم التالى حارًا ورطبًا. مع مرور السنوات أمعنت التفكير مرارًا فى كل شىء أتذكره من ذلك اليوم، محاولاً أن أضع التفاصيل

العديدة فى ترتيبها المنطقى. لا أستطيع أن أتذكر الجـزء الأول مـن الصباح. لدى صورة عن طريقتى فى وداع أبى عندما انطلق للعمل. كنت خارج البيت حينئذٍ، أتسكع حول طريق العربة منتظرًا ظهـوره. أخيرًا ظهر، كان يرتدى بدلة بيضاء وقبعة بيضاء، ويمسـك حقيبـة أوراق وعصا. انحرف وحدق للخارج باتجاه بوابتنا. حينئذٍ، وبينمـا كنت أنتظر تقدمه نحوى، ظهرت أمى على عتبة الباب خلفه وقالت له شيئًا. تراجع أبى بضع خطوات، وتبادل بعض كلمات مع أمى، ابتسم وألقى بقبلةٍ خاطفةٍ على خدها، ثم تقدم بخطى واسعة إلى حيث كنـت أنتظره. هذا كل ما أتذكره عن مغادرته فى ذلك اليوم. لا أذكر إذا كنا تصافحنا، إذا كان قد ربت على كتفى، إذا كان قد التفت عند البوابـة ليودعنى بتلويحة أخيرة من يده. الانطباع العام فـى ذاكرتـى بنفـى وجود شىء فى طريقة مغادرته ذلك الصباح تجعلهـا مختلفـة عـن طريقته فى المغادرة إلى العمل فى أى يومٍ آخر.

كل ما أذكره من بقية الصباح هو أننى لعبت بجنودى الدُمى على سجادة غرفة النوم، بينما كان ذهنى منجرفًا دائمًا فى المهمة المروعة التى تنتظرنا بعد فترة فى ذلك النهار. أذكر أن أمى خرجت فى وقتٍ ما، وأننى تناولت الغداء مع مى لى فى المطبخ. بعد الغداء، قطعـت المسافة القصيرة على طريقنا إلى حيث يقف شجر السنديان الضـخم، فى محاولة منى لقتل الوقت حتى موعدنا فى الثالثة، انحرفـت عـن الطريق، بالضبط أمام أقرب سور للحديقة.

ربما لأننى كنت أحاول أن أشحذ شجاعتى، نجحت ذلك اليوم فى صعود واحدة من أشجار السنديان عند ارتفاع جديد. وحين حططـت

مبتهجًا بانتصارى على أغصانها، اكتشفت أننى أطل على منظر عام يضم الوشيع وكل الأراضى الخاصة بالمنازل المجاورة. أذكر أننى بقيت هناك لبعض الوقت، كانت الرياح ترتطم بوجهى بينما يزداد قلقى بخصوص المهمة المزمع القيام بها. خطر ببالى، وأنا قلقٌ كما كنت، أن خوف آكيرا من غرفة لينغ تين أصبح الآن أكثر حدة، وأنه ينبغى على هذه المرة أن أمسك بزمام القيادة. رأيت أن هذه المسئولية تُحتم على، وتستوجب أن أظهر واثقًا قدر المستطاع وأنا أقدم نفسى فى بيته. لكن مع الاستمرار فى البقاء على الشجرة، ظل يخطر ببالى أى عدد من الاحتمالات التى يمكن أن تعترض طريقنا: أن تفشل الخادمة فى الذهاب فى النوم؛ ربما حتى تختار هذا اليوم دونًا عن كل الأيام لتنظيف الكوريدور الذى تقع عليه غرفة لينغ تين؛ أو ربما تغير أم آكيرا رأيها ولا تغادر البيت كما هو متوقع. وحينئذٍ بالطبع، كانت المخاوف القديمة غير المنطقية التى، رغم محاولاتى الدائمة، لم أستطع أن أطردها من ذهنى.

أخيرًا نزلت عن شجرة السنديان، متمنيًا الذهاب للبيت كى أشرب كوبًا من الماء وأعرف كم الوقت. حين دخلت عبر بوابتنا، رأيت سيارتين فى الممشى. شعرت بقليل من الفضول تجاههما، لكننى فى تلك اللحظة كنت مستغرقًا فى الانتباه لهما بدرجة كبيرة. حينئذٍ، وأنا أعبر الردهة حدقت عبر باب غرفة الاستقبال المفتوح ورأيت ثلاثة رجال يتحدثون إلى أمى، وهم يقفون وقبعاتهم فى أيديهم. لم يكن فى هذا ما يثير القلق – من الممكن جدًا أن يكونوا قد أتوا لمناقشة حملات أمى – غير أن الجو كان مشوبًا بشىء جعلنى أتوقف للحظة

هناك فى الردهة. بمجرد أن فعلت ذلك، توقفت الأصوات عن الكلام ورأيت وجوههم وهى تستدير ناحيتى. أدركت أن أحد الرجال هو مستر سيمبسون، زميل أبى فى الشركة؛ الرجلان الآخران كانا غريبين. ثم ظهرت أمى فى حدود رؤيتى لأنها مالت كثيرًا للأمام ونظرت إلى. أظن أننى قد استشعرت حينئذٍ شيئًا غير طبيعى يتجلى لذهنى. على أية حال، فى اللحظة التالية، كنت أهرع فى اتجاه المطبخ.

لم ألبث أن وصلت إلى المطبخ حتى سمعت وقع أقدام ودخلت أمى. غالبًا ما حاولت أن أتذكر وجهها - التعبير الفعلى الذى كان يعتريه - فى تلك اللحظة، لكن دون جدوى. ربما اضطررت غريزيًا ألا أنظر إليه. ما أذكره هو وجودها، الذى بدا طيفيًا وهائلا، وكأننى صرت صغيرًا جدًا مرةً أخرى، ونسيج العباءة الصيفية الباهتة التى كانت تلبسها. قالت لى بصوت خفيض، لكنه كان صوتًا مكتمل النبرات:

"كريستوفر، الرجلان اللذان أتيا مع مستر كريستوفر من الشرطة. لابد وأن أنهى كلامى معهما. بعدئذٍ أريد أن أتكلم معك على الفور. هل تنتظرنى فى المكتبة؟"

كنت على وشك أن أعترض، غير أن أمى رمقتنى بنظرة أخرستنى.

"فى المكتبة، إذن،" قالت، وهى تستدير وتمضى بعيدًا. "سآتى فور ما أنتهى من كلامى مع الرجلين."

"هل ألم بأبى مكروه؟" سألت.

استدارت أمى إلى. "والدك لم يصل إلى العمل مطلقًا هذا الصباح. لكننى متأكدة أن هناك تفسيرًا فى غاية البساطة. انتظرنى فى المكتبة. لن أتأخر."

تبعتها إلى خارج المطبخ واتجهت صوب المكتبة. وهناك جلست على طاولة الواجب المدرسى وانتظرت، لم أكن أفكر فى أبى، لكن فى آكيرا وكيف كنت سأتأخر عليه فعليًا. تساءلت عما إذا كان يمتلك من الشجاعة ما يمكنه من إعادة الزجاجة بمفرده؛ حتى لو فعل، كان سيظل غاضبًا منى. فى تلك اللحظة أحسست بمدى خطورة موقف آكيرا، بالفعل فكرت فى عصيان أمى والخروج توًا. فى الوقت نفسه بدا أن المناقشة الدائرة فى غرفة الصالون ستستمر إلى حد مثير للسأم. كان هناك ساعة حائط فى المكتبة فحدقت فى عقاربها. فى لحظة ما، خرجت إلى الصالة، متمنيًا أن ألفت انتباه أمى وأطلب منها الإذن بالمغادرة، لكننى وجدت أن باب غرفة الصالون كان قد أُغلق. حينئذٍ، وبينما كنت أحوم فى الصالة وأفكر فى أن أنسل للخارج، ظهرت مى لى وأشارت بصرامة صوب المكتبة. لحظة عُدتُ إلى المكتبة، أغلقت على الباب وصرت أسمع وقع أقدامها تروح وتجىء بالخارج. جلست ثانيةً وواصلت مراقبة ساعة الحائط. عندما تجاوزت العقارب الثالثة والنصف، لفتنى كآبة، وصرت منتفخًا بالغضب من أمى ومن مى لى.

حينئذٍ سمعت الرجال يخرجون أخيرًا. سمعت أحدهم يقول:

"سنفعل كل ما في مستطاعنا، يا مدام بانكس. لابد أن نتمنى الأفضل، ونثق بالله."

لم استطع أن أسمع رد أمي.

بمجرد أن رحل الرجال، اندفعت للخارج وطلبت السماح لي بالذهاب إلى آكيرا. غير أن أمي تجاهلت طلبي تمامًا، مما أثار شديد غضبي، وقالت: "لنرجع ثانيةً إلى المكتبة."

رغم أنني كنت مُحبَطًا فإنني امتثلت للأمر، وهناك في المكتبة، جلست، انحنت أمامي وأخبرتني، بمنتهى الهدوء، أن أبي قد فُقِد منذ الصباح. قام مكتبه بإبلاغ البوليس الذي يقوم بالبحث، دون جدوى حتى الآن.

"لكنه ربما يعود على العشاء،" قالت مبتسمةً.

"بالطبع سوف يعود،" قلت بصوتٍ تمنيت أن يحمل إحساسي بالانزعاجِ من هذه الجلبة الكبيرة. ثم نزلت عن الكرسي وطلبت مُجَدَدًا إذنا بالخروج. لكن في هذه المرة فعلت ذلك بحماس أقل لأنني أدركت من الساعة أنه لم يعد هناك أي معنى للذهاب إلى منزل آكيرا. لابد وأن أمه قد عادت؛ ووجبة المساء الخاصة به ستقدم له بعد قليل. شعرت ببالغ الامتعاض لأن أمي أصرت على الإبقاء علي حبيسًا فقط لتخبرني بشيء أدركته بطريقةٍ أو بأخرى قبل أكثر من ساعة ونصف الساعة. عندما أخبرتني أخيرًا أنه بإمكاني أن أذهب، صعدت إلى غرفتي ببساطة، وصففت جنودي على سجادتي وبذلت قصارى جهدي كي لا أفكر في آكيرا أو مشاعره تجاهي في تلك

اللحظة. لكننى ظللت أتذكر كل ما قلناه بجانب القناة، ونظرة الامتنان التى ألقى بها إلى. إضافةً إلى أننى لم أكن أود أن يعود آكيرا إلى اليابان أكثر مما كان هو يتمنى.

رافقنى اكتئابى طوال الليل، لكن بالطبع تم تفسير ذلك على أنه رد فعل للموقف الخاص بأبى. طيلة المساء، كانت أمى تقول لى أشياء من قبيل: "يجب ألا نكتئب. لابد وأن هناك تفسيرًا فى منتهى البساطة لغيابه." وكانت مى لى على غير العادة فى غاية الرقة معى وهى تساعدنى فى الاستحمام. لكننى أذكر أيضًا، مع انقضاء وقت الليل، مرور أمى أيضًا بمثل هذه اللحظات "البعيدة" التى أدركتها جيدًا خلال الأسابيع التالية. فى الواقع، أظن أنه فى تلك الليلة نفسها، عندما كنت أستلقى فى سريرى، وكنت لم أزل مستغرقًا فيما سأقوله لآكيرا عندما ألقاه فى المرة المقبلة، غمغمت أمى، وهى تنظر بعينين خاويتين عبر الغرفة، قائلةً:

"مهما حدث، بإمكانك أن تفخر به، يا بفن. بإمكانك دائمًا أن تفخر بما فعل."

لا أتذكر الكثير عن الأيام التى تلت اختفاء أبى مباشرةً، سوى أننى كنت فى أغلب الأحيان مهمومًا بآكيرا جدًا - تحديدًا، بما سأقول له عندما أراه فى المرة المقبلة - لدرجة أننى لم أستطع أن أحسم أى شيء. مع ذلك وجدت نفسى أقوم بإرجاء زيارة المنزل المجاور، وأفكر حتى فى تجنب الحاجة لمواجهته تمامًا - وأن والديه بدافع الغضب الشديد من سوء تصرفه، ربما كانوا فى تلك اللحظة يحزمون أمتعتهم استعدادًا للرحيل إلى اليابان. خلال تلك الأيام كان أى نوع من الجلبة بالخارج يجعلنى أندفع إلى الطابق العلوى صوب النافذة الأمامية، حيث يمكننى أن أدقق النظر فى فناء المنزل المجاور كى أتحرى أى إشارات تفيد تحزيمًا للأمتعة.

حينئذٍ بعد مرور ثلاثة أو أربعة أيام، فى صباح ملبد بالغيوم، كنت ألعب وحدى بالخارج على المرج الدائرى أمام منزلنا عندما سمعت أصواتًا قادمة من السور المتاخم لمنزل آكيرا. وبسرعة أدركت أن آكيرا كان ينقل دراجة أخته حول ممشى عربتهم؛ غالبًا ما رأيته يحاول كثيرًا أن يركب هذه الدراجة، التى كانت كبيرة جدًا عليه، وتعرفت على الجلبة التى تُصدرها العجلات أثناء كفاحه للتوازن على الدراجة. فى لحظة ما سمعت تصادما وصرخة مع ارتطامه والدراجة بالأرض. الاحتمال الذى خطر ببالى هو أن آكيرا قد لمحنى من الطابق العلوى وأنا ألعب وخرج بدراجته خصيصًا

ليُلفت انتباهي. بعد بضع لحظات أخرى من التردد - خلالها استمر آكيرا في التصادم بالدراجة - أخيرًا تقدمت بخطىً واسعة إلى خارج بوابتنا، واستدرت وحدقت داخل حديقته الأمامية.

حقيقةً كان آكيرا منفرج الساقين على دراجة إيتسوكو، مستغرقًا في محاولاته لأداء بعض حركات السيرك التي تطلبت منه رفع يده عن مقود الدراجة، تمامًا عند الدوران في دائرة صغيرة. بدا أنه في حالة من الانهماك الشديد لدرجة أنه لم يلحظ وجودي، ولم يعلن عما يفيد رؤيته لي. أخيرًا قلت ببساطة:

"آسف لأنني لم أستطع المجيء ذلك اليوم."

رمقني آكيرا بنظرة متجهمة، ثم عاد للاستغراق في استعراضاته. كنت على وشك أن أفسر له سبب التخلي عنه، لكن لسببٍ ما، وجدت نفسي غير قادرٍ على التفوه بأكثر من ذلك. وقفت هناك أشاهده لفترة أطول قليلاً. ثم قلت وأنا أتقدم خطوة باتجاهه، خافضًا صوتي إلى حد الهمس:

"ماذا حدث؟ هل أعدتها؟"

رمقني صديقي بنظرة غضب رافضة للألفة التي شيعت لها نبرة صوتي، ثم دار بدراجته. أحسست أنني موشك على البكاء، لكنني تذكرت ذات مرة جدلنا العدائي حول من هو أقرب إلى البكاء الياباني أم الإنجليزي، فتمكنت من قمع دموعي. فكرت ثانية أن أخبره باختفاء أبي، وفجأةً بدا هذا السبب مبررًا جوهريًا ليس فقط لتبرير خذلاني له، ولكن لكثير من الإشفاق علي. تصورت الصدمة والخزي اللذان

سيغيران وجه آكيرا لحظة أنطق بالكلمات: "لم أستطع المجيء ذلك اليوم لأن... لأن أبي قد اُختُطِف!" - لكنني بطريقةٍ ما لم أستطع أن أنطق بها. وبدلاً من ذلك، أعتقد أنني استدرت بالفعل وجريت عائدًا إلى بيتي.

لم أر آكيرا خلال الأيام القليلة اللاحقة. ثم ذات ظهيرة أتى إلى بابنا، وسأل مي لي عني كالعادة. كنت في مغبة القيام بشيء ما، لكني توقفت عن الاستمرار تمامًا وخرجت لمقابلة صديقي. حياني بابتسامة، وأثناء قيادته لطريقي إلى حديقة منزله، كان يربت ظهري بحنان. كنت بالطبع متلهفًا لمعرفة ما حدث بالفعل فيما يخص مسألة لينغ تين، لكنني كنت أيضًا متحمسًا أكثر لعدم نكء الجراح من جديد، فقاومت رغبتي في السؤال عن أي شيء بخصوص هذا الموضوع.

ذهبنا إلى الحديقة الخلفية لمنزله - للشجيرات الكثيفة التي سميناها الغابة - وعلى الفور استغرقنا في واحدة من رواياتنا الدرامية. لدي إحساس بأننا مثلنا مشاهد من إيفانهو، التي كنت أقرأها في ذلك الوقت - أو ربما كانت واحدة من قراءات آكيرا عن مغامرات الساموراي الياباني. على أية حال، بعد ساعة أو أكثر، توقف صديقي بغتةً ونظر إلي بغرابة. ثم قال:

"لو تحب، نلعب لعبة جديدة."

"لعبة جديدة؟"

"لعبة جديدة. عن والد كريستوفر. لو تحب."

تراجعت مذهولاً ولا أذكر ماذا قلت بعدئذٍ. اقترب بضع خطوات في العشب الطويل ورأيت أنه ينظر إلي تقريبًا برقة.

"نعم" قال. "لو تحب، نلعب لعبة البوليس السرى. نبحث عن الأب. ننقذ الأب."

حينئذٍ أدركت أن سماع آكيرا بأخبار ما حدث لأبى - الأخبار التى بلا شك كانت موضوع الساعة فى دوائر الجيران - هو ما أعاده لطرق بابى. فهمت أيضًا أن هذا العرض الراهن كان طريقته فى التعبير عن اهتمامه ورغبته فى المساعدة، وأحسست بأن عاطفتى تجاهه تزداد. لكن فى النهاية، برباطة جأش:

"وهو كذلك. بإمكاننا أن نلعب هذه اللعبة لو أردت."

وهكذا بدا، ما يبدو فى ذاكرتى وكأنه دهرٌ كاملٌ - رغم أنه فى الحقيقة لا يمكن أن يتجاوز فترة قوامها شهران أو أقل - حيث كنا يومًا بعد آخر نخترع ونفرغ كل طاقتنا فى اللعب بكل التغيرات اللانهائية على نية إنقاذ أبى.

فى الوقت نفسه، كانت التحريات الحقيقية حول اختفاء أبى مستمرة. عرفت هذا من الزيارات التى تلقيناها من الرجال الذين كانوا يمسكون قبعاتهم فى أيديهم، ويتحدثون بوقار إلى أمى، ومن الحوارات المكتومة بين أمى ومى لى عندما تدخل أمى، مزمومة الشفتين، آخر النهار؛ وبالتحديد، كانت هناك تلك المحادثة التى جرت بينى وبينها عند مطلع السلم.

ليس لدى ذكرى حقيقية عما كنا نفعل قبل تلك اللحظة. لقد بدأت أصعد السلم مسرعًا، متلهفًا لإحضار شىء من غرفة اللعب، عندما أدركت أن أمى قد ظهرت أعلى السلم وفى طريقها للهبوط. لابد وأنها

كانت موشكة على مغادرة البيت، لأنها كانت ترتدى فستانها البيج المميز، الفستان الذى ينضح برائحة تشبه رائحة الأوراق العطنة. أتصور أننى استشعرت شيئًا فى طريقتها، لأننى توقفت فى مكانى على الدرجة الثالثة أو الرابعة وانتظرتها. ابتسمت وهى تقترب منى، ومدت يدها. فعلت هذا ولم يزل بيننا عدة درجات، لذلك فكرت للحظة أنها تريد مساعدتى لها فى نزول باقى درجات السلم، مثلما يفعل أبى أحيانًا عندما ينتظرها أسفل الدرج. لكن كما حدث، طوقت كتفى بذراعها وهبطنا الدرجات الأخيرة معًا. ثم تركتنى ومضت باتجاه مشجب القبعات على الجانب الآخر من الردهة. أثناء ذلك، قالت:

"بفن، أنا أعرف مدى صعوبة هذه الأيام القليلة الماضية عليك. حتمًا يبدو وكأن العالم كله ينهار. فى الواقع، إن هذا من الصعوبة بحال على أيضًا. لكن لابد وأن تفعل مثلى. لابد أن تستمر فى الصلاة لله وتظل متفائلاً. أتمنى ألا تكون غافلاً عن صلواتك، أليس كذلك، يا بفن؟"

"نعم، لست بغافلٍ،" أجبت، بشكل ارتجالى إلى حدٍ ما.

"إنها حقيقة محزنة،" استأنفت كلامها، "أن يُختَطَف الناس فى مدينة كهذه، بين الحين والآخر. إن هذا يحدث كثيرًا فى الحقيقة، وفى أوقات كثيرة، وسأتطرف وأقول معظم الأوقات، يعود الناس فى حالة آمنة تمامًا. لذلك لابد أن نتحلى بالصبر. بفن، هل تسمعنى؟"

"أسمع طبعًا." كنت فى ذلك الوقت قد أدرت ظهرى لها، وكنت أتدلى بذراعى من عمود الدرابزين.

"ما ينبغي أن نقدره،" قالت بعد توقف، "أنه قد تم إسناد القضية إلى أفضل المخبرين السريين في المدينة. لقد تحدثت معهم، وهم في غاية التفاؤل وأن سر القضية سينكشف فورًا."

"ولكن كم سيستمر هذا؟" سألت بتجهم.

"لابد أن نتفاءل خيرًا. ينبغي أن نثق بالمخبرين السريين. وربما تَطَلَّب هذا بعض الوقت، لكن لابد أن نتحلى بالصبر. ثم في النهاية ربما تصبح الأمور على ما يُرام، وكل شيء سيعود كما كان من قبل تمامًا. لابد أن نواصل الدعاء لله ونتحلى بالتفاؤل دائمًا. بفن، ماذا تفعل؟ هل سمعتني؟"

لم أرد على الفور، لأنني كنت أحاول أن أرى كم درجة بإمكان قدمي صعودها مع استمراري في التشبث بعمود الدرابزين. ثم سألت:

"لكن ماذا لو أن المخبرين في غاية الانشغال؟ بكل القضايا الأخرى التي يتحتم عليهم كشف أسرارها؟ جرائم القتل، وحوادث السطو. لن يمكنهم فعل أي شيء."

سمعت أمي وهي ترجع بضع خطوات نحوي، وعندما تحدثت بعدئذٍ، اعترت صوتها نبرة رقيقة وحذرة ومقصودة.

"بفن، ليس هناك سؤال على الإطلاق حول ما إذا كان المخبرون السريون "في غاية الانشغال". الجميع في شنغهاي، أهم الشخصيات في هذا المجتمع في منتهى القلق على أبيك، ومهتمين جدًا بتفسير الأمر. بعبارةٍ أخرى شخصيات مهمة مثل مستر فورستر. ومستر كارميكل. حتى القنصل العام نفسه. أعرف أنهم جعلوا الأمر قضيتهم

الشخصية كى يروا أباك وهو يعود سالمًا بأقصى سرعة. وبالتالى فأنت تدرك، يا بفن، بأنه ليس أمام المخبرين السريين أى شيء سوى بذل قصارى جهدهم. وهذا ما يفعلونه، الآن، فى هذه اللحظة بالضبط. هل تعرف، يا بفن، أن المفتش كانغ نفسه قد عُين مسئولاً عن التحريات؟ نعم، هذا صحيح: المفتش كانغ. ومن ثم فأنت ترى، لدينا كل مبررات التفاؤل."

بلا شك كان لهذا الحوار بعض الأثر، لأننى أذكر أنى لم أشعر بالقلق تقريبًا بصورة كبيرة خلال الأيام العديدة اللاحقة. حتى فى الليل، حينما كان القلق يعاودنى، كنت غالبًا ما أذهب فى النوم وأنا أفكر فى مخبرى شنغهاى السريين وهم يتحركون حول المدينة، ويضيقونها أكثر وأكثر على المختطفين. أحيانًا، وأنا أستلقى فى الظلام، كنت أجد نفسى أنسج مشاهد درامية مُحكَمة قبل الاستغراق فى النوم، وكانت تلك المشاهد تُشكِل مادة لى ولآكيرا فى اليوم التالى.

لا أعنى بهذا، عرَضًا، أننى وآكيرا لم نلعب خلال هذه الفترة لم نلعب ألعابًا لا علاقة لها بأبى؛ أحيانًا كنا ننسى أنفسنا لساعات فى واحدة من خيالاتنا التقليدية. لكن حينما كان صديقى يشعر بأننى شارد، أو أن جوارحى ليست فيما نفعل، كان يقول: "أيها الفتى العجوز. سنلعب لعبة إنقاذ الأب."

كانت تمثيلياتنا عن أبى، كما أقول، تضم احتمالات لا نهاية لها، لكننا بسرعة كبيرة كنا قد رسخنا خطًا سرديًا يتكرر بشكل أساسى. أبى قد أُسِر فى منزلٍ ما فى مكانٍ ما خارج حدود المستعمرة. مختطفوه عبارة عن عصابة مصممة على انتزاع فدية ضخمة. كثير

من التفاصيل الأصغر تكررت كثيرًا حتى أصبحت راسخة أيضًا. على سبيل المثال، كانت الحالة دائمًا أن المنزل الذى أُسِر فيه أبى كان مريحًا ونظيفا، رغم أنه محاط بأشكال الفزع فى الحى الصينى. حقيقةً، ما زلت أذكر كيف رسخ هذا التقليد المتبع بالتحديد. ربما كانت تلك هى المرة الثانية أو الثالثة التى نحاول فيها هذه اللعبة، وكنت أنا وآكيرا نتبادل تمثيل دور المفتش الأسطورى كانغ – الذى كانت ملامحه الوسيمة وقبعته التى يرتديها بأناقة مبالغ فيها معروفة جدًا من صوره فى الصحف. لقد كنا فى تمام الاستغراق فيما تجلبه خيالاتنا من إثارة عندما، فجأة، لحظة ظهر أبى لأول مرة فى قصتنا، أومأ آكيرا لى – مشيرًا إلى أننى يجب أن أمثل دوره – وقال: "أنت مربوط فى كرسى."

لقد كنا فى غاية الانهماك لكن الآن توقفت.

"لا،" قلت. "أبى ليس مُقَيدًا. كيف يمكن أن يكون مُقَيدًا طوال الوقت؟"

آكيرا، الذى لم يكن يحب أبدًا الاعتراض عليه أثناء كشفه لحكاية، كرر بضجر إن أبى مقيدٌ فى كرسى وأنا لابد أن أقلد هذا فى جذع شجرة على الفور. زعقت ردًا عليه: "لا!" وابتعدت ببطء. لكننى لم أغادر حديقة آكيرا. أذكر أننى وقفت على أول المرج المُلحق بمنزله – حيث تنتهى "غابتنا" – وحدقت باندهاش فى سحلية تتسلق جذع شجرة دَردار. بعد لحظة سمعت وقع أقدام آكيرا خلفى وأعددت نفسى لمناقشة شديدة الإرهاق. لكن، ما أثار دهشتى أننى عندما التفتُ إليه، رأيت صديقى يرمقنى بنظرة استرضاء. اقترب أكثر، وقال:

"أنت على حق. والدك ليس مقيدًا. إنه فى غاية الارتياح. منزل المختطفين مريح. مريحٌ جدًا."

بعدئذ كان آكيرا هو من يبذل عناية فائقة ليؤكد راحة أبى ووقاره فى كل أعمالنا الدرامية. المختطفون دائمًا يخاطبونه وكأنهم خدمه، يقدمون له الطعام، والشراب والصحف بمجرد أن يطلبها. بالتالى أصبحت شخصيات المختطفين بالنسبة إلىّ كائنات أكثر رقة؛ مع ذلك، ثبت أنهم ليسوا أشرارًا، إنهم رجال من أسر تتضور جوعًا بالفعل. لقد ندموا فعلاً على ارتكابهم هذه الفعلة العنيفة، هكذا فسروا لأبى، لكنهم لم يستطيعوا أن يروا أطفالهم يتضورون جوعًا حتى الموت. إن ما يفعلونه خطأ، هم يعرفون ذلك، لكن ماذا بأيديهم أن يفعلوا؟ لقد اختاروا مستر بانكس تحديدًا لأن وجهات نظره المتعاطفة تجاه أزمة الصينيين الفقراء معروفة لدى الجميع، وأنه من المرجح أن يتفهم الوضع المزعج الذى اضطروا لوضعه فيه. عند هذه النقطة، يتنهد أبى – الذى كنت أمثل أنا دوره دائمًا – بإشفاق، لكنه حينئذٍ يواصل قائلاً أيًا كانت صعوبات الحياة، فلا يمكن التغاضى عن الجريمة. إضافةً إلى أنه من الحتمى أن يأتى رجال المفتش كانغ إن آجلاً أو عاجلاً للقبض عليهم، حينئذٍ سيلقى بهم فى السجن، وربما يُعْدَمون. أين سيلقى هذا بعائلاتهم؟ المختطفون – الذين يمثلهم آكيرا – سيردون بأنه حال اكتشاف البوليس مخبأهم، فإنهم سيسلمون أنفسهم بهدوء، ويتمنون الخير لمستر بانكس عندما يعود لأسرته. لكن حتى هذه اللحظة، هم مضطرون لبذل قصارى جهدهم لتنفيذ خطتهم. حينئذٍ سيسألون أبى عن العشاء المفضل الذى يطلبه، وسأطلب أنا نيابةً عنه

مائدة كبيرة تضم أفضل الأطباق المفضلة لديه - قطعة لحم مشوية من خاصرة البقر، جزر أبيض بالزبد ودائمًا حدوق[١٢] مسلوق في وسطه. كما أقول، آكيرا وليس أنا هو من كان أكثر ميلاً للإصرار على هذه الجوانب المترفة، وهو من أضاف الكثير من التفاصيل الصغيرة المهمة: غرفة أبي لابد أن تطل على منظر جميل على سطح النهر؛ وأن يكون سريره قد سرقه المختطفون لأجله من فندق بالاس، وبهذا تتحقق قمة الراحة. في وقتٍ ما، نصبح أنا وآكيرا مخبرين سريين - رغم أننا أحيانًا كنا نمثل أدوارنا - حتى تأتي لحظة النهاية، بعد المطاردات، ومشاجرات الأيدي ومعارك المسدسات حول حارات الأحياء الصينية التي تشبه المطردة، أيًا كانت معالجاتنا وافتراضاتنا، كانت قصصنا تنتهي دائمًا باحتفال عظيم في منتزه جيسفيلد، احتفال يشهدنا، الواحد بعد الآخر، ونحن نتقدم إلى منصة أقيمت خصيصًا - أمي، وأبي، وآكيرا، والمفتش كانغ، وأنا - لتحية الجمهور الكبير المبتهج. كان هذا، كما أقول، الخط الأساسي لقصتنا، وأعتقد أنني، عَرَضيًا، كنت بطريقةٍ ما أو بأخرى الشخص الذي ألعب دوره مرارًا وتكرارًا خلال تلك الأيام كثيرة الرذاذ في إنجلترا، حين كنت أملأ ساعاتي الفارغة بالتجوال حول نباتات السرخس بالقرب من بيت خالتي، أتمتم همسًا سطور آكيرا نيابةً عنه.

ربما كان قد مر شهر على اختفاء أبي حين واتتني الشجاعة أخيرًا وسألت آكيرا عما حدث بخصوص زجاجة لينغ تين. كنا في لحظات استراحة من اللعب، نجلس معًا في الظل على قمة رابيتنا،

---

(١٢) الحدوق: سمك من فصيلة القُدّ لكنه أصغر منه. (المترجم)

نشرب الماء المثلج الذى أحضرته لنا مى لى فى كوبين. استرحت حين لم يعد آكيرا يُظهر أى إشارة للانزعاج من الأمر.

"أيتسوكو أعادت الزجاجة،" قال.

لقد كانت أخته فى البداية مُجبَرة تمامًا. لكنها الآن، كلما أرادت أن تُجبِر آكيرا على فعل شيء، كانت تهدده بكشف سره لوالديه. رغم ذلك، لم يكن ينزعج آكيرا كثيرًا بهذه الخدعة.

"لقد ذهبت إلى الغرفة أيضًا. لذلك فهى مذنبة مثلى تمامًا. هى لم تقل."

"لذا فليس هناك أى مشكلة،" قلت.

"لا توجد مشكلة، أيها الفتى العجوز."

"لذلك فأنت لست مضطرًا للذهاب والعيش فى اليابان."

"اليابان لا." التفت لى وابتسم. "سأعيش فى شنغهاى للأبد." ثم نظر إلى بوقار وسأل: "لو لم يجدوا والدك. لابد أن تذهب إلى إنجلترا؟"

لسببٍ ما لم تخطر أبدًا هذه الفكرة المروعة ببالى. فكرت فى السؤال بإمعان، ثم قلت:

"لا. حتى لو لم يظهر أبى، فإننا سنعيش هنا للأبد. سوف لن ترغب أمى فى عودتى إلى إنجلترا. إضافةً إلى أن مى لى لن تحب الذهاب إلى هناك. إنها صينية."

للحظة، استمر آكيرا فى التفكير، وهو يحدق فى مكعبات الـثلج الطافية فى الكوب. ثم رفع عينيه ناظرًا إلى واتجه إلى تمامًا.

"أيها الفتى العجوز!" قال. "نحن نعيش هنا معًا، دائمًا!"
"هذا صحيح،" قلت. "سوف نعيش فى شنغهاى للأبد."
"دائمًا! أيها الفتى العجوز!"

هناك واقعة صغيرة أخرى حدثت خلال تلـك الأسـابيع التاليـة لاختفاء أبى. واقعة صرت أعتقد الآن أنها بالغة الأهمية. دائمًا لم أكن أعتبرها هكذا؛ فى الواقع، لقد نسيتها تمامًا بطريقـةٍ مـا أو بـأخرى عندما حدث شىء ما، محض صدفة، منذ بضع سنوات مضت، شىء ما جعلنى لا أتذكرها فقط، بل وأقدر لأول مرة المعنى العميق لما قـد شاهدته فى ذلك اليوم.

بدأ الأمر بعد فترة قصيرة من قضية مانـارينج، عنـدما كنـت أجرى بحثًا حول خلفيات تلك السنوات التى قضيتها فـى شـنغهاى. أظن أننى ذكرت هذا البحث من قبل، حيث أجريت جزءًا كبيرًا منـه فى المتحف البريطانى. أعتقد أن تلك كانت محاولتى، جزئيًـا علـى الأقل، كرجلٍ بالغ فى أن أضع يدى على طبيعة تلك القوى التى لـم تواتنى الفرصة لفهمها وأنا طفل. كان فى نيتى أيضا أن أعد نفسـى لليوم الذى أبدأ فيه جَدّيًا تحرياتى حول قضية والدى – التى ظلت إلى يومنا هذا مستعصية على الحل رغـم الجهـود المسـتمرة لشـرطة شنغهاى. وتظل نيتى، ضمنًا، أن أباشر مثـل هـذه التحريـات فـى المستقبل القريب. فى الحقيقة، أنا متأكد أننى فعليًا جعلـت الضـغوط على وقتى أقل حدة.

على أية حال، كما أقول، لقد أنفقت عددًا كبيرًا من الساعات فى المتحف البريطانى منذ بضع سنوات مضت أجمع مادة معرفية عن تاريخ تجارة الأفيون فى الصين فى ذلك الوقت. فى فترات عديدة، كتبت أيضًا عدة خطابات وأرسلتها إلى الصين طالبًا المعلومات غير المتاحة لى فى لندن. ومن ثم تلقيت، ذات يوم، قصاصة صفراء من جريدة نورث تشاينا ديلى North China Daily يرجع تاريخها إلى ثلاث سنوات بعد رحيلى من شنغهاى. بعث لى مراسلى بمقال عن التغيرات التى حدثت فى نظم التجارة فى الموانى التى لها حق الامتياز - والتى قد طلبتها بلا شك - لكن كانت الصورة الفوتوغرافية التى صادف أن تكون على الجانب العكسى هى التى أسرت انتباهى على الفور.

لقد حفظت تلك الصورة الصحفية فى درج مكتبى، داخل علبة سيجار معدنية، ومن وقت لآخر كنت أخرجها وأتفحصها عن كثب. كانت تُظهر ثلاثة رجال فى جَادّة تفترشها أوراق الأشجار، يقفون أمام سيارة كبيرة. ثلاثتهم كانوا صينيين. اثنان منهم كانا للخارج، وكانا يرتديان بذلتين غربيتين بياقات منشيات، ويمسكان قبعتين بَولر[١٣] وفى يد كل منهما خيزرانة. الرجل الممتلئ الذى كان يتوسط الرجلين الآخرين كان يرتدى الملابس التقليدية الصينية: عباءة قاتمة، كاب، وذيل خنزير فى مؤخرة شعره. وكما فى معظم الصور الصحفية آنذاك، كان هناك استعداد مسرحى مصطنع للصورة، وتقريبًا جار مقص مراسلى على مربع كامل من يسارها. مع ذلك،

---

(١٣) البَولر: قبعة مستديرة سوداء. (المترجم)

فمن أول وهلة وقعت عيناى عليها - بدقة أكثـر علـى الشخصـية المركزية التى ترتدى العباءة القاتمة - أصبحت الصـورة مصـدرًا لاهتمام استثنائى منى.

إلى جوار هذه الصورة، داخل علبة السيجار المعدنية فى الدرج، أحفظ الخطاب الذى تلقيته من المراسل نفسه بعدها بشهر أو أكثر ردًا على التساؤلات الأخرى. وفيه، يبلغنى أن الرجل الممتلئ الذى يرتدى عباءة وكاب هو وانغ كو، قائد عسكرى وكان وقت التقاط الصورة ذا نفوذ كبير في إقليم هونان مُشَكِلاً قوة عسكرية مختلفة العناصر تتكون من ثلاثمائة رجل تقريبًا. ومثل كثير من طائفته، فقد معظم قوته بعـد هيمنة تشيانغ كاى - شيك، لكنه قد أشيع أنه لم يزل على قيد الحيـاة أيضًا ويسترخى فى حالة من الترف الواضح في مكان ما فى نانكينغ. أما بخصوص سؤالى المحدد، فقد أفاد مراسلى بأنه لـم يسـتطع أن يتأكد إذا ما كان لوانغ كو أية علاقات معروفة مع شركة Butterfield and Swire أم لا. على أية حال، فمن وجهة نظره الشخصية، "لـيس ثم من مبرر يجعلنا نفترض أنه فى وقتٍ ما لم يكن له تعاملات مـع الشركة المذكورة آنفًا". ففى ذلك الوقت، يوضح مراسلى، كانـت أى شُحنات من الأفيون - أو أى سلع مرغوبة - تمر عبر اليانغتيز إلـى هونان، كانت عُرضة لغارات قطاع الطرق والقراصنة الذين أرهبـوا الإقليم. فقط القادة العسكريون الذين كانت تمر الشُحنات عبر أقاليمهم هم من كانوا يستطيعون توفير نوعٍ ما من الحماية اللازمة، وشـركة مثل Butterfield and Swire لابد بالتأكيد قد قطعت شـوطًا لضـمان صداقة مثل أولئك الرجال. أيام طفولتى فى شنغهاى، لابد وأن وانـغ كو، بما كان يملك من قوة، قد اُعتُبر، بلا شك، حليفًا مرغوبًا. انتهـى

خطاب مراسلى باعتذاره عن عدم قدرته على تقديم كمية أكبـر مـن المعلومات المؤكدة.

كما قلت، لم أحث مراسلى لإرسال هذه المعلومات إلا بعد خمسة أو ستة أسابيع من الصورة التى كانت فى الصحيفة. والسبب فى تأخرى هو أننى وبصورة مثيرة للإزعاج لم أستطع لوقت طويل أن أتذكر السياق الذى فعلت هذا فيه، رغم تأكدى من أننى رأيت الرجل الممتلئ فى مكان ما فى الماضى. لقد ارتبط الرجل عندى بمشهد ينطوى على ورطة أو كراهية، لكن ذاكرتى لم تتمخض عن أكثر من ذلك. حينئذ، ذات صباح، وبمحض الصدفة، وأثناء تجولى فى كينسينجتون هاى ستريت بحثًا عن سيارة أجرة، عاودتنى ثانية بشكل مفاجئ تمامًا.

لم أعر الرجل الممتلئ كثيرًا من انتباهى عندما وصل منزلنا لأول مرة. ومع ذلك فقد كان هذا بعد أسبوعين أو ثلاثة فقط من اختفاء أبى وأكم من الغرباء كانوا يدخلون ويخرجون: رجال شرطة، رجال من القنصلية البريطانية، رجال من شركة Swire، سيدات كن عند دخولهن إلى البيت ورؤيتهن لأمى يفتحن أذرعهن وينخرطن فى بكاء مكروب. أذكر أن أمى كانت ترد على ذلك، بابتسامة رابطة الجأش، وفى تقدمها صوب السيدة، كانت تتجنب العناق على وجه التحديد، وهى تقول بنبرات صوتها الواثقة شيئًا من قبيل: "آجنيس، مبتهجة لقدومك." حينئذ، كانت تأخذ يدى ضيفتها – اللتين ربما مازالتا معروضتين بصورة محرجة فى الهواء – وتقودها إلى غرفة الصالون.

على أية حال، كما أقول، لم يثر وصول الرجل الصينى الممتلئ فى ذلك اليوم كثيرًا من انتباهى. أذكر أننى نظرت لأسفل من نافذة غرفة اللعب الخاصة بي ورأيته وهو ينزل عن سيارته. أعتقد أن مظهره في هذه المناسبة كان مماثلاً لمظهره في الصورة الصحفية: عباءة قاتمة اللون، كاب، ذيل خنزير. لاحظت أن السيارة كانت فارهة ولامعة، وأن لديه رجلين لمعاونته إضافةً إلى السائق، غير أن هذا حتى لم يكن ملحوظًا بصورة كبيرة؛ فى تلك الأيام التى تلت اختفاء أبي، عدد من كبار الزوار كان قد أتى إلى منزلنا. رغم هذا، انتابنى نوع من الذهول الغامض من طريقة العم فيليب، الذى كان فى البيت خلال الساعات السابقات، فى التقدم لتحية الرجل الممتلئ. لقد أسرفا في تبادل التحية – وكأنهما كان أقرب الأصدقاء لبعضهما البعض – بعدئذٍ تقدم العم فيليب أمام الزائر ليُدخِله إلى المنزل.

لا أتذكر ماذا فعلت خلال الفترة القصيرة التالية. بقيت فى المنزل – رغم أن بقائى لم يكن بسبب الرجل الممتلئ، الذى، كما أقول، لم يشد انتباهى كثيرًا. فى الواقع، فى البداية عندما سمعت الجلبة فى الطابق السفلى، أذكر دهشتى لأن الزائر كان لم يزل معنا. اندفعت عائدًا إلى نافذة غرفة اللعب الخاصة بى، فرأيت أن السيارة لم تزل واقفة على ممشى العربة، والخدم الثلاثة الذين كانوا داخل السيارة – الذين أيضًا كانوا قد سمعوا الجلبة – يندفعون خارج السيارة وعلى وجوههم تعبيرات ذعر وخطر. ثم رأيت الرجل الممتلئ أسفلى يمشى بهدوء تام صوب السيارة، مشيرًا إلى رجاله بعدم القلق. فتح السائق الباب للرجل الممتلئ، وأثناء ركوبه للسيارة،

ظهرت أمى فى المشهد. حقيقةً، صوتها فى البداية هو ما جعلنى أندفع إلى النافذة. كنت أحاول أن أقنع نفسى أنه الصوت نفسه الذى كانت تستخدمه حال غضبها منى أو من أى من الخدم، لكن عندما ظهرت أمى أسفلى، كانت كل كلمة منها قد صارت مسموعة بقوة، والاجتهاد فى استراق السمع أصبح لا قيمة له. ثمة شىء فيها قد فقد السيطرة، شىء لم أعهده أبدًا من قبل، ومع ذلك فقد سجلته فورًا على أنه شىء قد قبلته فى أعقاب اختفاء أبى.

كانت تصرخ فى الرجل الممتلئ، بينما يحاول فعليًا العم فيليب كبحها. كانت أمى تقول للرجل الممتلئ إنه خائن لأبناء جلدته، وإنه وكيل للشيطان، ولا تريد عونًا من أمثاله، وإذا عاد ثانيةً إلى هذا المنزل، فسوف تبصق عليه مثلما تفعل مع فصيل الحيوانات القذرة التى ينتمى إليها.

امتص الرجل الممتلئ كل هذا بمنتهى الهدوء. أشار إلى رجاله بركوب السيارة، وبينما كان السائق يدير محرك السيارة، ابتسم من نافذته غالبًا باتجاه أمى، وكأنها كانت تودعه بأرق كلمات الوداع. ثم انطلقت السيارة وكان العم فيليب يقنع أمى بالدخول.

عندما دخلا إلى الردهة، كانت أمى قد استكانت صامتة. وكنت أسمع العم فيليب يقول: "لكننا يجب أن نسلك كل الطرق الممكنة، أليس كذلك؟" ومضى وقع أقدامه فى أثر أمى إلى غرفة الصالون، انغلق الباب ولم أسمع أكثر من ذلك.

بطبيعة الحال، كان من المؤسف بحال أن أرى أمى وهى تتصرف بهذه الطريقة. فلو أنها وجدت أن الصراخ فى ضيفها نوع

من التحرر بعد أسابيع من إحكامها كبح جماح مشـــاعرها، إذن فقـــد عشت أنا أيضًا شيئًا مماثلاً. ومشاهدتى لها وهى تنفجر هكذا هو مـــا سمح لى، بعد أسبوعين أو ثلاثة، أخيرًا أن أعبر عن خطورة ما ألـــم بنا، وذلك قد انشق عن شعورٍ هائل بالارتياح.

سوف يتحتم على أن أُقر، ضمنًا، أنه ليس بمستطاعى أن أؤكـــد بيقينٍ تام أن الرجل الصينى الممتلئ الذى رأيته فى ذلك اليـــوم هـــو نفسه الرجل الذى كان فى الصورة الصحفية - فالرجل الآن قد حُـــدد بأنه القائد العسكرى وانغ كو. كل ما يمكننى قوله إننى من أول مـــرة وقعت عيناى على الصورة، ذلك الوجه - وهو الوجه، وليس العباءة، والكاب وذيل الخنزير فى مؤخرة رأسه، التى يمكن بالطبع أن تكـــون ملمحًا لأى رجلٍ صينى - قد انطبع داخلى على نحو واضح كوجـــه رأيته خلال الأيام التالية لاختفاء أبى مباشرةً. وكلما أمعنت تقليب هذه الواقعة بعينها فى رأسى، كلما اقتنعت بأن الرجل الذى فى الصـــورة هو نفسه الذى زار منزلنا فى ذلك اليوم. أعتقد أن هذا الاكتشاف على درجة كبيرة من الأهمية - فربما يساعد كثيرًا فى إلقاء الضوء علـــى مكان وجود والدى، ويصبح جوهريًا لتلك التحريات التى، كمـــا قـــد ذكرت، نويت منذ فترةٍ طويلة أن أباشرها.

هناك بُعدٌ أكثر عمقًا لهذه الواقعة التى صورتها توّا ترددت فى ذكره هنا، لعدم تيقنى من وجود أساس له. إن له علاقة مع طريقة العم فيليب ذلك اليوم عندما حاول كبح جماح أمى أمام منزلنا، ومرة أخرى، ثمة شيء فى صوته حينما قال وهما أثناء دخولهما إلى المنزل: "لكننا يجب أن نسلك كل الطرق الممكنة، أليس كذلك؟" ليس هناك شيء مادى على الإطلاق بإمكانى أن أضع إصبعى عليه، لكن الطفل حينئذٍ يكون أكثر إحساسًا على المستويين النفسى والفسيولوجي بهذه الأشياء الأقل ملموسية. على أية حال، أحسست بأن هناك شيئًا بعينه غريب فى العم فيليب ذلك اليوم. لا أعرف لماذا، لكن تلبسنى انطباع غريزى أن العم فيليب فى هذه المناسبة لم يكن متضامنًا معنا؛ وأن الألفة التى تسم علاقته بالرجل الصينى الممتلئ أكبر بكثير من تلك التى تسم علاقته بنا؛ حتى إنه – ومن المحتمل جدًا أن يكون هذا مجرد تصورات خيالية منى – تبادل النظرات مع الرجل الممتلئ بينما كانت السيارة آخذة فى الانطلاق. كما أقول، ليس بإمكانى الإشارة إلى أى شيء مادى أدعم به انطباعاتى، ومن المحتمل بشكل كبير أننى أتخيل بأثر رجعي بعض الملاحظات فى ضوء ما قد حدث فى النهاية للعم فيليب.

حتى اليوم، أشعر أن تَذَكُرى للشكل الذى انتهت به علاقتى مع العم فيليب يجلب بعض الألم. كما أكون من المحتمل أن أوضحت،

فقد أصبح مع مرور السنوات شخصية مؤلهة بالنسبة لى، أذكر أننى تأملت فكرة أننى لا أمانع كثيرًا فى إمكانية أن يحل العم فيليب دائمًا محل أبى. أعترف أننى فى النهاية وجدت أن هذه الفكرة غير مقنعة بدرجةٍ غريبة، لكن الشاهد من الكلام هو أن العم فيليب كان يتمتع بمكانة شخصية عندى، ولا عجب مطلقًا فى أننى قد تخليت عن حذرى فى ذلك اليوم وحذوت حذوه.

أقول "تخليت عن حذرى" لأننى لبعض الوقت قبل ذلك اليوم الأخير، كنت أترقب أمى بقلق متزايد. حتى عندما تطلب منى أن أتركها وحدها، كنت أستمر فى مراقبتها بانتباه بالغ فى الغرفة التى تدخلها، وكنت أراقب الأبواب والنوافذ التى يمكن أن يدخل عبرها المُختَطِفون. طوال الليل كنت أظل متيقظًا منصتًا لحركاتها فى كل أرجاء المنزل، وكانت يدى دائمًا متأهبة على سلاحى - عصا ذات طرف حاد أعطانى آكيرا إياها.

لكن، عندما أمعن التفكير فى هذا، ينتابنى شعور داخلى عميق، بأننى كنت لم أزل فى هذه المرحلة أعتقد حقًا أن مخاوفى قابلة للتحقق. حتى حقيقة أننى اعتبرت أن عصا مدببة الطرف كانت كافية لردع المختطفين - لأننى غالبًا ما كنت أروح فى النوم متخيلاً أننى فى مغبة قتال مع عشرات من الدخلاء يصعدون درج السلم فى بيتنا، وأنا أُسقِطهم الواحد تلو الآخر بعصاى - ربما تُثْبِت المستوى الوهمى الغريب الذى بلغته مخاوفى فى التأثير على فى ذلك الوقت.

رغم ذلك، ليس ثم من شك فى القلق الذى شعرت به على سلامة أمى، وذهولى لأن الكبار الآخرين لم يتخذوا أية خطوات على

الإطلاق لحمايتها. لم أكن أحب أن تبتعد أمى عن عينى خلال هذه الفترة، وكما أقول، لم أكن أبدًا لأتخلى عن حذرى فى ذلك اليوم لأجل أى شخص سوى العم فيليب.

كان صباحًا مشمسًا، مُنسِمًا. أذكر أننى، من نافذة غرفة اللعب الخاصة بى، كنت أشاهد الأوراق وهى تتطاير أمام فناء منزلنا وتحط على ممشى السيارة. كان العم فيليب فى الطابق السفلى مع أمى منذ فترة قصيرة بعد الإفطار، واستطعت أن أسترخى لفترة، مُصَدِقًا أنه ليس من الممكن أن يصيبها مكروه مادام العم فيليب إلى جوارها.

ثم بعد فترة سمعت العم فيليب ينادينى. خرجت إلى منبسط الدرج، وحين نظرت لأسفل وأنا أستند قضيب البلكونة، رأيت أمى وفيليب يقفان فى الردهة، يحدقان لأعلى فى. لأول مرة منذ أسابيع أحسست بأنهما يكنان شيئًا ما مفرحًا، وكأنهما استمعا لتوهما إلى نكتة. كان الباب الأمامى مواربًا، وشعاع ممتد من نور الشمس يشرق بعرض الردهة. قال العم فيليب:

"انظر هنا، يا بفن. كنت دائمًا تقول إنك تريد أكورديون. حسنًا، لقد نويت أن أشترى لك واحدًا. بالأمس رأيت موديلاً فرنسيًا ممتازًا فى فاترينة فى هانكو روود. لم تكن لدى البائع فكرة عن ثمنه بالضبط. أقترح عليك أن نذهب معًا لمعاينته. إذا أعجبك، فهو لك إذًا. خطة جيدة؟"

جعلنى هذا أنزل السلم بسرعة هائلة. قفزت الأربع درجات الأخيرة وأخذت أدور حول الكبار، وأنا أرفرف بذراعى مثل طائر

القنص. عندما فعلت ذلك، ضحكت أمي مما أثار ابتهاجي – ضحكت بطريقة لم أسمعها تضحك بها منذ فترة. في الحقيقة، من الممكن أن يكون هذا الجو – هذا الشعور بأن الأشياء ربما بدأت تعود إلى ما كانت عليه – هو الذي لعب دورًا جوهريًا في جعلي "أتخلى عن حذري". سألت العم فيليب عن موعد ذهابنا، فهز كتفيه مستهجنا وقال:

"لماذا لا نذهب الآن؟ لو تركناه، ربما يراه شخصٌ آخر. ربما يكون هناك من يشتريه في هذه اللحظة، حتى ونحن نتكلم!"

اندفعت صوب الباب، وثانيةً ضحكت أمي. ثم أخبرتني أمي بضرورة أن أرتدي سترةً مناسبًا وكذا حذاءً مناسبا. أذكر أنني فكرت في الاعتراض على الجاكت، لكن حينئذٍ قررت ألا أعترض خشية أن يغير الكبار رأيهم، ليس فقط فيما يخص الأوكرديون، ولكن أيضًا في هذه الحالة البهيجة برمتها التي كانت تلفنا.

لوحت لأمي بسرعة عندما كنت أنا والعم فيليب ننطلق عبر الفناء الأمامي. ثم بعد أن تقدمنا عدة خطوات، وبينما كنت أسرع باتجاه العربة التي كانت تنتظرنا، قبض العم فيليب على كتفي، وهو يقول: "انظر! لوح لأمك!" رغم أنني كنت قد فعلت هذا بالفعل. لكنني لم أشك في أي شيء بخصوص ذلك وقتئذ، واستدرت كما طُلب مني، ولوحت مرة أخرى لأمي، التي كانت تقف متأنقةً على عتبة الباب.

معظم الطريق، كانت العربة تسلك الذي كانت تسلكه عادةً أثناء ذهابي أنا وأمي إلى وسط البلد. كان العم فيليب هادئًا في هذه الرحلة،

مما أدهشنى قليلا، لكننى لم أركب أبدًا معه وحدى فى عربة من قبل، وافترضت أن هذه ربما تكون عادته الطبيعية. كلما كنت أشرح له أى شىء نمر به، كان يرد ببشاشة كافية؛ لكن فى اللحظة التالية كان يحدق بصمت فى المشهد ثانيةً. كانت الشوارع العريضة التى تكتنفها الأشجار والتى تفترشها الأوراق الساقطات تفسِح مجالاً للشوارع الضيقة المزدحمة، وبدأ سائقنا يزعق فى الجِنْرِكشات والمشاة الذين يعترضون طريقنا. مررنا بمحلات التحف الصغيرة فى نانكنغ روود، وأتذكر أننى أطلعت عنقى لأرى فاترينة محل الدُمى فى ركن كوانغسى روود. كنت قد بدأت لتوى أشم الرائحة العطنة للمحاصيل الزراعية عندما وصلنا سوق الخضراوات، عندما طرق العم فيليب بغتةً بخيزرانته كى يوقف العربة.

"من هنا، سوف نمضى سيرًا على الأقدام" قال لى. "أعرف طريقًا مختصرًا جيدًا. سيكون أسرع بكثير."

كان هذا قرارًا غاية فى الصواب. كنت أعرف بحكم خبرتى إلى أى حد تصبح شوارع نانكنغ روود مزدحمة بالناس لدرجة أن العربة أو السيارة تقف محلك سر لمدة خمس، وربما حتى عشر دقائق فى كل مرة. لهذا سمحت له أن يساعدنى فى النزول من العربة دون مناقشة. لكن حينئذ، أذكر، داخلنى أول إحساس بأن هناك خطأً ما. ربما كان شيئًا فى لمسة العم فيليب وهو يُنزلنى؛ ربما كان شيئًا آخر فى طباعه. لكنه حينئذٍ ابتسم وقال عبارة لم تدركها مسامعى فى الضجيج الذى كان يحاصرنا. أشار إلى حارة قريبة وظللت أنا أمشى خلفه وعلى مقربةٍ منه ونحن نشق طريقنا بين كتل الناس الظرفاء.

انتقلنا من تحت الشمس الساطعة إلى الظل، ثم استدار إلى، تمامًا فى مغبة التدافع. سأل، وهو يضع يده على كتفى:

"كريستوفر، هل تعرف أين نحن الآن؟ هل بإمكانك أن تُخَمِن؟"

نظرت حولى. ثم أشرت باتجاه آرش حجرى كان الناس تحته يتدافعون حول أكشاك الخضراوات، وأجبت: "نعم. هذا طريق كيوكيانغ من هناك."

- "آه. إذًا أنت تعرف أين نحن." أطلق ضحكةً غريبة. "تعرف طريقك حول المكان هنا جيدًا."

أومأت وانتظرت، الإحساس الذى كان يعلو من أعماق جوفى بأن هناك رعبًا هائلاً يوشك أن يكشف عن نفسه لى. ربما كان العم فيليب موشكًا على التصريح بشىء آخر – ربما يكون قد خطط للأمر كله بطريقة مختلفة تمامًا – لكن لحظتئذٍ، وبينما كنا نقف هناك والتدافع ينال منا من كل جهة، أعتقد أنه رأى على وجهى أن اللعبة قد انتهت. اعترى وجهه ارتباك مفزع، ثم قال، بصوت مسموع بالكاد فى تلك الجلبة:

"إلى اللقاء."

قبض على كتفى ثانيةً وترك نظرته تتجول حوله. ثم بدا وقد اتخذ قرارًا كنت قد توقعته مسبقًا.

"إلى اللقاء!" قال، بصوتٍ أعلى هذه المرة، وكان صوته يرتجف بالعاطفة. ثم أضاف: "لم أرد لك سوءًا. أتفهم ذلك؟ لم أرد لك سوءًا."

بذلك دوَّم حول نفسه وتلاشى فى الزحام. بذلت محاولة ضعيفة للحاق به، وبعد لحظة لمحت جاكته الأبيض وهو يسرع بين الناس. ثم مر تحت الآرش واختفى عن عينى.

لبضع لحظات تاليات ظللت أقف فى الزحام، محاولاً ألا أسعى إلى فهم ما حدث توًا. ثم بدأت أتحرك فجأةً، عائدًا فى الاتجاه نفسه الذى أتينا منه، إلى الشارع الذى قد تركنا فيه العربة. متجاهلاً كل تقاليد اللياقة والذوق، بدأت أشق طريقى بقوة فى الزحام، أحيانًا كنت أندفع بعنف، أحيانًا كنت أحشر نفسى فى الثغرات الضيقة بين الناس، لدرجة أن الناس كانوا يضحكون أو يصرخون خلفى بغضب. وصلت إلى الشارع لأكتشف، بطبيعة الحال، أن العربة قد انطلقت فى طريقها منذ وقتٍ طويل. لبضع ثوانٍ مشوبة بالحيرة والارتباك، وقفت فى منتصف الشارع، محاولاً أن أصوغ فى رأسى خارطة لطريق العودة إلى البيت. ثم بدأت أجرى بأقصى سرعة ممكنة.

جريت أسفل كيوكيانغ روود، وعبر الأحجار غير المستوية لطريق يونان، اندفعت بين زحام أكبر على امتداد طريق نانكينغ. عندما وصلت أخيرًا إلى بابلينغ ويل روود، كنت قد بدأت ألهث، لكننى تشجعت لأننى قد غادرت فقط هذا الطريق المستقيم الطويل، الخالى من الناس نسبيًا.

ربما لأننى كنت فى تمام وعيى بالطبيعة شديدة الخصوصية لمخاوفى – أو ربما لتحول عميق فى سلوكياتى كان يحدث داخلى – لم يحدث أن التمست المساعدة من أى من الكبار الذين مررت بهم ولو لمرة واحدة، ولم أحاول أن أستوقف عربة أو سيارة. انطلقت

عدوًا أسفل ذلك الطريق الممتد، ورغم أننى حتى كنت قد بدأت ألهث على الفور بصورة مثيرة للشفقة، وحتى رغم أننى كنت أعرف أن طريقتى فى العدو لابد وأنها تبدو مروعة لمن يشاهدوننى، وحتى على الرغم من أن الحرارة والتعب خفضا سرعتى لمرات إلى أقل من خطوة المشى المعتادة، فأنا أعتقد أننى لم أتوقف مطلقًا. ثم أخيرًا كنت أمر بمقر القنصلية الأمريكية، ثم بمنزل عائلة روبرتسون. تركت طريق بوبلينغ ويل إلى طريقنا والانعطافة الثانية أخذتنى إلى المسافة المتبقية إلى بوابتنا.

كنت أعرف بمجرد أن عبرت بوابتنا – رغم أنه لم يكن هناك شيء واضحٌ يخبرنى بهذا – أننى تأخرت كثيرًا، وأن الأمر قد انتهى منذ فترة طويلة مضت. وجدت الباب الأمامى مغلقًا بالرتاج. جريت باتجاه الباب الخلفى، الذى انفتح لى، وجريت فى أنحاء المنزل وأنا أصرخ مناديًا، لسبب ما ليس على أمى، ولكن على مى لى – ربما حتى فى هذه المرحلة، لم أتمن أن أعترف بما ينطوى عليه الصراخ على أمى.

بدا المنزل خاويًا. وقتئذٍ بينما كنت أقف مذهولاً فى مدخل الردهة، سمعت صوت قهقهة. كان قادمًا من المكتبة، وعندما استدرت واتجهت صوبه، رأيت، عبر الباب الموارب، مى لى جالسة على طاولة المذاكرة الخاصة بى. كانت تجلس مستقيمة الظهر تمامًا، وعندما ظهرت على عتبة الباب، نظرت إلى وأطلقت قهقهة أخرى، كما لو كانت تستمتع بنكتة سرية وتحاول أن تكتم ضحكتها. تكشف لى أن مى لى كانت تبكى، وعرفت، كما كنت قد عرفت طوال العدو

القاسى فى طريق عودتى للبيت، أن أمى قد اختفت. وفار داخلى حنقٌ بليدٌ على مى لى، التى رغم كل ما أمرتنى به من خوفٍ منها واحترام لها على مدار السنين، أدركت الآن أنها مدَّعية ودجالة: شخصية غير قادرة على الأقل أن تتحكم فى هذا العالم المروع الذى يعلن عن نفسه من حولى؛ امرأة ضئيلة جديرة بالشفقة، شيدت نفسها فى عينى على مظاهر خادعة، امرأة لا وزن لها حين تتصادم القوى الكبرى وتتقاتل. وقفت على عتبة الباب وقنفتها بأقسى نظرات الازدراء.

لقد تأخر الوقت الآن – ساعة أو أكثر قد مضت منذ أن سجلت تلك الجملة الأخيرة – ومع ذلك فأنا هنا، لم أزل على مكتبى. أعتقد أننى أقلب هذه الذكريات فى عقلى، بعضها لم يطف على سطح عقلى لسنوات كثيرات. لكننى أيضًا أنظر للأمام، إلى اليوم الذى أرجع فيه أخيرًا إلى شنغهاى؛ إلى كل الأشياء التى سوف نفعلها أنا وآكيرا هناك. لقد شهدت المدينة، بطبيعة الحال، الكثير من التغيرات. لكننى أعرف أيضًا أن آكيرا لن يحب أكثر من أن يأخذنى فى جولة حول المدينة، ليرينى معرفته الواسعة بأكثر المراكز أهمية فى المدينة. سيعرف فعليًا أفضل أماكن الطعام، والشراب، والتنزه؛ أفضل المؤسسات التى سيمكننا الذهاب إليها بعد يومٍ شاق، لنجلس ونتجاذب أطراف الحديث فى الليل، نتقايض القصص عن كل ما قد حدث منذ آخر مقابلة لنا.

لكن الآن لابد أن آخذ قسطًا من النوم. هناك عمل كثير لابد من إنجازه فى الصباح، لابد أن أعوض الوقت الذى ضاع بعد الظهر مع سارة لمشاهدة لندن من الطابق العلوى فى ذلك الباص.

الكتاب الثالث

لندن، ١٢ أبريل ١٩٣٧

بالأمس، كان ضوء غرفة مكتبى معتمًا، عند عودة الصغيرة چينيفر من رحلة تسوقها مع ميس جيفنز. هذا المنزل الشاهق الضيق، الذى اشتريته من ميراثى عن خالتى، يطل على ميدان رغم جماله المعتدل، فإنه لا يحظى بكثير من الشمس مثل باقى الميادين المجاورة. شاهدتها من نافذة غرفة مكتبى، أسفل الميدان، تمضى عائدةً وقادمةً من سيارة أجرة، وهى تصف حقائب المشتروات بجوار القضبان، بينما ميس جيفنز تفتش فى حافظة نقودها عن الأجرة. فى النهاية، عندما دخلتا، سمعتهما تتشاجران، ورغم أننى زعقت لتحيتهما من أعلى مهبط الدرج، فإننى قررت ألا أنزل. كان شجارهما تافهًا كما تبين لى – بخصوص شىء قامتا بشرائه بينما لم يكن ينبغى – لكن فى تلك اللحظة كانت حالة من الإثارة لم تزل تنتابنى بسبب رسالة الصباح – والنتائج التى قادتنى إليها – ولم أكن أود لحالة الشعور بالانتصار أن تتهشم.

عندما نزلت إلى الطابق الأرضى، كانتا قد توقفتا منذ فترة طويلة عن الشجار، ووجدت چينيفر تحوم حول غرفة الصالون بعصابة فوق عينيها، ويداها ممتدتان أمامها.

"أهلا، چينى،" قلت، وكأننى لم ألحظ فيها شيئًا غير معتاد. "هل أحضرت كل متطلبات الفصل الدراسى الجديد؟"

كانت تندفع بخطورة باتجاه دولاب عرض التحف لكننى قاومت رغبتى المُلحة فى تنبيهها. توقفت فى الوقت المناسب تمامًا، لمسته بيديها وقهقهت.

"أوه، عمى كريستوفر! لم لم تحذرنى؟"

"أحذرك؟ من ماذا؟"

"لقد صرت ضريرة! ألا ترى. أنا ضريرة! انظر!"

"آه نعم. هكذا."

تركتها تتحسس طريقها حول الأثاث ومضيت صوب المطبخ، حيث كانت ميس چيفنز تفرِّغ حقيبة على الطاولة. ألقت علىّ التحية بأدب، لكنها تأكدت أننى لاحظت نظرتها باتجاه بقايا غدائى الذى تركته فى الطرف القصى من الطاولة. منذ رحيل بولى، خادمتنا، فى الأسبوع الماضى، وميس چيفنز تكره أى شىء يكون مفاده قيامها بمثل هذه الواجبات.

"ميس چيفنز،" قلت لها، "ثمة شىء يتحتم على مناقشته معك." ثم خفضت صوتى، وأنا ألقى بنظرة عبر كتفى: "شىء وثيق الصلة بچينيفر."

"تفضل، يا مستر بانكس."

"فى الواقع، يا ميس چيفنز، أود لو دخلنا إلى الكونسيرفاتورى، فكما أقول، الأمر على درجة ما من الأهمية."

لكن فى هذه اللحظة بالضبط أتى صوت تصادم من غرفة الصالون. مرت بى ميس چيفنز مندفعةً وهى تصرخ من مدخل الباب:

" چينيفر، كف عن هذا! قلت لك إن هذا سيحدث!"

"لكننى ضريرة" أتى الرد. "لا حيلة لى فى هذا."

بدت ميس چيفنز مشتتة الفكر، إذ تذكرت أنى كنت أتحدث إليها. فى النهاية، رجعت وقالت فى هدوء: "معذرةً، يا مستر بانكس. ماذا كنت تقول؟"

"فى الحقيقة، يا ميس چيفنز، أظن أننا سنستطيع أن نتحدث بحرية أكثر فى المساء بعد أن تكون چينيفر قد نامت."

"حسنًا جدًا، سآتى وأراك حينئذ."

لو كان لدى ميس چيفنز أية هواجس بخصوص ما كنت أود مناقشته معها، لما أظهرتها فى ذلك الوقت. فقد ألقت إلى بواحدة من ابتساماتها الكتومة، قبل أن تمضى إلى مهمتها فى غرفة الصالون.

لقد مر ثلاثة أعوام تقريبًا منذ أن سمعت لأول مرة عن چينيفر. لقد دعانى صديق المدرسة القديم أوسبورن، الذى لم أكن قابلته لفترة قصيرة، إلى حفل عشاء. كان لم يزل آنذاك على طريق جلاستر، وفى تلك الليلة قابلت للمرة الأولى المرأة الشابة التى أصبحت منذئذٍ زوجته. كان بين الضيوف الآخرين فى تلك الليلة ليدى بيتون، أرملة رجل الخير المعروف. ربما لأن الضيوف جميعًا كانوا غرباء علىّ – فقد أمضوا الليل كله يتبادلون النكات عن أناس لا أعرف عنهم شيئا – وجدت نفسى أُكثِر من الكلام بشكلٍ ما مع ليدى بيتون، أكثَرتُ من الكلام جدًا معها لدرجة أن الشك انتابنى أحيانًا فى أننى أصبحت عبئا عليها. على أية حال، توًا بعد أن تناولنا الحساء بدأت تخبرنى عن

حالة محزنة ساقتها الصدفة إليها مؤخرًا فى وظيفتها كأمين صـندوق لمؤسسة خيرية تهتم بأحوال اليتامى. زوج وزوجة لقيا حتفهما غرقًـا فى حادث ركوب الزوارق فى كورنويـل منـذ عـامين، وطفلتهمـا الوحيدة، طفلة الآن عمرها عشر سنوات، كانت آنذاك تعيش فى كندا مع جدتها. وهذه السيدة العجوز فى حالة صحية بالغة التردى، نـادرًا ما تخرج أو تستقبل زائرين.

"عندما كنت فى تورونتو الشهر الماضى،" أخبرتنى ليدى بيتون، "قررت أن أهاتفهما بنفسى. كانت الفتاة المسكينة الصـغيرة تعيسـة، لأنها تفتقد إنجلترا كثيرًا. وأما بالنسبة للسيدة، فهـى بالكـاد تعتنـى بنفسها.، ولا يهم الفتاة الصغيرة."

"هل مؤسستك قادرة على مساعدتها؟"

"سأبذل قصارى جهدى. لكن لدينا عددٌ كبير من الحالات، كمـا تعرف. وعلى نحوٍ صارم، فهى ليست حالة أولوية. ومع ذلك، فهـى لديها سقف تعيش تحته، وقد ترك لها والداها تركة معقولـة تُعينهـا. المهم فى هذا النوع من العمل هو ألا تغالبك مشاعر شخصية تجاهه. لكن عندما التقيت بالفتاة المسكينة، لم أتمكن من أن أفعـل شـيئًا إلا الاستغراق فى حالتها. إن روحها مرحة للغاية، وهذا غيـر طبيعـى تمامًا، وحتى رغم هذا فمن الواضح أنها فى غاية التعاسة."

من الممكن أن تكون قد أخبرتنى بمعلومات أكثر عن جينيفر مع استمرارنا فى تناول الطعام. أذكر أننى كنت أنصت بأدب جم، لكـن ردودى كانت قليلة. فقط بعد ذلك بفترة طويلة، بالخارج فى الردهـة،

والضيوف يغادرون، وكان أوسبورن يناشدنا أن نبقى لفترة أطـول، أخذت ليدى بيتون جانبًا.

"أتمنى ألا تعتبرى هذا غير ملائم،" قلت. "لكن هذه البنـت التـى حدثتنى عنها قبل فترة. چينيفر هذه. أود أن أفعل شـيئًا لمسـاعدتها. حقيقةً، يا ليدى بيتون، أنا على أتم استعداد لأخذها عندى."

ربما لا ينبغى أن أعتبر ردَّ فعلها للوهلة الأولى مشـينًا لهـا؛ إذ إنها تراجعت بنظرة مشوبة بالشك. على الأقل، هكذا بدا الأمر لـى. فى النهاية قالت:

"هذا منتهى العطف منك، يا مستر بانكس. سـوف أتصـل بـك لنناقش الأمر، لو سمحت لى."

"ليدى بيتون، أنا فى منتهى الجدية. لقد ورثت مـؤخرًا، ولـذا، ستكون قدرتى على كفالتها كبيرة."

"أنا متأكدة من هذا، يا مستر بانكس. حسنًا لنتحـدث باستفاضـة حول الأمر." عند هذا الحد، استدارت لضيوفٍ آخرين تبادلت معهـم كلمات وداع صاخبة؛ مرحة.

غير أن ليدى بيتون فى الحقيقة لم تتصل بى إلا بعد ما لا يقـل عن أسبوع. من المحتمل أنها كانت تستفسر عن شخصـيتى؛ ربمـا ببساطة لأنها كانت تملك من الوقت ما يُمكِنها من إعادة التفكير فـى الأمر فى أكثر من مرة؛ على أية حال، لقد تغير سلوكها معى تمامًـا. على الغداء فى كافيه رويال، وأثناء لقاءاتنا التاليـة، لـم تسـتطع أن تتعامل بود أكثر معى، ووصلت چينيفر إلى منزلى بعد مرور أكثـر من ثلاثة أشهر على حفل العشاء فى شقة أوسبورن.

كانت فى صحبة ممرضة كندية اسمها ميس هانتر، رحلت ثانيةً بعد أسبوع، بعد أن قبّلت البنت ببشاشة وذكرتها بأن تكتــب لجــدتها. فكرت چينيفر بإمعان فى الاختيار بين ثلاث غرف نــوم عرضــتهم عليها، ووقع اختيارها على أصــغر غرفــة، لأن الــرف الخشــبى الصغير، كما قالت، الذى يمتد علــى أحــد الجــدران ملائــم جــدًا "لمقتنياتها". التى تضم، حسبما اكتشفت على الفور، بعــض القواقــع البحرية التى انتقتها بعناية، ثمرات جوز الهند، أوراقًا مُجَفّفة، بلورات صخرية، وقليلاً من مثل هذه الأشياء التى جمعتها مع الوقت. صــفت مقتنياتها بعناية بطول الرف ونادتنى ذات يوم لأعاينها.

"لقد أطلقت اسمًا على كل واحدة،" أوضحت. "أعــرف أن هــذه الممارسة نوع من الحمق، لكننى أحب مقتنياتى تلك للغاية. ذات يوم، يا عم كريستوفر، عندما أفرغ من مشاغلى، سأحدثك عن كل واحــدة على حدة. لو سمحت، أخبر بولى أن تتعامل بحذر أكثر وهى تنظــف المكان هنا."

أتت ليدى بيتون لمساعدتى فى إجــراء المقــابلات الشخصــية لاختيار مربية، لكن چينيفر نفسها، التى كانت تسترق السمع على كل ما يحدث من الغرفة المجاورة، هى من كانت لها اليد العُليا فى اختيار القرار. كانت تظهر بعد كل مرشحة لإصدار حُكم إدانة. "غايــة فــى البشاعة،" وصفت إحدى المرشحات. "منتهى الهــراء فيمــا يخــص وظيفتها الأخيرة لدى الطفلة التى ماتت بذات الرئة. لقــد ســمعتها." وقالت عن واحدة أخرى: "ليس من الممكن أن نوافق عليها. إنها فــى منتهى العصبية."

استلفت انتباهي في ميس جيفنز أنها مملة وفاترة، لكنها لسبب ما نالت استحسان چينيفر بسرعة، ولابد أن أعترف، أنها فـــي العـــامين ونصف العام منذئذٍ بررت بدرجة كبيرة إيمان اختيار چينيفر بها.

تقريبًا كل من قدمت له چينيفر قد لاحظ إلى أى مدى تبدو رابطة الجأش مقارنةً بأى طفلة مرت بمأساتها. فى الواقع، كانت ســـلوكياتها تنطوى على ثقة ملحوظة بالنفس، وبالتحديد، قدرتها على الاســـتهانة بالانتكاسات التى يمكن أن تجعل بنات أخريـــات ينفجـــرن باكيـــات. والمثال الواضح على هذا، كان رد فعلها فيما يخص صندوق ثيابها.

بعد وصولها بعدة أسابيع، أشارت بصورة متكررة إلى صـــندوق ملابسها الذى سيصل بحرًا من كندا. أذكر، على سبيل المثـــال، أنهـــا ذات مرة وصفت لى تفصيلاً مدينة ألعاب خشبية صنعها لها شـــخصٌ ما وسوف تأتى فى صندوق ملابسها. فى مناســـبة أخـــرى عنـــدما، فكرت فيها وهى ترتدى تاييرا محددا أحضـــرته وهـــى عائـــدة مـــن سيلفريدچ مع ميس جيفنز، نظرت إلى برزانة وقالت: "عندى ربـــاط شعر سيلائمه جدًا. سيصل فى صندوق ملابسى."

لكننى، ذات يوم تلقيت خطابًا من شركة الشحن تعتذر فيه عـــن فقدان صندوق الملابس فى البحر وتعرض تعويضًـــا عنـــه. عنـــدما أخبرت چينيفر بذلك، حدقت ببساطة فى البداية. ثم أطلقـــت ضـــحكة خفيفة وقالت:

"حسنًا فى تلك الحالة، سنضطر أنا وميس جيفنز أن نذهب فـــى مهمة شراء ضخمة."

. عندما لم تُظهر أى شىء ينُم عن انزعاج من خسارتها بعد يومين أو ثلاثة، شعرت بميل لحتمية الكلام معها، وذات صباح بعد الإفطار، وقعت عينى عليها وهى تتجول فى الحديقة، فخرجت لأنضم إليها.

كان صباحًا مشمسًا منعشا. حديقتى ليست كبيرة، حتى بمقاييس المدينة – مستطيل أخضر يطل عليه عددٌ من البيوت المجاورة – لكنها جيدة التخطيط، وتمنح، رغم كل شىء، شعورًا مريحًا بالخصوصية. عندما تقدمت إلى المرج، كانت چينيفر تتطلق فى الحديقة وفى يدها حصان دُمية، وكانت تحركه بطريقة حالمة للأمام أعلى للشجيرات الصغيرات. أذكر أننى كنت مهمومًا إلى حدٍ ما بأن الحصان من الممكن أن يتعرض للأذى من جراء الندى وكنت على وشك أن أوضح لها ذلك. لكننى قلت ببساطة عندما اقتربت منها فى النهاية:

"صادفت أشياؤك ذلك الحظ العاثر. لقد تلقيت الأمر بطريقة غاية فى القوة، لكن لابد وأنك صُدِمت ببشاعة."

"أوه...." واستمرت فى تحريك حصانها دونما اكتراث. "لقد أثار ذلك قليلاً من الإزعاج. لكن بإمكانى فعليًا أن أشترى أشياء أكثر بمبلغ التعويض. قالت ميس چيفنز إنه بإمكاننا الخروج للتسوق يوم الثلاثاء."

"مع ذلك. انظر، أعتقد أنك فى منتهى الشجاعة. لكن، أتعرفين، لست بحاجة لهذا التظاهر، أظنك تفهمين ما أعنى. لو أردت التخلى عن حذرك قليلاً، ليكن ذلك. لن أفشى ذلك لأحد، ولا لميس چيفنز، بكل تأكيد."

"وهو كذلك. أنا لست منزعجة. ومع ذلك، فكلها مجـرد أشـياء. عندما تفقد أمك وأباك، لن تكترث كثيرًا بالأشياء. أليس كذلك؟" عنـد هذه النقطة، أطلقت ضحكتها الخفيفة.

تلك كانت واحدة من المرات القليلات التى أذكر أنها أوردت فيها ذكر والديها. ضحكت أنا أيضًا، وقلت: "لا أعتقد،" وبدأت أعود باتجاه المنزل. لكن حينئذٍ استدرت إليها وقلت:

"أتعرفين، يا چينى، لست متأكدًا من حقيقة هذا. ربما تقولين مثل هذا للكثيرين وسيؤمنون به. لكن أعرف أن هذا ليس صحيحًا. عندما أتيت من شنغهاى، كانت الأشياء التى أتت فى صندوق ملابسى، تلك الأشياء، كانت مهمة بالنسبة لى. ولم تزل كذلك."

"هل تسمح لى برؤيتها؟"

"أريك إياها؟ حسنًا، معظمها لن يمثل لك شيئًا."

"لكننى أحب الأشياء الصينية. أريد أن أراها."

"معظمها ليس صينيًا كما تظنين،" قلـت. "حسـنًا، مـا أحـاول توضيحه هو أن صندوقى كان مهمًا بالنسبة لى. لو أننى فقدته، كنـت سأنزعج."

هزت كتفها غير مباليةٍ ووضعت حصانها أعلى وجنتهـا. "لقـد كنت منزعجةً. لكننى لم أعد. ينبغى عليك أن تنظر فى الحيـاة إلـى الأمام."

"نعم، من قال لك إنها أفضل طريقة. وهو كذلك، كما تريدين. انسى صندوق ملابسك الآن. لكن تذكرى...." تراجعت، غير مدرك ما كنت قد نويت قوله.

"ماذا؟"

"أوه لا شيء. فقط تذكرى، لو أن هناك ما تريدين إخبارى به، أو أن هناك ما يضايقك، فأنا دائمًا هنا."

عندما تقدمت عائدًا إلى المنزل، حدقت خلفى ورأيت أنها عادت لتجوالها فى الحديقة مرةً أخرى، وهى تحرك حصانها فى أقواس وهمية فى الهواء.

لم أعط مثل هذه الوعود لچينيفر بسهولة. آنذاك، كانت نيتى هى تحقيقها كاملةً، وولعى بچينيفر قد تزايد فقط فى الأيام التالية. ومع ذلك ها أنا ذا اليوم، أخطط للتخلى عنها؛ ولا أعرف حتى لأى فترة من الوقت. من الممكن، بالطبع، أن أكون مُبَالغًا فى تصويرى لاعتمادها على. لو سارت الأمور على ما يُرام، فربما أعود إلى لندن قبل العطلة المدرسية القادمة، وبالكاد ستلحظ غيابى. ومع ذلك، فأنا مضطر للاعتراف، تمامًا مثلما اضطررت للاعتراف أمس لميس چيفنز، أن سفرى ربما يطول قليلاً. عدم التحديد هذا هو ما يخدع أولوياتى، وأشك فى أن چينيفر سوف تتأخر فى بلوغ النتائج. فأيًا كان القناع الشجاع الذى ترتديه، فأنا أعرف أنها سوف تعتبر قرارى خيانة.

ليس من السهل أن أوضح كيف أصبحت الأمور هكذا. ما أستطيع قوله هو أن الأمر بدأ منذ عدة سنوات مضت - من قبل

وصول چينيفر بفترة طويلة - كشعور غامض كان ينتابنى من حين لآخر بأن هناك شخصًا أو آخر يستهجننى، وأنه فقط يستطيع إخفاء هذا كليةً. الغريب فى الأمر، أن هذه اللحظات كانت تداهمنى فى صحبة الناس الذين قد توقعت منهم أكبر قدرٍ من التقدير لمنجزاتى. عندما أتحدث إلى أحد رجال الدولة على العشاء، مثلاً، أو إلى ضابط شرطة، أو حتى عميل، ينتابنى ذهول مفاجئ حين يصافحنى بفتور، أو يُبدى ملاحظة فظة ونحن فى مغبة المزاح، لامبالاة مهذبة فى حين أننى كنت أتوقع فعليًا نوبة من العرفان المتدفق بالجميل. فى البداية، حينما كانت حوادث كهذه تقع، كنت أقلب ذاكرتى بحثًا عن إساءة وجهتها دون قصد للشخص؛ لكننى فى النهاية أرغمت نفسى على قبول أن ردود الأفعال هذه لها علاقة بشىء أكثر عمومية فى فهم الناس لى.

لأن ما أتحدث عنه هنا على درجة كبيرة من الغموض، فمن الصعب أن أتذكر أمثلة توضح ما أصف. لكن أعتقد أن مثالاً واحدًا يتمثل فى الحوار الغريب الذى قام بينى وبين مفتش بوليس من إكسيتر فى ذلك الزقاق المظلم خارج قرية كورينغ فى سومرست الخريف الماضى.

كانت إحدى أكثر الجرائم التى حققت فيها إثارةً للإحباط. لم أصل القرية إلا بعد أربعة أيام من اكتشاف جثث الأطفال فى الزقاق، وكان السقوط المتواصل للأمطار قد حول الحفرة التى وُجِدوا فيها إلى نهير موحل - مما جعل عملية جمع الدلائل ذات الصلة بالقضية غاية فى الصعوبة. رغم ذلك، حين بدأت أسمع وقع خطوات المفتش وهى تقترب، كنت قد كونت رؤية واضحة تقريبًا حول ما قد حدث.

"عمل شديد الإزعاج،" قلت له وهو يتقدم نحوى.

"لقد أمرضنى، يا مستر بانكس،" قال المفتش. "حقيقةً أمرضنى."

كنت أنحنى وأنا أتفحص الوشيع، لكننى آنـذاك نهضـت علـى قدمى، ووقفنا فى مواجهة بعضنا البعض تحت رذاذ متواصل، حينئـذٍ قال:

"تعرف، يا سيدى، فى هذه اللحظة تحديدًا، أتمنى من كل قلبى لو كنت نجارا. هذا ما كان أبى يتمناه لى. أتمنى فعلاً، يا سيدى. اليـوم، بعد هذا، فعلاً أتمنى."

"أوافقك، هذا مروع. لكن الواحد لا ينبغى أن يتراجع. لابـد أن نهتم بنشر العدالة."

هز رأسه بإحباط. ثم قال: "أنا جئت إلى هنا كـى أسـألك، يـا سيدى، عما إذا كنت قد كونت رؤية فى هذه القضية. لأنك تـرى...." نظر لأعلى على الدموع الساقطة فوقه، ثم استمر بإعيـاء: "تعـرف، تحرياتى الخاصة قادتنى إلى نتيجة محددة. نتيجة أنا إلى حدٍ ما نـافر من الوصول إليها."

نظرت إليه بوقار وأومأت. "أخشى أن يكون ما وصـلت إليـه صحيحًا،" قلت بإجلال. "منذ أربع سنوات، كانت هذه الجريمة تبـدو من البشاعة بحيث يعجز الإنسان عن مجرد تَخيُلها. لكن الآن، يبـدو الواقع أكثر بشاعة بالفعل."

"كيف هذا، يا سيدى؟" امتقع وجه المفتش بشدة. "كيف يمكن أن يتحقق مثل هذا الشيء؟ حتى بعد كل هذه السنوات لا أستطيع أن أفهم مثل...." سقط صامتًا وأشاح بوجهه بعيدًا عنى.

"لسوء الحظ، لا أرى أى إمكانية أخرى،" قلت في هدوء. "في الواقع، هذا صادم. الأمر يبدو وكأننا نحدق مباشرةً في غياهب العتمة."

"رجل مجنون كان يمر، شيء من هذا القبيل كنت سأقبله. لكن هذا.... ما زلت نافرًا من تصديق ذلك."

"أخشى أنه يتحتم عليك،" قلت. "يتحتم علينا أن نقبل هذا. لأنه ما حدث."

"أنت متأكد من ذلك، يا سيدى؟"

"أنا متأكد."

كان يحدق فى الحقول المجاورة إلى صف المنازل الريفية فى مرمى البصر.

"فى أوقات كهذه،" قلت، "لا أستطيع أن أفهم جيدًا، ويصبح الواحد فاتر الهمة. لكن لو كان لى أن أقول ذلك، من الأفضل أنك لم تأخذ بنصيحة والدك. لأن نوعيتك من الرجال، يا سيادة المفتش، شديدة الندرة. وأمثالنا ممن من واجبهم مقاومة الشر، نحن.... كيف لى أن أقولها؟ نحن مثل البرمة التى تربط الشرائح الخشبية للنافذة. لو فشلنا فى إمساكها بقوة، سيتداعى كل شيء. إن من الأهمية بحال، يا مفتش، أن تستمر."

ظل صامتًا للحظةٍ أخرى. ثم عندما تحدث ثانيةً، تراجعت مندهشًا من جفاء صوته.

"أنا مجرد شخص ضئيل، يا سيدى. لذا سأظل هنا وأفعل كل ما فى وسعى لمحاربة الأفعى. لكنها حيوان بروؤس متعددة. حال قطع رأس، سينبت مكانها ثلاث. هكذا يبدو الأمر بالنسبة لى، يا سيدى. إنه يزداد سوءًا. يزداد سوءًا كل يوم. ما حدث هنا، هؤلاء الأطفال الصغار...." التفت حوله ورأيت آنذاك الغضب يعترى وجهه. "أنا رجل ضئيل. لو كنت رجلاً أقوى" وهنا، دونما شك، صوب نظرة اتهام مباشرةً فى عينى – "لو كنت رجلاً أقوى، وقتها أقول لك، يا سيدى، لم أكن لأتردد كثيرًا. كنت سأقتحم قلبها."

"قلبها؟"

"قلب الأفعى. سأذهب إليه. لماذا كنت سأهدر وقتًا ثمينًا فى مصارعة رؤوسها الكثر؟ كنت سأذهب اليوم إلى حيث يقع قلب الأفعى وأذبح الشىء مرة واحدة وللأبد قبل.... قبل...."

بدا أن الكلمات قد نفذت منه ووقف بالفعل يحدق فىّ. لا أتذكر بالتحديد ما قلته ردًا عليه، من الممكن أن أكون قد غمغمت بشىء مثل:

"حسنًا، هذا منتهى الإطراء منك" ومضيت بعيدًا.

هناك أيضًا واقعة من الصيف الماضى، فى مناسبة زيارتى لجمعية الجغرافيا الملكية كى أسمع هـ. ل. مورتيمر وهو يلقى محاضرته. كان مساءً غاية فى الدفء. كان جمهور المستمعين البالغ

مائة تقريبًا يتشكل من شخصيات متميزة فى كل مناحى الحياة؛ تعرفت، بين الآخرين، على شريف ليبرالى، ومؤرخ أكسفوردى شهير. تحدث بروفيسور مورتيمر لأكثر من الساعة، بينما كانت قاعة المحاضرات تزداد ازدحامًا. كان بحثه بعنوان: "هل النازية تمثل تهديدًا للمسيحية؟"،

وكانت فى الواقع مناظرة هجومية عنيفة لإثبات أن المصادقة الكونية قد أضعفت يد بريطانيا فى الشئون العالمية. فى النهاية عندما قُدمَت الأسئلة، بدأ جدل قوى يشتعل فى أرجاء القاعة، ليس عن أفكار بروفيسور مورتيمر، لكن بخصوص تحرك القوات الألمانية باتجاه رينلند. كانت هناك أصوات متحمسة تندد بالممارسة الألمانية، وفى ذات الوقت، أصوات أخرى تتغاضى عنها، غير أننى كنت مرهقًا فى تلك الليلة بعد أسابيع من العمل المكثف، ولم أبذل أى مجهودٍ حقيقى للمتابعة.

فِي النهاية، أشاروا إلينا بالخروج من القاعة إلى غرفةٍ مجاورة، حيث قُدمت لنا المرطبات. تقريبًا، لم تكن الغرفة واسعة بما يكفى، لدرجة أننى عندما دخلت – وكنت بطريقة ما أو بأخرى بين آخر من دخلوا – كان الناس يزاحمون بعضهم البعض بصورة غير مريحة. وخزنت فى ذاكرتى صورة لنساء بدينات ترتدين مرايل يخترقن الزحام بضراوة باستخدام مرافقهن وهن يحملن صوانى الشيرى،[١٤] والأساتذة ذوى الشعر الرمادى الذين يشبهون الطيور الذين يقفون

(١٤) الشيرى: نوع من الخمور إسبانية الأصل. (المترجم)

زوجا زوجا يتجاذبون أطراف الحديث وهم يميلون برؤوسهم للـــوراء للحفاظ على مسافة مهذبة. شعرت أنه من المستحيل أن أظل فى مثل هذه البيئة، وكنت أشق طريقى باتجاه باب الخروج، عندما شعرت بيد تمس كتفي. استدرت لأجد كانون مورلى، يبتسم في وجهـــى، رجـــل دين قدم لى خدمة لا تُقدر بثمن فى قضية حققت فيها مـــؤخرًا، ولـــم أرى حيال ذلك سوى أن أقف وأحييه.

"لقد كانت ليلة فى غاية الروعة،" قال. "لقد منحتنى كثيـــرًا ممـــا يستحق التفكير."

"نعم، غاية فى التشويق."

"لكن ينبغى أن أقول، يا مستر بانكس، إننى عندما رأيتك هنـــاك على الجانب الآخر من الغرفة، تمنيت إلى حدٍ ما أن تقول شيئًا."

"معذرة لأننى كنت أشعر بالإرهاق إلى حدٍ ما هذه الليلة. إضافة إلى أن جميع من فى الغرفة بدوا يعرفون أكثر بكثير عن الموضوع."

"أوه، هراء، هراء." ضحك، وضربنى بود على صدرى. ثم مال مقتربًا أكثر – ربما يكون خلفه من دفعه – لدرجة أن وجهه كان على بعد بوصات من وجهى، وقال: "للأمانة، لقد دُهشت قليلا لأنـــك لـــم تشعر باضطرارك إلى التقدم بمداخلة. كل هذا الكلام عن أزمـــة فـــى أوروبا. تقول إنك كنت مُرهقًا؛ ربما كنت مهذبًا. ومـــع ذلـــك، أنـــا مندهش لأن الموضوع تسرب من يديك."

"تسرب من يدى؟"

"ما قصدت قوله، سامحنى، أنه من الطبيعى جدًا أن ينظر بعض الحضور إلى أوروبا على أنها مركز اضطراب هائل فى الوقت الراهن. لكنك، يا مستر بانكس. بالطبع، تعرف الحقيقة. تعرف أن الجوهر الحقيقى لأزمتنا الراهنة يكمن فى منطقة أبعد."

نظرت إليه بإمعان، ثم قلت: "معذرةً، يا سيدى. لكننى لست على دراية تامة بما تقول."

"أوه تعالى، تعالى." كان يبتسم بفطنة. "أنت من بين الجميع."

"حقيقةً، يا سيدى، لا أعرف، يا سيدى، لماذا تظن أنه ينبغى على أن أكون على دراية خاصة بمثل هذه الأمور. هذا حقيقى، لقد تحريت عن جرائم كثيرة خلال السنوات الماضيات، وربما أكون قد رسمت صورة عامة عن كيفية إعلان أشكال معينة من الشر عن نفسها. لكن فيما يخص السؤال عن كيفية الحفاظ على توازن القوى، وكيفية احتوائنا لصراع الطموحات العنيف فى أوربا، فيما يخص هذه القضايا، فليس لدى أى نظرية ضخمة بهذا الشكل."

"لا توجد نظرية؟ ربما لا." استمر كانون مورلى فى التوجه إلى بابتسامته. "لكن لديك، لنا أن نقول، علاقة خاصة، فى الواقع، بما هو مصدر كل الاضطرابات الراهنة. أوه، تقدم، يا رفيقى العزيز! أنت تعرف جيدًا ما أقصد! أنت تعرف أكثر من أى شخص أن بؤرة العاصفة ليست فى أوروبا على الإطلاق، لكنها فى الشرق الأقصى. فى شنغهاى، على سبيل الدقة."

"شنغهاى،" قلت بضعف. "نعم، أعتقد.... أعتقد أن هناك بعض المشاكل فى تلك المدينة."

"مشاكل فى الواقع. وما كان ذات مرة مجرد مشكلة محلية سُمِح لها أن تكبر وتتفاقم. وتنشر سمها مع السنوات فى مساحات أوسع من العالم، مباشرةً على حضارتنا. لكن قلما تحتاج مثلى أن يُذَكرك بهذا."

"أظنك ستجد، يا سيدى،" قلت، ولم أعد أحاول مواراة سخطى، "إننى اجتهدت كثيرًا فى السنوات الماضيات كى أتحرى عن انتشار الجريمة والشر أينما أعلنت عن نفسها. لكن بالطبع، قد استطعت القيام بهذا فى إطار دائرتى المحدودة فقط. أما فيما يخص ما يحدث فى الأماكن البعيدة، فبالتأكيد، يا سيدى، نادرًا ما تتوقع منى..."

"أوه تقدم! حقًا!"

ربما كنت قد فقدت صبرى تمامًا، لكن فى هذه اللحظة بالضبط أتى قسّ بعد أن شق طريقه بصعوبة بين الناس لتحيته. قدمنا كانون مورلى بعضنا البعض، لكننى بسرعة انتهزت فرصة وفررت.

هناك عدد آخر من الأحداث المماثلة التى، إن لم تكن صريحة تمامًا، فإنها تكونت على مدار فترة من الزمن لتدفعنى باستمرار فى اتجاه بعينه. وبالطبع، الصدام مع سارة هيمنجس فى حفل زفاف أحد أفراد عائلة درايكوت.

الفصل الحادى عشر

لقد مضى الآن أكثر من عام بالفعل. كنت أجلس بالقرب من مؤخرة الكنيسة – وكان متوقعًا ألا تصل العروس قبل عدة دقائق أخرى – حينما أتت سارة مع السير سيسيل ميدهيرست على الجانب الآخر من جناح الكنيسة. بالتأكيد، لم يكن سير سيسيل يظهر أكبر سنًا بصورة ملحوظة مما كان عليه عندما رأيته آخر مرة على المأدبة التى أقامتها مؤسسة ميرديث على شرفه؛ لكن الأقاويل الكثيرة التى أفادت أنه قد استعاد شبابه بشكل هائل على أثر زواجه من سارة بدت نوعًا من المبالغة. مع ذلك، كان يبدو سعيدًا للغاية، وهو يلوح بمرح لمن يعرفهم من الناس.

لم أتحدث إلى سارة حتى انتهت الطقوس. كنت أتمشى حول ساحة الكنيسة بين الضيوف المتفرقين هنا وهناك، عندما وجدتها بغتةً تظهر إلى جانبى.

"الآن، يا كريستوفر،" قالت. "أنت الوحيد هنا الذى لم يهنئنى بالفعل على قبعتى. صنعتها لى سيليا ماثيسون."

"إنها رائعة. حقيقةً، مثيرة للإعجاب. وكيف حالك؟"

كانت المرة الأولى التى نتحدث فيها منذ فترة وأعتقد أننا دردشنا بأدب لفترة أثناء تحركنا ببطء حول جماعات الناس. حينئذٍ عندما توقفنا ثانيةً، سألت:

"وهل السير سيسل على ما يُرام؟ إنه يبدو ملائمًا للغاية."

"أوه، إنه في حالة رائعة. كريستوفر، بإمكانك أن تخبرني. هل الناس في حالة بالغة الانزعاج لزواجه مني؟"

"في حالة من الانزعاج؟ أوه لا، لا. لماذا يشعرون بذلك؟"

"أعني، بسبب كونه أكبر كثيرًا في السن. بالطبع، لن يصرح لنا أحد. لكن أخبرني أنت. لقد انزعج الناس، أليس كذلك؟"

"بقدر ما أدركت، الجميع سعداء. بالطبع، انتابتهم الدهشة. لقد كان الأمر مفاجئًا جدًا. لكن لا أعتقد أن الجميع كانوا سعداء."

"حسنًا إذًا، هذا فقط يثبت ما خفت منه. لابد وأنهم رأوا أنني عذراء عجوز. ولهذا لم يشعروا بالانزعاج. أنا واثقة أنهم كانوا سينزعجون لو حدث هذا قبل بضع سنوات."

"أحقًا..."

ضحكت سارة لعدم ارتياحي ومست ذراعي. "كريستوفر، أنت غاية في الروعة. لا تقلق. لا تقلق لهذا مطلقًا." ثم أضافت: "تعرف، لابد أن تأتي لزيارتنا. سيسيل يذكر مقابلته لك، في تلك المأدبة. وهو يود أن يراك ثانيةً."

"يسعدني هذا."

"أوه، لكن لابد وأن الوقت تأخر كثيرًا الآن. سنسافر، تعرف. سنبحر إلى الشرق الأقصى في غضون ثمانية أيام."

"أحقًا. هل ستغيبان للأبد؟"

"ربما شهور. ربما حتى سنوات. ومع ذلك، ينبغى عليك أن تأتى لزيارتنا عندما نعود."

أشك أننى ارتبكت قليلاً حين سماعى لهذه الأخبار. لكن فى هذه اللحظة بالضبط، ظهر العريس والعروس على العشب، وقالت سارة:

"أليسا فى منتهى الروعة معًا؟ كلاهما يليق بالآخر جدًا." ظلت للحظة تحدق فيهما بطريقة حالمة. ثم قالت: "كنت أسأل توًا عما يأملانه فى المستقبل. وقال آليسون إنهما فقط يريدان بيتًا ريفيًا صغيرًا فى دورسيت، لا يغادرانه لسنوات وسنوات. لا يغادرانه حتى يصبح لديهما أطفال، ويشيبان ويتغضنان. ألا ترى أن هذا غاية فى الروعة؟ أتمنى ذلك لهما. ومن الرائع جدًا، الطريقة التى التقيا بها بمحض الصدفة هكذا."

استمرت تحدق فيهما وكأنها منومة مغناطيسيًا. أخيرًا أفاقت من غشيتها، وأعتقد أننا أنفقنا بضع دقائق تبادلنا فيها أخبار الأصدقاء المشتركين. ثم أتى آخرون وانضموا لنا، وبعد فترة تسللت مبتعدًا.

التقيت بسارة مرةً أخرى، بعد فترة فى اليوم نفسه، فى الفندق الريفى المطل على المنحدرات الجنوبية، حيث أقيم حفل الاستقبال. كنا فى أواخر منتصف النهار، وكانت الشمس آخذة فى الغروب. كميات غير عادية من الشراب كانت قد استُهلِكَت، وأذكر أننى مشيت فى الفندق عبر جماعات من المدعوين كانت شعورهم قد تشعثت، وانتثروا على الأريكة وأخذوا يستندون على الجدران فى اختلال، حتى خرجت إلى الشرفة المنسمة، حينئذٍ لمحت سارة، تميل مستندة

الدرابزين، وتحدق فى الخارج على الحديقة. كنت متجهًا صوبها، عندما سمعت صوتًا من خلفى، ورأيت رجلاً ممتلئًا أحمر الوجه يهرول خلفى بعرض الشرفة. قبض على ذراعى، ثم وقف هناك يستعيد أنفاسه، وهو ينظر مليًا فى وجهى بانطباع تسمه الجدية. ثم قال:

"انظر، لقد كنت أترقب. لقد شاهدت ما حدث، ورأيتهم مبكرًا أيضًا. إن ذلك من قبيل الخزى، وكأخ للعريس، أريد أن أقدم خالص الاعتذار لك. هؤلاء السكارى البلهاء، أنا لا أعرف من هم. أنا آسف، أيها الفتى العجوز، لابد وأن هذا كان فى منتهى الإزعاج."

"أوه، من فضلك لا تنزعج،" قلت ضاحكًا. "أنا حتى لم أتضايق. لم يشربوا كثيرًا وكانوا يسلون أنفسهم فحسب."

إن هذا سلوك بربرى. أنت ضيف، مثلهم تمامًا، ولو لم يمتثلوا لتقاليد الذوق والتحضر، سيطردون."

"حسنًا، حقيقةً، أعتقد أنك تلقيت الأمر من زاوية خطأ. إنهم لم يقصدوا أى شيء. على أية حال، أنا لم أتعرض لأى إهانة. والإنسان لابد وأن يستطيع تقبل نكتة خفيفة أحيانًا."

"لكنهم كانوا فى الحالة نفسها طيلة الوقت بعد الظهر. لقد رأيتهم من قبل، وحتى فى الكنيسة. هذا زفاف أخى. ولن أقبل سلوكيات من هذا النوع. فى الواقع، سوف أقوم بالتعامل مع الأمر كله هنا بالخارج وفى هذه اللحظة. تعال معى، أيها الرفيق الكبير. وسنرى ما إذا كانوا لا يزالون يرونك مسليًا."

"لا، انظر، أنت لا تفهم. رغم أى شيء، فأنا استمتعت بالنكتة مثلهم تمامًا."

"لكننى لن أقبل هذا! كثيرٌ من هذه الممارسات تنتشر هذه الأيام. سيتمادون فيها أكثر وأكثر، لكن اليوم لا. ليس فى حفل زفاف أخى. هيا، ستأتى معى."

كان يجذبنى من ذراعى ورأيت قطرات العرق تنتشر على وجهه. لست متأكدًا مما فعلته بعدئذٍ، لكن حينئذٍ، تقدمت سارة بخطواتها صوبنا، وفى إحدى يديها كوكتيل، وقالت للرجل أحمر الوجه:

"أوه، روديريك، لقد تلقيت الأمر من زاوية خطأ. إنهم أصدقاء كريستوفر. إضافةً إلى أن كريستوفر هو آخر شخص يمكن أن تشمله بالحماية."

تنقلت نظرات الرجل أحمر الوجه بيننا. أخيرًا سأل سارة: "هل أنت متأكدة؟ لأننى رأيت هذا مستمرًا طوال اليوم. فى كل مرة يقترب هذا الرجل منهم..."

"أنت تقلق نفسك كثيرًا، يا روديريك. إنهم أصدقاء كريستوفر. لو أنه مختلف معهم بأى شكل، كنت ستعرف فورًا بهذا. فى الواقع، بإمكان كريستوفر هنا أن يكافئهم، أو على الجانب الآخر يكيل لهم بيديه، ما يشاء، بإشارة من عينه. لذا عليك أن تذهب، يا روديريك. انطلق واستمتع."

شملنى الرجل الأحمر بانحناءة احترام جديدة، ثم مد يده بارتباك. "أنا أخو جيمى،" قال، وأنا أصافحها. "سعيد بمقابلتك. لو تأمرنى بأى

شيء، حسنًا، تعال وستجدني. أعتذر عن أي سوء فهم. حسنًا، وقت ممتع."

رأيناه وهو يتراجع باتجاه المنزل. ثم قالت سارة:

"هيا، يا كريستوفر. لماذا لا تأتي وتتحدث إليّ لبعض الوقت؟."

أخذت رشفة من كأسها ومضت. اقتفيت أثرها عبر الشرفة حتى أصبحنا على الدرابزين، ننظر للخارج على الحديقة.

"شكرًا لك على ذلك،" أخيرًا قلت.

"أوه، عفوًا. كريستوفر، ماذا كنت تفعل طيلة الوقت بعد الظهر؟"

"أوه، لا شيء. حقيقةً، كنت فقط أفكر. في تلك الليلة التي كانت منذ بضع سنوات مضت، تلك المأدبة التي أقيمت للسير سيسيل. كنت أتساءل حينما التقيت به في تلك الليلة، هل فكرت أنك ذات يوم سوف..."

"أوه، كريستوفر" – قاطعتني وأدركت أنها تقريبًا ثملة – "سأخبرك، بإمكاني أن أخبرك. عندما قابلت سيسيل في تلك الليلة، وجدته غاية في السحر والجاذبية. لكن في الحقيقة، لم أفكر بصدده أكثر من ذلك. بعد ذلك بفترةٍ طويلة، أوه، بعام، وربما أكثر. أوه نعم، سأخبرك، أنت صديق عزيز. كنت على هذا العشاء وكان الناس يتحدثون عن موسوليني، وبعض الرجال إنها لم تعد نكتة، وبالإمكان جدًا اندلاع حربٍ أخرى، أسوأ بكثير من السابقة. كان هذا عندما أتى شخصٌ ما بذكر اسم سيسيل. قال إن احتياجنا الآن لأشخاص مثله

أكثر من أى وقتٍ مضى، وفى الواقع لم يتوجب عليه أن يتقاعد، رغم أنه بالتأكيد قد ترك خلفه فائضا من القوة الدافعة. حينئذٍ قال شخصٌ ما، إنه رجل المهام الصعبة، وقال آخر، لا، ليس هذا من قبيل العدل تجاهه، لقد كبر جدًا فى السن، لم يبق لديه من الرفاق الحميمين أى شخص، إنه الآن حتى بلا زوجة. وعندما سمعت الجملة. فكرت، أحقًا، حتى ذلك الرجل العظيم، بكل منجزاته، فى حاجة إلى شخصٍ ما، شخص ما يحقق الفرق. شخص ما يساعده فى نهاية مسيرته الحياتية، شخص ما يحشد كل ما يحتاجه لانطلاقة أخيرة عظيمة."

سقطت صامتة للحظة، لذا قلت: "ويبدو أن السير سيسيل رأى الأمر من هذه الناحية أيضًا."

"بإمكانى أن أصبح مقنعة وقتما أريد، يا كريستوفر. إضافةً إلى أنه أقر بوقوعه فى حبى بعد أن رآنى للمرة الأولى مباشرةً على هذه المأدبة."

"ياللروعة."

أسفلنا، تحت على العشب، بعيدًا إلى حدٍ ما، عدد من الضيوف كانوا يختفون خلف البركة. كنت أرى رجلاً واحدًا، ياقته تلتصق برقبته، يصوب على بعض البط. فى النهاية، قلت:

"مسألة سير سيسيل هذه التى تتوجب دفعة أخيرة. درة تاج منجزاته. أى شيء بالضبط كان فى عقلك وكنت تودين منحه إياه؟ ولهذا السبب ستغيبان لشهور؟"

أخذت سارة نفسًا عميقًا وأصبحت نظرتها جادة وثابتة. "كريستوفر. لابد وأنك تعرف الإجابة."

"لو كنت أعرف الإجابة...."

"أوه، لأجل الله. نحن سنتجه إلى شنغهاى، بالطبع."

من الصعب أن أصف بالفعل شعورى عندما سمعتها تقول ذلك. ربما لأنه لم يزل هناك قدر ما من الدهشة. لكننى أتذكر نوعًا من الارتياح، أكثر من أى شىء آخر؛ شعور غريب بأننى بين الحين والآخر، وكلما كنت أضع عينى عليها خلال تلك السنوات الماضيات فى نادى كارينغروث، ثمة جزء منى كان ينتظر هذه اللحظة؛ وأن كل صداقتى مع سارة كانت دائمًا تتحرك باتجاه هذه النقطة فقط، والآن قد بلغتها. كان للكلمات التى واصلنا تبادلها بعدئذ وقع أليف، وكأننا قد تدربنا عليها عدة مرات مسبقًا فى مكان ما.

"سيسيل يعرف المكان جيدًا" كانت تقول. "يشعر بأنه ربما يستطيع ضبط الأمور هناك وأحس بحتمية ذهابه. لذا فسوف نذهب. الأسبوع القادم. لقد حزمنا أمتعتنا فعليًا."

"حسنًا، إذًا، أتمنى للسير سيسيل، أتمنى لكما، أطيب الأمنيات فى تحقيق مهمتكما فى شنغهاى. هل تتطلعين إليها؟ لدى انطباع بذلك."

"نعم، بالطبع. بالطبع أن أتطلع إلى هذا. لقد انتظرت طويلاً حدوث مثل هذا. أنا أشعر بمنتهى الملل من لندن و.... وكل هذا" – أشارت للخلف باتجاه الفندق. "لم أعد شابة، وأحيانًا ما فكرت فى أن فرصتى لن تأتى أبدًا. لكن ها نحن، نعتزم الذهاب إلى شنغهاى. الآن، يا كريستوفر، ما الأمر؟"

"أظن أن هذا ربما لا يبدو مهمًا بالنسبة لك،" قلت. "لكنني سأذكره على أية حال. أتعرفين، دائمًا كنت أنوى العودة إلى شنغهاى بنفسي. أعنى، كى.... كى أحل المشاكل هناك. كان هذا فى نيتى دائمًا."

للحظة، ظلت تحدق للخارج فى الغروب. ثم استدارت وابتسمت لى، وظننت أن ابتسامتها كانت مشحونة بالأسى، ومشوبة بالتوبيخ. مدت يدها ومست وجنتى برفق، ثم استدارت للخلف لترمق المنظر مرةً أخرى.

"ربما يحل سيسيل الأمور بسرعة فى شنغهاى،" قالت. "وربما لا. على أية حال، لابد أن نظل هناك لفترة طويلة. لذلك، لو كان ما قلته للتو صحيحًا، يا كريستوفر، فمن الممكن جدًا، إذًا، أن نراك هناك. أليس كذلك؟"

"نعم،" قلت. "بطبيعة الحال."

لم يحدث أن رأيت سارة هيمنجيس ثانيةً قبل أن تُبْحِر. لو كان لديها الحق فى توبيخى على تأجيلى طيلة تلك السنوات، فأى قدر أكبر من خيبة أملها سأتلقاه حال فشلى؟ لأنه من البديهى، مهما حقق السير سيسيل من تقدم فى شنغهاى، فسيظل الحل غير قائم فى مرمى البصر. فالتوتر لم يزل يزداد طرديًا فى العالم؛ العارفون من الناس شبهوا حضارتنا بكومة من التبن التى تندفع أعواد ثقاب مشتعلة صوبها بقوة. فى الوقت نفسه، ها أنا ذا، لم أزل فاتر الهمة فى لندن. لكن مع مجىء خطاب الأمس، يمكن القول بأن القطعة الأخيرة من

أحجية الصور المقطوعة قد أخذت مكانها. بالتأكيد لقد آن الأوان كى أذهب إلى هناك بنفسى، إلى شنغهاى، كى أذهب إلى هناك و – بعد كل هذه السنوات – "أذبح رأس الأفعى" كما قال مفتش شرطة الريف الغربى المهذب.

لكن سيكون لهذا مقابل ما. مبكرًا هذا الصباح، مثل أمس، ذهبت چينيفر للتسوق – لشراء بعض الأغراض التى ادعت أهميتها للفصل الدراسى الجديد. عندما ذهبت، كانت تبدو مبتهجة وسعيدة، لا تعرف شيئًا بعد عن خططى، أو عما تناولناه بالمناقشة أنا وميس چيفنز ليلة أمس.

طلبت من ميس چيفنز الدخول إلى الصالون، وكان علـى أن أدعوها للجلوس ثلاث مرات قبل أن تمتثل لطلبى. ربما لأنها كانت على معرفة طفيفة بما أود أن أصرح به، وأحست أن جلوسها معى يعتبر نوعًا ما من التواطؤ. وضحت الموقف لها بأفضل طريقة ممكنة لدى؛ حاولت أن أجعلها تستوعب الأهمية البالغة للقضية؛ إضافة إلى أنها قضية ارتبطت بها لسنوات كثيرة جدًا، جدًا. استمعت بـبلادة، حينئذٍ، عندما توقفت، وجهت سؤالها البسيط: كم سأغيب؟ أعتقد أننى آنذاك تحدثت لبعض الوقت، محاولاً أن أشرح لها لماذا يتعذر على أن أضع إطارًا زمنيًا لقضية من هذا النوع. لدى شعور بأنها هى التى قاطعتنى فى النهاية لتطرح استفسارًا ما، وبعد ذلك أنفقنا عدة دقائق على ترتيبات سفرى المتعددة. توًا بعد أن ناقشنا هذه الأمور باستفاضة، ونهضت على قدميها لتترك الغرفة، قلت لها:

"ميس چيفنز، أنا مدرك تمامًا أن غيابى على المدى القصير، حتى مع بذلك لقصارى جهدك، سيضع چينيفر أمام بعض العسرات.

لكننى أتساءل عما إذا كنت قد فكرت فى ذلك على المدى البعيد، إن هذا تقريبًا فى مصلحتنا تمامًا، أنا وچينى، أن أتبع الخطة التى شرحتها لك. مع ذلك، كيف لچينيفر أن تحب وتحترم حارسًا عرفت أنه قد تخلى عن أجلٍ واجباته عندما آن الأوان أخيرًا؟ أيًا كان ما تتمناه الآن، فسوف تحتقرنى عندما تكبر. وأى خيرٍ سيجلبه علينا هذا لأينا؟"

رمقتنى ميس چيفنز بثبات، ثم قالت: "عندك حق، يا مستر بانكس." ثم أضافت: "لكنها ستفتقدك، مع ذلك، يا مستر بانكس."

"نعم. نعم، بالإمكان التصديق على ذلك. لكن، يا ميس چيفنز، ألا ترين؟" ربما أكون قد رفعت صوتى فى هذه النقطة. "ألا ترين إلى مدى صارت الأمور بالغة الإلحاح؟ الاضطراب المتزايد فى كل أنحاء العالم؟ لابد أن أمضى!"

"بالطبع، يا مستر بانكس."

"معذرة. أنا أعتذر. فأنا الليلة فى حالة عصبية سيئة إلى حدٍ ما. عمومًا، لقد كان يومًا مشحونًا."

"هل تريدنى أن أخبرها؟" سألت ميس چيفنز.

فكرت فى ذلك، ثم هززت رأسى. "لا، سأتحدث إليها. سأتحدث إليها فى وقتٍ مناسب. وسأكون ممتنًا لك لو لم تخبريها بشىء حتى أكون قد رأيتها."

كنت قد عزمت ليلة أمس على أن أتحدث إلى چينيفر أن أتحدث اليوم إليها. لكن مع إمعان التفكير، شعرت أن اعتزامى القيام بذلك

سابق لأوانه؛ إضافةً إلى أنه ليس من الضرورى تمامًا التـأثير سـلبًا على حالتها المزاجية الإيجابية الحالية فيما يخص فصـلها الدراسـى المقبل. سيكون من الأفضل، عمومًا، أن أتنازل الآن عن الموضوع، وسوف أكون قادرًا على الذهاب لرؤيتها فى مدرستها حال الانتهـاء من ترتيباتي. چينيفر طفلة بالغة الشجاعة، وليس هنـاك مـا يبـرر انهيارها فعليًا لمجرد أننى رحلت.

رغم ذلك، لا حيلة لى فى تذكرى الآن لذلك اليوم الشتوى منـذ عامين عندما قمت بزيارتها لأول مرة فى مدرسة سانت مرجريـت. كنت أجرى تحريات بالقرب منها، وكان ذلك فـى أوائـل التحاقهـا بالمدرسة، حيث قررت أن أزورها للاطمئنان أن كل شىء على مـا يُرام.

تتكون المدرسة من قصر محاط بعدة أفدنة. خلف القصر، ينحدر المرج إلى البحيرة. ربما لهذا السبب الأخير، فـى كـل مـرة زرت المدرسة خلال المناسبات الأربعة التى قمت فيها بزيارتها، كنت أجـد الضباب يطوق المكان. الإوز يتجول بحرية، بينمـا عمـال البسـتنة بوجوههم المتجهمة يعتنون بالأرض السبخية. على وجه العموم، فهذا جو صارم إلى حدٍ ما، رغم أن المديرات بقدر ما رأيـتهن، يظهـرن حضورًا أكثر مودة. فى ذلك اليوم بالتحديد، أذكر بالذات ميس اسمها نائينغ، امرأة طيبة فى الخمسينيات من العمر، كانت تقـودنى عبـر الطرقات الباردة. وعند نقطة ما، توقفت عند كـوة وقالـت بصـوتٍ خفيض:

"كل شىء على ما يُرام، يا مستر بانكس، هـى مسـتقرة كمـا توقعنا. مع ذلك، من المحتمل وجود بعض الصعوبات فى البداية، ما

دامت البنات الأخريات ما زلن يعتبرنها وافدة جديدة علـيهن. ومـن الممكن أن تتعامل واحدة أو اثنتان منهن معها بقليل من الغلظة أحياناً. مع الفصل الدراسي المقبل، سيتلاشى كل هذا، أنا واثقة."

كانت جينيفر تنتظرني في غرفة كبيرة مبطنة بخشب السـنديان، حيث كان هناك جذع شجرة يحترق في المـدفأة. تركتنـي النـاظرة معها، وابتسمت جينيفر بخجل إلى حدٍ ما من مكان وقوفهـا بجـوار رف المستوقد.

"إنهم لا يحافظون على المكان دافئًا بما يكفي هنا،" قلـت، وأنـا أفرك يدي وأتحرك باتجاه النار.

"أوه، يجب أن تشعر بمدى البرودة هنا في مَهْجَعنا. قطع الجليـد على ملاءاتك!" قهقهت.

جلست على كرسي بالقرب من المدفأة، لكنها ظلت واقفة. كنـت أخشى من أنها ربما تشعر بالحرج لرؤيتي في هذا السياق المختلـف، لكنها على الفور بدأت تدردش بحرية تامة، عن البَدْمنتن،[١٥] والبنات التي أحبتهن، الطعام، الذي قالت عنه "يخنة،[١٦] يخنة، يخنة".

"أحيانًا ما يكون صعبًا،" قلت في لحظةٍ ما، "عندما تكونين وافـدة جديدة. إنهم لا.... يتعصبون ضدك أو أي شيء؟"

"أوه لا،" قالت. "حسنًا، يوجد قليل من المضايقة أحيانًا، لكنهن لا يقصدن شيئًا من ذلك. جميعهن لطيفات هنا."

---

(١٥) تنس الريشة. (المترجم)

(١٦) يخنة: طعام مطهوّ بالغلي البطيء.

كنا قد تحدثنا لمدة عشرين دقيقة عندما نهضت على قدمي وأعطيتها كرتونة أحضرتها في حقيبتي.

"أوه، ما هذا؟" تعجبت باستثارة.

"چيني، هذا ليس... هذا ليس هدية كما تظنين."

انتبهت لنبرة التحذير في صوتي، ونظرت إلى الصندوق الذي بين يديها بارهاق مباغت. "ما هذا إذاً؟" سألت.

"عليك بفتحه. لترى بنفسك."

راقبتها وهي تفض غطاء الصندوق - كان في حجم علبة حذاء تقريبًا - وتنظر - وحدقت داخله. تعبيرات وجهها - الحذرة فعليًا - لم تتغير على الإطلاق. ثم مدت يدها داخل الصندوق وتحسست شيئًا ما.

"معذرةً" قلت برقة، "هذا كل ما استطعت استرداده. اكتشفت أن صندوقك، لم يُفقد في البحر على الإطلاق، لكنه سُرق مع أربعة صناديق أخرى من محطة لندن. فعلت كل ما استطعت، لكن اللصوص بالفعل قد دمروا كل ما لم يمكنهم بيعه بسهولة. لم أجد أثرًا للملابس وخلافه. فقط هذه الأشياء الصغيرة."

أخرجت سوارًا، وكانت تتفحصه بعناية وكأنها تفتش عن تشوهات فيه. أعادته، ثم أخرجت زوجًا من أجراس فضية صغيرة وتفحصتهما بالطريقة نفسها. ثم أعادت الغطاء على الصندوق ونظرت إليّ.

"هذا منتهى العطف منك، يا عم كريستوفر" قالت بهدوء. "ولابد أنك مشغول للغاية."

"لم يكن فى هذا أى تعطيل لى. أنا بالفعل آسف لأننى لم أستطع استعادة ما هو أكثر من ذلك."

"هذا منتهى العطف منك."

"حسنًا، من الأفضل علىّ أن أتركك تعودين إلى درس الجغرافيا. أنا لم آت فى وقتٍ مناسب تمامًا."

لم تتحرك، لكنها استمرت واقفة هناك بهدوء، ترمق الصندوق الذى بين يديها. ثم قالت:

"كنت تنسى أحيانًا، عندما كنت فى المدرسة. أحيانًا فقط. كنت تعد الأيام حتى تأتى العطلات مثلما تفعل البنات الأخريات، ثم تفكر فى أنك سترى ماما وبابا مرةً أخرى."

حتى فى هذه الظروف، لم تزل مثار دهشةٍ أن أسمعها تذكر والديها. انتظرتها كى تقول أكثر لكنها لم تفعل؛ وحدقت ببساطة لأعلى فىّ وكأنها كانت بالفعل قد طرحت على سؤالاً. فى النهاية، قلت:

"أعرف أنه أحيانًا ما يكون صعبًا. وكأن العالم كله قد انهار من حولك. لكننى سأقولها لك، يا جينى. أنت تلعبين دورًا هائلاً إذ تعيدين ترتيب القطع ثانيةً. بالفعل. أعرف أن الصورة لن تعود ثانيةً أبدًا كما كانت، لكننى أعرف أنه ينبغى عليك الآن الاستمرار لبناء مستقبل سعيد لنفسك. وسأكون هنا دائمًا لمساعدتك، أود أن تعرفى هذا."

"أشكرك،" قالت. "وأشكرك على هذه الأشياء."

بقدر ما أستطيع أن أذكر، هكذا انتهى لقاؤنا في ذلك اليوم. تحركنا بعيدًا عن الدفء النسبي للمدفأة، عبر الغرفة المعرضة لتيارات الهواء وللخارج إلى الكوريدور، حيث شاهدتها تمضي عائدةً إلى فصلها.

في ذلك النهار الشتوي منذ عامين، لم تكن لدى أي فكرة أن كلماتي مثلت لها أي شيء سوى أنها قائمة على أسس قوية. عندما أعاود زيارة مدرسة سانت مرجريت ثانيةً، كي أودعها، ربما بالفعل نلتقي ثانيةً في الغرفة نفسها المعرضة لتيارات الهواء، إلى جوار المدفأة نفسها. لو حدث هذا، فالأمور ستكون أكثر صعوبة بالنسبة لي، لأن فرصة چينيفر في أن تفشل في تذكر لقائنا الأخير هناك بوضوح تام ستكون ضئيلة. لكنها فتاة ذكية، وأيًا كانت مشاعرها لحظتئذٍ، ربما ستعي جيدًا كل ما سأقوله لها. ربما حتى تدرك، أسرع من مربيتها ليلة أمس، أنها عندما تكبر – عندما تصبح هذه القضية ذكرى انتصار – ربما تفرح فعلاً لأنني نهضت لأداء تحديات مسئوليتي.

الكتاب الرابع

فندق كاثاي، شنغهاي،

٢٠ سبتمبر ١٩٣٧

المسافرون فى بلاد العرب كثيرًا ما لاحظوا أن السكان المحليين يقتربون بوجوههم من بعضهم البعض بشكلٍ مربكٍ أثناء الكلام. بطبيعة الحال، يُعتبَر هذا ببساطة واحدة من العادات المحلية التى تختلف عن عاداتنا، وسيخلص أى زائر متفتح العقل بعد قليل إلى أن هذا لا يعنى شيئًا. لقد خطر ببالى أنه ينبغى على أن أرى وأصادف حالةً مماثلة أصبحت، خلال الأسابيع الثلاثة التى قضيتها هنا فى شنغهاى، مصدرًا دائمًا للإثارة: تحديدًا الطريقة التى يبدو بها الناس مصرين هنا على منع الواحد من الرؤية كلما سنحت الفرصة. ما يلبث شخص أن يدخل غرفة أو يترجل عن سيارة حتى يقوم شخصٌ ما أو آخر بوضع نفسه وهو يبتسم أمام عينيه كاسرًا خط الرؤية، حاجبًا قراءته البصرية الأساسية لكل الأشياء المحيطة. لأن الشخص الذى يحجب رؤيتك غالبًا ليس مضيفك أو مرشدك فى تلك اللحظة، فلو كان هناك أى زلة فى هذا الاتجاه، فلن يكون هناك أبدًا نقص فى المشاهدين الذين يتوقون إلى الاستفادة من النقيصة. قدر ما أستطيع التأكيد، كل الجماعات الدولية التى يتشكل منها المجتمع هنا – الإنجليز، والفرنسيين، والأمريكيين، واليابانيين والروس – يشتركون فى هذه الممارسة بالدرجة نفسها من الحماس، والنتيجة التى لا مفر منها هى أن هذه العادة قد تنامت داخل مستعمرة شنغهاى العالمية بصورة فريدة من نوعها، متجاوزةً كل حدود الطبقات والأعراق.

لقد أخذت بضعة أيام بالفعل لأضع يدى على هذا الشذوذ المحلى، وأدرك أن هذا هو ما كان كامنًا فى عمق الارتباك الذى هدد بقهرى لفترة مع بداية وصولى إلى هنا. الآن، رغم أننى ما زلت أجد نفسى منزعجًا من هذا بين الحين والآخر، فإنه لم يصبح أمرًا جديرًا بالاهتمام. إضافةً إلى أننى اكتشفت عادة ثانية متممة تمارسها شنغهاى كى تجعل الحياة أكثر سهولة: يبدو أنه من المسموح به جدًا هنا أن تقوم بدفعات فظة مفاجئة لإزاحة الناس عن طريقك. رغم أننى لم تواتنى الشجاعة للتمتع بهذا التصريح شخصيًا، فإننى فعليًا شاهدت عددًا من النساء المهذبات فى التجمعات الاجتماعية يوجهن دفعات بالغة القوة دون التفوه ولو بكلمة.

فى ليلتى الثانية هنا عندما دخلت قاعة الرقص فى الطابق الأخير من فندق بلاس، لم أكن بعد قد عينت أيًا من هاتين الممارستين الغريبتين، وبالتالى وجدت أن معظم تلك الليلة مشوبة بالإحباط بسبب ما كنت أعتبره آنذاك طبيعة هذه المستعمرة العالمية جامحة الازدحام. بخروجى من المصعد، لمحت بالكاد السجادة القطيفة التى تقود إلى قاعة الرقص – صف من البوابين الصينيين على امتدادها – عندما وضع أحد مضيفى البريطانيين، مستر ماكدونالد من القنصلية البريطانية هيكل جسده العريض أمامى. أثناء تقدمنا باتجاه مدخل الباب، لاحظت الطريقة الساحرة بدرجةٍ ما لكل بواب، عند مرورنا، ينحنى ولأعلى يشبك يديه المرتديتين قفازًا أبيض فى بعضهما البعض. لكننا كنا بالكاد نمر بالرجل الثالث – ربما كان هناك ستة أو سبعة فى المجموع – حتى عندما حَجَب مُضيفى الآخر، مستر

جرايسون تحديدًا ممثل المجلس المحلى لشنغهاى الذى تقدم إلى جانبى ليستكمل ما كنا نتحدث بصدده أثناء صعودنا فى المصعد، هذا المشهد. ولم ألبث أن دخلت القاعة التى، وفقًا لمضيفى، كنا سنرى فيها "أروع برنامج للغناء والرقص وحشدًا من صفوة شنغهاى" حتى وجدت نفسى فى خضم حشد متدافع من الناس. السقف المرتفع فوقى، بثرياته المتقنة، جعلنى أعتقد أن أبعاد القاعة كانت شاسعة جدًا، رغم أننى لبعض الوقت لم تكن لدى طريقة كى أتيقن من ذلك. أثناء اختراقى للزحام خلف مضيفى، رأيت نوافذ كبيرة على امتداد أحد جوانب القاعة، عبرها كان الغروب ينسل، فى تلك اللحظة، إلى الداخل. لمحت أيضًا منصة على الجانب الآخر، عليها عدد من الموسيقيين فى حُلل بيضاء يتجاذبون أطراف الحديث. كانوا، مثل الجميع، فى انتظار شىء ما - ربما كانوا ببساطة ينتظرون الليل. كان هناك حالة من القلق بشكل عام، مع تزاحم الناس ودورانهم حول بعضهم البعض بلا هدفٍ واضح.

غاب مضيفاى تقريبًا عن مرمى بصرى، لكننى حينئذٍ رأيت ماكدونالد يومئ لى، وأخيرًا وجدت نفسى أجلس على طاولة صغيرة عليها مفرش أبيض مُنَشّى شق رفيقاى طريقهما إليها. من زاوية الرؤية الخفيضة هذه - رأيت حقيقةً أن مساحة واسعة من الأرضية قد أُخليَت - من المفترض أنها لبدء برنامج الغناء والرقص - وأنا كل الحضور تقريبًا قد ضغطوا أنفسهم فى شريط ضيق نسبيًا بطول الجانب المزجج من القاعة. كانت الطاولة التى نجلس عليها جزءًا من صف طويل، رغم أننى عندما حاولت أن أرى إلى أى مدى يمتد

الصف، وجدتنى قد حُجِبْت مرةً أخرى. لم يكن هناك من يجلس على الطاولات المجاورة لنا مباشرةً، ربما لأن الجمهور المتزاحم جعل الجلوس إلى الطاولات غير عملى. بعد قليل، كانت طاولتنا، حقيقةً، تشبه قاربًا صغيرًا تهاجمه من كل الجهات نوبات مدٍ من صفوة المجتمع فى شنغهاى. إضافةً إلى أن وصولى لم يمر مرور الكرام؛ فقد سمعت تمتمات من حولى تتناقل الأخبار، وكانت النظرات تتزايد طرديًا فى اتجاهنا.

رغم كل هذا، وبعد أن أصبحت الأمور مستحيلة تمامًا، أذكر أننى حاولت الاستمرار فى الحوار الذى كنت قد بدأته مع مضيفى فى السيارة التى أقلتنا إلى فندق بالاس. فى نقطة ما أتذكر أننى كنت أقول لماكدونالد:

"أنا أقدر اقتراحك جدًا، يا سيدى. لكن فى الحقيقة، يسعدنى أن أسعى فى تحرياتى وحدى. هذا ما اعتدت عليه فى عملى."

"كما ترى، يا صديقى القديم،" قال ماكدونالد. "فقط فكرت فى التنويه. بعض هؤلاء الزملاء الذين أتحدث عنهم، يعرفون المدينة كلها تمامًا. وأفضل ما عندهم ستجده على الدرجة نفسها من الدقة مثلما فى إسكوتلاند يارد. فقط فكر فى أنهم من الممكن أن يوفروا عليك، وعلينا، بعضًا من ثمين الوقت."

"لكنك ستتذكر، يا مستر ماكدونالد، كلامى لك. لقد غادرت إنجلترا لحظة تمكنت من صياغة رؤية واضحة لهذه القضية. بعبارةٍ أخرى، وصولى إلى هنا ليس هو نقطة البداية، لكنها ذروة سنوات عمل كثيرة."

"بعبارة أخرى،" قال جرايسون فجأةً، "أنت قد أتيت إلى هنا لتستكمل ملف القضية وتتحرى ما تبقى منها كى تغلقه للأبد. مدهش! إنها أخبار رائعة!"

ألقى ماكدونالد بنظرة ازدراء إلى عضو المجلس المحلى، ثم استأنف كلامه وكأن الأخير لم يقل شيئًا.

"لا أقصد أن أشكك بأى شكل فى قدراتك، أيها الصديق. فتاريخك يعلن عن نفسه، على أية حال. كنت فقط أقترح مساعدة ضئيلة من شخصى. بطبيعة الحال، تتحرك تحت إمرتك. فقط، كما تفهم، للتعجيل بالأمور. فبوصولك إلى هنا فقط، ربما لا يبدو واضحًا تمامًا مدى خطورة موقفنا. أعرف أن كل شيء يبدو هادئًا للغاية هنا. لكنى بدرجةٍ ما أخشى ألا يكون معنا من الوقت ما يُسعفنا."

"أنا ممتن جدًا لإلحاحك، يا مستر ماكدونالد. لكن بإمكانى فقط أن أقولها ثانيةً، لدى كل ما يدعونى للإيمان بأن كل شيء سوف يصل إلى نتائج مُرضية فى وقتٍ قصير نسبيًا. شريطة أن، كما أشرت، أن تتاح لى فرصة مواصلة تحرياتى دون معوقات."

"هذه أخبار رائعة!" قال جرايسون متعجبًا، ظافرًا بنظرة فاترة أخرى من ماكدونالد.

خلال معظم الوقت الذى قضيته فى صحبة ماكدونالد ذلك اليوم، كان سأمى يزداد من تظاهره بأنه ليس أكثر من موظف قنصلى مسئول عن أمور البروتوكول. لم يكن فضوله المُغالى فيه لمعرفة خططى – أو إلحاحه على فرض "مساعدين" على – فقط هو ما

فضحه؛ لكن حالة الازدواجية المهذبة إضافةً إلى سلوكياته الراقية الفاترة التى كشفت أنه رجل استخبارات. عند تلك النقطة فى المساء، لابد وأننى قد أصبحت فى ضجرٍ من التكيف مع تمثيليته، لأننى طرحت سؤالى عليه وكأن الحقيقة قد أُعلنت بيننا منذ وقتٍ طويلٍ مضى.

"مادام أننا نناقش مسألة المساعدة، يا مستر ماكدونالد،" قلت له، "هناك ما أظن أنك تستطيع القيام به وسيكون فى غاية الأهمية."

"جربنى، أيها الصديق القديم."

"كما ذكرت من قبل، أنا مهتم جدًا بما أعتقد أن قوات الشرطة هنا قد أسمته قتلة الثعبان الأصفر."

"أوه نعم؟" رأيت الحذر يلف وجه ماكدونالد. جرايسون، على الجانب الآخر، بدا أنه لا يعرف ما أشرت إليه، وأخذ يتنقل بنظراته بيننا.

"فى الواقع" – واصلت كلامى، وأنا أرمق ماكدونالد بعناية – "عندما جمعت أدلة كافية عن هؤلاء الذين يُطلق عليهم قتلة الثعبان الأصفر قررت أخيرًا أن آتى إلى هنا."

"فهمت. إذًا أنت مهتم بمسألة الثعبان الأصفر." نظر ماكدونالد فى كل أنحاء القاعة برباطة جأش. "مسألة خطيرة. لكننى لم أظن أنها على هذه الدرجة من الأهمية، مقارنة بالصورة الأكبر."

"على النقيض. أظن أنها وثيقة الصلة بالموضوع جدًا."

"أنا آسف جدًا،" تمكن جرايسون من القول أخيرًا. "لكن بالفعل من قتلة الثعبان الأصفر هؤلاء؟ لم أسمع عنهم مطلقًا."

"هذا ما يطلقه الناس على المنتقمين الشيوعيين،" أخبره ماكدونالد. "شيوعيون يقتلون أقارب أحد أعضاء جماعتهم لأنه تحول إلى مُخبِر يشي بهم." ثم قال لي: "إن هذا يحدث من وقت لآخر. الشيوعيون متوحشون في مثل هذه الأمور. لكن هذا الأمر بين الصينيين. تشيانج كاي- شيك مهيمن تمامًا على الشيوعيين الحُمر ويخطط للقضاء على ذلك، يابانيون أو لا يابانيين. نحن نحاول أن نرتفع عن هذا، كما تعرف. أنا مندهش لأنك مهتم بكل ذلك، أيها الرفيق القديم."

"لكن هذه المجموعة بعينها من المنتقمين،" قلت، "قتلة الثعبان الأصفر هؤلاء. إنهم مستمرون منذ وقتٍ طويل. يظهرون ويختفون منذ الأعوام الأربعة الأخيرة. وخلال تلك الفترة لقي ثلاثة عشر شخصًا مصرعهم حتى اليوم."

"سوف تعرف التفاصيل أفضل مني، أيها الرفيق القديم. لكن من خلال ما سمعت، سبب استمرارهم هو أن الشيوعيين الحمر لا يعرفون من هو خائنهم. فقد بدأوا بذبح أشخاص على سبيل الخطأ. تعرف، هذه هي الرؤية البلشفية للعدل، على وجه التقريب. في كل وقت تتغير أفكارهم بشأن كينونة الثعبان الأصفر، يخرجون ويقتلون عائلة أخرى."

"سيعيننا هذا على فهم الأمور بشكل كبير، يا مستر ماكدونالد، لو تمكنّا من التحدث إلى هذا المُخبِر. الرجل المُشار إليه باسم الثعبان الأصفر."

هز ماكدونالد كتفه باستهجان. "كل هذا بين الصينيين، أيها الرفيق القديم. لا يعرف أحدٌ منا من هو هذا الثعبان الأصفر. أتصور أن الحكومة الصينية ستفعل خيرًا بإعلانها عن هويته قبل أن يتعاملوا مع الكثير من الأبرياء خطأً على أنهم أقاربه. لكن بصدق، أيها الرفيق القديم. كل هذا بين الصينيين. من الأفضل أن تُنحى هذا الأمر جانبًا."

"من الأهمية بمكان أن أتمكن من التحدث إلى المُخبِر."

"حسنًا، مادمت تحتاج هذا بقوة، سوف أتحدث مع بضع أشخاص. لكننى لا أعدك بالكثير. هذا الرجل يبدو فى غاية الأهمية بالنسبة للحكومة. ورجال تشيانج يكتمون أمره جدًا، كما أتصور."

عند هذه النقطة أدركت أن عددًا أكبر من الناس أصبح يضغطنا من كل ناحية، ليس فقط من أجل رؤيتى شخصيًا، لكن للتجسس على الحوار الدائر بيننا. فى مثل هذه الظروف لم يكن من الممكن أن أتوقع كلامًا صريحًا من ماكدونالد، وقررت أن أتجاهل الموضوع وقتئذٍ. فى الواقع، لقد غالبتنى فى تلك اللحظة رغبة فى أن أنهض وأتنفس قليلاً من الهواء، لكن قبل أن أتحرك، مال جرايسون للأمام بابتسامة بشوشة وقال:

"مستر بانكس، أدرك أن هذا ليس الوقت المناسب. لكننى فقط أردت أن أصرح بكلمة سريعة. تعرف، يا سيدى، لقد كُلفت بالمهمة السعيدة لترتيب الاحتفال. أعنى، مراسم الترحيب بك."

"مستر جرايسون، لا أود أن أبدو غير ممتن، لكن كما قال مستر ماكدونالد توًا، الوقت ضاغطٌ إلى حدٍ ما. وأشعر أنه قد تم الترحيب بى بكرم يفوق الحد بكثير...."

"لا، لا، يا سيدى" – ضحك جرايسون بعصبية – "لقد كنت أشير إلى حفل الترحيب. أعنى، الحفل الخاص بعودة والديك بعد كل سنوات الأسر هذه."

أعترف أن هذا أذهلنى وربما للحظة ظللت فقط أرمقه. أطلقت ضحكة عصبية أخرى وقلت:

"بالطبع، أدرك، أن هذا سابق لأوانه إلى حدٍ ما. عليك أولاً أن تقوم بمهمتك. وبالطبع، لا أريد أن أسبق الأحداث. ومع ذلك، كما تعرف، نحن مضطرون للاستعداد. بمجرد أن تعلن عن حل القضية، سوف ينظر الجميع إلينا، المجلس المحلى، ليقيم احتفالاً جديرًا باللحظة. سوف يرغبون فى احتفالٍ خاص جدًا، وسوف يريدونه على الفور. لكنك ترى، يا سيدى، أن نرتب شيئًا فى الظروف التى نتحدث فيها، فليس هذا بالأمر الهين. لذلك ترى، أتساءل عما إذا كنت تقبل أن أضع أمامك قليلاً من الآراء الأساسية. سؤالى الأول، يا سيدى، قبل أى شىء آخر، هو عما إذا كنت سعيدًا باختيار جيسفيلد بارك مكانًا للاحتفال؟ سوف نطلب، تعرف، مكانًا شاسعًا...."

بينما كان جرايسون يتكلم، أدركت بثبات صوت – كان يأتى من مكان ما فى جلبة الزحام – طلق نارى بعيد. لكن كلمات جرايسون كانت بغتةً قد توقفت بسبب دوى هادر هز القاعة. نظرت لأعلى بانزعاج، لأرى فقط أن جميع الناس من حولى يبتسمون، ويضحكون أيضًا، ولم تزل كؤوس الكوكتيل فى أياديهم. بعد لحظة، استطعت أن أتبين حركة فى الزحام باتجاه النوافذ. قررت أن أنتهز الفرصة لأغادر الطاولة، نهضت واقفًا وانضممت للاندفاع. كان هناك كثير

من الناس أمامى فلم أتمكن من رؤية أى شىء، وكنت أحاول أن أشق طريقى للأمام عندما أدركت أن هناك امرأة رمادية الشعر إلى جانبى تتحدث إلى.

"مستر بانكس،" كانت تقول، "هل لــديك أى فكــرة عــن مــدى شعورنا بالارتياح لأنك الآن هنا معنا؟ بالطبع، لم نحــب أن نظهــر ذلك، لكننا فى منتهى الاهتمام بـــ، حسنًا" – تحركت باتجــاه صــوت إطلاق النار – "زوجى، يصر على أن اليابانيين لن يجرؤوا أبدًا على مهاجمة المستعمرة العالمية. لكن تعرف إذًا، يقول هذا عشرين مــرة فى اليوم على الأقل، لكن هذا بالكاد ينشر الطمأنينة. أقول لــك، يــا مستر بانكس، عندما بلغت زوجى أنباء وصولك الوشيك، كانت هــذه هى أولى الأخبار السعيدة التى نسمعها هنا منــذ شــهور. حتــى إن زوجى توقف عن ترديد تعويذته عن اليابانيين، توقف علــى الأقــل بضعة أيام. يا إلهى!"

انفجارٌ مدوٍ آخر هز جنبات الغرفة، مثيرًا بضع هتافات ساخرة. حينئذٍ لمحت طريقًا صغيرًا أمامى، انفتحت بعض النوافذ الفرنســية، واندفع الناس للخارج إلى الشرفة.

"لا تقلق، يا مستر بانكس،" قالها شاب، وهو يمسك مرفقى. "ليس هناك أى فرصة لأى من ذلك كى يصل إلى هنا. كلا الجــانبين فــى منتهى الحذر الآن بعد يوم الاثنين الدامى."

"لكن من أين يأتى هذا؟" سألته.

"أوه، إنها السفينة الحربية اليابانية فى الميناء. القذائف فوقنا فعليًا وتهبط هناك عبر الجُون. بعد الظلمة تكون فى مرمى البصر تمامًا. تشبه، إلى حدٍ ما، الشهب المترقبة."

"ماذا لو أن واحدةً أخطأت الهدف؟"

لم يكن الشاب الذى كنت أتحدث إليه هو من ضحك على هذه الفكرة فحسب، بل وآخرون كثيرون حولنا أيضًا – فكرت بصوتٍ مرتفع إلى حدٍ ما. حينئذٍ قال صوتٌ آخر:

"سوف يتحتم علينا الثقة بأن اليابانيين يصوبونها على الهدف. مع ذلك، لو أخفقوا، فمن المحتمل فقط أن يُسْقِطوا واحدة خلف خطوطهم."

"مستر بانكس، هل تهتم بهذه الأمور؟"

أحدهم كان يمد يده لى بنظارة أوبرا. عندما أمسكتها، وكأننى قد أعطيت إشارة. تقدم الناس أمامى، ووجدت نفسى فعليًا قد انتقلت إلى النافذة الفرنسية المفتوحة.

خطوت للخارج إلى شرفة صغيرة. أحسست بنسيم دافئ وكانت السماء قرنفلية داكنة. كنت أنظر لأسفل من ارتفاع شاهق، وكانت القناة ظاهرة عبر الصف التالى من البنايات. خلف الماء كانت هناك كتلة من الأكواخ والحجارة يتصاعد منها عمود رمادى من الدخان باتجاه السماء الليلية.

وضعت النظارة على عينى، لكن التركيز البؤرى كان خطأً تمامًا ولم أستطع أن أرى شيئًا. عندما عبثت بقرص البؤرة، وجدت نفسى أحدق فى القناة، حيث أُصبت بدهشةٍ باهتة عندما رأيت أن العديد من

القوارب لم تزل تمارس أنشطتها الطبيعية إلى جوار القتال مباشـرةً. ركزت على قاربٍ بعينه، مركبة تشبه البارجة ذات المجداف الوحيـد – كانت مكتظة بالصناديق والحِزَم فبدا من المستحيل أن تمر أسـفل كوبرى القناة الخفيض الواقع تحتى مباشرةً. بينما كنت أشاهد، وصلت المركب إلى الكوبرى بسرعة، وكنت واثقًا أننى سـأرى صـندوقًا أو اثنين على الأقل يسقطان من أعلى الركام إلى المـاء. لبضـع ثـوان تاليات، واصلت التحديق فى النظارة على القارب، وقد نسيت القتـال تمامًا. أمعنت النظر في المراكبى، الذى كان مثلى مستغرقًا تمامًا فى مصير حمولته وغافلاً عن الحرب الدائرة على بعد ستين ياردة إلـى يمينه. ثم تلاشى القارب تحت الكوبرى، وعندما رأيته ينزلـق إلـى الجانب الآخر، والحمولة المتزعزعة لم تزل علـى حالهـا، أنزلـت النظارة عن عينى وتنهدت.

أدركت أن حشدًا كبيرًا من الناس كان يقف خلفى عنـدما كنـت أنظر على القناة. أعطيت النظارة لشخصٍ ما كان على مقربـةٍ منـى وقلت دون أن أوجه كلامى إلى شخصٍ بعينه: "إذًا، هكـذا الحـرب. منتهى الروعة. هل هناك الكثير من الجرحى. أتظن؟"

أدى هذا إلى كثير من الثرثرة. قال أحد الأصوات: "هناك كثيـر من القتلى في تشابى. لكنِ اليابانيون سيأخذونهم خلال بضـعة أيـام أخرى لاحقًا وستعود الأمور إلى هدوئها ثانيةً."

"لسنا متأكدين تمامًا،" قال شخصٌ آخر. "لقد أذهـل الكيومينتـانغ الجميع، وأراهن أنهم سيواصلون هذا. أراهن على صـمودهم لفتـرة طويلة بعد الآن."

ثم بدأ الجميع حولى فى الجدال على الفور. بضعة أيام، بضعة أسابيع، أى اختلاف تحقق؟ الصينيون ستضطرون للاستسلام إن آجلاً أو عاجلاً، لذلك فلماذا لا يستسلمون الآن؟ اعترضت أصوات كثيرة على أن النتيجة محددة تمامًا. الأشياء تتغير بين عشيةٍ وضحاها، وهناك عوامل كثيرة تتضارب مع بعضها البعض.

"إضافةً إلى،" سأل شخصٌ ما، "ألم يحضر مستر بانكس؟"

كان هذا السؤال يهدف بوضوح إلى أن يكون بلاغيًا وجيهًا، مع ذلك ظل معلقًا فى الهواء، مما جعل كل العيون تستكين ملتفتةً إلىّ على الفور ثانيةً. فى الواقع، هاجستنى فكرة أن المجموعة التى كانت فى الشرفة فقط، لكن كل الناس فى قاعة الرقص قد لفهم الصمت وكانوا فى انتظار إجابتى. فكرت فى أن ذلك الوقت ملائم عن غيره للإدلاء بتصريحى – وقت انتظرته من أول لحظة دخلت فيها القاعة – أعلنت بصوتٍ عال، بعد أن تنحنحت:

"السيدات والسادة: أرى جيدًا أن الموقف هنا قد أصبح مُرهِقًا إلى حدٍ ما. ليس لدى رغبة فى إثارة آمال زائفة فى مثل هذا الوقت. لكن دعونى أقول إننى ما كنت لآتى إلى هنا الآن لو لم أكن متفائلاً بخصوص فرصى فى الوصول بهذه القضية، فى أقرب وقت فى المستقبل، إلى نهاية طيبة. فى الحقيقة، سيداتى وسادتى، لى أن أقول إننى أكثر من متفائل. ومن ثم أتوسل صبركم حتى نهاية الأسبوع المقبل أو شىء من هذا القبيل. حسنًا، بعدئذٍ سوف نرى ما قد تحقق."

بمجرد أن نطقت بهذه الكلمات، بدأت أوركسترا الجاز على الفور فى المرقص. ليس عندى فكرة عما إذا كان ذلك مجرد

مصادفة، لكن على أية حال فقد كان الأثر الذى أحاط بكلامى طيبًا إلى حدٍ ما. أحسست أن التركيز فى القاعة قد انتقل من على، ورأيت أن الناس بدأت فى الرجوع إلى داخل القاعة، وعندما كنت أحاول أن أجد طاولتنا مرةً أخرى – كنت بصورةٍ ما قد فقدت اتجاهى – لاحظت أن فرقة من الراقصات قد احتلت أرضية القاعة.

كان هناك ما يزيد عن العشرين راقصة تقريبًا، كثيرات منهن كن "أوراسيات"، ترتدين ثيابًا متماثلة فقيرة المظهر تزدان برسومات للطيور. عندما بدأت الراقصات فى عرضهن الأرضى، بدا أن كل من فى القاعة قد فقد اهتمامه بالمعركة الدائرة عبر الماء، رغم أن الجلبة كانت لم تزل مسموعة بوضوح فيما وراء الموسيقى المرحة. وكما كان الأمر بالنسبة لهؤلاء الناس وكأن فقرة فى حفل قد انتهت وبدأت أخرى. شعرت تجاههم، ولم تكن هذه هى المرة الأولى منذ وصولى إلى شنغهاى، بنوبة من الاشمئزاز. ليس ببساطة بسبب فشلهم بفداحة طيلة هذه السنوات فى النهوض لتحدى المسألة، وسماحهم للأمور بالانزلاق إلى هذه الدرجة المروعة بكل تشعباتها الهائلة. إن ما صدمنى بهدوء، منذ اللحظة الأولى لوصولى، هو رفض الجميع هنا الاعتراف باستحقاقهم اللوم بشدة. خلال هذين الأسبوعين من وجودى هنا، في كل تعاملاتى مع هؤلاء المواطنين، عاليهم وسافلهم، لم أشهد – ولا مرة – ما يمكن أن أطلق عليه شعورًا صادقًا بالخزى. هنا، بعبارةٍ أخرى، فى مغبة هذا الاضطراب الهائل الذى يهدد بابتلاع العالم المتحضر كله، اتفاق تآمرى محزنٌ على الإنكار؛ إنكار المسئولية انقلب على نفسه وأضحى فاسدًا، يعلن عن

نفسه بنوع من الدفاع المغرور واجهته كثيرًا. وهنا يوجد، ما اصطلح على تسميتهم بصفوة شنغهاى، يتعاملون بمنتهى الازدراء مع معاناة جيرانهم الصينيين الذى يعيشون على الجانب الآخر من القناة.

كنت أتحرك على طول خط الظهور الذى تشكل لمشاهدة البرنامج الراقص، محاولاً احتواء شعورى بالتقزز، عندما أدركت أن شخصًا ما كان يشد ذراعى بقوة واستدرت لأجد سارة.

"كريستوفر،" قالت، "لقد كنت أحاول الوصول إليك طوال الوقت. أليس لديك من الوقت ما يمكنك من إلقاء التحية على أصدقائك القدامى من الوطن؟ انظر، سيسيل هناك، إنه يلوح لك."

أخذت بعض الوقت كى أتمكن من رؤية السير سيسيل بين الناس؛ كان جالسًا وحده على طاولة فى الركن القصى من القاعة، وكان بالفعل، يلوح لى. لوحت له، ثم نظرت إلى سارة.

كانت تلك هى أول مرة تجمعنا الصدفة منذ وصولى. داخلنى انطباع بأنها على ما يُرام؛ لقد حولت شمس شنغهاى شحوبها المألوف إلى تألق. إضافةً إلى أنها ظلت مرحة الطابع وواثقة من نفسها، ونحن نتبادل بضع كلمات ودودة. الآن فقط، بعد أحداث الليلة الماضية، أجد نفسى أُمعن التفكير ثانيةً فى لقائنا الأول هذا، فى محاولة لاكتشاف إلى أى مدى خُدعت. ربما يكون الإدراك البعدى فقط هو ما جعلنى أتذكر شيئًا ما متكلفًا كان يشوب ابتسامتها عن عمد، تحديدًا عندما كانت تذكر اسم السير سيسيل. ورغم أننا تبادلنا ما هو أكثر قليلاً من المزاح، كانت هناك عبارة ظلت تعاودنى قالتها – عبارة أربكتنى إلى حدٍ ما حتى فى تلك الليلة – طوال اليوم بعد الليلة الماضية.

كنت أتساءل عن مدى استمتاعها هى والسير سيسيل بالعام الذى أمضياه هنا. كانت تؤكد لى أنه على الرغم من أن السير سيسسل لـم يحقق الاختراق الذى تمناه، فقد حقق مع ذلك كثيرًا مما جعله يحظـى بامتنان المجتمع. حينئذٍ بالتحديد سألت، لم أكن أحمل فى عقلى الكثير:

"هكذا إذًا ليس لديكما خططًا حالية لمغادرة شنغهاى؟"

سخرت سارة من ذلك السؤال، ورمقت سيسيل بنظرة أخرى فى ركنه القصى، ثم قالت: "لا، نحن مستقران هنا تمامًـا فـى الوقـت الراهن. الميتروبولو مريح للغاية. لا أتوقع أن نغادر بسرعة إلـى أى مكان. لن يحدث حتى يأتى من ينقذ الموقف، هكذا."

قالت كل هذا – بما فى ذلك تنويهها الأخير هذا عـن الإنقـاذ – وكأنها تحكى نكتة، ورغم أننى لم أدرك بالضبط مـا قصـدت، فقـد أجبت بضحكة صغيرة لمجاراتها. تكلمنا بعدئذٍ، قدر ما أتذكر، عـن أصدقائنا المشتركين فى إنجلترا حتى وضع وصول جرايسون نهايـة فعلية لحوار بدا فى ظاهره لا ينطوى على أى تعقيد.

الآن فقط، كما أقول، بعد الليلة الماضية، وجدت نفسـى أفـتش ذاكرة لقاءاتى مع سارة فى هذه الأسابيع الثلاثة، فلا أجدنى أعـود إلا إلى هذه الجملة الوحيدة المُضافة كنوع من الفكرة البعديـة لإجابتهـا المرحة.

قضيت معظم فترة بعد ظهيرة أمس داخل بيت القارب بصخب صريره حيث تم اكتشاف الجثث الثلاث. احترم البوليس رغبتى فى إجراء تحرياتى دون إزعاج لدرجة أننى فقدت إحساسى بالزمن ولم ألحظ غروب الشمس بالخارج. عندما عبرت رصيف الميناء وتمشيت أسفل طريق نانكينغ، كانت الأضواء الساطعة قد أنارت وازدحمت الأرصفة بحشود المساء. بعد اليوم الطويل المُحبِط، شعرت بحاجتى للاسترخاء قليلاً وأشق طريقى إلى ملتقى طريقى نانكينغ وكيانغسى، إلى نادى صغير كنت قد أُخِذت إليه فورًا بعد وصولى. لم يكن هناك ما يميز المكان؛ مجرد دور تحتانى، حيث يقوم عازف بيانو فرنسى فى معظم الليالى بأداء فقرات حزينة من بيزيت وجيرشوين. لكنه كان مُشبِعًا لاحتياجاتى بما فيه الكفاية، وقد عُدت إلى هناك مرات عديدة خلال هذه الأسابيع. فى الليلة الماضية، قضيت حوالى الساعة على طاولة فى أحد الأركان، أتناول قليلا من الأطعمة الفرنسية وأضع ملاحظاتى حول ما اكتشفته فى بيت القارب، بينما راقصوا التاكسى يتمايلون مع زبائنهم مع الموسيقى.

صعدت سُلمًا يقود إلى الشارع عاقدًا العزم على العودة إلى الفندق، حينما صادف أن انغمست فى حوار مع بواب روسى. كان أحد النبلاء، ويتحدث إنجليزية رائعة تعلمها، كما أخبرنى، من مربيته قبل الثورة. كنت قد اعتدت أن أتبادل معه بضع كلمات فى كل مرة أزور فيها النادى، وكنت ليلة أمس أفعل هذا ثانية عندما – لم أعد

أتذكر الأمر الذى كنا نتناقش بصدده – ذكر مصادفةً أن السير سيسيل وليدى ميدهوريست قد مرا عليه فى أول الليل.

"أعتقد،" قلت ملاحظًا، "كانا فى طريقهما إلى البيت للنوم."

عند هذا، فكر النبيل للحظة، ثم قال: "لاكى تشانس هاوس. نعم، أعتقد أن السير سيسيل قد ذكر أنهما فى الطريق إلى هناك."

لم يكن منشأة مدنية أو عسكرية أعرفها، غير أن النبيل أكمل كلامه دون أن يساعد فى إعطائى أى تفاصيل عن الاتجاهات، ومادام أن المكان لم يكن بعيدًا، فقد انطلقت صوبه.

كانت توجيهاته واضحة بما يكفى، لكننى كنت لم أزل غير واثق من طريقي حول الشوارع الجانبية فى نانكينغ روود، وحدث أننى ضللت الطريق قليلاً. لم أكن لأكترث بهذا كثيرًا. فالجو فى تلك المنطقة من المدينة ليس مثيرًا للهلع، حتى بعد حلول الظلام، ورغم أن المتسول الغريب قد بادر بتوجيه الكلام إلىّ، وعند لحظة ما اعترض طريقى بحار ثمل، فقد وجدت نفسى أنجرف مع الجمهور الليلى بحالة مزاجية لا تبتعد كثيرًا عن الهدوء. بعد العمل الضاغط فى بيت القارب، كان مريحًا لى أن أكون بين الباحثين عن المتعة من كل جنس وصنف؛ وأن أشم روائح الطعام والبخور وهى تهب عند مرورى بكل باب تسطع منه الأنوار.

في الليلة الماضية، أيضًا، كما اعتدت بصورةٍ متزايدة أن أفعل متأخرًا، أظن أننى نظرت حولى، بقصد استكشاف وجوه من يمر بى من الناس، أملاً فى أن أجد آكيرا. لأننى فى حقيقة الأمر، قد رأيت

صديقى القديم على وجه التأكيد تقريبًا بعد وصولى إلى شنغهاى بفترة قصيرة فى ثانى أو ثالث ليلة لى هنا. كان هذا فى الليلة التى قرر فيها مستر كيسويك التابع لجاردين ماثيسون وبعض المواطنين البارزين حتمية "تذوقى لحياة الليل". كنت لم أزل أعانى حالة من الارتباك خلال تلك الفترة، وكنت أجد التجول فى حانات الرقص والنوادى مثيرًا للضجر. كنا فى منطقة الاستمتاع فى نطاق الامتياز الفرنسى – أرى الآن أن من يقومون على استضافتى يستمتعون إلى حدٍ ما بإثارة ذهولى بأكثر المنشآت المدنية والعسكرية فظاعة – وكنا فى طريق خروجنا من أحد الأندية عندما لمحت وجهه يمر بين جمع من الناس.

كان أحد أفراد مجموعة يابانيين يرتدون حللاً أنيقة، وكان واضحًا أنهم فى طريقهم إلى المدينة. بالطبع، لمحته بسرعة خاطفة – لأن ظلال الناس كانت تنعكس فى واقع الأمر على صف من المصابيح التى كانت تتدلى على عتبة الباب – بشكل لم أتمكن معه من التيقن من أنه آكيرا تأكيدًا. ربما لهذا السبب، وربما لسببٍ آخر، لم أفعل شيئًا لألفت انتباه صديق طفولتى. ربما يصعب فهم ذلك، لكن بإمكانى فقط أن أقول إن الأمر كان على ذلك النحو. أظن أننى كنت أعتقد حينئذٍ فى إمكانية تكرار فرص كثيرة مماثلة؛ ربما شعرت أن لقاءنا بهذه الطريقة، مصادفةً، عندما يكون كلٌ منا بصحبة رفاق آخرين، ليس مناسبًا – وليس جديرًا، حتى، بلم الشمل الذى كثيرًا ما توقعته طويلاً. على أية حال، فأنا قد تركت اللحظة تمر مرور الكرام، وببساطة اقتفيت أثر مستر كيسويك والآخرين صوب السيارة الليموزين التى كانت بانتظارنا.

على أية حال، فخلال تلك الأسابيع الماضية، كان لدى الكثير من دوافع الندم على تصرفى فى تلك الليلة. ذلك رغم أننى، حتى فى أكثر الأوقات ازدحامًا، كنت أصر على تفحص المارة، فى الشوارع فى ردهات الفنادق، أثناء قيامى بأداء مهامى، أملاً فى الالتقاء به مرة أخرى. أدرك أنه بإمكانى اتخاذ خطوات إيجابية فى محاولة تحديد مكانه؛ لكن القضية لابد وأن يكون لها الأولوية، فى واقع الأمر. وشنغهاى ليست هى هذا المكان الشاسع؛ فنحن على يقين من أن الصدفة ستجمعنا إن آجلاً أو عاجلاً.

لكن لأرجع إلى أحداث الليلة الماضية. فتوجيهات البواب قادتنى أخيرًا إلى ميدانٍ ما حيث تتقاطع عدة شوارع وتظهر تجمعات الناس أكثر كثافة منها فى أى مكانٍ آخر. أناس يحاولون بيع سلعهم، وآخرون يحاولون التسول، وآخرون أيضًا يقفون فقط للفرجة وتجاذب أطراف الحديث. جِنرِكْشة(*) وحيدة كانت قد اندفعت بين حشود الناس حتى بلغت مكانًا فى منتصفهم، وعند مرورى كان سائق الجنركشة يجادل أحد المتفرجين بفظاظة. استطعت أن أرى لاكى تشانس هاوس فى الركن القصى، قبل فترة طويلة كان الوصول إليه يتم عبر ممر ضيق من درج مغطى ببلش(**) قرمزى.

فى البداية دخلت غرفة تشبه فى اتساعها غرفة متوسطة الاتساع فى فندق، حيث يتجمع حوالى دستة من الصينيين حول طاولة قمار.

(*) عربة صغيرة بدولابين تتّسع لشخص واحد عادةً ويجرّها رجل واحد تُستعمل فى اليابان. (المترجم)

(**) البَلْش: نسيج ذو وبر أطول من وبر المخمل. (المترجم)

عندما تساءلت عما إذا كان مستر سيسيل بالبناية، تشاور اثنان من العاملين، بعدئذ أشار لي أحدهما بأن أتبعه.

قادني لأعلى على درج لطابق آخر، إلى ممر خافت الإضاءة، ثم إلى غرفة مليئة بالدخان كان بها مجموعةً من الفرنسيين يلعبون الورق. عندما هززت رأسي، هز الرجل كتفيه غير مبالٍ ودعاني ثانيةً. بهذا الشكل أدركت على الفور أن المبنى كان أحد مراكز القمار، يتكون من غرفٍ صغيرة بعض الشيء، كل غرفة منها يُلعب فيها نوعٌ بعينه من القمار أو آخر يبدأ. لكنني صرت ساخطًا على الطريقة التي يومئ بها دليلي عامدًا كلما كررت اسم سارة أو السير سيسيل، فقط ليقودني أيضًا إلى غرفة أخرى معبأة بالدخان حيث لا أجد فقط غير العيون الحذرة اليقظة ترمقني. على أية حال، كلما رأيت أشياء أكثر في هذه البناية، كلما أدركت أنه ليس من المحتمل مطلقًا أن يأتي السير سيسيل بسارة إلى هذا المكان؛ وكنت على وشك أن أقلع عن البحث عندما دخلت عبر باب ووجدت السير سيسيل يجلس إلى طاولة، ويحدق في عجلة الروليت.

كان هناك حوالي عشرين شخصًا يلتفون حول الطاولة، معظمهم من الرجال. لم تكن الغرفة معبأة بالدخان كمثيلاتها، لكن شعورا أكبر بالقيظ طوقني. كان السير سيسيل في تمام استغراقه ورماني بتلويحة ترحاب غاية في التهذب قبل أن يعود بعينيه للتركيز ثانيةً في عجلة الروليت.

مجموعة من الكراسي الضخمة البالية المكسوة بقماش أحمر وُضِعَت في محيط الغرفة. على أحدها، رجل صيني عجوز – يرتدي

بدلة غريبة مبتلة بالعرق - كان يغط فى النوم. المقعد الوحيد الآخر الذى كان مشغولاً كان فى الركن الظليل فى أبعد نقطة من طاولة القمار، هو ذلك المقعد الذى كانت سارة تجلس فيه ساندةً رأسها إلى عقب يدها، بعينين شبه مغمضتين.

عندما جلست إلى جوارها انتبهت. "آه، كريستوفر. ماذا تفعل هنا؟"

"كنت فقط فى طريقى من هنا. معذرةً. لم أقصد إزعاجك."

"فقط كنت فى طريقك من هنا؟ هذا المكان؟ لا أصدق ذلك. لقد كنت تقتفى أثرنا."

كنا نتحدث بنبرات منخفضة حتى لا نشتت انتباه المقامرين عن الطاولة. من مكان ما فى البناية، استطعت أن أسمع بصورة خافتة شخصًا ما يعزف الترومبيت.

"لابد أن أعترف،" قلت، "صادف أننى سمعت بمجيئك إلى هنا. ومادام أننى كنت فى طريقى من هنا......"

"آه، كريستوفر، لقد كنت وحيدًا."

"بقوة. لقد قضيت يومًا كئيبًا إلى حدٍ ما، وشعرت بقليل من الإجهاد، هذا كل ما فى الأمر. رغم أنه ينبغى على أن أقر بترددى لو أننى كنت أعرف بتواجدكما فى مكانٍ كهذا."

"لا تكن فظًا. أنا وسيسيل، نستمتع ببعض الوقت فى ممارسة الحياة الوضيعة. إن ذلك ممتع. وهذا جزء من نمط الحياة فى

شنغهاى. الآن، أخبرنى عن يومك الكئيب هذا. تبدو مكتئبًا. أعتقد أنه لم يحدث أى تقدم فى قضيتك بعد."

"ليس ثم من تقدم، غير أننى لست مكتئبا. لقـد بـدأت الأشـياء تتبلور."

عندما بدأت أصف لها كيف قضيت أكثر من ساعتين على يـدى وركبتى فى قارب يرتطم بالأمواج يحمل ثلاث جثث متعفنة، تبـدلت قسمات وجهها، وأوقفتنى عن الكلام.

"مفزِع. شخصٌ ما فى نادى التنس كان يقول، إن أطراف الجثث كلها قد قُطِعَت. هل هذا صحيح؟"

"نعم للأسف."

تغيرت قسمات وجهها مرةً أخرى، "مريع للغاية. لكـن هـؤلاء كانوا عمال مصانع صينيين، أليس كذلك؟ بالتأكيد، ليسوا على علاقـة قوية بـ.... بوالديك."

"بالفعل، أعتقد أن هذه الجريمة لها علاقة قوية بقضية والدى."

"حقًا؟ كانوا يقولون فى نادى التنس إن جرائم القتل هذه جزء من أعمال مجموعة الفأر الأصفر. يقولون إن الضحايا من أقرب النـاس وأعزهم إلى الفأر الأصفر."

"الثعبان الأصفر."

"عفوًا؟"

"المُخبر الشيوعى. *الثعبان الأصفر*."

"آه، نعم. حسناً على أية حال، إن هذا فى غاية البشاعة. ماذا يفعل الصينيون، ينحرون بعضهم البعض فى وقتٍ كهذا؟ ربما ظننت أن الحُمر والحكومة سيشكلون جبهة موحدة ضد اليابانيين لفترة قصيرة فقط على الأقل."

"أعتقد أن الكراهية بين الشيوعيين والقوميين تزداد عمقًا."

"هذا ما يقوله سيسيل. آه، انظر إليه، كيف يمكنه أن يلعب هكذا؟"

تتبعت نظرتها ورأيت أن سير سيسيل – الذى كان ظهره لنا – كان قد مال على أحد الجانبين، لدرجة أنه ألقى معظم وزنه على الطاولة. وبدا من الممكن جدًا أنه على وشك الانزلاق تمامًا عن كرسيه.

رمقتنى سارة بتحرج. ثم نهضت، متجهةً إليه، ووضعت يديها على كتفيه، وهمست فى أذنه برفق. نهض السير سيسيل ودار بعينيه فى محيط المكان. من الممكن أكون قد أشحت بنظرى بعيدًا عنهما للحظة، لأننى لست متيقنًا تمامًا مما قد حدث بالضبط فيما بعد. رأيت سارة تتراجع للخلف، وكأنما قد تلقت ضربة قوية، وللحظة بدت على وشك فقدان توازنها، لكنها استعادت لياقتها. عندما أمعنت النظر فى ظهره، كان السير سيسيل قد عاد ثانية إلى الجلوس بصورة مستقيمة، والتركيز فى اللعب، ولم أستطع أن أرى ما إذا كان هو الذى تسبب فى التراجع المضطرب لسارة.

رأتنى أرمقها، فابتسمت عائدةً للجلوس ثانيةً إلى جوارى.

"إنه مُرهَق،" قالت. "إنه في غاية الغضب. لكنْ رجل فى مثل سنه بحاجة لقدر أكبر من الراحة."

"هل تأتيان كثيرًا إلى مثل هذا المكان؟"

أومأت، "وقليل من الأماكن الأخرى المشابهة. سيسيل لا يحب هذه الأماكن المبهرجة الكبيرة كثيرًا. لا يظن أنه من الممكن الخروج رابحًا من هذه الأماكن."

"هل ترافقينه دائمًا إلى مثل هذه المحافل؟"

"لابد أن يكون هناك من يعتنى به. إنه ليس شابًا، فهمت. آه، أنا لا أمانع فى هذا. إن هذا مثير بدرجةٍ ما. وهذا كل ما تنطوى عليه مثل هذه المدينة حقًا."

شهقة عامة انطلقت حول طاولة القمار وأخذ اللاعبون يتجاذبون أطراف الحديث. رأيت سيسيل يحاول الوقوف، وفى هذه اللحظة فقط أدركت كم هو ثمل. تقهقر جالسًا فى كرسيه، لكن فى محاولة ثانية، تمكن من الوقوف واتجه صوبنا لكن كانت مشيته معتورة بالترنح. نهضت على قدمى، توقعت أن نتصافح، لكنه أراح يده على كتفى، بغية التوازن أكثر من أى شىء آخر.

"ابنى العزيز، ابنى العزيز. سُررت لرؤيتك."

"هل أصبت أى حظ فى اللعب، يا سيدى؟"

"حظ؟ آه، لا، مطلقًا. حظى الليلة ليس مواتيًا. أسبوع بائس فى مجمله، لقد كان سيئًا، سيئًا. لكنك لا تعرف أبدًا. سوف أنهض ثانيةً، ها ها! أبْعَث من الرفات."

كانت سارة أيضًا واقفة ومدت يدها لمساعدته، لكنه أبعدها دون أن ينظر إليها. ثم قال لى:

"أقول لك. ما رأيك فى كوكتيل؟ هناك بار فى الطابق الأرضى."

"هذا منتهى العطف منك، يا سير. لكننى لابد وأن أعود إلى الفندق الذى أقيم فيه. هناك يوم شاق فى انتظارى غدًا."

"جميل أن أراك تجتهد فى عملك. بالطبع، لقد أتيت إلى هنا فى هذه المدينة بغية تصنيف الأشياء بنفسى قليلا. لكن تعرف" – انحنى بوجهه على حتى أصبح على بعد بوصة أو اثنتين منى – "الأمر أكثر تعقيدًا بما لا أطيق. أكثر تعقيدًا على كل المستويات."

"سيسيل، يا حبيبى، لنذهب الآن إلى بيتنا."

"البيت؟ هل تسمين جحر الفئران فى ذلك الفندق بيتًا؟ إنك تمتازين عنى، يا عزيزتى، لكونك تلك المتشردة الحقيرة. لذلك فأنت لا تكترثين بتسميته بيتا."

"لنذهب الآن، يا حبيبى. أنا مُتْعَبة."

"أنت مُتْعَبة. صغيرتى المتشردة الحقيرة مُتْعَبة. بانكس، هل لديك سيارة بالخارج؟"

"لا للأسف. لكن لو تحب بإمكانى البحث عن تاكسى."

"تاكسى؟ أتظن نفسك فى بيكاديللى؟ تعتقد أنه بمستطاعك استيقاف تاكسى بالخارج هناك؟ سوف يقطعون رقبتك على الفور، هؤلاء الصينيون."

"حبيبى، سيسيل، من فضلك اجلس هنا حتى يأتى كريستوفر ومعه بوريس." ثم قالت لى: "لابد وأن سائقنا فى مكان ما على مقربةٍ من هنا. هل تمانع فى تحمل هذه المشقة؟ المسكين سيسيل فى أسوأ حالاته الليلة بما لا يمكنه من التحمل."

أخذت طريقى إلى خارج الفندق، وأنا أبذل كل ما فى وسعى لأبدو على أعلى درجة من اللياقة، واضعًا نصب عينى أهمية أن أتذكر طريق العودة إلى الغرفة. كان الميدان بالخارج متخمًا كعادته بالناس، لكن على البعد رأيت شارعًا تصطف فيه الجرنكشات وعربات التاكسى. أخذت طريقى إلى هناك، وبعد فترة من التنقل بين العربات مرددًا اسم السير سيسيل للسائقين من ذوى الجنسيات المتعددة، تلقيت ردًا فى النهاية.

عندما رجعت إلى منزل القمار، كانت سارة ومعها السير سيسيل بالخارج. كانت تساعده بكلتى يديها، لكن هيئته الفارعة المنحنية بدت قادرة على هزيمتها فى أى لحظة. وبينما كنت أهرول باتجاههما، سمعته يقول:

"يا عزيزتى، أنت من لا يريدونها بالداخل هناك. عندما كنت معتادًا على التردد على هذا المكان بنفسى، كانوا دائمًا يعاملوننى كشخصية ذات حيثية ملكية. آه، نعم، حيثية ملكية. إنهم لا يحبون نوعيتك من النساء. إنهم يريدون سيدات حقيقيات أو عاهرات. وأنت لست أيًا منهن. لذلك فقد رأيت، هم لا يحبونك مطلقًا. لم أواجه أية مشاكل هنا إلا بعد إصرارك على المجىء إلى هنا معى."

"هيا، يا حبيبي. ها هو كريستوفر. رائع، يا كريستوفر. انظر، يا حبيبي، لقد بحث عن بوريس ووجده لأجلنا."

لم تكن المسافة إلى المتروبول كبيرة، غير أن السيارة لم تكن تتقدم إلا ببطءٍ يشبه حبو طفل بين المشاة والجرنكشات. طوال الرحلة، ظلت سارة تمسك بذراع السير سيسيل وكتفه بينما كان يراوح بين النوم واليقظة. كلما عاودته اليقظة، كان يحاول أن يُبْعد سارة، لكنها كانت تضحك وتواصل إمساكه بقوة أكبر في العربة المتمايلة.

جاء دوري لمساعدته حين كنا نواجه عقبة الباب الدوار في مدخل المتروبول، والمصعد من بعده، بينما كانت سارة تتبادل كلمات الترحاب الودودة مع موظفي اللوبي. ثم وصلنا أخيرًا إلى الجناح الخاص بهم واستطعت أن أضع السير سيسيل في أحد المقاعد المريحة.

ظننت أنه سوف يذهب في النوم، لكنه، على العكس من ذلك، تملكته يقظة مباغتة وبدأ يوجه لي أسئلة عديمة المعنى عجزت عن فهمها. ثم عندما ظهرت سارة خارجة من الحمام مرتدية الفلانيلة وبدأت تمسح على جبهته، قال لي:

"بانكس، يا بني، بإمكانك أن تتحدث بصراحة. هذه الخادمة المومس. كما ترى، إنها تصغرني ببضع سنوات. هي نفسها ليست في ربيع العمر، توافقني، هاها! لكنها لم تزل أصغر مني بعدد لا بأس به من السنوات. قل لي صراحةً، يا ابني، هل تعتقد، في مكان كمكان

الليلة، حيث وجدتنا الليلة، مكان كهذا، هل تظن أن غريبًا يبحث عنى وعنها....حسنًا، لنتكلم بصراحة! ما أتكلم عنه هــو، هــل تعتقــد أن الناس يحسبون، أو يتعاملون مع زوجتى على أنها مومس؟"

لم تتغير، بقدر ما استطعت أن أرى، تعبيرات وجه سارة، رغــم أن طريقتها فى مساعدته بدت أكثر إلحاحًا، وكأنها تتمنــى أن تــأتى معاملتها له بتغير فى حالته المزاجية. هز السير سيسيل رأسه بغضب وكأنه يتجنب ذبابة، ثم قال:

"هيا، يا بنى. تحدث الآن بصراحة."

"الآن، الآن، يا حبيبى،" قالت سارة بهدوء. "إنه فى حالة سيئة."

"سأفشى لك سرًا، يا ابنى. سأطلعك على سر. إن هذا يمتعنــى. أحب أن يخطىء الناس فى زوجتى ويحسبونها مومسًا. ولهذا أحــب اعتياد الأماكن المشابهة لمكان الليلة. ابتعدى عنى! اتركينى وحــدى!" دفع سارة جانبًا، ثم استأنف كلامه: "سبب آخر يدفعنى إلى مثل هــذه الأماكن، بالتأكيد أنت خمنته، أنا مدين بمبلغ من المال. أصبحت مدينًا بدرجة ما، تعرف. بالطبع، ليس ثم من شىء سأستعيده."

"يا حبيبى، كريستوفر كان فى قمة الذوق معك. لا ينبغى أن تثير سأمه."

"ما الذى تقوله هذه المومس؟ سمعت ما قالت، يا بنى؟ حسنًا، لا. لا تستمع إليها. لا تنصت إلى المومسات، هذا ما أقــول. سيضــللنك. تحديدًا فى أوقات الحرب والصراع. لا تنصت أبدًا إلى مــومس فــى وقت الحرب."

نهض على قدميه دون مساعدة، وللحظة وقف فاقدًا لاتزانه أمامنا فى منتصف الغرفة، وياقته المفكوكة تبرز عن رقبته. ثم اتجه صوب غرفة النوم، وأغلق الباب خلفه.

رمتنى سارة بابتسامة، ثم مضت خلفه. لولا تلك الابتسامة – أو، إلى حدٍ ما، ما يشبه الاستغاثة لكنت قد انسحبت تحديـدًا فـى هـذه اللحظة. وبقيت فى الغرفة، بطبيعة الحال، افحص بشـرود سـلطانية صينية كانت موضوعة على حامل بالقرب من المدخل. لفترة، سمعت السير سيسيل يزعق؛ ثم طغت على المكان حالة من الصمت.

ظهرت سارة بعد حوالى خمس دقائق وبـدت عليهـا علامـات الدهشة حين وجدت أننى لم أزل فى المكان.

"هل هو على ما يُرام؟" سألت.

"إنه نائم الآن. سيصبح على ما يُرام. أعتذر لما تسببنا لـك فيـه من إزعاج، يا كريستوفر. قليلا ما تجد لدينا ما كنت تصبو إليه عندما أتيت تبحث عنا هذا المساء. سوف نرتب مناسـبة لتعويضـك عمـا حدث. سنأخذك للعشاء فى مكانٍ ما. مطعم آستور هاوس لم يزل يقدم طعامًا جيدًا."

كانت تقودنى إلى خارج الغرفة، لكننى اسـتدرت عنـد البـاب وقلت:

"الذى حدث. هل يحدث كثيرًا؟"

تنهدت. "كثيرًا جدًا. لكن لا ينبغى أن تظن أننى أبالى. كل ما فى الأمر أننى أشعر بالقلق أحيانًا. فيما يخص قلبه، تعرف. ولهذا السبب أذهب معه دائمًا."

"أنت تعتنين به جيدًا."

"لا يجب أن يسيطر عليك انطباعٌ سيئٌ. سيسيل رجلي الحبيب. لابد وأن نأخذك للعشاء في أقرب فرصة. في وقت لا تكون فيه مشغولا. لكنني أظن أنك مشغول على الدوام."

"بهذه الطريقة يقضي السير سيسيل كل أماسيه؟"

"معظمها. وبعض نهاراته أيضًا."

"هل هناك ما يمكنني القيام به؟"

"أي شيء يمكنك القيام به؟" أطلقت ضحكة خفيفة. "انظر، يا كريستوفر، أنا بخير. حقيقةً، لا يجب أن تأخذ انطباعًا سيئًا بخصوص سيسيل. إنه عزيز. أنا.... أحبه كثيرًا."

"حسنًا، إذًا، سأقول طابت ليلتك."

تقدمت خطوة أخرى باتجاهي ورفعت يدها بتراخ. وجدت نفسي أمسكها، لكن دون أن أعرف ماذا أفعل بعد ذلك، قبلت ظهر يدها. ثم، غمغت مرة أخرى بـ "تصبحين على خير"، وخطوت إلى الكوريدور.

"لا تقلق علي، يا كريستوفر" همست من الباب. "أنا في أحسن حال."

كانت تلك هي كلماتها لي ليلة أمس. لكن اليوم، تعاودني أولى كلماتها بصورة وثيقة، كلماتها التي قالتها لي قبل أسابيع ثلاثة عندما رأيتها لأول مرة في مرقص فندق بالاس. "لا أتوقع ذهابنا إلى مكان

بشكل متعجل،" كانت تقول. "لو لم يأت شخصٌ ما للإنقاذ." ما الــذى تقصد أن تسربه لى فى تلك الليلة بهذه الملاحظة؟ كما أقــول، حتــى وقتما أربكتنى، وربما كنت سأتناقش معها بصورة أعمق حول هــذه النقطة لولا أن جرايسون كان قد ظهر من بين الناس فى هذه اللحظة بالتحديد وكان يبحث عنى.

الكتاب الخامس

فندق كاثاي، شنغهاي،

٢٩ سبتمبر ١٩٣٧

الفصل الرابع عشر

أسأت تدبير أمر مقابلتى هذا الصباح مع ماكدونالد فى القنصلية البريطانية، وعندما تذكرتها الليلة امتلأت بالإحباط. والحقيقة هى أنه قد أعد نفسه جيدًا بينما أنا لم أفعل. سمحت له، مرارًا وتكرارًا، أن يقودنى فى طرقات مزيفة، ولتبديد طاقتى أخذ يجادلنى حول الأشياء التى قرر التسليم بها معى منذ البداية. ورغم أى شىء، كنت أكثر تطرفًا معه منذ أربعة أسابيع مضت، فى ذلك المساء فى مرقص فندق بالاس، عندما حملته لأول مرة على فكرة اللقاء مع الثعبان الأصفر هذه. لقد أمسكت ماكدونالد، على حين غرة حينئذٍ، واستطعت على الأقل أن أحمله على الاعتراف بدوره الحقيقى هنا فى شنغهاى. لكن هذا الصباح لم أجبره حتى على التمثيلية التى يلعب فيها ببساطة دور موظف مسئول عن الأمور الخاصة بالبروتوكول.

أعتقد أننى استخفيت به. فقد ظننت أن الأمر ببساطة لا يتعدى لومه وتأنيبه على تأخره فى ترتيب ما طلبت منه. الآن فقط أدرك كيف نصب فخاخه، مدركًا أننى حال الضيق، سوف يأتى بالأفضل لى بسهولة. كان من الحمق أن أظهر سخطى بالطريقة التى تصرفت بها؛ لكن هذه الأيام المتواصلة من العمل المكثف قد أصابتنى بالإرهاق. وبطبيعة الحال، حدث الصدام غير المتوقع مع جرايسون، رجل المجلس البلدى، عندما كنت فى طريقى إلى مكتب ماكدونالد. فى الواقع، أقول إن هذا أكثر من أى شىء آخر هو ما أصاب توازنى

بالاختلال هذا الصباح، لدرجة أننى كنت شارد الذهن فى أمور أخرى طوال معظم مناقشاتى التالية مع ماكدونالد.

ظللت أنتظر لعدة دقائق فى الردهة الصغيرة فى الطابق الثانى لمبنى القنصلية. أخيرًا أتت السكرتيرة لتبلغنى أن ماكدونالد جاهز لاستقبالى، وكنت قد عبرت السلم الرخامى ووقفت أمام باب المصعد عندما أتى جرايسون مسرعًا أسفل السلم وناداني.

"صباح الخير، يا مستر بانكس! أنا فى غاية الأسف، ربما لا يكون هذا الوقت مناسبًا."

"صباح الخير، يا مستر جرايسون. فى الحقيقة هذا الوقت ليس مناسبًا. لتوى كنت فى طريقى للقاء صديقنا ماكدونالد."

"أوه، حسنًا إذًا، لن أعطلك. فقط كنت هنا فى المبنى وسمعت أنك هنا أيضًا." وجلجلت ضحكة مبتهجة فى أنحاء المكان.

"رائع أن أراك ثانيةً، يا مستر جرايسون. لكننى الآن...."

"لن آخذ من وقتك ثانية، يا سيدى. لكن معذرةً، تعرف، لقد كنتَ صعبًا قليلاً فى المراقبة مؤخرًا."

"حسنًا، مستر جرايسون، لو أن الأمر يمكن التعامل معه باختصار شديد."

"آه، بمنتهى الاختصار. تعرف، يا سيدى، إن هذا يبدو وكأنه قفز للأمام، لكنّ قدرًا قليلاً من التخطيط المستقبلى مطلوب فى هذه الأمور. لو أن الأشياء ليست مهيأة للخدش فى هذا الحدث المهم، لو أن الأمور تبدو حتى رديئة قليلاً أو عديمة الإتقان......"

"مستر جرايسون....."

"أنا فى غاية الأسف. كنت فقط أود أن ألفت انتباهك إلى بضع تفاصيل بخصوص ما يخص حفل الاستقبال والترحيب. لقد استقريت الآن فى جيسفيلد بارك كمكان لإقامة الدعوى. سنقوم بإقامة سرادق به مسرح ونظام تكبير للصوت... أنا متأسف جدًا، سأصل إلى النقطة الجوهرية. مستر بانكس، فى الواقع أود أن أناقش معك ما يخص دورك فى الأحداث. ما نشعر به هو أن المراسم لابد وأن تكون بسيطة. لقد تصورت أن تقوم بإلقاء كلمة مختصرة ربما بخصوص كيفية قيامك بالوصول إلى حل القضية. ما هى الخيوط والمفاتيح الحيوية التى قادتك فى النهاية إلى والديك، شىء من هذا القبيل. فقط بضع كلمات على عجالة، سيكون الجمهور فى حالة من الاستمتاع والامتنان. ثم فى نهاية حديثك، فكرت فى أنهم ربما يهمون بالتوجه إلى المنصة."

"هم، يا مستر جرايسون؟"

"والداك، يا سيدى. كانت فكرتى فى أنهما ربما يصعدان إلى المنصة، يلوحان، ويعبران عن شكرهما للهتافات والتصفيق، ثم يتراجعان. لكن بطبيعة الحال، هذه ليست أكثر من مجرد فكرة. أنا واثق أن لديك بعض الاقتراحات الرائعة الأخرى...."

"لا، لا، يا سيد جرايسون" – فجأة شعرت بموجة عظيمة من السأم تنتابنى – "كل ما اقترحته يبدو رائعًا، رائع. الآن، لو كان هذا هو كل ما لديك. فإنه ينبغى على، فى الواقع...."

"أمر واحد فقط يا سيدى. مسألة بسيطة، لكنها مسـألة ستضـفى بالغ الأثر لو تحققت بهذه الطريقة. فكرتى كانت، فـى لحظـة تقـدم والديك لصعود المنصة، تقوم فرقة الآلات النحاسية بالعزف. مقطوعة مثل "أرض الأمل والمجد". بعض زملائى لا يحبذون الفكرة، لكن فى تصورى...."

"مستر جرايسون، فكرتك تبدو غاية فى الروعة. وفوق ذلك، أنا فى غاية الامتنان لكامل ثقتك فى قدرتى على حل لغز هذه القضـية. لكن الآن، من فضلك، مستر ماكدونالد فى انتظارى من فترة."

"بالطبع. حسنًا، شكرًا جزيلاً على ما منحتنى من وقت للتحـدث إليك."

ضغطت زر المصعد، وبينما كنت أنتظر، واصـل جرايسـون التردد. فى الواقع لقد أشحت بوجهى بعيدًا عنه واتجهت بوجهى قبالة باب المصعد، حينئذٍ سمعته يقول:

"الأمر الوحيد المتبقى وأريد الاستفسار عنه، يا مستر بانكس. هل لديك أى تصور عن مكان جلوس والديك يوم الاحتفال؟ ترى لابد أن نكون فى تمام ثقتنا أن انتقالهم من وإلى المنتزه سيتم فى الحدود الدنيا من مضايقات الجمهور."

لا أستطيع أن أتذكر بماذا أجبته. ربما انفتح باب المصعد فى تلك اللحظة، واستطعت أن أودعه دون أى كلمة سوى تحيته بتهذب. لكن هذا السؤال كان آخر ما علق فى ذهنى طيلة لقائى بمستر ماكدونالد، والذى، كما أقول، كان هو السبب أكثر من غيره فى منعى من التفكير

بوضوح فيما كنت أود الانتهاء منه. والليلة، ثانيةً، وجدت السؤال نفسه يعاود تفكيرى مرةً أخرى، الآن لأن متطلبات اليوم قد أصبحت فى هامش تفكيرى.

ليس الأمر هو أننى لم أفكر مليًا فى مسألة المكان الذى ينبغى أن يجلس فيه والدى. لقد كان الأمر دائمًا يبدو سابقًا لأوانه - ربما حتى "غواية القدر" - أن أمعن التفكير فى هذه الأسئلة بينما لم تزل هناك الكثير من التعقيدات المستعصية على الحل. أعتقد أن المناسبة الوحيدة طيلة الأسابيع الماضية التى فكرت في الأمر بصورة حقيقية كانت ليلة لقائى بصديق الدراسة القديم، أنتونى مورجان.

لم يمر وقت طويل بعد وصولى إلى هنا - ليلتى الثالثة أو الرابعة. لقد أدركت لبعض الوقت أن مورجان كان يعيش فى شنغهاى، ولكن مادمنا لم نكن صديقين حميمين فى مدرسة سانت دانستان - رغم كوننا فى الفصل نفسه طيلة الوقت - فلم أقم بوضع ترتيبات خاصة للقائى به. لكننى حينئذ قد تلقيت منه مكالمة هاتفية فى صباح ذلك اليوم الثالث. بإمكانى أن أقول بأنه أحس بالاستياء لإخفاقى فى التواصل معه، وفى النهاية وجدت نفسى أتفق على لقاء فى ذلك المساء فى أحد فنادق الامتياز الفرنسى.

كان الجو مظلمًا تمامًا عندما وجدته ينتظر فى ردهة الفندق بأضوائها الخافتة. لم أكن قد رأيته منذ أيام المدرسة، وأصابتنى الصدمة حين رأيت إلى مدى قد صار مُتعبًا وبدينا. لكننى حاولت أن أُبعِد هذا الانطباع عن نبرتي ونحن نتبادل التحايا الحارة.

"غريب،" قال، وهو يربت ظهرى. "وكأننا لم نفترق لوقت طويل. ومع هذا يبدو وكأن دهرًا قد انقضى."

"هذا ما قد حدث بالفعل."

"أتعرف،" واصل كلامه، "لقد تلقيت خطابًا فى اليوم التالى من إمريك، الدنمركى؟ هل تتذكره؟ إمريك الدنمركى! لم أسمع عنه لسنوات! على ما يبدو أنه يعيش الآن فى فيينا. إمريك العجوز. هل تتذكره؟"

"نعم، بالطبع،" قلت، رغم أن ما يحضرنى فقط لا يتعدى بعض الذكريات البعيدة عن هذا الولد. "إمريك العجوز الطيب."

خلال النصف الساعة التالية أو أكثر، ظل مورجان يثرثر بلا توقف. لقد عاد إلى هونج كونج مباشرةً بعد أكسفورد، ثم انتقل إلى شنغهاى قبل أحد عشر سنة مضت بعد حصوله على وظيفة جيدة فى جاردين ماثيسون. ثم عند لحظة قطع قصته ليقول:

"لن تصدق المشاكل المريعة التى عانيتها مع السائقين منذ بداية كل هذا البلاء. قتل أحد الأشخاص العاديين فى اليوم الأول للقصف اليابانى. وجدوا آخر، واكتشفوا أنه أحد قطاع الطرق. لو لم يستمر فى الحركة لأداء مهام العصابة التى ينتمى إليها، لما وُجد أبدًا عندما تريد الذهاب إلى أى مكان. أخذنى مرة عند النادى الأمريكى والدم يضمخ قميصه بالكامل. ليس دمه، لقد استنتجت على الفور. لم ينطق بأى كلمة على سبيل الاعتذار، نموذج الرجل الصينى. تلك كانت القشة التى كسرت ظهر البعير بالنسبة لى. ثم رأيت اثنين آخرين، لم

أستطع القيادة على الإطلاق. أحدهم قام فعلاً بضرب سائق جرنكشة. والسائق الذى معى الآن ليس أفضل كثيرًا، لذا دعنا نحتمى بالرب حتى نبلغ غايتنا فى سلام."

لم أعِ معنى تلك الجملة الأخيرة، مادمنا حسبما أتذكر لم نكن قد اتفقنا على أى مكان آخر نذهب إليه فى تلك الليلة. لكننى لا أشعر وكأننى أخذته فيها، ثم إنه قد تحرك بسرعة ليخبرنى عن الأشياء الناقصة في الفندق. فالردهة التى كنا نجلس فيها، كما أفضى إلى، ليست دائمًا خافتة الإنارة: فقد أدت الحرب إلى وقف إمدادات مصابيح الإنارة من مصانع التشابى؛ فى أماكن أخرى من الفندق، يضطر النزلاء للتجول فى الظلام. ووضح أيضًا أن ثلاثة على الأقل من أعضاء فرقة الرقص فى الركن القصى من الغرفة لا يقومون بالعزف على آلاتهم.

"ذلك لأنهم فى واقع الأمر ليسوا سوى حمالين حقائب. والموسيقيون الحقيقيون إما أنهم قد فروا من شنغهاى أو قتِلوا فى الحرب. مع هذا، يقومون بتمثيل معقول للشخصيات، أليس كذلك؟"

والآن مادام أنه قد وضح الأمر، رأيت أن تمثيلهم للشخصيات كان، فى واقع الأمر، بائسًا إلى أبعد حد. أحدهم بدا فى تمام الضجر وكان فى منتهى الضيق من الإمساك بقوس كمنجته بالقرب من آلته الموسيقية، الآخر كان يقف غافلاً تمامًا عن آلة الكلارينت التى كان يحملها وهو ينظر فاغرًا فاه باندهاش للموسيقيين الحقيقيين من حوله. فقط حين هنأت مورجان على عميق معرفته بالفندق أخبرنى أنه كان فى الواقع يقيم فيه لمدة شهر كامل، واصفًا شقته فى هونجكيو بأنها

أبعد ما تكون عن الراحة منها إلى الحرب. عندما غمغمت ببعض كلمات الشفقة لأنه اضطر إلى مغادرة موطنه، تغيرت حالته المزاجية بغتةً، وللمرة الأولى رأيته فى حالة من الأسى استدعت إلى ذاكرتى ولدًا تعيسًا منعزلاً كنت قد عرفته أيام المدرسة.

"على أية حال لم يكن ينطوى على مفهوم الوطن بما تحمله الكلمة من معنى،" قال، وهو يحدق فى كأس الكوكتيل. "أنا فقط، بعض خدم كانوا يجيئون ويذهبون مكان بائس صغير فى الحقيقة. منحنى مبررًا معقولاً للفرار. لقد كان مكانًا صغيرًا وبائسًا. كل أثاثاته كانت صينية. لم أستطع الجلوس بارتياح فى أى مكان. كان عندى طائر مغرد ذات مرة، لكنه مات. هنا أفضل لى. أسرع كثيرًا لسد نقاط ضعفى." ثم نظر فى ساعته، وتجرع كأسه وقال: "حسنًا، من الأفضل ألا نتركهم فى انتظارنا. السيارة بالخارج."

ثمة شيء غريب فى سلوكيات مورجان – نوع من الإلحاح اللامبالى – جعل من الصعب مواجهته بأية اعتراضات. إضافةً إلى أن هذه الأيام كانت أولى أيامى فى المدينة، عندما كنت مستغرقًا فى الانتقال من مناسبةٍ إلى أخرى بواسطة العديد من مستضيفي. لذا مضيت فى أثر مورجان إلى خارج الفندق، وقبل أن يمر وقتٌ طويل كنت أجلس إلى جواره فى مقعد سيارته الخلفى، وتحركنا عبر الشوارع الليلية الحية فى منطقة الامتياز الفرنسى.

وعلى الفور تقريبًا، تفادى السائق لتوه ترامًا قادمًا، وظننت أن هذا سوف يدفع مورجان ثانية للخوض فى مشاكله مع السائقين. لكنه الآن قد استغرق فى حالة التأمل، وأخذ يحدق صامتًا خارج نافذته

على ما نمر به من مصابيح النيون والألوية الصينية. عند لحظةٍ ما، عندما تقدمت إليه بملاحظة، في محاولة لاستكشاف أى شيء بخصوص الحدث الذى نتقدم إليه: "هل تعتقد أننا سنتأخر؟" نظر في ساعته ثانيةً وأجاب ذاهلاً: "إنهم فى انتظارك منذ وقتٍ طويل، لن يمانعوا فى انتظارك لبضع دقائق أخرى." ثم أضاف: "لابد وأن هذا يبدو غريبًا عليك."

لفترة بعد ذلك تقدمت بنا السيارة، دون أن نتجاذب الكثير من أطراف الحديث. فجأة دخلنا إلى شارعٍ جانبى على جانبيه أرصفة تحتشد عليها أشباح آدمية رابضة. كنت أراهم في ضوء مصابيح الإنارة، يجلسون، القرفصاء، بعضهم يتكوم نائمًا على الأرض، يضغطون بعضهم البعض فى حيز ضيق، لدرجة أنه لم يتبق سوى مساحة كافية فقط في منتصف الشارع للمرور بالسيارات. كانوا أناسًا من مختلف الأعمار – رأيت أطفالاً يغطون فى النوم على أذرع أمهاتهم – وكانت متعلقاتهم تتكوم إلى جوارهم وحولهم، صرر ملابس بالية، أقفاص طيور، عجلات اليد هنا وهناك تتكوم عليها ممتلكاتهم. لقد أصبحت معتادًا على مثل هذه المشاهد، لكن في تلك الليلة حدقت خارج السيارة فى فزع. كانت معظم الوجوه صينية، لكن عندما اقتربنا من نهاية الشارع، رأيت حشودًا من الأطفال الأوربيين – الروس، على حد اعتقادى.

"لاجئون من شمال القناة،" قال مورجان بلطف، وأشاح بوجهه بعيدًا. رغم كونه أصلا من اللاجئين، فقد بدا وكأنه لا يشعر بأى نوع من التقمص العاطفى تجاه أقرانه الأكثر بؤسًا. حتى عندما ظننت أننا

قد دهسنا جثةً نائمة، ونظرت للخلف في ذعر، غمغم رفيقي فقط بـ، "لا تقلق. ربما كانت فقط صرة ملابس رثة."

حينئذٍ، وبعد بضع دقائق من الصمت، روعني بضحكةٍ. "أيام المدرسة،" قال. "جميعها تعاودك. لم تكن سيئةً تمامًا، على ما أظن."

نظرت إليه ولاحظت أن الدموع تنشع من عينيه. ثم قال:

"تعرف، كان ينبغي علينا أن نتوحد. الوحيدان البائسان. هذا هو ما كان ينبغي علينا القيام به، كان ينبغي علينا أن نتوحد معًا. لا أعرف لماذا لم يحدث. لم نكن لنشعر بأننا اقتلعنا من الأشياء لو كنا فعلنا ذلك."

التفت إليه باندهاش. غير أن وجهه، الذي لمحته في الأضواء المتغيرة، أخبرنا بأنه في مكانٍ ما بعيد.

كما قد قلت، أذكر جيدًا جدًا أن أنتوني مورجان كان أحد الكيانات "المنعزلة البائسة" أيام المدرسة ليس لأنه كان هدفًا لتنمرنا ومضايقاتنا على وجه التحديد، كما أذكر، بل لأن مورجان نفسه قد وضع نفسه في هذه الحالة منذ مرحلة مبكرة جدًا. هو من كان يختار دائمًا أن يمشي وحده، ويتأخر خلف المجموعة الرئيسة عدة ياردات؛ هو الذي كان في أيام الصيف المشرقة يرفض أن ينضم إلى قافلة اللعب، وكنا نجده يملأ كراسته بالرسومات العبثية. أذكر كل هذا بمنتهى الوضوح. في الحقيقة، بمجرد أن وقعت عيني عليه في تلك الليلة في ردهة الفندق الكئيب، عاودت ذهني على الفور صورة مشيته المنعزلة المتجهمة خلف بقية الزملاء عند عبورنا الساحة المربعة بين المرسم والدير. غير أن تأكيده على أنني كنت مثله "منعزل بائس"،

وأنه كان ينبغى علينا أنا وهو أن نكون معًا، كان شيئًا مثيرًا للدهشة، لقد أخذت فترة حتى أدركت أن ما قاله ليس ببساطة سوى فاصل من خداع الذات من ناحية مورجان - من المرجح جدًا أن هذا ليس سوى شعور اخترعه منذ سنوات مضت ليجعل ذكرياته عن هـذه الفتـرة التعيسة مستساغة عقليًا. كما أقول، هذا لم يحدث لى توًا، وعندما أعيد التفكير فى الأمر الآن أرى أن ردى ربما كان متبلدًا قليلا. ذلك لأننى حسبما أذكر قد قلت شيئًا ما من قبيل:

"لابد وأنه كان ينبغى عليك الانخراط فى علاقة مع شخصٍ آخر، أيها الصديق القديم. لقد كنت دائمًا عرضة للقذف والتشهير. أستطيع القول بأنك كنت تفكر فـى ذلـك الزميـل بيجليسـورث. آدريـان بيجليسورث. لقد كان بالفعل منطويًا إلى حدٍ ما."

"بيجليسورث؟" فكر مورجان فى ذلك، ثم هز رأسه. "أذكر هـذا الفتى. كان بدينًا إلى حدٍ ما، وغليظ الأذنين؟ العجـوز بيجليسـورث. لى، لى. لكن لا، لم أكن أفكر فيه."

"حسنًا، ليس أنا، أيها الرجل العجوز."

"غير معقول." هز رأسه ثانيةً، ثم استدار إلى نافذته.

أنا أيضًا أشحت بوجهى بعيدًا، وخلال الفترة القليلة التالية كنـت أحدق فى الشوارع الليلية خارج السيارة. ثانيةً كنا نتحرك فى منطقـة تسلية مزدحمة، ونظرت فى وجوه الناس، متمنيًا أن ألمح وجه آكيرا. ثم دخلنا إلى أحد الأحياء السكنية به سياج مـن شـجيرات صـغيرة وأشجار، وبعد قليل توقفت السيارة فى ساحة محيطة بمنزل كبير.

غادر مورجان العربة بسرعة. أنا أيضًا غادرتهـا – لـم يبـذل السائق أى جهد لمساعدتى – وتبعته على ممر مفـروش بالحصـباء يقودنا حول جانب البيت. أعتقد أننى كنت أتوقع استقبالاً كبيـرًا مـن نوعٍ ما، لكننى رأيت حينئذٍ أن هذا لم يكن بانتظارنا؛ كانـت معظـم جنبات المنزل مظلمة، وباستثناء سيارتنا، كانت هناك سيارة أخـرى وحيدة فى حوش البيت.

كان من الواضح أن مورجان يألف هذا المنزل، فاتجه بنـا إلـى باب جانبى محاط بشجيرات عالية. فتحه دون أن يرن جرسه وأشـار إلى بالدخول.

وجدنا أنفسنا فى ردهة فسيحة مضاءة بالشموع. حدقت أمـامى، فرأيت أعمالاً خشبية عتيقة مزخرفـة، ومزهريـات ضـخمة مـن البورسلين، وصندوقًا ثقيلاً به أدراج. كانت رائحة الهواء – الناضحة برائحة البخور الممتزج برائحة الغائط – مريحة بصورة غريبة.

لم يظهر خادم أو مضيف. ظل رفيقى يقف إلى جوارى دون أن ينطق بكلمة. بعد فترة، خطر ببالى أن ينتظر تعليقًا منى على الأشياء المحيطة بنا، لذا بادرت قائلاً:

"معرفتى بالفنون اليدوية الصينية ضئيلة. لكـن حتـى بالنسـبة لعينى، من الواضح أن الأشياء المحيطة بنا جميلة إلى حدٍ ما."

رمقنى مورجان باندهاش. ثم هز كتفيه بلامبالاة وقـال: "أعتقـد أنك على حق. حسنًا لندخل."

تقدم مورجان الطريق بنا إلى داخل المنزل. كنا نمشى فى الظلام لعدة خطوات، ثم سمعت أصواتًا تتجاذب أطراف الحديث بالماندارين، ورأيت ضوءًا يأتى من مدخل يتدلى عليه ستارة من خيوط ملضوم بها حبات خرز. عبرنا الستارة، وبعد ذلك عبرنا ستارة أخرى، إلى غرفة أخرى كبيرة دافئة مضاءة بالشموع والمصابيح.

ماذا أذكر الآن من كل بقية ذلك المساء؟ لقد أصبح كل شىء تلفه الضبابية قليلاً فى عقلى، لكن دعنى أحاول أن ألم نثارها معًا بصورة واضحة قدر المستطاع. فكرتى الأولى عند دخول تلك الغرفة هى أننا قد عكرنا صفو احتفال عائلى ما. فقد لمحت طاولة كبيرة مفروشة بالطعام، وكان يجلس حولها ثمانية أو تسعة أشخاص. جمعيهم كانوا صينيين؛ أصغر من فيهم – رجلان فى العشرينيات من العمر – كانا يرتديان بدلتان غربيتان، لكن باقى الناس كانوا يرتدون الملابس الشعبية الصينية. سيدة عجوز، كانت تجلس على طرف الطاولة، وكان أحد الخدم يساعدها فى تناول الطعام. جنتلمان كبير السن – كان فارع الطول بصورة مثيرة للدهشة ومتحرر بدرجة تنفى عنه صفة الشرقى – حدست أنه الرجل الأول فى هذه الأسرة، لأنه هب واقفًا على الفور عند وصولنا، ثم حذا حذوه الشباب الآخرون. لكن عند هذه اللحظة، ظل انطباعى عن هؤلاء الناس غامضًا، لأن الغرفة نفسها قد بدأت بمنتهى السرعة تمثل بؤرةً لاهتمامى.

كان السقف مرتفعًا تحمله دعامات خشبية. وخلف من كانوا يتناولون العشاء، إلى اليمين فى الخلف بهو المغنين، من درابزونه يتدلى حامل مصابيح ورقية. هذا الجزء من الغرف هو الذى استلفت

انتباهى، ثم واصلت النظر عبر الطاولة عليه، وقلما كنت أسمع كلمات الترحيب التى نطق بها مضيفى. لأن ما اتضح لى هو أن المؤخرة كلها نصف الغرفة التى كنت أقف فيها وقتئذ كانت فى واقع الأمر القاعة الأمامية لمنزلنا القديم فى شنغهاى.

من الواضح أن هناك عملية إحلال وتبديل واسعة النطاق قد حدثت مع مرور السنوات. على سبيل المثال، لم أستطع أن أدرك مطلقًا كيف أن المناطق التى دخلنا عبرها أنا ومورجان لتونا لها علاقة بردهتنا القديمة. لكن بهو المغنين الذى فى المؤخرة يتطابق بشكل واضح مع الشرفة التى كانت أعلى السلم الدائرى الكبير فى بيتنا.

تقدمت، وربما أكون قد ظللت واقفًا هناك لبعض الوقت أحدق فى بهو المغنين، أقتفى بعينى المسلك الذى كان يأخذه سلمنا. وبينما كنت أفعل ذلك، وجدت ذكرى قديمة تعاودنى، ذكرى تنتمى لطفولتى عندما كنت معتادًا على الهبوط على السلم الممتد الدائرى بسرعة هائلة وأقفز درجتين أو ثلاث فى نهاية السلم – وعادةً ما كنت أرفرف بذراعى – لأهبط فى أعماق مضجع كان يوضع على مقربة. كان أبى يضحك كلما شاهدنى أفعل ذلك؛ بينما كانت أمى ومى لى تستنكران ذلك. فى الحقيقة، كانت أمى، التى لم توضح أبدًا السبب فى استنكارها هذه الممارسة على وجه التحديد، دائمًا تهددنى بحمل المضجع بعيدًا لو أننى ألححت على ممارسة هذه العادة. ثم ذات مرة، عندما صرت فى الثامنة من العمر تقريبًا، حاولت هذا العمل البطولى للمرة الأولى منذ شهور واكتشفت أن المضجع لم يعد قادرًا على

امتصاص أثر وزنى الزائد. أحد أطراف المضجع انهار تمامًا، وهويت أنا على الأرض؛ وارتطمت بقوة. مع ذلك، وفى اللحظة التالية، قد تذكرت أن أمى كانت تهبط السلم خلفى، وكنت قد ثبت نفسى لأقسى أنواع التوبيخ. لكن أمى، لاحت فوقى وانفجرت فى الضحك. "انظر إلى وجهك، يا بفن!" كانت تتساءل. "لو أننى أستطيع فقط أن أرى وجهى!"

لم يصبنى أى ضرٍ على الإطلاق، لكن مع استمرار أمى فى الضحك – وربما لأننى كنت ما أزال خائفًا من التوبيخ – بدأت أتظاهر بأقصى ألم يمكن أن أشعر به فى كاحل قدمى. حينئذٍ توقفت أمى عن الضحك وساعدتنى برفق كى أنهض. أذكرها وهى تساعدنى على المشى ببطء حول الردهة، وذراعها يطوق كتفى، وتقول: "الآن، ذلك أفضل، أليس كذلك؟ فقط سنمشى هذه المسافة. الآن، لا شىء."

لم أتلق أى توبيخ على ما حدث وبعد بضعة أيام دخلت لأجد أن المضجع قد تم إصلاحه؛ لكن رغم أننى استأنفت عادة القفز من الدرجة الثانية أو الثالثة، فإننى لم أحاول الطفو فى المضجع ثانيةً أبدا.

مشيت بضع خطوات حول الغرفة، محاولاً أن أحدد بالضبط الموقع الذى كان فيه المضجع. وبينما كنت أفعل ذلك، اكتشفت أن صورته فى عقلى مشوبة بضبابية شديدة – رغم أننى استطعت بمنتهى الوضوح استعادة الملمس الحريرى لنسيجه.

ثم فى النهاية، أدركت وجود الآخرين فى الغرفة، وأدركت حقيقة أنهم كانوا يراقبوننى بابتسامة رقيقة. مورجان والرجل الصينى كبير

السن يتشاوران فى هدوء. تقدم مورجان خطوة للأمام، عندما رآنى أستدير، وتنحنح وبدأ فى التقديم.

كان واضحًا أنه على علاقة صداقة بالأسرة ونطق الأسماء دون تردد. بينما كان يفعل هذا، كان كل فرد يخصنى بانحناءة تحية وابتسامة، وهو يشبك كلتى يديه فى بعضهما البعض. السيدة العجوز التى كانت تجلس على طرف الطاولة، التى قدمها مورجان باختلاف أكثر، ظلت ترمقنى بشعور جامد. لين كان هو اسم الأسرة – فيما عدا ذلك فأنا لا أذكر أية أسماء – ومن هذه النقطة، أمسك مستر لين نفسه، الجنتلمان العجوز الضخم، بعصا المبادرة.

"أنا واثق، يا سيدى الطيب،" قال بإنجليزية واهنة النبرة، "أن عودتك إلى هنا حارة المشاعر."

"نعم، هذا صحيح." وأطلقت ضحكة خفيفة. "نعم، ومشوبة بقليل من الغرابة أيضًا."

"لكن هذا طبيعى،" قال مستر لين. "الآن، تعامل بمنتهى الأريحية من فضلك. يقول مستر مورجان إنك تناولت العشاء بالفعل. لكن كما ترى، لقد أعددنا لك العشاء. لا نعرف إذا ما كنت تستسيغ المطبخ الصينى وأطباقه أم لا. لذلك استعرنا طباخ جارنا الإنجليزى."

"لكن ربما لا يكون مستر بانكس جوعانًا."

أحد الرجلين اللذين يرتديان ملابس غربية قال هذه الجملة. ثم استدار الأخير لى وأكمل قائلاً: "جدى رجل دقة قديمة جدًا. ينزعج بشدة لو أن الضيف لم يقبل كل طقوس كرمه." ابتسم الشاب ابتسامة

عريضة للرجل العجوز. "من فضلك لا تدعه يتنمر عليك، يا مستر بانكس."

"حفيدى يعتقد أننى صينى دقة قديمة." قال مستر لين، وهو يتقدم بالقرب منى، والابتسامة لا تفارق وجهه أبدًا. "لكن الحقيقة هى أننى وُلدت وتربيت فى شنغهاى، هنا فى المستعمرة الدولية. اضطر والداى للفرار من قوات الإمبراطورة دواجر، للاختباء هنا، فى مدينة الأجانب، وكبرت كأحد سكان شنغهاى من البداية إلى النهاية. حفيدى هنا لا يعى شيئًا عن شكل الحياة فى الصين الحقيقية. هو يعتبرنى دقة قديمة! تجاهله، يا سيدى العزيز. لست بحاجة للالتصاق بالبروتوكول هنا فى هذا البيت. إذا لم تكن عندك رغبة فى الطعام، فلا عليك إذًا. فأنا بالتأكيد لن أتنمر عليك."

"لكنك حقيقةً فى غاية الطيبة،" قلت، ربما بقليل من الارتباك، لأننى فى الحقيقة كنت لم أزل أحاول تحديد الكيفية التى تبدلت بها البناية.

ثم فجأةً قالت السيدة شيئًا بالماندارين. فقال الشاب الذى تحدث إلى من قبل:

"جدتى تقول إنها كانت تظن أنك لن ترجع أبدا. لقد كانت فترة انقطاع طويلة. لكنها الآن قد رأتك، هى فى منتهى السعادة بوجودك هنا."

حتى قبل أن ينتهى من الترجمة، كانت السيدة العجوز تتحدث ثانيةً. هذه المرة، عندما انتهت، ظل الشاب صامتًا للحظة. نظر إلى جده وكأنه يطلب منه العون، ثم بدا وكأنه قد اتخذ قرارًا.

"لابد أن تلتمس لأمى المعذرة،" قال. "أحيانًا ما تبدو غير قـادرة على التركيز."

الجدة، التى ربما كانت تفهم الإنجليزية، تململت بضجر من أجل الترجمة. فى النهاية تنهد الشاب وقال:

"جدتى تقول إنه حتى موعد قدومك هذا المساء، كانـت تسـتاء منك. بعبارةٍ أخرى، كانت غاضبة لأنك ستأخذ منزلنا منا."

نظرت إلى الشاب، وكنت فى غاية الارتباك، لكن السيدة العجوز عادت تتحدث ثانيةً.

"تقول إنها لفترة طويلة،" يترجم الحفيد، "تمنت أن تظـل بعيـدًا. كانت تعتقد أن هذا البيت يخص أسرتنا الآن. لكن الليلة، عندما رأتك شخصيًا، ورأت المشاعر فى عينيك، فهى قادرة على استيعاب الأمر. فهى تشعر من كل قلبها أن الاتفاق صحيح."

"الاتفاق؟ لكن بالتأكيد...."

سمحت للكلمات أن تتلاشى فى فمى. فعلى الـرغم مـن حالـة الارتباك التى انتابتنى، وبينما كان الشاب يقوم بترجمة كلمات جدتـه، بدأت أستعيد واحدة من الـذكريات البعيـدة بخصـوص مثـل هـذه الترتيبات الخاصة بمنزلى القديم وعودتى إليه. لكن كما أقول، ذكرى هذا الأمر كانت مضببة جدًا، وأحسست أننى بفتح مناقشة هذا الأمـر فإننى فقط سوف أورط نفسى. على أية حال، فى هذه اللحظة تحديـدًا قال مستر لين:

"أخشى ألا نكون جميعًا مراعين لمشاعر مستر بانكس. ها نحن، نجعله يثرثر معنا، بينما لابد، في الواقع، وأنه في غاية الاشتياق للتحرك بين جنبات هذا البيت مرةً أخرى." ثم استدار إلى بابتسامة ودودة، وقال: "تعال معي، يا سيدي الطبيب. سيكون لديك متسع من الوقت للتحدث إلى الجميع فيما بعد. تعال من هنا وسوف أقودك إلى كل أنحاء المنزل."

الفصل الخامس عشر

خلال العدة دقائق التاليات، تبعت مستر لين فى كل أنحاء المبنى. رغم تقدمه فى العمر، لم يظهر عليه من علامات الوهن إلا القليل؛ كان يحمل جسمه البدين بثبات، ورغم البطء، فإنه كان قلما يتوقف لاستعادة التنفس بانتظام. كنت أقتفى أثر عباءته القاتمة وشبشبه الهامس صعودًا وهبوطًا على السلم الضيق، وفى الطرقات الخلفية التى غالبًا ما كانت مضاءة بمصباح واحد. مضى بى عبر أماكن كانت خالية من الأثاث وعليها خيوط عناكب، مرورًا بصناديق خشبية بها نبيذ الأرز مرصوصة بعناية فائقة. فيما عدا ذلك، كان المنزل فخمًا؛ كانت هناك بارافانات وسجاد حوائط جميلة، عناقيد بورسالين معروضة فى فجوات جدارية. بين الحين والآخر، كان يفتح بابًا، ثم يتراجع للخلف ليسمح لى بالدخول. دخلت العديد من الغرف، لكن - لبعض الوقت على الأقل - لم أر شيئًا آلفه على الإطلاق.

ثم فى النهاية دلفت عبر باب فأحسست بشىء يطرق ذاكرتى. أخذت بضع ثوانٍ أخرى، لكننى أدركت حينئذٍ بموجة من الأحاسيس "مكتبتنا القديمة". لقد تغيرت كثيرًا: كان السقف أكثر ارتفاعًا، تم إضافة حائط داخلها لتجعل المساحة على هيئة حرف L؛ وحيث كان هناك فيما قبل باب مزدوج يؤدى إلى غرفة الطعام، أصبح هناك فاصل وضعت خلفه المزيد من صناديق نبيذ الأرز. لكنها بلا شك الغرفة نفسها التى كنت أعمل فيها الواجب المدرسى أيام طفولتى.

تقدمت أكثر فى عمق الغرفة، وأنا أنظر حولى فى كل أرجاء المكان. بعد فترة أدركت أن مستر لين ينظرنى فألقيت إليه بابتسامة واعية. عندها قال:

"لا شك فى أن تفاصيل كثيرة قد تغيرت. من فضلك اقبل اعتذارى. لكن لابد أن تفهم، خلال الثمانى عشرة سنة التى أقمنا فيها هنا، كانت هناك بضعة تغييرات لا يمكن تجنبها لمواجهة احتياجات أهل بيتى وعملى. وأنا أعى جيدًا أن المستأجرين الذين سبقونا ومن قبلهم، قد قاموا بتغييرات واسعة. ومن المؤسف، يا سيدى العزيز، لكننى أعتقد أن قليلين قد استشرفوا أنك ووالديك فى يوم ما سوف..."

تراجع، ربما لأنه ظن أننى لا أصغى إليه، ربما لأنه، مثل كل الصينيين، كان منزعجًا من الاعتذارات. واصلت النظر حولى لفترة أطول، ثم سألته:

"إذًا هذا المنزل، لم يعد مملوكًا لشركة Butterfield and Swire؟"

بدا مندهشًا، ثم ضحك. "سيدى، أنا صاحب هذا المنزل."

رأيت أننى أهنته، وقلت بسرعة: "نعم، بالطبع. ألتمس منك المعذرة."

"لا عليك، يا سيدى الطيب" – عاودته ابتسامته المعتدلة بسرعة – "كان سؤالاً معقولا. مع كل ذلك؛ عندما كنت تعيش هناك أنت ووالداك العزيزان، كان هذا هو الحال دون شك. لكن أعتقد أن هذا قد انتهى منذ زمن. يا سيدى العزيز، أراك تدرك مليًا إلى أى مدى تغيرت شنغهاى مع مرور السنوات. لقد تغير كل شىء، كل شىء تغير وتغير لمرة ثانية. كل هذا" – تنهد وتحرك باتجاهنا – "فهذه

تغيرات ضئيلة بالمقارنة. كانت هناك أجزاء من هذه المدينة كنت أعرفها فيما مضى جيدًا، أماكن كنت أمشى فيها كل يوم، الآن أذهب إلى هناك ولا أعرف من أى طريق أمضى فيها. تغيرات، تغيرات طوال الوقت. والآن، اليابانيون، يأملون فى إضفاء تغييراتهم هنا على المكان. إنها أقسى التغيرات التى يمكن أن تستبد بنا. لكن على الإنسان أن يلزم التفاؤل."

للحظة، وقفنا معًا فى حالة من الصمت، وواصلنا التطلع فى محيطنا. ثم قال بهدوء:

"أسرتى، بالطبع، ستأسى لترك هذا البيت. فقد مات أبى هنا. اثنان من أحفادى ولدا هنا. ولكن حين تحدثت زوجتى قبل قليل - وعليك أن تسامح صراحتها، يا مستر بانكس - كانت تتحدث إلينا جميعًا. سوف نعتبر هذا شرفًا وامتيازًا عظيمين أن نعيد هذا البيت لك ولوالديك. الآن، يا سيدى الطيب، لنكمل إذا أردت."

أعتقد أنه لم يمر وقت طويل بعد ذلك وصعدنا سلمًا يغطيه السجاد - سلم، بالتأكيد، لم يكن موجودًا حينما كنت أعيش هنا - ودلفت إلى غرفة نوم فخمة الأثاث. كانت هناك أنسجة أنيقة، ومصابيح تلقى بوهج أحمر على جنبات المكان.

"غرفة زوجتى،" قال مستر لين.

رأيت أنها تشبه الحرم، بُدْوار(*) مريح دافئ حيث تخلو المرأة العجوز فيه إلى نفسها معظم يومها. فى الضوء الدافئ للمصباح،

(*) البُدْوار: مخدع السيدة أو حجرة لبسها. (المترجم)

استطعت أن أرى طاولة لعب عليها عدد أنواع مختلفة من مباريات الورق التى بدت أنها تؤدى، طاولة للكتابة به طابور من الأدراج المزدانة بشرابات مُذهبة على أحد الجانبين سرير بأربعة ملصقات به طبقات من ستائر لها شكل البرقع. فى أماكن أخرى وقعت عيناى على العديد من الزخارف الرائعة، وأشياء مسلية أخرى لم أستطع تحديد طبيعتها بالضبط.

"لابد وأن المدام تحب هذه الغرفة،" أخيرًا قلت. "أرى أن عالمها هنا."

"إنها تركتها. لكن لا ينبغى عليك أن تتشغل بها، يا سيدى الطبيب. سنجد لها غرفةً أخرى وسوف تحبها بالشكل نفسه."

لقد تحدث ليطمئننى، لكن ثمة شىء مشوب بالهشاشة قد دخل صوته. الآن مشى إلى داخل الغرفة، إلى تسريحة، واستغرقه شىء صغير – ربما بروش. وبعد عدة لحظات، قال بهدوء:

"كانت فى غاية الجمال عندما كانت أصغر سنًا. أروع زهرة، يا سيدى العزيز. لا يمكنك أن تتخيل. أنا مثل الغربيين فى هذا الجانب من الحياة. لم أرد أبدًا زوجة أخرى سواها. زوجة واحدة، تكفى جدًا. بالطبع، أخذت أخريات. أنا رجل صينى، ورغم ذلك، لو أننى قد عشت حياتى كلها هنا فى مدينة الأجانب. كنت أشعر بأننى مضطر لأخذ زوجات أخريات. لكنها كانت الوحيدة التى اهتممت بها. كل الأخريات قد ذهبن، وهى قد بقت. أفتقد الأخريات، لكننى سعيد من كل قلبى لأننا فى عمرنا الكبير لم يعد لنا سوانا." لبضع ثوانٍ، بدا أنه

قد نسى وجودى. ثم استدار إلى وقال: "هذه الغرفة. أتساءل كيف ستأتى وتستخدمها. معذرةً، إن هذا خارج سياق الموضوع تمامًا. لكن هل تظن أن هذه الغرفة ستكون لزوجتك الطيبة؟ بالطبع، أنا أعرف أن الكثير من الأجانب، مهما بلغ بهم الثراء، فالزوج والزوجة يستخدمان الغرفة نفسها. أنا أتساءل إذا ما كانت هذه الغرفة ستذهب لك ولزوجتك الطيبة. أعرف أن فى هذا فضولاً منى، وخروجًا تامًّا عن سياق الموضوع. لكن هذه الغرفة لها مكانة خاصة جدًا عندى. وأملى أن تجعلها لأكثر الاستخدامات خصوصية."

"نعم...." نظرت فى أنحاء الغرفة ثانية بإمعان أكثر. ثم قلت: "ربما ليست زوجتى. زوجتى، كما تفهم، لأكن صريحًا..." أدركت أننى فى هذا الكلام عن زوجة، كانت صورة سارة عالقة فى ذهنى. ولكى أوارى ارتباكى، واصلت الكلام بسرعة: "ما أقصده، يا سيدى، هو أننى لم أتزوج بعد. ليس لدى زوجة. لكننى أعتقد أن هذه الغرفة ستكون مناسبة لأمى."

"آه نعم. ورغم كل الأشياء المربكة التى ستعانيها، فإن هذه الغرفة ستكون نموذجية لها. ووالدك؟ أتساءل، هل سيشاركها هذه الغرفة بالطريقة الغربية؟ من فضلك، سامحنى على تطفلى المبالغ فيه."

"هذا ليس تدخلاً، يا مستر لين. مع ذلك فبسماحك لى بالدخول إلى هنا، فإنك أنت الذى منحتنى كل هذه الألفة والحميمية. ولديك الحق، كل الحق فى توجيه هذه الأسئلة. المسألة فقط هى أن كل هذا جاء مباغتًا، وليس لدى من الوقت، بعد، ما يمكننى من وضع خططى...."

دلفت إلى حالة من الصمت وواصلت إمعان النظر فى تفاصيل الغرفة. ثم بعد فترة، قلت له: "مستر لين، أخشى أن يضايقك هذا. لكنك كنت أكثر تفتحًا وكرمًا من توقعاتى، وأشعر أنك جدير بأمانتى. لقد قلت الآن بنفسك، كم من الحتمى أن يقع بيت تحت طائلة التغييرات عندما يتغير سكانه. حسنًا، يا سيدى، رغم ما لهذه الغرف من قرب إلى نفسك، فما أخشاه هو أن أسرتى مع عودتها لسكنى هذا المنزل سوف تقوم بوضع تغييراتها الخاصة بها. أخشى أن تتغير هذه الغرفة أيضًا لأبعد مما تتخيل."

أغلق مستر لين عينيه، وحط علينا صمتٌ ثقيل. خشيت أن تنتابه نوبة غضب، وللحظة ندمت على صراحتى المفرطة معه. لكن عندما فتح عينيه، وجدته يرمقنى بلطف.

"بالطبع" قال، "هذا طبيعى جدًا. سوف ترغب فى إعادة هذا البيت تمامًا إلى ما كان عليه عندما كنت طفلاً. هذا طبيعى جدًا. سيدى الطيب، أنا أفهم هذا تمامًا."

فكرت فى هذا للحظة، ثم قلت: "حسنًا، بالفعل، يا مستر لين. لسبب واحد، حسبما أتذكر، كانت هناك أشياء كثيرة فى المكان تزعجنا. أمى، مثلاً، لم يكن لها حجرة مكتب تخصها أبدًا. لم يكن مكتب أمى الصغير فى غرفة نومها كافيًا على الإطلاق لكل أعمالها الخاصة بحملات التوعية. أبى أيضًا كان يريد ورشة صغيرة لأعماله الخشبية. ما أقوله هو ليست هناك حاجة للرجوع بعقارب الوقت فقط لمجرد العودة."

"هذا تفكير غاية فى الحكمة، يا مستر بانكس. ورغم أنك لم تأخذ لك زوجة بعد، فربما يأتى اليوم الذى تفكر فيه بحاجتك للزوجة والأطفال قريبًا."

"هذا وارد بالتأكيد. لسوء الحظ، فى الوقت الراهن، مسألة الزوجة هذه، فى حالتى، مع ذلك فالعادات الغربية....." أصبحت فى حالة من الارتباك الشديد وتوقفت عن الكلام. غير أن الرجل العجوز أومأ بحكمة، وقال:

"بالطبع، فيما يخص الأمور المتعلقة بالقلب، لا تبدو الأشياء بسيطة مطلقا." ثم سأل: "ألا تتمنى أن يكون لديك أطفال، يا سيدى الطبيب؟ أتساءل كم من الأطفال تريد أن تنجب."

"فى الحقيقة، أنا عندى طفلة بالفعل. بنت صغيرة. رغم أنها ليست، فى واقع الأمر، ابنتى بمعنى الكلمة. إنها يتيمة وهى الآن تحت رعايتى. وأنا أعتبرها ابنتى بالفعل."

لم أكن قد فكرت فى جنيفير لبعض الوقت، وذكرى لها بهذه الطريقة غير المتوقعة أفضى فوران شعور بداخلى. جرت صورها فى مخيلتى؛ فكرت فيها وهى فى مدرستها، وتساءلت ماذا عنها، وما الذى تفعله فى ذلك اليوم.

ربما قد أشحت بوجهى بعيدًا كى أوارى مشاعرى. على أية حال، عندما نظرت إلى مستر لين بعدها، كان مستر لين يومئ ثانيةً.

"نحن – الصينيين – معتادون تمامًا على مثل هذه الترتيبات،" قال. "صلة الدم غاية فى الأهمية. لكن هكذا تكون من أهل بيتك. لقد

تبنى أبى بنتًا يتيمة وكبرت معنا وكأنها أختى. هكذا كنت أعتبرهـا، رغم أننى كنت أعرف أصلها طيلة الوقت. عندما ماتت، فـى وبـاء الكوليرا كنت أنا ما أزال شابًا، شعرت بكثير مـن الأسـى لأجلهـا، الأسى نفسه الذى شعرت به مع موت أخواتى الشقيقات."

"أنا فى غاية السعادة بالحديث معك، يا مستر لين، لو كان لى أن أقول ذلك. من النادر أن تصادف شخصًا على هذه الدرجة من الفهـم الفورى."

اتجه إلى بانحناءة خفيفة، جاعلاً أطراف أصابعه تلامس بعضها البعض أمامه. "عندما يعيش المرء طويلاً مثلى، وفى مغيبـة الهيـاج الذى تشهده هذه السنوات، يمر بكثير من الأفراح والأتراح. أتمنى أن تسعد ابنتك بالتبنى هنا. أتساءل أى غرفة ستختارها لها. لكن بالطبع، سامحنى! كما قلت، إنك سوف تقوم ببعض التغييرات."

"فى الحقيقة، إحدى الغرف التى رأيناها قبل قليل ستكون ملائمة لجينفير. غرفة بها رف خشبى صغير يمتد بطول الحائط."

"هل تحب مثل هذا الإفريز؟"

"نعم. لتضع عليه متعلقاتها. وفى الحقيقة هنـاك شـخص آخـر سيسكن هنا فى هذا البيت. أعتقد أنها من الناحيـة الرسـمية تعتبـر خادمة، لكنها فى بيوتنا تعلو عن هذه المرتبة قليلا. اسمها مى لى."-

"هل كانت مربيتك، يا سيدى الطبيب؟"

أومأت. "ستكون طاعنة فى السن الآن وأعتقد أنها ستكون جديرة بالراحة من عملها. الأطفال مُرهِقون للغاية. كانت لدى نية دائمة فـى أن تقيم معنا هنا عندما تكبر فى السن."

"هذا منتهى طيبة القلب منك، يا سيدى. غالبًا ما يسمع المرء عن العائلات الأجنبية التى تطرد المربية عندما تزداد نفقاتها. مثل هؤلاء النساء غالبًا ما نراهن تقضين آخر أيامهن فى الشوارع متسولات."

ضحكت. "قلما فكرت فى إمكانية حدوث هذا لمى لى. فى الحقيقة، إن مجرد الفكرة تعتبر من قبيل العبث. على أية حال، كما أقول، سوف تعيش معنا هنا. بمجرد أن أنتهى من مهمتى، سأركز تفكيرى على تحديد محل إقامتها. لا أتصور أن هذا من الصعوبة فى شىء."

"قل لى، يا سيدى الطبيب، هل ستمنحها غرفة فى أجنحة الخدم أم مع العائلة؟"

"مع العائلة، بكل تأكيد. ربما تكون وجهة نظر والدى مناهضة لى فى هذا الأمر. لكن فى الواقع، أنا صاحب الكلمة الآن فى البيت."

ابتسم مستر لين. "وفقًا لعاداتكم، سيكون الأمر هكذا بالتأكيد. بالنسبة لنا كصينيين، لحسن الحظ بالنسبة لى، يستمر الكبار فى حكم المنزل تمامًا حتى وهم فى أرذل العمر."

ضحك الرجل العجوز فى نفسه واستدار صوب الباب. كنت على وشك أن أتبعه، لكن فى تلك اللحظة بالضبط - بصورة مباغتة تمامًا وفى غاية الوضوح - وجدت ذكرى تعاودنى. وقد فكرت فيها منذئذٍ، ولا أدرى لماذا هذه الذكرى على وجه التحديد دون غيرها. كانت ذكرى إحدى المناسبات وأنا فى سن السادسة أو السابعة، عندما كنت أتسابق أنا وأمى على امتداد أحد المروج. لا أعرف على وجه التحديد مكانها؛ أظن الآن أننا كنا فى أحد المنتزهات - ربما جيسفيلد بارك -

ذلك لأننى أذكر وجود سور معترش إلى جوار المكـــان الـــذى كنـــا نتسابق فيه، سور كانت تغطيه الأزهار المتسلقة واللبلابيات. كان أحد الأيام الدافئة، لكنه لم يكن يومًا مشمسًا على وجـــه التحديـــد. كنـــت أتحدى أمى باندفاع فى السباق، إلى علامة ما على بعد مسافة قصيرة أمامنا، على سبيل استعراض قدرتى المتطـــورة علـــى العـــدو. لقـــد اعتبرت إمكانية الفوز عليها أمرًا مفروغًا منه تمامًا، وأنهـــا حينئـــذٍ، ستعبر، بطريقتها المعتادة، عن اندهاشها المســـرور بهـــذا الإعـــلان الجديد عن تفوقى الناضج. لكنها ظلت متساوية معى فى السباق ممـــا أثار انزعاجى، وكانت تضحك وهى تواصل العدو بجانبى، رغم أننى كنت أعدو بكل قوتى. لا أذكر فعليًا من الذى فاز منا، لكننى ما زلت أذكر سخطى عليها، وإحساسى بأننى ظُلمت ظلمًا شديدًا. تلك كانـــت الذكرى التى عاودتنى فى تلك الليلة وأنا أقف فى الجو الدافئ الحمـــيم بغرفة نوم مدام لين. أو ربما جزء منها: ذكرى لى وأنا أنـــدفع مـــع الريح بكل قوتى؛ وحضور ضحكات أمى إلى جانبى؛ حفيف جوبتها، والإحساس المتفجر بالإحباط.

"سيدى،" قلت لمضيفى، "أتساءل عما إذا كان لى أن أسألك. تقول إنك عشت حياتك كلها فى المستعمرة. أتساءل إذًا ما إذا كنت خـــلال ذلك الوقت قد التقيت بأمى."

"لم يحدث أبدًا أن أسعدنى حظى والتقيت بها شخصيًا، قال مستر لين". "لكننى بالطبع أعرفها، وأعرف الكثير عن حملتهـــا العظيمـــة. كنت معجبًا بها، مثل كل أصحاب الأفكار الجميلة. أنا واثق أنها سيدة رائعة. وسمعت ما قيل من أنها فى غاية الجمال."

"أعتقد أنها كانت هكذا. المرء لا يفكر أبدًا فيما كانت أمه جميلة أم لا."

"لقد سمعت ما قيل عن أنها أجمل امرأة إنجليزية فى شنغهاى."

"أعتقد أنها كانت هكذا. لكنها بطبيعة الحال، ستصبح أكبر سنًا الآن."

"هناك نوع بعينه من الجمال لا يخبو. زوجتى" – أومأ للغرفة – "بالنسبة لى هى لم تزل على الدرجة نفسها من الجمال مثلما كانت يوم تزوجتها."

عندما قال هذا، شعرت بغتةً وكأننى أتطفل وفى هذه المرة كنت أنا من بادر بالمغادرة.

لا أذكر تفاصيل أكثر عن زيارتى للمنزل ذلك المساء. ربما قضينا ساعة أخرى، نتجاذب أطراف الحديث ونحن نتناول الطعام مع الأسرة حول المائدة. فى كل الأحوال، أعرف أننى غادرت أسرة لين بعد أن توصلنا إلى أفضل صيغة. لكن وأثناء رحلة العودة شعرت أنا ومورجان بالإرهاق إلى حدٍ ما.

ربما كان خطئى. لقد كنت فى هذه المرحلة أشعر بالإرهاق والإجهاد المشوب بعصبية إلى حدٍ ما. أخذنا طريق العودة ليلاً، وخلال بعض الوقت كان الصمت مهيمنًا، وكان عقلى قد بدأ ربما فى الانجراف ثانيةً فى المهمة الهائلة التى تنتظرنى. لأنى أذكر أنى قلت لمورجان بطريقة مفاجئة تمامًا:

"انظر، أنت هنا منذ بضع سنوات الآن. قل لى، هل صادف أن قابلت مفتشًا بعينه اسمه كانج؟"

"المفتش كانج؟ رجل شرطة أم ماذا؟"

"عندما كنت طفلاً، كان المفتش كانج أسطورة. فى الحقيقة، لقد كان هو الضابط المسئول أصلاً عن قضية والدىّ."

ومما أثار دهشتى أنى سمعت مورجان يقهقه بجانبى. ثم قال:

"كانج؟ *كانج العجوز*؟ نعم، بالطبع، لقد كان مفتش شرطة. حسنًا إذًا، لا عجب إذ لا شىء يخفى على أحد فى هذه الأيام."

كانت نبرته مفاجئة لى، فقلت بفتور: "فى تلك الأيام، كان المفتش كانج أكثر رجال البوليس السرى احترامًا فى شنغهاى، إن لم يكن فى الصين كلها."

"حسنًا، أستطيع القول بأنه لم يزل يتمتع باسم معروف. الرجل العجوز كانج. حسنا أنا لم ألتق به أبدًا."

"أنا سعيد على الأقل لأنه لم يزل فى المدينة كما سمعت. هل لديك أى فكرة عن مكان وجوده؟"

"أبسط الطرق هى أن تتجول فقط حول المدينة الفرنسية فى أى ليلة بعد حلول الظلام. من المحتمل أن تصادفه إن آجلاً أم عاجلاً. عادةً ما تراه مكومًا على الرصيف. أو إذا سمح له بالدخول إلى أحد الجحور فى بار من البارات، فستجده يغط فى النوم والشخير فى أحد الأركان."

"هل تعنى أن المفتش كانج قد أصبح سكيرًا؟"

"خمور. وأفيون. والمخدرات الصينية التقليدية. لكنه حسن السمعة. يحكى قصصًا عن أمجاده والناس الذين أعطوه العملات التذكارية."

"أظن أنك تتحدث عن رجل خطأ غير الذى أقصده، أيها الرفيق العجوز."

"لا تفكر هكذا، أيها الفتى العجوز. العجوز كانج. لقد كان بالفعل رجل بوليس. دائمًا كنت أتصور أنه يدعى كل هذا. معظم قصصه منافية للطبيعة والعقل. ما الأمر، أيها الرفيق العجوز؟"

"المشكلة معك، يا مورجان، لأنك لا تكف عن تسفيه كل شيء. فى البداية سفهتنى مع بيجليسورث. والآن تسعى للتسفيه من شخصية المفتش كانج وتحوله إلى صعلوك عديم القيمة. وجودك هنا، أيها الرجل العجوز، أصاب عقلك بالضعف."

"الآن انظر هنا، كف عن الصياح قليلاً. ما أقوله لك، سوف تسمعه من أى شخصٍ آخر تسأله. وأنا إلى حدٍ ما معترض على تعليقاتك. عقلى لم يصبه أى ضعف."

عندما أنزلنى عند فندق كاثاى، كنا، على ما أظن، قد استعدنا ولو بدرجة ضئيلة صيغة الحوار المتحضر، لكن فراقنا كان فاترًا بصورة واضحة، ومنذئذٍ لم أر مورجان ثانيةً. أما بالنسبة للمفتش كانج، كانت نيتى بعد تلك الليلة أن أسعى لمقابلته دون تأجيل، لكن لسببٍ ما - ربما خشيت أن يكون كلام مورجان حقيقيًا - لم أضع

هذا على رأس أولوياتى - على الأقل، لم أحاول حتى أمس، عندما قادنى ألبحث فى أرشيف الشرطة إلى اسم المفتش مورجان ثانيةً بطريقة غاية فى الدرامية.

هذا الصباح، عندما ذكرت المفتش كانج، مصادفةً، وبصورة عرضية على ماكدونالد، لم يكن رد فعله مشابهًا لرد فعل مورجان فى تلك الليلة، وأشك أن هذا سبب آخر لضجرى من ماكدونالد عندما التقينا فى مكتبه الساكن المطل على الأراضى المحيطة بالقنصلية. ومع ذلك، بقليلٍ من الجهد، أعرف أنه باستطاعتى الاستفادة من هذا قدر الإمكان. خطئى الجوهرى هذا الصباح هو أننى سمحت له باستفزازى للخروج عن أعصابى. عند نقطةٍ ما، أخاف، بأننى فعليًا قد صرخت فيه.

"مستر ماكدونالد، ألا يكفى ببساطة أن تترك الأمور لما تصر على تسميته بـ "قدراتى"! أنا لا أملك مثل هذه "القدرات"! أنا مجرد بشر، وبإمكانى فقط أن أحقق أهدافى لو تلقيت أشكال الدعم الأساسية التى تسمح لى بالمضى قدمًا فى عملى. لم أطلب منك الكثير، يا سيدى. تقريبًا لم أطلب منك أى شىء على الإطلاق. وما طلبته، قد وضحته تمامًا لك. أتمنى أن تتحدث إلى هذا المخبر الشيوعى. فقط تحدث إليه، حوار قصير يكفى. لقد وضعت هذا الطلب أمامك فى أوضح صورة. أنا فاشل فى فهم السبب الذى لأجله تأخرت الترتيبات. لماذا هذا يا سيدى؟ ما الذى يعوقك؟"

"لكن انظر هنا، أيها الرفيق القديم، هذا ليس من اختصاص مكتبى. إذا ما أردت، سأحضر مفوض الشرطة لمقابلتك. حتى مع

ذلك، إذا أردت، فأنا لست واثقًا تمامًا أنك سوف تذهب إلى أى شىء مفيد. ليس هم من لديهم الثعبان الأصفر..."

"أنا أقدر تمامًا أن الحكومة الصينية هى من تضع الثعبان الأصفر تحت الحماية. ولهذا السبب أتيتك ولم أذهب إلى الشرطة. أنا أعى تمامًا أنه فى أمر على هذا النحو من الأهمية، لا يكون للشرطة أى علاقة."

"سأرى ماذا أستطيع أن أفعل، أيها الفتى العجوز. لكن لابد أن تفهم، هذه ليست مستعمرة بريطانية. لا يمكننا أن نوجه أوامر للصينيين فيها. لكننى سأتحدث إلى شخصٍ ما فى الموقع المناسب. رغم ذلك لا تراهن على شىء يحدث بسرعة كبيرة. تشيانج كايشيك كان لديه مخبرون من قبل، لكن لم يكن لأحدهم مثل هذه المعرفة الواسعة بشبكة الحُمر. تشيانج يود لو يخسر بضع معارك مع اليابانيين قبل أن يسمح لأى شىء أن يحدث لفتى الثعبان الأصفر هذا. تعرف، بقدر اهتمام تشيانج فإن العدو الحقيقى ليس هو اليابانيين بل الحُمر."

تنهدت بصوت عال. "مستر ماكدونالد، أنا لا يعنينى تشيانج كاى – شيك أو أولوياته. أنا الآن تحديدًا، بصدد قضية ينبغى حل لغزها، وأريدك أن تفعل كل ما فى مستطاعك لتأمين مقابلة لى مع هذا المخبر. أنا أضع هذا الأمر أمامك شخصيًا، وإذا ما ضاعت جهودى هباءً لأن هذا الطلب البسيط لم يُنفّذ، فلن أتردد فى أن أعلن أنك السبب لأننى أتيتك..."

"الآن حقًا، أيها الصديق العزيز، من فضلك! لست بحاجة أن تسلك هذا المسلك معى! لست بحاجة على الإطلاق! جميعنا أصدقاء هنا. كلنا نتمنى لك النجاح. صدقنى، جميعنا نتمنى ذلك. انظر هنا، أنا قلت إننى سأفعل كل ما فى وسعى. سأتحدث إلى بعض الناس، أنت تعرف، الناس فى هذا النوع من المهن. سأتحدث إليهم، سأخبرهم بمدى ما تشعر به. لكن عليك أن تفهم، ليس لدينا الكثير مما نستطيع عمله مع الصينيين." ثم مال للأمام وقال بحسن ظن بالناس: "أنت تعرف، ربما تجرب الفرنسيين. فلديهم الكثير من التفاهمات الصغيرة مع تشيانج. تعرف!، نوع من التفاهمات غير الرسمية. جانب من الأشياء لا نقترب منه. ها هم الفرنسيون لك."

ربما كان اقتراح ماكدونالد ينطوى على شىء. ربما أتمكن فى الواقع من الحصول على بعض المساعدات من السلطات الفرنسية. لكن بصراحة، منذ هذا الصباح، لم أضع هذا الاختيار فى الاعتبار. من الواضح لى أن ماكدونالد، ولأسباب لم تزل بعد غير واضحة بالنسبة لى، يراوغ، وساعة يدرك الأهمية المُلحة لتأمين طلبى، فسوف يبذل كل ما هو ضرورى. لسوء الحظ، من المحتمل أن أكون قد تعاملت مع مقابلة هذا الصباح بطريقة تنقصها الكفاءة وسوف ينبغى على أن أتحدث إليه بصراحة فى وقت آخر. الأمر لا يمثل إمكانية أتطلع إليها، لكننى على الأقل فى المرة القادمة سأدخل له بطريقة مختلفة، ولن يجد من السهل أن يردنى صفر اليدين.

الكتاب السادس

فندق كاثاي، شنغهاي،

٢٠ أكتوبر ١٩٣٧

عرفت أننا كنا فى مكانٍ ما داخل منطقة الامتياز الفرنسى، على مبعدةٍ من الميناء، لو لم أكن قد ضللت الطريق. كان السائق يقود بنا السيارة عبر أزقة صغيرة لا تناسب أى سيارة، وكان يُطْلِق نفير السيارة بين الحين والآخر كثيرًا كى يتنحى المشاة عن طريقه، وبدأت أشعر بأننى مثير للسخرية كأنما أشبه رجلاً أدخل حصاناً إلى منزله. غير أن السيارة توقفت أخيرًا، وأشار السائق إلى مدخل **حانة بهجة الصباح، وهو يفتح الباب.**

أخذنى إلى الداخل رجل صينى نحيل ذو عين واحدة. الذى اجتاحنى اليوم هو شعور عام بأسقف خفيضة، وخشب قاتم ورطب والرائحة المعتادة لمياة البواليع. غير أن المُنْشَأة كانت نظيفة بما فيه الكفاية؛ فى لحظةٍ ما تقدمنا حول ثلاث نساء مُسِنَات جاثيات على ركبهن، ينظفن ألواح الأرضية باجتهاد وإتقان. فى مكان ما قرب مؤخرة المبنى، وصلنا إلى كوريدور به صف طويل من الأبواب. ذكرنى المشهد بالإسطبلات أو حتى السجن، غير أن هذه المهاجع، قد اتضح أنها، كانت مسكونة بنزلاء الفندق الصغير. طرق الرجل الأعور أحد الأبواب، ثم فتحه قبل أن يأتيه أى رد من الداخل.

تقدمت إلى داخل مساحة صغيرة ضيقة. لم تكن هناك أية نوافذ، لكن الجدران الداخلية لم تكن ترتفع لملامسة السقف – مسافة قدم أو أكثر كانت عبارة عن شبكة من السلك – مما يسمح بنفاذ النور

والهواء إلى الداخل. رغم كل هذا، كان المهجع فاسد الهواء ومظلما، وحتى حينما تكون شمس الظهيرة ساطعة بالخارج، فإنها تؤدى فقط إلى انعكاس بعض الأشكال الغريبة على الأرض عبر السلك. كان الجسد الراقد على السرير يبدو نائمًا، لكنه حرك ساقيه عندما أخذت موقعًا فى فجوة بين السرير والحائط. غمغم الرجل الأعور بشىء ما وتلاشى، وانغلق الباب خلفه.

كان مفتش الشرطة السابق، كونجٍ، يبدو أكبر قليلا من هيكل عظمى. كان جلد وجهه ورقبته متغضنا وتعتريه مساحات من البقع. فمه كان مفتوحًا بوهن وارتخاء؛ ساق نحيلة مثل عصاه كانت تومئ من أسفل البطانية الخشنة، رغم أننى رأيت نصفه العلوى فى قميص تحتانى أبيض. فى البداية لم يبذل أى محاولة للوقوف، وبدا فقط وعلى نحوٍ غير واضح أنه يسجل حضورى. ولم يبدُ مباشرةً تحت تأثير الأفيون أو الكحول، وأخيرًا، عندما استأنفت التعريف بنفسى والغرض من المجىء لمقابلته، أصبح أكثر تماسكًا، وبدأ يُظْهِر علامات الاحترام.

"معذرةً، يا سيدى" – عندما تحدث باللغة الإنجليزية، أتت لغته لبقة وسلسة بما فيه الكفاية – "ليس لدى شاى." وبدأ يغمغم بكلمات بلغة الماندرين، وهو يهز ساقيه بعشوائية تحت البطانية. ثم بدا وقد تذكر نفسه ثانيةً وقال: "من فضلك، سامحنى. فأنا لست على ما يُرام. لكننى سوف أستعيد صحتى الجيدة على الفور."

"آمل ذلك بمنتهى الصدق،" قلت. "مع ذلك، فقد كنت أحد أفضل أفراد البوليس السرى الذين خدموا فى الـ SMP."

"حقًا؟ رائع منك أن تقول هذا، يا سيدى. نعم، ربما كنت ضابطًا جيدًا ذات يوم." بجهد مفاجئ، عدل من وضعه، وأنزل قدمه الحافية بحيوية على الأرض. ربما بدافع التواضع أو الاحتشام، وربما بسبب شعوره بالبرد، ترك البطانية تلتف حول منتصف جسده. "لكن في النهاية،" استأنف كلامه، "هذه المدينة تهزمك. كل إنسان يخدع صديقه. يحدث أن تثق في شخصٍ ما، وتكتشف أنه عضو في واحدة من العصابات. الحكومة عبارة عن مجموعة من العصابات أيضًا. كيف يمكن لمخبر سرى أن يقوم بواجبه في بلدٍ كهذه؟ بإمكانى إحضار سيجارة لك. هل ترغب في تدخين سيجارة؟"

"لا، أشكرك. يا سيدى، اسمح لى أن أقول هذا. عندما كنت ولدًا صغيرًا، كنت أتتبع أعمالك البطولية بإعجاب شديد."

"عندما كنت ولدًا صغيرًا؟"

"نعم، يا سيدى. الولد الموجود فى الباب المجاور وأنا" – أطلقت ضحكة قصيرة – "كنت نعتاد اللعب بتمثيل دورك. لقد كنت... لقد كنت بطلنا."

"أهكذا؟" هز الرجل العجوز رأسه وابتسم. "أهكذا حقًا. حسنًا إذًا، أنا فى غاية الأسف لأننى لا أستطيع تقديم أى شىء لك. لا شاى، ولا سجائر."

"بالفعل، يا سيدى، بإمكانك تقديم ما هو أكثر أهمية لى. لقد أتيتك اليوم لاعتقادى أنك قادر على تزويدى بمعلومات موثوق بها. فى ربيع العام ١٩١٥، كانت هناك قضية قمت أنت بالتحقيق فيها، حادثة

رمى بالرصاص فى مطعم اسمه وو تشينج لوو فى طريق فوتشـــو. ثلاثة سقطوا قتلى وأصيب عدد كبير بجروح. لقد قمت بالقبض علـــى رجلين من الضالعين في الحادث. القضية يشار إليها بحادثة وو تشينج لوو في سجلات الشرطة. أعرف أنه قد مرت سنوات عديـــدات الآن على القضية، لكن أيها المفتش كانج، أنا أسأل إذا ما كنت تذكر هـــذه القضية؟"

خلفى، ربما من غرفتين أو ثلاث، سمعت صوت سعال شـــديد. ظل المفتش كانج مستغرقًا في التفكير، ثم قال: "أذكر قضية وو تشينج لوو تلك جيدًا. لقد كانت إحدى اللحظات المُرضية جدًا فـــى حيـــاتى. أحيانًا أمعن التفكير فى تلك القضية، حتى فى هذه الأيام، وأنا أستلقى هنا فى سريرى هذا."

"إذًا، ربما ستتذكر أنك حققت مع أحد المشتبه فيهم وقررت فيمـــا بعد بأنه لا علاقة له بحادث إطلاق النار. وفقًا للسجلات، كـــان اســـم الرجل، تشيانج وى. لقد حققت معه بخصوص قضية وو تشينج لوو، لكنه قدم اعترافات لا علاقة لها مطلقًا بالقضية."

رغم أن جسمه ظل كجوال مترهل من العظام، فإن عينى المخبر السرى العجوز قد أصبحتا الآن مفعمتان بالحياة. "هذا صحيح" قـــال. "لم تكن له أية علاقة بحادث إطلاق النار. لكنه كان خائفًا وبدأ يتكلم. اعترف بكل شيء. اعترف، أذكر جيدًا، بأنه كان عضوًا فى عصابة اختطاف قبل عدة سنوات مضت."

"رائع، يا سيدى! هذا بالضبط ما ورد فى السجلات. الآن، أيها المفتش كانج، هذا غاية فى الأهمية. هذا الرجل أعطاك بعض العناوين. عناوين البيوت التى اعتادت العصابة أن تضع فيها أسراها."

كان المفتش كانج يحدق فى الذباب الذى كان يطن حول شبكة الأسلاك قرب السقف، لكن عيناه الآن استدارتا ببطء إلى حيث أجلس. "الأمر هكذا،" قال بهدوء. "لكن، يا مستر بانكس، لقد فتشنا كل هذه البيوت بعناية. وعمليات الاختطاف التى تحدث عنها كانت قبل سنوات فى الماضى. لم نجد شيئًا يثير الشكوك فى هذه البيوت."

"أعلم، أيها المفتش كانج، أنك قد فعلت كل ما يمليه عليك واجبك بمنتهى الدقة. لكنك بالطبع، كنت تقوم بالتحقيق فى حادث إطلاق النار. ومن الطبيعى بحال أنك لم تضع طاقتك فى هذا الجانب من المسألة. ما أفترضه هو أن هناك أفرادًا تتمتع بالقوة ربما تكون أقدمت على تفتيش أحد هذه البيوت، ومن المحتمل أنك لم تصر على ذلك."

عاد المخبر السرى العجوز إلى الاستغراق فى أفكاره ثانيةً. وأخيرًا قال: "هناك منزل وحيد. أتذكر الآن. أتانى رجالى بتقارير. وأذكر أنها أزعجتنى فى وقتها. منزل واحد أخير، بلا تقرير. لقد تم منع رجالى بطريقةٍ ما. نعم، أذكر أننى تجولت حوله. أنف رجل البوليس السرى. ستعرف ما أقصده، يا سيدى."

"وهذا المنزل الباقى. لم تر أبدًا تقريرًا بخصوصه."

"بالضبط، يا سيدى. لكن كما تقول، لم يكن الأمر ذا أولوية كبيرة عندى. بالطبع تعرف أن قضية وو تشينج لوو كانت قضية ضخمة. لقد تسببت فى إثارة غضب عام وكانت انتهاكًا سافرًا للقانون. واستمرت عملية البحث عن القتلة لأسابيع."

"وأظن أن اثنين من زملاء المهنة المعروفين قد أخفقوا فى كشف غموضها."

ابتسم المفتش كانج. "كما قلت، لقد كانت إحدى اللحظات المُرضية لى فى تاريخى المهنى. لقد أتيت للتحقيق فى القضية حين أخفق الآخرون. وتمكنت خلال بضعة أيام من القبض على القتلة."

"لقد اطلعت على سجلات القضية. وأحسست بعميق الإعجاب تجاهك."

لكن الرجل العجوز يحدق فى الآن بإمعان. فى النهاية قال ببطء: "ذلك المنزل. المنزل الذى فشل رجالى فى الذهاب إليه. ذلك المنزل. أنت تقصد......؟"

"نعم. أعتقد أنه المكان الذى يحبسون فيه والدى."

"فهمت." صمت لبرهةٍ، ليستوعب هذه الفكرة الهائلة.

"ليس هناك ادعاء بالإهمال من جانبك،" قلت. "دعنى أؤكد لك ثانيةً، لقد قرأت التقارير بكثير من الإعجاب. لقد أخفق رجالك فى الدخول إلى ذلك المنزل لأن هناك رجالاً من المراتب العليا فى قوة الشرطة قد اعترضتهم. رجال نعرف الآن أنهم كانوا ضالعين فى منظمات إجرامية."

بدأ السعال يعلو ثانيةً. وظل المفتش كانج صامتًا للحظة أخرى، ثم رمقنى مرةً أخرى وقال ببطء: "لقد أتيت لتسألنى. لقد أتيت تسأل إذا ما كان بمستطاعى مساعدتك فى معرفة هذا المنزل."

"لسوء الحظ، الأرشيف في حالة من الفوضى العارمة. من المثير للخزى استيعاب الكيفية التى تدار بها الأمور فى هذه المدينة. ربما تكون قد وُضِعَت الملفات فى غير أماكنها، وربما يكون بعضها قد فُقِد تمامًا. فى النهاية، قررت أنه من الأفضل المجىء إلى هنا لأجلك. لأسألك، رغم أنه من غير المحتمل، إذا ما كنت تذكر شيئًا، أى شىء عن ذلك البيت."

"ذلك المنزل. دعنى أحاول أن أتذكر." أغلق الرجل العجوز عينيه للتركيز، لكنه بعد فترة، هز رأسه. "حادثة وو تشينج لوو. لقد مر عليها أكثر من عشرين عامًا. معذرةً، ليس فى ذاكرتى أى شىء عن هذا المنزل."

"من فضلك حاول أن تتذكر أى شىء، يا سيدى. ألا تذكر حتى اسم المنطقة الكائن بها؟ إذا ما كان، على سبيل المثال، فى المستعمرة الدولية؟"

فكر للحظةٍ أخرى، ثم هز رأسه ثانيةً. "لقد مر على الأمر وقتٌ طويل. ورأسى لا تعمل طبيعية. أحيانًا لا أتذكر شيئًا، ولا حتى اليوم الماضى. لكننى سأحاول أن أتذكر. ربما غدًا، ربما بعد غد، سأستيقظ وأتذكر شيئًا ما. مستر بانكس، أنا فى غاية الأسف. لكن الآن، لا، لا أذكر أى شىء."

كان الوقت مساءً عندما رجعت إلى المستعمرة الدولية. أعتقد أننى قضيت ساعة أو أكثر فى غرفتى، أقلب فى الأوراق مرةً ثانية، محاولاً أن ألقى خلف ظهرى خيبة الأمل التى لحقت بى جراء لقائى بالمفتش العجوز. لم أنزل لتناول العشاء إلا بعد أن تجاوزت عقارب الساعة الثامنة، عندما جلست على طاولتى المعتادة فى الركن فى غرفة الطعام الفخمة تلك. أذكر أن شهيتى للطعام كانت فاترة ذلك المساء، وكنت على وشك التنازل عن الطبق الرئيسى وأعود إلى عملى عندما حمل النادل إلىّ رسالة من سارة.

إنها معى الآن هنا. ليست سوى كتابة متعجلة على ورقة بلا سطور، الحافة العليا منها ممزقة. أشك فى أنها قد أمعنت التفكير فى الكلمات؛ إنها تطلب منى ببساطة أن ألتقى بها على الفور فى منتصف المسافة بين الطابق الثالث والرابع للفندق. الآن، وبالنظر فى الورقة ثانيةً بدت علاقتها بذلك الحدث العرضى البسيط فى بيت مستر تونى كيسويك واضحة تمامًا، بعبارةٍ أخرى، من المحتمل ألا تكون سارة هى التى كتبت هذه الورقة على الإطلاق لولا ما حدث بيننا وقتئذٍ. رغم هذا فمن الغريب جدًا، عندما قدمها النادل لى فى البداية، أخفقت فى استنتاج مثل هذه العلاقة، وجلست لبضع لحظات، وجلست مرتبكًا بسبب استدعائها لى بمثل هذه الطريقة.

فى هذه اللحظة ينبغى هنا أن أقول إننى قد هرعت إليها ثلاث مرات أو يزيد منذ الليلة التى التقيت بها فى لاكى تشانس هاوس. فى مرتين منها، رأينا بعضنا البعض بسرعة خاطفة فى وجود آخرين، وما دار بيننا من حوار كان قليلاً للغاية. فى المرة الثالثة أيضًا – ليلة

العشاء فى منزل مستر كيسويك، رئيس جاردين ماتيسون – أعتقد أننا كنا فى مكان عام أيضًا، ولم نتبادل حتى ولو كلمة واحدة؛ مع ذلك، ومع الإدراك البعدى للأمور، كان لقائى معها هناك من الممكن أن يعتبر بدرجةٍ ما نقطة تحول مهمة.

فى ذلك المساء وصلت متأخرًا قليلا، وعندما ظهرت فى الجَدل الشاسع فى بيت مستر كيسويك، كان هناك أكثر من ستين ضيفًا قد جلسوا فى أماكنهم على الطاولات العديدات التى وُضِعت بين نباتات الزينة وسيقان النباتات المتدلية. لمحت سارة فى الجانب القصى من الغرفة – لم يكن السير سيسيل موجودًا – لكننى رأيت أنها كانت أيضًا تبحث عن مقعدها للجلوس، ولذا لم أقم بأى محاولة للاقتراب منها.

بمجرد تقديم الحلوى بعد الطعام – وحتى قبل أن يأخذ الضيوف وقتًا كافيًا للانتهاء من طبق الحلوى – وقبل أن تتغير خريطة الجلوس الأصلية للضيوف ويتخالطوا مع بعضهم البعض بحرية. بدا أن هذه إحدى عادات شنغهاى فى مثل هذه المناسبات. الآن ليس ثم من شك، أنه قد رسخ فى عقلى مع الوصول لهذه النقطة، كنت سأذهب على الفور إلى سارة وأتبادل معها بضع كلمات. لكن عندما ظهرت الحلوى أخيرًا، لم أستطع الفكاك من المرأة التى كانت تجلس إلى جوارى، والتى كانت تريد أن توضح بالتفصيل الموقف السياسى فى الهند الصينية. ثم لم ألبث أن تخلصت منها حتى وقف المضيف ليعلن أن الوقت قد حان "لتبادل الأماكن". ومضى فى تقديم مؤدى الفقرة الأولى – وكانت سيدة رشيقة القوام، ظهرت على طاولة خلفى،

ومضت إلى المقدمة وبدأت فى إلقاء قصيدة ممتعة، من الواضح أنها من إبداعها.

تبعها رجل قام منفردًا بغناء بضعة مقاطع من جيلبرت وسوليفان،(*) وحدست أن معظم المحيطين بى قد أتوا وهم على أتم الاستعداد لتقديم فقرة. تقدم الضيوف، الواحد تلو الآخر، لأداء فقرته، أحيانًا الفقرة كانت تضم ضيفين أو ثلاثة؛ كانت هناك قصائد غزلية، فقرات مسرحية كوميدية مكررة. كان الإيقاع عبثيًا بصورة متكررة، وأحيانًا بذيئًا أيضًا.

بعدئذٍ شق رجل ضخم أحمر الوجه - عرفت فيما بعد أنه مدير بنك شنغهاى وهونج كونج - طريقه بين الناس وأخذ مكانه فى المقدمة مرتديًا نوعًا من التُنْك فوق معطف العشاء، وبدأ يقرأ من ورقة ملفوفة هاجيًا جوانب عديدة للحياة فى شنغهاى. كانت كل الإشارات تقريبًا - للأفراد، لتجهيزات الحمامات فى بعض النوادى، للحوادث التى وقعت فى مطاردات الأرانب وكلاب الصيد مؤخرًا - مجهولة بالنسبة لى، لكن وبمنتهى السرعة ضجت كل جنبات الغرفة بالضحك. عند هذه اللحظة نظرت حولى بحثًا عن سارة، ورأيتها تجلس بعيدًا فى ركن بين مجموعة من السيدات، تضحك من أعماقها مثل الجميع. السيدة الجالسة بجانبها كانت تقريبًا قد أتت على كمية معقولة من الشراب، فكانت بالتبعية تصيح بصخب شديد.

(*) جيلبرت وسوليفان إشارة إلى و س جيلبرت W S Gilbert (١٨٤٢- ١٩٠٠) وآرثر سوليفان Arthur Solivan (١٨٣٦- ١٩١١) العصر الفيكتورى وقد كتبا معًا أربعة عشر عملاً كوميديًا للأوبرا. (المترجم)

كانت فقرة الرجل ذى الوجه الأحمر قد استمرت ربما لخمس دقائق – وخلالها فقط ارتفع مستوى المرح الصاخب – عندما ألقى بوابل مؤثر من ثلاثة أو أربعة أسطر جعلت الغرفة فعليًا تضج بالعواء. عند هذه اللحظة صادف أن لمحت سارة مرةً أخرى. فى البداية ظهر المشهد على حاله كما كان من قبل: سارة تضحك بلا توقف بين رفيقاتها من السيدات. لو أننى كنت قد واصلت مشاهدتها لبضع لحظات أخرى، كان هذا فقط لاندهاشى من أنها بعد أقل من عام، أصبحت بالفعل تتمتع بألفة كبيرة مع مجتمع شنغهاى لدرجة أن هذه النكات الغامضة استطاعت أن تخضعها لهذه الحالة. وحينئذٍ، وبينما كنت أرمقها بنظرتى، ممعنًا التفكير فى هذه النقطة، أدركت بغتةً أنها لم تكن تضحك على الإطلاق؛ إنها لم تكن، كما ظننت، تكفكف دموع الضحك، لكنها كانت تبكى بالفعل. للحظة واصلت النظر إليها، غير قادر تمامًا أن أصدق عينى. ثم، مع مواصلة الضجيج، نهضت بهدوء وتحركت بين الناس. بعد قليل من المناورات، وجدت نفسى أقف خلفها، والآن ليس هناك من شك. فى مغبة هذا المرح، كانت سارة تبكى غير قادرةٍ على التحكم فى نفسها.

لقد اقتربت نحوها من الخلف لذلك عندما عرضت عليها منديلاً، أجفلت. ثم نظرت لأعلى إلى، ظلت تحدق فى – ربما لحوالى أربع أو خمس ثوان – بنظرة ثاقبة امتزج فيها الامتنان بما يشبه الاستفسار. ملت برأسى لأقرأ نظرتها بصورة أوضح، لكنها حينئذٍ كانت قد أخذت المنديل واستدارت لتستأنف مشاهدة الرجل ذى الوجه الأحمر. وعندما انخرطت القاعة فى موجة الضحك التالية، أطلقت

سارة أيضًا ضحكة وارفة بتظاهرة رغبة مؤثرة، حتى وهى تضغط بالمنديل قريبًا من عينيها.

حينئذٍ أخذت طريقى إلى مقعدى وأنا واعٍ تمامًا بأننى ربما ألفت انتباهًا غير مرغوب فيه إليها، وفى الحقيقة، لم أقترب منها فى تلك الليلة إلا لأتبادل معها كلمات الوداع عند مدخل القاعة مع الضيوف الكثيرين الذين كانوا يودعون بعضهم البعض.

لكننى أعتقد، أننى بعد مرور بضعة أيام، قد سيطر على ظنٌ مبهم بأننى سمعت منها شيئًا بخصوص ما قد حدث. آنذاك كان استغراقى فى تحقيقاتى الذى كان حين وصلتنى هذه الرسالة فى قاعة الطعام فى فندق كاثاى قد بلغ مدى جعلنى أخفق فى استنباط أى رابط مع الحدث السابق، وأخذت طريقى إلى السلم الكبير، متسائلاً لماذا تود رؤيتى.

ما وصفته سارة بأنه مهبط الدرج، كان فى الحقيقة عبارة عن منطقة ضخمة بها الكثير من المقاعد الفخمة، وطاولات موزعة هنا وهناك ونخلات زينة فى مزهريات كبيرة. فى الصباح، على وجه التحديد، مع النوافذ المفتوحة ومراوح السقف الدوارة، تخيلت أنه مكان جميل بما يكفى لنزيل الفندق كى يقرأ الصحف ويتناول بعض القهوة. رغم أنه فى الليل يصمه الفراغ والهجران؛ ربما بسبب النقص فى الإضاءة، فلم تكن هناك إضاءة غير تلك القادمة من السلم، وما يتسلل للداخل عبر النافذة من بركة الماء أسفلها. فى ذلك المساء بالذات، كانت المنطقة خالية من الناس تمامًا باستثناء سارة، التى كان خيالها ينعكس على الألواح الزجاجية الضخمة، وهى تحدق للخارج

فى السماء المعتمة. وبينما كنت أشق طريقى باتجاهها، تعثـرت فـى أحد الكراسى، فجعلها الصوت تنتبه وتلتفت.

"ظننت أن هناك قمرًا،" قالت. "لكن ليس ثم من قمر. ليس هنـاك حتى قذائف تُطلق الليلة."

"نعم. الجو يتسم بالهدوء فى هذه الليالى الأخيرة."

"سيسيل يقول إن الجنود من الجبهتين قد أعياهم الإجهاد الآن."

"أظن هذا."

"كريستوفر، تعال هنا. كل شىء على ما يُرام. لن أفعل لك شيئًا. لكن لابد أن نتحدث بهدوء أكثر."

اقتربت حتى أصبحت إلى جوارها. كنت أرى آنذاك بركة الماء أسفل النافذة، وخط الضوء يحدد واجهة الماء للمتنزه.

"لقد رتبت كل شىء،" قالت بهدوء. "لم يكن الأمر سهلاً، لكن كل شىء قد تم ترتيبه الآن."

"ماذا قد فعلت بالضبط؟"

"كل شىء. الأوراق، القوارب، كل شىء. لا يمكننى البقاء هنـا أكثر من هذا. لقد بذلت قصارى جهدى، والآن أن مُتعَبة جـدًا. لقـد عزمت على الرحيل."

"فهمت. وسيسيل. هل يعرف بنواياك؟"

"لن يكون الأمر مفاجئًا له تمامًا. لكننى أعتقد أنه سيكون صدمة، سيان. هل *أنت* مصدوم، يا كريستوفر؟"

"لا، ليس بالضبط. لقد استطعت أن أخمن حدوث هذا من واقع ملاحظاتى. قبل شروعك فى هذه الخطوة العنيفة المتطرفة، هل أنت واثقة من عدم.....؟"

"أوه، لقد أمعنت التفكير فى كل شىء يمكن التفكير فيه. لا جدوى. حتى لو كانت لدى سيسيل الرغبة فى الرجوع إلى إنجلترا غدًا. إضافةً إلى أنه قد خسر الكثير من أمواله هنا. وقد قرر ألا يعود إلا بعد استرداده كاملاً."

"أرى أن هذه الرحلة إلى هنا كانت مخيبة لآمالك إلى حدٍ ما. معذرةً."

"ليست الرحلة فقط إلى هنا على وجه التحديد." وأطلقت ضحكة، ثم هدأت. بعد لحظة قالت: "لقد حاولت أن أحسب سيسيل. حاولت بمنتهى القوة. هو ليس رجلاً سيئًا. ربما تظن أنه هكذا، خاصةً بالهيئة التى رأيته عليها هنا. لكنه لم يكن هكذا دومًا. وأدركت أن لحالته هذه علاقة كبيرة بى. ما يحتاجه فى هذه المرحلة من حياته هو فترة راحة جيدة. لكننى أتيت فأحس أنه لابد وأن يبذل مجهودًا أكبر قليلا. تلك كانت غلطتى. عندما خرجنا للمجىء إلى هنا، حاول فى البداية، حاول بكل ما فى وسعه. لكن الأمر كان فوق احتماله، وهذا ما حطمه. ربما حين أرحل، ربما يتمكن ثانيةً من استعادة تماسكه."

"لكن إلى أين ستذهبين؟ هل ستعودين إلى إنجلترا؟"

"حتى الآن، ليس معى من المال ما يكفى للعودة. سأتجه إلى ماكاو،(*) ثم بعد ذلك، سينبغى على أن أقرر. أى شىء يمكن أن

(*) ماكاو منطقة صغيرة تقع على السواحل الجنوبية للصين، تعتبر ماكاو جذابة=

يحدث حينئذٍ. في الواقـع، لهـذا السـبب أردت أن أتحـدث إليـك. كريستوفر، سأعترف، أنا أشعر بالفزع إلى حدٍ ما. لا أريد أن أذهـب إلى هناك وحدي. كنت أتساءل إذا ما كنت ستأتي معي."

"هل تقصدين أذهب معك إلى ماكاو؟ أذهب معك غدًا؟"

"نعم تذهب معي غدًا إلى ماكاو. بإمكاننا أن نقرر إلى أين نذهب فيما بعد. لو كنت تريد، بإمكاننا أن نتنقل حول بحر الصين الجنـوبي لفترة. أو بإمكاننا الذهاب إلى أمريكا الجنوبية، نهرب مثل اللصوص في الليل. أليس هذا ممتعًا؟"

أعتقد أنني اندهشت حين سمعتها تنطق بهذه الكلمات؛ لكـن مـا أذكره الآن، ويطغى على أي شيء آخر، هـو الشـعور الملمـوس بالراحة. في الواقع، لقد انتابني نوعٌ ما من الشعور بالدوار، الشـعور الذي يسببه الهواء المنعش والنور بعد الحبس لفترة طويلة في غرفـة معتمة. وكأن هذا الاقتراح الذي طرحته – الذي رغم تمام معرفتـي بأنها ألقت به بطريقةٍ مفاجئة – قد حمل معه سلطةً هائلة، شـيئًا مـا حمل نوعًا من التحلة لم أجرؤ أبدًا على تمنيه.

لكن لم يلبث هذا الإحساس أن يستبد بي، حتى اعتقدت أن جزءًا ما مني ينمو سريعًا منذرًا إياي بإمكانية أن يكون هذا اختبارًا ما مـن أي نوع قد وضعته لي. لأنني أذكر أنني عندما أجبتها أخيـرًا، كـان هذا لأقول:

=السائحين لوجود العديد من الكازينوهات فيها ولانتشار القمار وكونه قانونيا فيها.

"الصعوبة تكمن فى عملى هنا. لابد على الانتهاء من هنا أولاً. ومع كل هذا، فالعالم كله على شفا كارثة. كيف سيظن الناس بى بعد أن تركتهم جميعًا فى هذه المرحلة؟ إضافة إلى ذلك، كيف ستظنين *أنت* بى؟"

"أوه، يا كريستوفر، نحن نتشابه فى سوء الطوية. ينبغى علينا أن نكف عن التفكير بهذه الطريقة. وإلا فلن يتبق لنا شىء، فقط قدر أكثر مما حصدناه طيلة هذه السنوات. قدر أكبر من العزلة، أيام أكثر من حياتنا الفارغة إلى من كل الأشياء التى تخبرنا دومًا أننا بعد لم نحقق ما يكفى. لابد وأن نلقى بهذا خلف ظهورنا الآن. اترك عملك، يا كريستوفر. لقد أنفقت ما يكفى من عمرك فى هذا كله. لنهرب غدًا، دون أن نفقد يومًا واحدًا، لنرحل قبل أن يتأخر بنا الوقت."

"يتأخر بنا الوقت على ماذا، بالضبط؟"

"يتأخر بنا على.... أوه، لا أعرف. كل ما أعرفه هو أننى قد أضعت كل هذه السنوات بحثًا عن شىء ما، غنيمة ما أو تذكار كنت سأحصل عليه لو أننى بالفعل، بالفعل قد بذلت ما يكفى لأستحقه. لكننى لم أعد راغبةً فيه، أريد الآن شيئًا آخر، شيئًا دافئًا ينطوى على مأوى، أستطيع اللجوء إليه، بغض النظر عما أفعل، بغض النظر عن من أصبحت أنا. أريد شيئًا ما فقط يكون *هناك*، دائمًا، كسماء غدٍ. هذا ما أريده الآن، وأظن أنه هو ما تريده أنت أيضًا. لكن أوانه سيكون قد فات فورًا. سنصبح فى حالة من الجمود والصلابة بحيث يصبح من المستحيل أن نتغير. لو لم ننتهز فرصتنا الآن، فربما لا تتواتى أينا فرصة أخرى. كريستوفر، ماذا تفعل فى هذا النبات البائس؟"

في الواقع، لقد أدركت أننى كنت أقشر، بـذهن شـارد، الأوراق عن نخلة كانت تقف بجانبنا وألقى بها على السجادة.

"آسف" – وأطلقت ضحكة – "أنا مُدَمر إلى حدٍ ما." ثـم قلـت: "حتى لو كنت على صواب، فما تقولين به الآن، ليس سـهلاً علـى. لأنه، كما تفهمين، هناك جينيفير."

عندما قلت هذا، عاودتنى صورة واضحة لآخر مـرة تجاذبـت معى فيها أطراف الحديث، المرة التى ودعنا فيها بعضنا البعض فـى غرفة الجلوس فى مؤخرة مدرستها، وكانت شمس الربيع الإنجليـزى الرقيقة تلقى بأشعتها على الحوائط المبطنة بالسنديان. فجأةً، تـذكرت وجهها ثانيةً عندما استوعبت كلامى لأول مرة، الإيماءة المتفكرة التى ألقتنى بها وكأنها قد أمعنت التفكير فى الأمر، ثم تلك الكلمات المباغتة تمامًا التى ردت بها.

"تعرفين، هناك جينيفير،" قلت ثانيةً، مدركًا أننى كنـت موشـك على الانزلاق فى أحد أحـلام اليقظـة. "الآن حتـى، سـتكون فـى انتظارى."

"لكننى فكرت فى هذا. لقد فكرت فى هذا كله بمنتهى الدقة. أنـا أعرفها تمامًا وبإمكاننا أن نصبح أصدقاء. أكثر من أصدقاء. ثلاثتنـا، بإمكاننا أن نصبح، حسنًا، أسرة صغيرة، تمامًا مثل أى أسرةٍ أخـرى. لقد فكرت فى هذا، يا كريستوفر، من الممكن أن يكـون رائعًـا لنـا جميعًا. بإمكاننا أن نرسل لها، بمجرد أن نستقر على خطة. ربما حتى نرجع إلى أوربا، إلى إيطاليا، مثلاً، ويمكنها اللحاق بنا هناك. أعرف

أنه بإمكانى أن أصبح أمًا لها، يا كريستوفر، أنا واثقة من إمكانية هذا."

واصلت التفكير بهدوء للحظة، ثم قلت: "حسنًا جدًا."

"ماذا تعنى، يا كريستوفر، بـ "حسنًا جدًا"؟"

"أعنى، نعم، سأذهب معك، سأفعل ما قلت به. نعم، ربما تكونين على حق. جينيفير، نحن، كل شىء، ربما يتحول كل شىء إلى الأفضل."

بمجرد أن قلت هذا، استطعت أن أشعر بثقل هائل ينزاح عنى، كبير جدًا لدرجة أننى سمحت بسهولة لتنهيدة صاخبة أن تفارق صدرى. فى الوقت نفسه، اقتربت خطوة منى، ولثانية حدقت بعمق فى وجهى. فكرت حتى فى أنها ستقبلنى، لكنها بدت وكأنها تراجع نفسها فى اللحظة الأخيرة، وقالت بدلاً من القبلة:

"اسمع إذًا. استمع بعناية، لابد وأن نفعل هذا بطريقةٍ صحيحة. لا تجهز أكثر من حقيبة سفر واحدة. ولا تشحن أى صناديق للثياب. سيكون هناك بعض المال فى انتظارنا فى ماكاو، لذلك بإمكاننا شراء ما نحتاج إليه هناك. سوف أرسل شخصًا ما لإحضارك، سائق، غدًا، بعد الظهر فى تمام الثالثة والنصف. سأهتم بمسألة أن يكون شخصًا موثوقًا به، لكن فى الوقت نفسه، لا تخبره بأى شىء مادمت لست مضطرًا إلى ذلك. سيأتى بك إلى حيث أكون أنا فى انتظارك. كريستوفر، تبدو وكأنك تلقيت ضربة قوية على رأسك. لن تخذلنى، أليس كذلك؟"

"لا، لا. سأكون مستعدًا. غدًا فى الثالثة والنصف. لا عليك، سوف.... سأتبعك إلى أى مكان، إلى أى مكان فى العالم تريدين الذهاب إليه."

ربما كان ذلك ببساطة حافزًا؛ ربما ذكرى افتراقنا فى تلك الليلة التى حملنا فيها السير سيسيل من نادى القمار؛ على أية حال، لقد تقدمت للأمام بغتةً، وأمسكت إحدى يديها بكلتى يدى، وقبلتها. بعد ذلك، أعتقد أننى نظرت لأعلى، وكنت لم أزل أقبض على يدها، غير متيقنٍ من تصرفى التالى؛ من الممكن حتى أن أطلق قهقهة خرقاء. فى النهاية، حررت يدها برقةٍ ولمست خدى.

"شكرًا لك، يا كريستوفر،" قالت بهدوء. "شكرًا لك على الموافقة. كل شيء يبدو فجأة مختلفًا تمامًا. لكن من الأفضل أن تمضى الآن، قبل أن يرانا أحد هنا. هيا، هيا انطلق."

في تلك الليلة ذهبت إلى السرير بذهن مزدحم بالأفكار، غير أنني استيقظت في الصباح التالي بحالة مهيمنة من الهدوء والسكينة. وكأنني تخلصت من حملٍ ثقيل، وعندما، وأنا أرتدي ملابسي، فكرت ثانيةً في موقفي الجديد، أدركت أنني مُثار إلى حدٍ ما.

كثير من أحداث ذلك الصباح قد أصبحت غامضة في ذهني. ما أذكره هو أنني قد استبدت بي فكرة أن أكمل، في الوقت الذي تبقى لي، أكبر عدد من المهام التي خططت لإنجازها في الأيام التالية؛ أما أن أفعل عكس هذا فسوف أكون قد تنازلت عن الحد الأدنى لما يمليه على ضميري. إن اللامنطقية الواضحة في اتخاذ هذا الموقف قد أخفقت في إزعاجي، وبعد الإفطار، تحركت نحو عملي بكثير من الإلحاح، وأنا أندفع صعودًا وهبوطًا على السلالم وأستحث السائقين للإسراع في شوارع المدينة المزدحمة. واليوم على الرغم من أن الأمر لا يعنيني كثيرًا، فإنني ينبغي أن أقول إنني زهوت كثيرًا لاستطاعتي الجلوس إلى الغداء بعد الثانية دون أن أفكر في أن ما تحركت لإنجازه قليل أم كثير.

مع ذلك، وفي الوقت نفسه، عندما استعدت ذكرى ذلك اليوم، يهيمن علي انطباعٌ بأنني ظللت على وجه التحديد منفصلاً عن نشاطاتي. بينما كنت أهرول حول المستعمرة الدولية وأتحدث مع الكثيرين من أبرز المواطنين في المدينة، ثمة جانب مني كان بالفعل

يسخر من الطريقة الجادة التى كانوا يحاولون بها الإجابة عن أسئلتى، وعلى الطريقة المتعاطفة التى كانوا يحـاولون بهـا مسـاعدتى. لأن الحقيقة هى كلما أمضيت فى شنغهاى وقتًا أطول، كلما ازداد تقـززى ممن يطلقون عليهم قادة المجتمع. فكل يوم تقريبًا من أيـام تحريـاتى كان يكشف عن جانب جديد من الإهمال، والفساد أو الانحطاط إلـى وضعٍ أسوأ مع مرور السنوات. ومع ذلك طيلة الأيام منذ وصولى، لم يحدث أن صادفت شعورًا صادقًا بالخزى، أو اعترافًا وحيدًا بأنه لولا المراوغات، وقصر النظر، والتضليل المباشر الذى يمارسـه هـؤلاء القائمون على الأمور، لما تدنى الوضع إلى هذا المستوى من التردى والتأزم. فى وقتٍ معين من ذلك الصباح، وجدت نفسـى فـى نـادى شنغهاى، للالتقاء بثلاثة أعضاء بارزين من "النخبـة". واصـطدمت مجددًا بخيلائهم الأجوف، وإنكارهم المستمر لجدارتهم باللوم فى الأمر كله، أحسست بالسعادة للخلاص بحياتى من هـؤلاء النـاس نهائيًـا. حقيقةً، فى مثل هذه اللحظات، شعرت بتمام اليقين أننى اتخذت القرار السليم؛ لأن الافتراض الذى يجتمع عليه الجميع بالفعل هنا - بأن حل الأزمة يعتبر مسئوليتى أنا وحدى - لا يعتبر فقط عديم الأساس، لكنه جدير أيضًا بأعلى مشاعر الازدراء. تصورت الذهول الـذى سـيبدو على وجوه الأشخاص نفسهم عندما يسمعون بأخبار رحيلى - السخط والهلع اللذان سيتبعان هذا بسرعة - وسوف أقر بأن هـذه الأفكـار منحتنى الكثير من الرضا.

بعدئذٍ، وبينما كنت أستأنف تناول الغداء، وجدت نفسى أفكر فـى لقائى الأخير بجينيفير فى تلك العصرية المشمسة فى مدرستها: ونحن

فى غرفة المثاليين، نجلس بارتياك فى مقاعدنا الفخمة، والشمس تلعب على ألواح السنديان التى تكسو الحائط، والعشب المنحدر إلى البحيرة يلوح فى النوافذ خلفها. كانت قد استمعت صامتةً وأنا أشرح، بكل ما أوتيت من قدرة ومهارة، أهمية المهمة التى أنا بصددها فى شنغهاى. لقد توقفت عند عدة نقاط، منتظرًا إياها أن تطرح أسئلة، أو على الأقل أن تعلق. لكنها فى كل مرة كانت تومئ بجدية، وتنتظرنى كى أكمل. فى النهاية، عندما أدركت أننى أكرر نفسى، توقفت وقلت لها:

"جينى، ماذا ستقولين إذًا؟"

لا أعرف ماذا كنت أتوقع. لكن بعد أن رمقتنى للحظة أخرى بنظرة عارية من أى غضب، أجابت:

"أنكل كريستوفر، أعرف أننى لا أجيد أى شيء. لكن هذا لأننى لم أزل صغيرة إلى حدٍ ما. حين أكبر، ولا أظن أن هذا سيحدث بعد وقت طويل من الآن، سأتمكن من مساعدتك، أعدك بأننى سأفعل. لذا، أثناء وجودك بعيدًا، هل ستتذكر من فضلك؟ تتذكر أننى هنا، فى إنجلترا، وأننى سوف أساعدك عندما تعود؟"

لم يكن هذا ما قد توقعته تمامًا، ومنذ وصولى إلى هنا وأنا كثيرًا ما قد أمعنت التفكير فى هذه الكلمات، لكننى لم أزل غير متيقنٍ من الرسالة التى أرادت أن تنقلها لى عبر كلماتها فى ذلك اليوم. هل كانت تقصد أننى، رغم كل ما قلته لها، من غير المحتمل أن أنجح فى فى مهمتى فى شنغهاى؟ أو أننى سوف أضطر للعودة إلى إنجلترا لمواصلة عملى لعدة سنوات أخرى؟ من المحتمل أن تكون هذه

الكلمات ببساطة مجرد كلمات لطفلة مرتبكة، تحاول جاهدةً أن توارى انزعاجها، ولا قيمة لأن أعرض هذه الكلمات لأى نوع من إمعان النظر. مع كل هذا، وجدت نفسى ثانيةً أفكر مليًا فى لقائنا الأخير وأنا أجلس على الغداء فى تلك العصرية فى الفندق.

عندما أوشكت على الانتهاء من قهوتى، أتى البواب ليخبرنى أن هناك من يريدنى بإلحاح على الهاتف. وأشار لى بالتوجه إلى كبينة تليفون على مهبط الدرج بالخارج، وبعد قليل من الارتباك مع موظف السويتش، سمعت صوتًا مألوفًا لدى بشكل مبهم.

"مستر بانكس؟ مستر بانكس؟ مستر بانكس، أخيرًا تذكرت."

ظللت صامتًا، خشية أن أقول أى شىء يعرض خططى للخطر. لكن حينئذٍ قال الصوت:

"مستر بانكس؟ هل تسمعنى؟ لقد تذكرت شيئًا مهمًا. عن المنزل الذى لم نقم بتفتيشه."

أدركت أن هذا هو صوت المفتش كانج؛ صوته، رغم أنه كان أجش، فإنه بدا مستعيدًا لشبابه.

"معذرةً، حضرة المفتش. لقد فاجأتنى. قل لى ماذا تذكرت."

"مستر بانكس. تعرف، أحيانًا، عندما أستغرق مع البايب، تساعدنى على التذكر. أشياء كثيرة أكون قد نسيتها منذ فترة تعود أمام عينى. لذلك فكرت جيدًا جدًا فى أن أعود إلى البايب ولو لآخر مرة. وتذكرت شيئًا أخبرنى به المشتبه فيهم. *البيت الذى لم نستطع تفتيشه. إنه يقع مباشرةً قبالة منزل رجل يُدعى ييه تشين.*"

"بيه تشين؟ من يكون هذا؟"

"لا أعرف. كثير من الفقراء، لا يستخدمون عناوين مباشرة. فيتحدثون عن علامات مميزة. المنزل الذى لم نستطع تفتيشه. يقع أمام منزل بيه تشين."

"بيه تشين. هل أنت متأكد من هذا الاسم؟"

"نعم، أنا متأكد. لقد تذكرته بمنتهى الوضوح."

"هل هذا اسم شائع؟ كم من الناس محتمل أن يحمل الاسم نفسه؟"

"لحسن الحظ هنا تفصيلة أخرى أخبرنا بها المشتبه فيهم. بيه تشين رجل ضرير. المنزل الذى تبحث عنه يقع قبالة منزل بيه تشين الضرير هذا. بالطبع، ربما يكون قد انتقل من المنزل، أو مات. لكن لو استطعت أن تعرف أين كان يعيش هذا الرجل فى وقت التحريات..."

"بالطبع، يا حضرة المفتش. ياه، إن ذلك فى غاية الأهمية."

"أنا سعيد. لذا ظننت أنك ستجده."

"حضرة المفتش، لا أستطيع أن أعبر لك عن شكرى."

أصبحت واعيًا للوقت، وعندما وضعت سماعة الهاتف، لم أرجع إلى غدائى، لكننى صعدت السلم على الفور عائدًا إلى غرفتى لأحزم أمتعتى.

تذكرت إحساسًا غريبًا بالوهم يطغى على وأنا أفكر فى الأشياء التى أحملها معى. فى مرحلة معينة، جلست على السرير وحدقت فى

السماء المرئية من خلال نافذتي. وصدمت بغرابة شديدة، لأنــه قبــل يوم واحد فقط كانت المعلومة التي تلقيتها توًا تمثل شيئًا محوريًا تمامًا في حياتي. لكن ها أنا ذا، أقلبها في رأسي دون اهتمام، وبالفعل بدت وكأنها شيء يخص فترة في الماضي، شيء لست بحاجةٍ لتذكره لو لم أود ذلك.

لابد وأنني قد أكملت تحزيم أمتعتي في وقت لاحق، لأنني عندما سمعت نقرة على الباب كانت الساعة فــي تمــام الثالثــة والنصــف بالضبط، وكنت أجلس في مقعدي منتظرًا منذ فتــرة غيــر قصــيرة. فتحت الباب لشاب صيني، ربما لم يكن قد تجاوز العشرين من عمره، وكان يرتدي عباءة، ويحمل قبعته في يده.

"أنا سائقك، يا سيدي،" قال بلطف. "لو أن لك حقيبة سفر، سوف أحملها لك."

عندما انطلق الشاب بالسيارة بعيدًا عن فندق كاثاي، حدقت خارج السيارة على الناس المتزاحمــة علــى نــانكينج روود فــي شــمس العصاري، وأحسست أنني أنظر إليهم من مسافة شاسعة. ثم هدأت في مقعدي، راضيًا بأن أترك كل شيء في يدي السائق، الذي كان يبــدو واثقًا وعلى قدر من الكفاءة رغم حداثة سنه. شعرت بميل أن أوجه له سؤالاً عن علاقته بسارة، لكنني وقتها تذكرت تحــذيرها بخصــوص التحدث إلى السائقين فيما يتجاوز الضرورة. لهذا بقيت صامتًا، وعلى الفور وجدت أفكاري تذهب إلى ماكاو وبعض الصور الفوتوغرافيــة التي رأيتها في المكان قبل عدة سنوات مضت في المتحف البريطاني.

ثم بعد أن سافرنا لمدة عشر دقائق تقريبًا، ملت للأمام بغتةً على الشاب وقلت: "أقول، معذرةً. هذا أمر له مغزى بعيد. هل صادف أن عرفت شخصًا اسمه بيه تشين؟"

لم ينصرف السائق بنظره عن الطريق أمامه وكنت على وشك أن أكرر عليه سؤالى عندما قال:

"بيه تشين. الممثل الضرير؟"

"نعم. حسنًا، أعرف أنه ضرير، رغم أننى لا أعرف شيئًا عن كونه ممثلا."

"ليس ممثلاً مشهورًا. بيه تشين. كان ممثلاً في وقتٍ ما، قبل عدة سنوات مضت، عندما كنت صغيرًا."

"هل تقصد... أنك تعرفه؟"

"لا لا أعرفه. لكننى أعرف من هو. هل أنت مهتم ببيه تشين، يا سيدى؟"

"لا، لا. ليس به على وجه الخصوص. صادف فقط أن شخصًا ما ذكر اسمه لى. الأمر ليس مهمًا فى الواقع."

لم أقل للشاب شيئًا آخر خلال ما تبقى من الرحلة. اخترقنا سلسلة مربكة من الشوارع الصغيرة وكنت قد فقدت تمامًا إحساسى بالمكان عندما توقف فى شارع خلفى هادئ.

فتح الشاب الباب وأعطانى حقيبتى.

"هذا المحل" قال، وهو يشير. "الذى به فونوجراف."

على الجانب الآخر من الشارع كان هناك محل صغير له نافـذة عرض متسخة، معروض بداخلها فونوجراف بالفعل. رأيـت أيضـًا لوحة بالإنجليزية: "أسـطوانات جراموفـون. مخطوطـات بيـانو. مخطوطات." نظرت أعلى وأسفل الشارع، فرأيـت أننـى والسـائق وحدنا فى الشارع إذا ما استثنينا اثنين من سائقى الجرنكشـات كانـا رابضين إلى جوار عربتهما ويتبادلان المزاح. التقطت حقيبتى وكنت على وشك أن أعبر الشارع، عندما دفعنى شىء ما أن أقول له:

"أتمنى لو أعرف، هل بإمكانك انتظارى هنا لقليل من الوقت؟"

بد الشاب مرتبكًا. "مدام ميدهورست قالت لى أحضره فقط هنا."

"نعم، نعم. لكننى أنا أطلب منك الآن، فهمت. أود أن تنتظر لفترة قليلة فقط، فقط فى حالة احتياجى لخدماتك لفترة أطول. بالطبع ربمـا لا أحتاجك. لكن تعرف، ربما أحتاج. انظر هنا" – أدخلت يدى فـى الجاكت وأخرجت بعض الأوراق النقدية – "انظر، سأجعل لانتظارك المقابل الملائم."

غير أن وجه الشاب توهج بالغضب، وابتعد منتفضًا عن النقـود وكأننى كنت أعرض عليه شيئًا منفرًا جدًا. عاد إلى السيارة غاضـبًا وأغلق بابها عليه بمنتهى العنف.

رأيت أننى أخطأت التقدير بطريقةٍ ما، لكن فى تلك اللحظـة لـم أستطع أن أزعج نفسى بالاهتمام بالأمر. إضافةً إلى أن الشاب، رغم كل غضبه، لم يقم بتشغيل محرك السيارة. أعدت الأوراق النقدية إلى جيب الجاكت، وحملت حقيبتى ثانيةً وعبرت الشارع.

بالداخل، كان المحل ضيقًا للغاية. كانت شمس العصارى تتدفع بداخله، لكن بعض المساحات الصغيرة المتربة فقط كان ضوء الشمس ينيرها. على أحد الجانبين كان هناك بيانو بمفاتيح ملطخة الألوان، والعديد من إسطوانات الجراموفون معروضة بلا أغلفة على حامل الموسيقى. لم أستطع أن أرى الغبار فقط بل وخيوط العناكب على التسجيلات الموسيقية. فى أماكن أخرى كانت هناك قطع غريبة من قطيفة سميكة - بدا أنها قد قُطعت من ستائر مسرح - مثبتة على الحوائط، مع صور فوتوغرافية لمغنيين وراقصى أوبرا. ربما كنت أتوقع أن أرى سارة واقفة هناك، غير أن الشخص الوحيد الموجود كان شخصًا أوربيًا نحيفًا بلحية سوداء مدببة يجلس خلف الكاونتر.

"مساء الخير،" قال بلكنة جيرمانية، وهو يرفع عينيه عن الدفتر المفتوح أمامه. ثم نظر إلى من أعلى لأسفل بعناية، وسأل: "هل أنت إنجليزى؟"

"نعم، بالضبط. مساء الخير."

"لدينا بعض التسجيلات من إنجلترا. على سبيل المثال، عندنا أسطوانة لميمى جونسون وهو يغنى "لأجلك فقط خُلقت لى عينان." هل تعجبك؟"

ثمة شىء فى الطريقة الحذرة التى تحدث بها جعلتنى أفترض أن ما قاله هو الجزء الأول من شفرة متفق عليها. لكن رغم أننى فتشت فى ذاكرتى عن كلمة سر أو عبارة ربما تكون سارة قد قالتها لى، فلم أجد شيئًا. فى النهاية، قلت:

"ليس عندى فونوجراف هنا فى الصين. لكننى معجب جدًا بميمى جونسون. فى الحقيقة، لقد حضرت ريسيتال لها فى لندن قبل بضع سنوات مضت."

"حقيقى؟ ميمى جونسون، نعم."

وصلنى انطباعٌ واضح بأننى أربكته بإجابتى الخطأ. لذلك قلت: "انظر هنا، اسمى بانكس. كريستوفر بانكس."

"بانكس. مستر بانكس." نطق الرجل اسمى بحياد، ثم قال: "إذا كنت تريد إسطوانة ميمى جونسون، "لأجلك فقط خُلقت لى عينان" سأشغلها لك. فضلاً."

غاص تحت الكوانتر، وانتهزت أنا الفرصة لأنظر خارج المحل على الشارع. سائقا الجرنكشة كانا ما يزالان يضحكان ويتحاوران، وشعرت بالطمأنينة حينما رأيت أن الشاب لم يزل جالسًا هناك فى السيارة. ثم بينما كنت أتساءل عما إذا كان هناك سوء فهم كبير قد حدث، امتلأت الغرفة بصوت واهن لأوركسترا الجاز. وبدأت ميمى جونسون فى الغناء وتذكرت كيف أن الأغنية لاقت قبولاً كبيرًا فى لندن قبل بضع سنوات.

بعد فترة، أدركت أن الرجل النحيف يشير إلى مكان فى الحائط الخلفى معلق عليه ستارة قاتمة ثقيلة. لم ألحظ من قبل أن هناك مدخل باب، لكن عندما دفعت الباب، وجدت نفسى، فى واقع الأمر، أدلف إلى غرفة داخلية.

كانت سارة بالداخل تجلس على صندوق خشبى مرتدية معطفًا خفيفًا وقبعة. سيجارة تحترق فى مبسمها والغرفة التى تشبه السدولاب كانت معبأة بدخانها. حولنا كومات من إسطوانات الجراموفون، والنوت الموسيقية تم تخزينها بتصنيفاتها فى كراتين وصناديق شاى. لم يكن بالغرفة أية نوافذ، لكننى استطعت أن أرى بابًا خلفيًا يقود للخارج، وكان فى تلك اللحظة كان الباب مواربًا قليلا.

"حسنًا، ها أنا ذا،" قلت. "أحضرت معى حقيبة وحيدة فقط كما طلبت. لكن أرى أنك أحضرت ثلاث حقائب لنفسك."

"هذه الحقيبة التى هنا وحدها لإيثلبيرت. دبدوبى. إنه معى منذ الأبد، فى واقع الأمر. سخيف، أليس كذلك؟"

"سخيف؟ أبدًا، على الإطلاق."

"عندما أتينا إلى هنا، أنا وسيسيل، ارتكبت خطأً ووضعت إيثيلبيرت مع مجموعة كبيرة من الأشياء. ثم عندما فتحت الحقيبة، وجدت أن ذراعه قد انخلعت منه. وجدته فى ركن على اليمين، محشور داخل فردة شبشب. لهذا ففى هذه المرة، انتقصت أو ضحيت بقليل من الشيلان، ومنحته حقيبة بأكملها له وحده. هذا مضحك."

"لا، لا. أستوعب الأمر جيدًا. إيثيلبيرت، نعم."

بعناية وضعت مبسم سيجارتها ووقفت. ثم تبادلنا قبلة – تمامًا مثل، أعتقد، زوجين على شاشة السينما. كانت القبلة بالضبط تقريبًا كما كنت أتخيلها دائمًا، باستثناء شيء كانت تعوزه الرقة فى عناقنا، وحاولت أكثر من مرة أن أعدل من وقفتى؛ غير أن رجلى اليمنى

كانت متعسرة فى صندوق ثقيل ولم أستطع أن أتخذ الالتفاتة الضرورية دون المخاطرة بتوازنى. ثم تراجعت هي خطوة للخلف، وتنفست بعمق، وطيلة الوقت كانت تخترق وجهى بعينيها.

"هل كل شيء جاهز؟" سألتها.

لم ترد فى بادئ الأمر، وظننت أنها على وشك أن تقبلنى ثانيةً. لكنها فى النهاية قالت ببساطة:

"كل شيء على ما يُرام. فقط سننتظر عدة دقائق أخرى. ثم نخرج من هناك" – وأشارت إلى الباب الخلفى – ثم نمشى إلى الفُرْضَة(*) ونستقل سمبان(**) إلى سفينتنا البخارية على بعد ميلين أسفل النهر. وبعد ذلك ماكاو."

"وسيسيل، هل لديه أى فكرة على الإطلاق؟"

"لم أره طيلة اليوم. لقد اتجه إلى مكان من أماكنه الصغيرة مباشرةً بعد الإفطار، وأعتقد أنه لم يزل هناك."

"إنه أمر فى غاية الخزى. فى الحقيقة لابد أن يكون هناك من يخبره حتى يستجمع قواه."

"حسناً، لم يعد مطلوبًا منا أن نفعل هذا."

"لا، أعتقد لا." وأطلقت ضحكة مباغتة. "أعتقد أنه ليس مطلوبًا منا أن نفعل أى شيء غير ما اخترنا."

(*) الفُرْضَة: محط السفن فى الماء. (المترجم)
(**) السَمبان: زورق صينى يسير بمجداف. (المترجم)

"هذا صحيح. كريستوفر، هل هناك شيء خطأ؟"

"لا، لا. كنت فقط أحاول أن... وددت فقط أن..."

اعتدلت قبالتها، وقد فكرت في المبادرة بعناقٍ آخر، لكنها رفعت يدها قائلةً:

"كريستوفر، أظن أنه ينبغي عليك أن تجلس. لا تقلق، سيكون لدينا متسع من الوقت لكل شيء، *كل شيء*، لاحقًا."

"نعم، نعم. معذرةً."

"ساعة نصل إلى ماكاو، سنتمكن من التفكير في مستقبلنا بشكل جيد. نفكر جيدًا في المكان الأفضل لنا. المكان الأفضل لجنيفير. سنفتح كل خرائطنا على السرير، سننظر خارج غرفتنا على البحر ونناقش كل هذه الأمور. أوه، أنا متأكدة أننا سنتجادل ونتنازع. أنا حتى أتوق لجدالنا وشجارنا. ألن تجلس؟ انظر، اجلس هنا."

"أقول لك... انظري، إذا كان علينا أن ننتظر بضع دقائق، دعيني أذهب فقط وأفعل شيئًا."

"تفعل شيئًا؟ أي شيء على وجه التحديد؟"

"فقط... مجرد شيء. انظري فعلاً، لن أستغرق وقتًا طويلاً، فقط بضع دقائق. انظري، فقط سأطلب شيئًا ما من شخصٍ ما."

"من؟ كريستوفر، أعتقد أنه لا ينبغي علينا أن نتحدث إلى أي شخص في هذا التوقيت."

"ليس هذا ما أقصده، بالضبط. أنا أدرك تمامًا حاجتنا للحذر وهكذا. لا، لا، لا داعى للقلق. إنه فقط هذا الشاب. الذى أرسلته، الشاب الذى أتى بى إلى هنا. فقط أريد أن أساله عن شىء ما."

"لكنه قد انصرف بالتأكيد."

"لا، لم ينصرف. لم يزل هناك بالخارج. انظرى سأعود توًا."

أسرعت إلى الخارج عبر الستارة إلى المحل، حيث كان الرجل النحيف الملتحى ينظر لأعلى مندهشًا.

"هل تريد ميمى جونسون؟" سأل.

"نعم، نعم. رائعة. فقط ينبغى أن أخرج من هنا للحظة."

"هل لى أن أوضح، يا سيدى، أننى سويسرى. وليس هناك عداوة متوقعة بين بلدك وبلدى."

"آه نعم. رائع. سأعود خلال لحظة."

أسرعت أعبر الشارع باتجاه السيارة. الشاب، الذى رآنى، أنزل زجاج النافذة وابتسم بأدب؛ بدا أنه لم يعد هناك أثر لحالته المزاجية التى كانت قبل قليل. اقتربت منه، وقلت فى هدوء:

"انظر هنا. ييه تشين هذا. هل لديك أى فكرة عن المكان الذى يمكن أن أجده فيه؟"

"ييه تشين؟ إنه يعيش بالقرب من هنا."

"ييه تشين. أنا أتحدث عن ييه تشين *الضرير*."

"نعم. هناك على مقربة."

"منزله هناك على مقربة؟"

"نعم، يا سيدى."

"انظر هنا، يبدو أنك لم تفهم. هل تقصد بيه تشين، بيه تشين *الضرير*، وأن منزله *على مقربة من هنا؟*"

"نعم، يا سيدى. بإمكانك أن تمشى إلى هناك، لكن إذا رغبت آخذك فى السيارة."

"اسمعنى، الأمر فى غاية الأهمية. هل تعرف منذ متى يعيش بيه تشين فى منزله الحالى؟"

فكر الشاب ثم قال: "دائمًا يعيش هناك، يا سيدى. منذ كنت طفلاً، وهو يعيش هناك."

"متأكد؟ الآن انظر، الأمر فى غاية الأهمية. هل أنت متأكد أنه *الضرير* بيه تشين، وأنه يعيش هناك منذ وقتٍ طويل؟"

"قلت لك، يا سيدى. هو هناك منذ أن كنت ولدًا صغيرا. فى اعتقادى، هو يعيش هناك منذ سنوات عديدة، عديدة مضت."

اعتدلت، وأخذت نفسًا عميقًا وأمعنت التفكير فيما يتضمنه ما سمعته توًا من معنى. ثم ملت ثانيةً وقلت: "أظن أنه لابد وأن تأخذنى إلى هناك. أقصد، فى السيارة. لابد وأن نقترب من هناك بعناية. أريدك أن تأخذنى إلى هناك، لكن عليك أن توقف السيارة على مبعدة. فى مكانٍ ما بحيث يمكننا أن نرى بوضوح *المنزل المقابل* لمنزل بيه تشين. هل تفهمنى؟"

ركبت السيارة وقام الشاب بتشغيل المحرك. أدار عجلة القيادة دورة كاملة، ثم أخذنا طريقًا جانبيًا آخر. عندما فعلنا ذلك، تزاحمت أفكارٌ كثيرة دفعةً واحدة فى عقلى. أتساءل إذا ما كان ينبغى على أن أخبر الشاب بمغزى الرحلة التى نقوم بها، وفكرت حتى فى أن أسأله إذا ما كان يحمل مسدسًا فى السيارة – رغم أننى فى النهاية قررت أن مثل هذا التساؤل ربما كان سيثير ذعره.

انعطفنا بالسيارة إلى حارة جانبية أضيق حتى من الشارع السابق. ثم انعطفنا مرةً أخرى وتوقفنا. فكرت للحظة أننا وصلنا إلى نهاية الرحلة، لكننى حينئذٍ عرفت سبب توقفنا. فى الحارة التى انعطفنا فيها كان هناك أمامنا مجموعة من الأولاد يحاولون السيطرة على جاموس ماء جامح. ثمة مشاحنة كانت بين الأولاد، وكما رأيت، أحد الأولاد ضرب الجاموس على الأنف بعصاه. شعرت بموجة من الذعر، إذ تذكرت تحذيرات أمى طيلة طفولتى بأن هذه الحيوانات خطيرة مثل أى ثور عندما تتعرض للإثارة. مع هذا، لم يفعل الحيوان أى شيء، وواصل الأولاد الشجار. استعمل الشاب آلة التنبيه عدة مرات بلا جدوى، وفى النهاية تنهد، وبدأ يعود بالسيارة للخلف إلى حيث أتينا.

أخذنا حارة أخرى قريبة، لكن هذا الانحراف عن المسار بدا وقد أربك السائق، لأنه بعد بضع انعطافات أخرى، توقف وعاد بالسيارة للخلف ثانية، رغم أنه لم يكن هناك ما يعترض طريقه هذه المرة. عند نقطة معينة، خرجنا إلى ممر موحل أوسع على امتداد أحد جانبيه أكواخ خشبية مهدمة.

"أسرع من فضلك،" قلت. "الوقت أمامى ضيق جدًا."

حينئذٍ بالضبط صوت ارتطام هائل هز الأرض التى كنا نسير عليها. واصل الشاب القيادة بثبات، لكنه بدا عصبيًا وهو ينظر أمامه.

"القتال،" قال. "القتال اندلع ثانيةً."

"يبدو أنه قريب جدًا،" قلت.

خلال البضع ثوان التاليات، انعطفنا حول انحناءات ضيقة أكثر وبيوت خشبية صغيرة، مع ضرب آلة التنبيه كى نفرق الأطفال والكلاب. ثم توقفت السيارة مرة أخرى، وسمعت الشاب وهو يطلق صوتًا ساخطًا. وبالنظر عبره، رأيت أن الطريق الذى أمامه كان مغلقًا بمتاريس من أجولة الرمل والأسلاك الشائكة.

"لابد أن ندور حول الطريق،" قال. "لا نملك طريقة أخرى."

"لكن انظر، لابد وأننا اقتربنا الآن جدًا."

"اقتربنا جدًا، نعم. لكن الطريق مغلق، لذلك لابد وأن نأخذ دورة كاملة حول الطريق. كن صبورًا، يا سيدى. سنصل هناك على الفور."

لكن ثمة تغير واضح قد بدا فى سلوك الشاب. فثقته السابقة تلاشت، والآن شعرت بالذهول إذ إنه بدا شابًا سخيفًا يقود سيارة، ربما لا يتجاوز عمره الخامسة أو السادسة عشر. انطلقنا لبعض الوقت فى شوارع موحلة نتنة، وفى حارات أكثر حيث ظننت أننا سوف نغوص فى البالوعات المفتوحة – غير أن الشاب كان يستطيع

دائمًا أن يحافظ على عجلات السيارة بعيدًا عن حواف الطريق. طيلة الوقت، كنا نسمع أصوات الرصاص فى المكان، ونرى الناس وهى تجرى عائدةً للإيواء فى منازلهم ومآويهم. لكن لم يزل هناك أطفال وكلاب، وكان يبدو أنهم لا ينتمون لأحد، كانوا يهرعون فى كل مكان أمامنا، غافلين عن أى شعور بالخطأ. عند نقطة معينة، وبينما كنا نتخبط فى طريقنا عبر حوش مصنع صغير، قلت:

"الآن انظر، لماذا لا تتوقف لتسأل عن الطريق؟"

"كن صبورًا يا سيدى."

"صبورًا؟ لكنك ليس لديك فكرة أكثر منى عن الطريق الذى نمشى عليه."

"سنصل إلى هناك توًا، يا سيدى."

"أى هراء. لماذا تصر دائمًا على هذه التمثيلية؟ إن هذا طبعكم الأصيل أيها الصينيون. لقد ضللت الطريق، لكنك لن تعترف بهذا. الآن نحن فى السيارة منذ.... حسنًا، يبدو وكأنه دهر."

لم يقل شيئًا، وخرج بنا إلى طريقٍ موحلة تمتد مرتفعةً بين كومات كبيرة من نفايات المصنع. ثم أتى صوت ارتطام رعدى فى مكان ما قريب بما يثير الذعر، وقلل الشاب سرعة سيارته لما يشبه الحبو.

"سيدى. أعتقد أنه يجب أن نعود الآن."

"نعود؟ نعود إلى أين؟"

"القتال قريب جدًا. المكان ليس آمنًا هنا."

"ماذا تعنى، القتال قريب؟" ثم بزغت فكرة فى رأسى. "هل نحن بالقرب من تشابى بأى شكل؟"

"سيدى. نحن فى تشابى. نحن فى تشابى منذ فترة."

"ماذا؟ تعنى أننا خرجنا من المستعمرة؟"

"نحن الآن فى تشابى."

"لكن... يا إلهى! نحن بالفعل خارج المستعمرة؟ *فى تشابى؟* انظر هنا، أنت أحمق، هل تعرف؟ أحمق! لقد قلت لى إن المنزل قريب جدًا. الآن ضللنا الطريق. من الممكن أن نكون بالقرب من منطقة الحرب وهذا غاية فى الخطورة. *وقد غادرنا المستعمرة!* أنت ما أسميه أنا نموذجًا للأحمق. هل تعرف لماذا؟ سأخبرك. لأنك تظاهرت بأنك تعرف أكثر مما تعرف. وأنت من الكبرياء بحيث لا تعترف بنقائصك. هذا هو تعريفى للأحمق بالضبط. أحمق حقيقى! هل تسمعنى؟ أحمق حقيقى ونموذجى!"

أوقف السيارة. ثم فتح بابه ودون أن ينظر للخلف، مضى بعيدًا.

استغرقتُ لحظة حتى هدأت من نفسى وقيمت الموقف. كنا معظم الطريق أعلى تل، والسيارة الآن فى مكان مهجور على ممر موحل تحيطه روابى من أعمال البناء المتهدمة، الأسلاك المجدولة وما بدا فى هيئة البقايا الممتزجة من عجلات دراجة قديمة. رأيت شبح الشاب يمشى على درب أعلى حافة التل.

نزلت من السيارة وجريت خلفه. لابد وأنه سمعنى أتقدم خلفه، لكنه لم يسرع الخطى ولم ينظر للخلف. لحقت به وأوقفته بأن أمسكت كتفه.

"انظر، أنا آسف،" قلت، وأنا ألهث قليلا. "معذرةً. كان لا ينبغى أن أفقد أعصابى. أنا أعتذر، أنا بالفعل أعتذر. ليس هناك ما يشفع لى. لكن تعرف ماذا يعنى كل هذا؟ الآن من فضلك" - أشرت له بالعودة إلى السيارة - "لنكمل."

لم ينظر الشاب إلى. "لن أقود السيارة أكثر من ذلك،" قال.

"لكن انظر، لقد قلت أنا آسف. الآن من فضلك، التزم العقل."

"لن أقود السيارة أكثر من ذلك. المكان هنا غاية فى الخطورة. القتال قريب جدًا."

"لكن أنصت، الوصول إلى هذا المنزل فى غاية الأهمية بالنسبة لى. غاية فى الأهمية حقيقةً. الآن قل بصدق من فضلك. هل ضللت الطريق أم أنك تعرف حقًا مكان المنزل؟"

"أعرف. أعرف المنزل. لكن المكان غاية فى الخطورة الآن. القتال قريب جدًا."

وكتأكيد على النقطة التى ذكرها، سمعنا صدى طلقات من رشاش آلى حولنا. بدا الصوت وكأنه بعيد بدرجة معقولة، لكن كان من المستحيل تحديد مصدر الطلقات واتجاهها، ونظر كلٌ منا حوله، وبداخلنا إحساس بالعراء على التل.

"سأخبرك بما،" قلت، وأخذت نوتة وقلمًا رصاصًا من جيبى. "فهمت أنت لا تريد أن تلعب دورًا آخر فى كل هذا، وأستطيع أن أفهم وجهة نظرك. وأنا آسف ثانيةً لوقاحتى معك قبل قليل. لكننى أريدك أن تفعل شيئين آخرين قبل أن تذهب لبيتك. أولاً، أريدك أن تكتب هنا من فضلك عنوان منزل يبه تشين."

"لا عنوان، يا سيدى. لا يوجد عنوان."

"حسنًا، إذًا ارسم خريطة. حدد الاتجاهات. أيًا كانت. من فضلك افعل هذا لأجلى. ثم بعد ذلك، أريد أن تقود السيارة بى إلى أقرب قسم شرطة. بالطبع، هذا ما كان ينبغى عمله من البداية. أحتاج بعض الرجال المدربين المسلحين. من فضلك."

أعطيته النوتة والقلم الرصاص. صفحات عديدات كانت تكتظ بملاحظات دونتها من تحرياتى صباح اليوم. ظل يقلب الصفحات حتى وصل إلى واحدة بيضاء. ثم قال:

"لا إنجليزية. لا أستطيع الكتابة بالإنجليزية، يا سيدى."

"اكتب إذًا بأى لغة تستطيعها. ارسم خريطة. أيًا كانت من فضلك."

بدا الآن وقد أدرك أهمية ما كنت أطلبه منه. أمعن التفكير لبضع ثوان، ثم بدأ يكتب بسرعة. ملأ صفحة، ثم أخرى. بعد أربع أو خمس صفحات، علق القلم فى ظهر النوتة وسلمها لى. نظرت فيما فعله، لكننى لم أستطع أن أفهم شيئًا من الكتابة الصينية. مع هذا قلت:

"شكرًا لك. شكرًا لك بالفعل. الآن من فضلك. خذنى إلى قسم الشرطة. بعدئذٍ يمكنك العودة إلى بيتك."

"قسم الشرطة من هنا، يا سيدى." تقدم عدة خطوات أخرى في الاتجاه الذى كان يمشى فيه. ثم من قمة التل، أشار إلى أسفل إلى أسفل المنحدر، حيث بدأت تظهر كتلة من البنايات الرمادية، ربما على بعد مائتى ياردة.

"قسم الشرطة، يا سيدى."

"هناك؟ أى مبنى؟"

"هناك. عليه علم."

"نعم، أراه. أنت متأكد أن هذا هو قسم الشرطة؟"

"بكل تأكيد، يا سيدى. قسم الشرطة."

من حيث كنا نقف، كان يبدو تمامًا وكأنه قسم شرطة. رأيت، إضافةً إلى هذا، أن هناك شيئًا من الصعوبة فى قيادة السيارة إلى هناك؛ لقد كانت السيارة هناك على الجانب الآخر من التل، والممر الذى وصلنا توًا إليه لم يكن واسعًا بما يكفى للسيارة؛ رأيت أننا من الممكن أن نضل الطريق ثانية حال محاولة البحث عن طريق حول التل. وضعت النوتة ثانيةً فى جيبى، وفكرت فى عرض بعض الأوراق النقدية عليه، قبل أن أتذكر إلى أى مدى انزعج وغضب حين فعلتها من قبل. لذلك قلت ببساطة:

"شكرًا لك. لقد قدمت لى مساعدة عظيمة. سأحاول بنفسى الوصول من هنا."

أومأ الشاب بسرعة – بدا أنه لم يزل غاضبًا منى – ثم، استدار عاد يمشى أسفل المنحدر فى اتجاه السيارة.

بدا قسم الشرطة مهجورًا. عندما هبطت المنحدر، رأيت نوافذ مهشمة وأحد أبواب المدخل مخلوع من مفصلاته. لكن عندما أخذت طريقى عبر الزجاج المهشم ودخلت إلى منطقة الاستقبال فى القسم. قابلنى ثلاثة رجال صينيون، اثنان منهم صوبوا بنادقهم تجاهى، بينما كان الثالث يلوح مهددًا بجاروف حديقة. أحدهم – كان يرتدى زى القوات المسلحة الصينية – بإنجليزية عرجاء ماذا أريد؟ عندما تمكنت من توضيح من أنا، وأننى أريد أن أتحدث مع الشخص المسئول، بدأ الرجال يتباحثون بين بعضهم البعض. فى النهاية اختفى الرجل الذى كان يحمل الجاروف فى غرفة خلفية، وظل الآخران يصوبان سلاحهما على فى انتظار عودته. انتهزت الفرصة كى أنظر حولى، وخلصت إلى أنه من المحتمل ألا يكون هناك أى رجال شرطة فى القسم. رغم وجود بضع ملصقات ولافتات معلقة، فإن المكان بدا وقد هُجِر منذ فترة مضت. كانت الكابلات تتدلى على حائط والجزء الخلفى من القسم أتلفته النيران.

بعد خمس دقائق تقريبًا، عاد الرجل الذى كان يحمل جاروفًا. دارت بضع مباحثات أخرى بلهجة شنغهاى على حد ظنى، قبل أن يومئ لى الجندى بالذهاب مع الرجل ذى الجاروف.

تبعت الأخير إلى الغرفة الخلفية، التى اكتشفت أيضًا أنها تحت حراسة رجال مسلحين. لكنهم تنحوا جانبًا كى يسمحوا لنا بالدخول،

وعلى الفور كنت أهبط سلمًا متداعٍ يفضى إلى الدرك الأسفل فى قسم الشرطة.

ذاكرتى فيما يخص كيفية النزول إلى الغرفة المحصـــنة تحــت الأرض مضببة الآن قليلاً. ربما كان هناك بضع غرفٍ أخرى؛ أذكر مشينا فيما يشبه النفق، وكنا ننحنى كى نتفادى الدعامات الخفيضـــة؛ هنا أيضًا يوجد خفراء، وفى كل مرة نقابل أحد أشباحها السوداء التى تلوح للعيان، أضطر للالتصاق بالحائط الخشن حتى أمر.

أخيرًا أُشير لى بالدخول إلى غرفة بلا نافذة التى تحولت إلى مقر قيادة بديل مؤقت. كانت مضاءة بواسطة مصباحين يتدليان جنبًا إلـــى جنب من الدعامة الوسطى للسقف. كانت الحوائط من كتل الحجـــارة المكشوفة، كان هناك ثقب محفور بمظفار يكفى لمرور شخص عبره إلى الخارج. كان هناك جهاز لاسلكى معطوب منصوب فى الـــركن المقابل، وفى منتصف الأرضية مكتب كبير – رأيت لأول وهلة أنــــه مقسوم نصفين، ثم ضما إلى بعضهما البعض ثانية بطريقة بذيئة عبر استخدام حبل ومسامير. العديد من الصناديق الخشبية المقلوبة شـــكلت المقاعد المتاحة، الكرسى الفعلى الوحيد كان يشغله رجـــل غيـــر واعٍ مربوط فيه. كان يرتدى زى البحرية اليابانية، وأحد جانبى وجهه كان عبارة عن كتلة من الالتهابات.

لم يكن هناك فقط غير ضابطين من القوات المســلحة الصـــينية، كانا واقفين، ومنكبين على خريطة مفرودة على مكتب. رفعا عينيهما عند دخولى، ثم تقدم أحدهما ومد يده للمصافحة.

"أنا الملازم أول تشو. وهذا كابتن ما. يشرفنا معًا أن تزورنا، يا مستر بانكس. هل أتيت لتعيرنا دعمك الأخلاقى؟"

"حسنًا، فى واقع الأمر، يا سيدى الملازم، لقد أتيت إلى هنا بمطلب محدد. مع ذلك، آمل حين تنتهى مهمتى، سيكون الدعم الأخلاقى غزيرًا. لك وللجميع. لكننى الآن فى حاجة إلى مساعدة بسيطة، ولهذا السبب أتيت إليكم."

قال الملازم شيئًا للكابتن، الذى كان واضحًا أنه لا يفهم الإنجليزية، ثم نظرا إلى. فجأة تقيأ اليابانى الجالس على الكرسى على واجهة زيه. استدرنا جميعًا لننظر إليه؛ ثم قال الملازم:

"تقول إنك بحاجة للمساعدة، يا مستر بانكس. أى نوع من المساعدة تحديدًا؟"

"لدى هنا بعض الاتجاهات، الاتجاهات صوب منزل بعينه. ومن الحتمى أن أصل إلى هذا المنزل بأقصى سرعة. الاتجاهات مكتوبة باللغة الصينية، ولا أستطيع قراءتها. لكن كما ترى، حتى لو كنت أستطيع قراءتها، فأنا بحاجة إلى مرشد، شخص ما يكون على دراية بهذه المنطقة."

"أنت تريد دليلاً، إذًا."

"ليس هذا فقط، يا حضرة الملازم. سأكون بحاجة إلى خمسة أو ستة رجال مدربين، وأكثر لو أمكن. لابدّ وأن يكونوا على درجة من الكفاءة والخبرة، مادام أن المهمة ستكون دقيقة."

هاهأ الملازم قليلاً؛ ثم أعاد ملامحه إلى وقارها مــرةً أخــرى، وقال: "سيدى، نحن فى هذه اللحظة نعانى من قصور فى هذه النوعية من الرجال. هذه القاعدة تعتبر بمثابة جزء حيوى من قوتنا الدفاعيــة. ومع هذا فأنت بنفسك ترى مدى ما نعانيه من نقص فى الحراسة. فى الحقيقة، الرجال الذين رأيتهم على الطريق إما جرحى أو مرضــى أو متطوعين تعوزهم الخبرة. كل شخص قادر علــى القتــال المســتمر أرسلناه للجبهة."

"أنا أقدر، يا حضرة الملازم، أنك فى موقف تحتاج فيه إلى الدعم والمساندة. لكن ينبغى أن تفهم، أنا لا أتحدث عن مطلب غير رســمى أتوسلك للقيام به. عندما أقول بأنه من الحتمى أن أصــل للمنــزل... حسنًا، يا حضرة الملازم، سأخبرك، لا داعى للتعامــل مــع الأمــر بسرية. أنت وكابتن ما هنا ستكونان أول من يعرف الأمر. المنــزل الذى أريد الوصول إليه، والذى أعرف أنه على مقربةٍ منا الآن، ليس سوى المنزل الذى يسجن فيه والدىّ. هذا صحيح، يا حضرة الملازم! أنا لا أتحدث عن شىء أقل من حل هــذه القضــية بعــد كــل هــذه السنوات. فهمت الآن مدى حتمية طلبى، حتــى فــى هــذا التوقيــت المزدحم بالنسبة لك."

ظل وجه الملازم ثابتًا على وجهى. سأله الكابتن عن شىء مــا بالماندارين، لكن الملازم لم يرد. ثم قال لى:

"نحن فى انتظار عودة بعض رجالنا من مهمة. ســبعة رجــال خرجوا. لا نعرف ما إذا كانوا سيعودون جميعًا. وكانت نيتــى هــى إرسالهم على الفور إلى موقعٍ آخر. لكن الآن... فى هــذا الظــرف،

سأتحمل المسئولية شخصيًا. هؤلاء الرجال، مهما كان عدد العائدين منهم، فسوف يرافقونك في مهمتك."

تنهدت بضجر. "أشكرك، يا حضرة الملازم. لكن كم من الوقت سوف ننتظر هؤلاء الرجال؟ ألا يمكنني أن آخذ بضع رجال من الواقفين بالخارج هنا، فقط لبضع ثوان؟ فالمنزل، على أية حال، قريب جدًا من هنا. ولك أن تعرف أن هناك شخصًا في انتظارى..." فجأةً تذكرت سارة، وانتابنى نوعٌ من الهلع وقلت: "في الحقيقة، يا حضرة الملازم، أستأذنك في استخدام التليفون. لابد في الحقيقة أن أتحدث إليها."

"معذرةً لعدم وجود تليفون هنا، يا مستر بانكس. هذا جهاز استقبال لاسلكي متصل فقط بالقيادة والقواعد الأخرى."

"حسنًا إذًا، إن توضيح الأمر بأقصى سرعة هو الأكثر حتمية! أعرف، يا سيدى، هناك سيدة تنتظر، حتى ونحن نتحدث! هل لى أن أقترح أخذ ثلاثة أو أربعة رجال من حرس هذه القاعدة..."

"مستر بانكس، أرجوك هدئ من روعك. سنفعل كل ما في وسعنا لمساعدتك. لكن كما قلت بالفعل، الرجال الواقفون بالخارج ليسوا مؤهلين لمثل هذه المهمة. سوف يعرضون المهمة للخطر فقط. أنا مستوعب أنك قد انتظرت سنوات طويلات لحل هذه القضية. أنصحك بعدم التصرف بتهور في هذه المرحلة المفصلية."

كانت كلمات الملازم تنطوى على تقدير حسن للأمور. تنهدت وجلست على أحد صناديق الشاى المقلوبة.

"لن يطول غياب الرجال الآن،" قال الملازم. "مستر بانكس، هل لى أن أرى هذه الاتجاهات التى معك؟"

كنت مترددًا فى أن أدعه يقلب صفحات نوتتى حتى ولو لبضع ثوان. لكن فى النهاية سلمتها للضابط، وهى مفتوحة على الصفحة المطلوبة. درس الاتجاهات لبرهةٍ، ثم أعاد النوتة إلى.

"مستر بانكس، ينبغى أن أبلغك. سوف يكون من الصعب الوصول إلى هذا المنزل."

"لكن حدث وعرفت، يا سيدى، بأنه قريب جدًا من هنا."

"قريب، هذا صحيح. مع هذا، فلن يكون سهلاً، فى الحقيقة، يا مستر بانكس، ربما يكون الآن خلف الخطوط اليابانية."

"الخطوط اليابانية؟ حسنًا، أعتقد أننى دائمًا أقنع اليابانيين. أنا شخصيًا لست على خلاف معهم."

"سيدى، لو تكرمت تعال معى. سأريك، أثناء انتظارنا عودة الرجال، موقفنا بالضبط."

تحدث بسرعة إلى الكابتن للحظة. ثم مشى صوب دولاب فى الركن، فتح بابه بقوة وتقدم داخله. استغرقت لحظة لأدرك أنه ينتظرنى أن أتبعه، لكن عندما حاولت أيضًا أن أدخل الدولاب، اصطدمت بكعبى حذاء الملازم – الذى كان أمام وجهى مباشرة. سمعت صوته يقول من العتمة أعلاى:

"اتبعنى من فضلك، يا مستر بانكس. هناك ثمانى وأربعون درجة. يفضل أن تحافظ على خمس درجات بينى وبينك على الأقل."

اختفت قدماه. وبينما كنت أتقدم فى عمق الدولاب، مددت يـدى فوجدت بعض الدرجات المعدنية على القرميد أمامى. بعيدًا لأعلى فى العتمة، رأيت بركة سماوية صغيرة. خمنت أننا فى قاع مدخنـة، أو برج مراقبة تستخدمه الشرطة.

فى البضع درجات الأولى، كنت أجد الصعود مجهدًا؛ ولم أكـن عصبيًا فحسب بسبب فقدان المقبض فى الظلام، لكن كان هناك أيضًا القلق من انزلاق الملازم وسقوطه على. لكن فى النهاية بدأت رقعـة السماء تتزايد، وحينئذٍ بدأت أرى شبح الملازم وهـو يتسـلق بجهـد أعلاى. فى دقيقة أخرى أو أكثر، كنت قد لحقت به.

كنا نقف على سطح عال مستو محاط من كل الجهات بأميال من قمم الأسطح المكدسة بالأشياء. وعلى الأفق، ربما على بعـد نصـف ميل إلى الشرق، رأيت عمودًا من الدخان الأسود يرتفع إلى السـماء الشفقية.

"هذا غريب،" قلت، وأنا أنظر حولى. "كيف يتحرك الناس هناك؟ لا يبدو أن هناك شوارع."

"هكذا تبدو بالضبط من أعلى هنا. لكنك ربما تريد النظر هنا."

كان يمد يده بمنظار ثنائى العينين. رفعته على عينـى وأنفقـت بعض الوقت فى ضبط العدسات حتى اسـتطعت أن أرى بوضـوح، واكتشفت فقط أننى كنت أحدق فى مجموعة مداخن على بعـدْ بضـع ياردات أمامى. فى النهاية، على الرغم من أننى استطعت أن أركـز العدسات على عمود الدخان، قال صوت الملازم من مكانٍ مـا إلـى جوارى:

"أنت الآن تنظر إلى المنطقة المكدسة بالسكان، يا مستر بانكس. عمال المصنع يعيشون هناك. أنا واثق أنك طيلة فترة طفولتك هنا، لم تقم بزيارة هذه المنطقة السكنية."

"المنطقة السكنية؟ لا، لا أظن."

"تقريبًا، لا على وجه التأكيد. نادرًا ما يرى الأجانب مثل هذه الأماكن إلا إذا كانوا من أفراد الحملات التبشيرية. أو ربما شيوعيين. أنا صينى، لكننى أيضًا، مثل الكثيرين من أقرانى، لم يُسمح لى أبدًا بالاقتراب من مثل هذه الأماكن. تقريبًا لا أعرف أى شىء عن المنطقة السكنية الملحقة بالمصنع حتى بلغت الثانية والثلاثين من العمر، فى آخر مرة قاتلنا فيها اليابانيين. لن تصدق أن الآدميين يمكنهم العيش هكذا. إنها تشبه جحور النمل. تلك البيوت، كانت مبنية لأفقر الناس. بيوت بغرف صغيرة، صف بعد آخر. منطقة سكنية. لو أمعنت النظر، ربما ترى الحوارى. حوارى صغيرة تسمح فقط للناس بالدخول والخروج من بيوتهم. فى الخلف، لا توجد للبيوت نوافذ على الإطلاق. الغرف الخلفية عبارة عن ثقوب سوداء، تعطى ظهرها للبيوت التى خلفها. سامحنى، أنا أخبرك بهذه الأمور لسبب مهم، كما سترى. الغرف صُممت لتكون صغيرة، لأنها بُنيت للفقراء. كان هناك وقت يتقاسم فيه سبعة أو ثمانية أفراد غرفة كهذه. ومع مرور السنوات، اضطرت العائلات لإقامة تقسيمات، حتى داخل هذه الغرف الصغيرة جدًا، لتشترك فى الإيجار مع أسرة أخرى. وإذا ما ظلوا غير قادرين على دفع الإيجار لأصحاب المنازل، كانوا يقومون بإقامة تقسيم أصغر جديد للغرفة. أذكر أننى رأيت غرفًا صغيرة قد قُسمت

لأربعة أقسام، وفي كل قسم أسرة. لن تصدق هذا، يا مستر بانكس، أن يعيش الآدمي هكذا؟"

"لا يمكن تصديق هذا، لكن إذا كنت قد رأيت هذه الأحوال بنفسك، يا حضرة الملازم..."

"عندما تنتهي الحرب ضد اليابانيين، يا مستر بانكس، سأفكر في منح خدماتي للشيوعيين. أظنك تعتقد أن التصريح بهذا يعرضني للخطر؟ هناك الكثير من الضباط يفضلون القتال تحت راية الشيوعيين عن القتال مع تشيانج."

حركت المنظار أعلى الكتلة الكثيفة للأسطح الرثة. ورأيت الآن العديد منها مخترقة. تمكنت من فك الشفرة، إضافةً إلى أن الأزقة التي تحدث عنها الملازم، كانت عبارة عن ممرات ضيقة تتسل هنا وهناك وصولاً إلى المنازل.

"لكنها ليست مدينة أكواخ،" استأنف صوت الملازم الكلام. "حتى لو أن التقسيمات التي أقامها المستأجرون من النوع الرديء، فالبناء الرئيسي، المنطقة السكنية نفسها، من الآجر. وقد ثبت أن هذا عصييًا في عام ٣٢ عندما شن اليابانيون هجومهم، والشيء نفسه يثبت نفسه الآن لنا."

"أفهم ذلك،" قلت. "المنطقة السكنية المجسمة الصلبة يدافع عنها الجنود. ليست موقعًا سهلاً بالنسبة لليابانيين، حتى مع أسلحتهم الحديثة."

"أنت على حق. الأسلحة اليابانية، حتى تدريبهم لم يكن لـــه أيـــة قيمة هناك. فقد اختزل القتال في البنـــادق، والحـــراب، والســـكاكين، والمسدسات، والمناجل، وسواطير الجزارة. الخطوط الدفاعية اليابانية قد اضطرت للتراجع فعليًا خلال الأسبوع الماضى. هل تـــرى هـــذا الدخان، يا مستر بانكس؟ كانت تلك النقطة فى حوزة العـــدو خـــلال الأسبوع الماضى فقط. لكننا الآن قد أرغمناهم على التراجع للخلف."

"هل هناك من المدنيين من لم يزل يعيش هناك؟"

"بالفعل هناك من يعيش. ربما لا تصدق هذا، لكن حتى بـــالقرب من الجبهة، لم تزل بعض بيوت المنطقة مسكونة. وهذا يجعل مهمـــة اليابانيين أكثر صعوبة. فهم لا يستطيعون القصف بصورة عشـــوائية. وذلك لعلمهم بوجود مراقبة غربية وهم يخشون ما سيؤدى إليه التهور من تبعات."

"كم من الوقت تستطيع قواتكم الصمود؟"

"من يدرى؟ ربما يقوم تشيانج كاي- شيك بإرسال تعزيـــزات. أو ربما يقرر اليابانيون أن يقلعوا وينتقلوا إلى منطقةٍ أخرى، ويركـــزون بدلاً من ذلك على نانكينج أو تشانكينج. من المؤكد تمامًا أننا لن نظل منتصرين. لكن القتال قد كبدنا الكثير مؤخرًا. لـــو تكرمـــت حـــرك منظارك إلى اليسار، يا مستر بانكس. الآن، هل ترى ذلك الطريـــق؟ نعم؟ هذا الطريق معروف محليًا باسم ممشى الخنازير. لا يبـــدو أنـــه طريق مثيرٌ للإعجاب، لكنه الآن فى غاية الأهمية بالنسبة للنتائج. كما ترى، فهو الطريق الوحيد الذى يمتد على حافة المنطقة السكنية. فـــى

الوقت الراهن، قامت قواتنا بإغلاقه، واستطاعت طرد اليابانيين خارجه. لو استطاعوا السيطرة على هذا الطريق، فإن المنطقة السكنية يمكن اختراقها من الجانب. لن يكون هناك أى معنى لمحاولتنا الصمود. فسوف نقع تحت الحصار. أنت تطلب رجالاً يرافقونك إلى المنزل المحبوس فيه والداك. الرجال الذين سيرافقونك كانوا، من ناحيةٍ أخرى، سينتقلون للدفاع عن المتراس أعلى ممشى الخنازير. خلال الأيام القلائل الماضية، أصبح القتال هناك يبعث على اليأس. فى الوقت نفسه، بالطبع، يتحتم علينا أيضًا الاحتفاظ بخطوطنا الدفاعية على الجانب الآخر من المنطقة السكنية."

"من الأعالى هنا، لا تظن أن هناك الكثير من الأحداث الجارية هناك."

"بالفعل. لكننى أؤكد لك أن الأمور فى غاية التردى داخل المنطقة السكنية. لقد أخبرتك بهذا، يا مستر بانكس، مادمت أنك تنوى الدخول إلى هناك."

للحظة أو اثنتين ظللت أحدق فى المنظار صامتًا. ثم قلت: "يا حضرة الملازم، ذلك المنزل، المنزل المحبوس فيه والدى. هل بإمكانى رؤيته من هنا؟"

بسرعة مس كتفى بيده، رغم أننى لم أرفع عينى عن المنظار.

"هل ترى، يا مستر بانكس، أطلال ذلك البرج القائم إلى اليمين؟ إنه يبدو مثل واحدة من صور الإيستر آيلاند. نعم، نعم، بالضبط. لو أنك رسمت خطًا من هنا إلى أطلال ذلك المبنى الأسود الكبير إلى

اليمين، مستودع النسيج القديم، كما كان صباح اليوم، الخط الذى استطاع رجالنا إرغام اليابانيين على التراجع إليه. فإن النزل المحتجز به والداك يكون تقريبًا محاذيًا لهذه المدخنة العالية إلى يسارك. لو أنك قمت برسم خط، بمحاذاته تمامًا أمام المنطقة السكنية، حتى تأتى إلى اليسار قليلاً من مكان وقوفنا الآن. نعم، نعم..."

"تعنى بالقرب من ذلك السطح، ذى الإفريز المدبب لأعلى على هيئة قنطرة..."

"نعم، هو بالضبط. بالطبع، لا يمكننى أن أحدد يقينًا. لكن بناءً على هذه الاتجاهات التى أعطيتنى إياها، فإن ذلك بالتقريب موقع المنزل."

حدقت فى المنظار على هذا السطح بعينه. لبعض الوقت لم أستطع أن أكف عن النظر، رغم أننى كنت أعى أننى أصرف الملازم عن القيام بمهامه. بعد فترة، قال الملازم:

"لابد وأن هذا غريب. أن تفكر فى أنك تنظر إلى المنزل الذى يُحتَجَز به والداك."

"نعم. نعم، أشعر بإحساس غريب قليلاً."

"بالطبع، ربما لا يكون هذا المنزل نفسه. هذا ببساطة مجرد تخمين من ناحيتى. لكنه سيكون فى مكانٍ ما بالقرب منه. تلك المدخنة العالية التى حددتها لك، يا مستر بانكس. المواطنون يشيرون إليها على أنها المحرقة الشرقية. المدخنة التى تراها قريبة جدًا منا، المحاذية تمامًا للمدخنة الأخرى، تخص المحرقة الغربية. قبل اندلاع

القتال، كان السكان يقومون بحرق نفاياتهم فى واحدة أو أخرى منهما. أنصحك يا سيدى باستخدام المحرقتين كعلامات إرشاد عندما تدخل إلى المنطقة السكنية. وإلا سيكون من الصعب عليك كغريب أن تحافظ على اتجاهاتك. انظر ثانية بعناية، يا سيدى، على هذه المدخنة البعيدة. تذكر، المنزل الذى تسعى إليه على بعد مسافة قريبة منها، فى خط مباشر باتجاه الجنوب."

فى النهاية أنزلت المنظار عن عينى. "حضرة الملازم، لقد كنت فى غاية الكرم. لا أجد ما أعبر به عن امتنانى لك. فى الحقيقة، لو أن الأمر لا يورطك، فلعلك ربما سوف تسمح لى بأن أذكرك بالاسم أثناء الاحتفال الذى سيقام فى جيسفيلد بارك للاحتفال بذكرى تحرير والدى."

"فى الحقيقة، تعاونى معك ليس ذا بال. إضافة إلى أنك، يا مستر بانكس، لا ينبغى أن تفترض اكتمال مهمتك. يبدو الأمر قريب المنال وأنت تقف هنا. لكن داخل النطاق السكنى، هناك الكثير من القتال. ورغم أنك لست مستعدًا للقتال، فإن الأمر لم يزل صعبًا فى حركتك من منزلٍ إلى آخر. وبغض النظر عن المدخنتين، هناك بضع علامات إرشادية باقية. ثم لابد وأن تُخرج والديك فى أمان. بعبارةٍ أخرى، لم تزل أمامك مهمة شاقة. لكننى الآن، أقترح عليك، يا مستر بانكس، العودة قبل حلول الليل. ربما يكون الرجال قد عادوا. من المفزع التحرك باتجاه النطاق السكنى فى ضوء النهار. فى الليل، سيكون الأمر أشبه بالانزلاق فى أفزع الكوابيس. إذا ما استبد بك الخوف من الظلام، أنصحك باللجوء إلى مكان آمن حتى الصباح.

ليلة أمس فقط، قام رجلان من رجالى بقتل بعضهما، لقد ارتبكا بشدة فى الظلام."

"لقد استمعت باهتمام إلى كل ما قلت، يا حضرة الملازم. حسناً إذاً، لننزل."

عدنا لنجد كابتن ما يتحدث إلى جندى مهلهل الثياب. لم يبد أن الأخير قد جُرح، لكنه بدا منهارًا ومنزعجا. كان اليابانى الجالس على الكرسى يغط فى الشخير، وكأنه يستمتع بسنةٍ آمنة من النوم، رغم أننى لاحظت أنه تقيأ أكثر على صدر ملابسه."

تشاور الكابتن بسرعة مع الكابتن، ثم سأل الجندى مهلهل الثياب. ثم استدار إلى وقال:

"أخبار سيئة. لم يرجع الآخرون. اثنان بالتأكيد قد قُتلا. وأُسر الباقون، رغم أن فرصة هروبهم جيدة. العدو قد حقق تقدمًا رغم أن هذا ربما يكون مؤقتًا، وربما يكون المنزل المحتجز به والداك خلف خطوطهم الآن."

بغض النظر عن ذلك، يا حضرة الملازم، لم أزل بحاجة إلى التقدم، ودون أى تأخير آخر. انظر هنا، لو أن الرجال الذين وعدتنى بهم لم يرجعوا، إذاً، ربما، رغم أننى سأكون قد تجاوزت حدودى بكثير، لن تخذلنى فى أن ترافقنى أنت بنفسك للحراسة. بصدق، يا سيدى، لا أستطيع أن أفكر فى شخص مناسب أكثر منك يساعدنى فى هذه المرحلة."

أمعن الملازم التفكير في الأمر برزانة. "حسنًا جدًا، يا مستر بانكس،" أخيرًا قال. "سأفعل ما تطلب منى. لكن لابد وأن نسرع. لا ينبغى على أن أغادر هذه النقطة على الإطلاق. إن القيام بهذا لأى فترة من الوقت ربما يكون له عواقب وخيمة."

أعطى تعليمات سريعة للكابتن، ثم فتح أحد أدراج المكتب، وبدأ فى وضع عدة أشياء فى جيبه وحزامه.

"من الأفضل ألا تحمل بندقية، يا مستر بانكس. لكن هل معك مسدس؟ لا؟ خذ هذا إذًا. إنه ألمانى ويمكنك الاعتماد عليه. لابد أن تخفيه، لو واجهنا العدو لابد ألا تتردد فى إعلان حيادك على الفور وبمنتهى الوضوح. الآن، اتبعنى من فضلك."

أخذ بندقية كانت تستند إلى المكتب المقابل، وتقدم باتجاه الكوة الموجودة فى الحائط المقابل وعبرها برشاقة. دفعت بالمسدس فى حزامى، حيث أخفاه الجاكت بدرجة أو بأخرى، ثم أسرعت خلفه.

الفصل التاسع عشر

فقط إدراك طبيعة الأحداث بعد وقوعها هو مـا يجعـل الجـزء الأول من تلك الرحلة يبدو يسيرًا نسبيًا. فى ذلك الوقت، وبينما كنـت أتعثر فى خطواتى خلف شبح الملازم المتقدم أمامى، لم يكـن الأمـر يبدو هكذا. بدأت قدماى تؤلمانى بسبب الأرض المفروشـة بكسـارة الحجارة والدبش، ووجدت أن الالتواءات المطلوبـة للتغلـب علـى الثقوب فى كل حائط فى غاية الإزعاج.

بدا أن هناك عددًا لا نهائيًا من هذه الثقوب وجميعها تشـبه مـن قريب أو بعيد تلك التى كانت فى قاعدة السيطرة الأرضية. بعضـها كانت صغيرة، وبعضها كبيرة بما يكفى خروج رجلين عبرها دفعـةً واحدة؛ غير أن جميعها كانت ذات حواف غيـر مسـتوية وقاسـيةً، وتتطلب وثبة خفيفة للعبور منها. بعد قليل وجدت نفسى على وشـك الإجهاد؛ لم ألبث أن أتسلق عبر أحد تلك الثقوب حتى أرى المـلازم أمامى، يأخذ طريقه بقوة إلى الحائط التالى.

لم تكن كل الحوائط باقية على حالها لم تزل؛ أحيانًا كنـا نأخـذ طريقنا عبر أنقاض ما كان يمثل ثلاثة أو أربعة بيوت قبل أن يواجهنا حائط آخر. كانت الأسطح كلها تقريبًا منهارة، وغالبًا لا وجـود لهـا على الإطلاق، لذلك كنا نهتدى بقدر كبير من ضوء النهار فى السماء – رغم أن الظلال الكثيفة، هنا وهناك، جعلت من السـهل علينـا أن نتعثر فى خطانا. أكثر من مرة، تنزلق قدماى بطريقة مزعجـة بـين

شرائح مسننة من البلاط أو يغوص كاحلى بعمق فى كسارة الحجارة، حتى اعتدت تضاريس المكان.

كان من السهل تمامًا في مثل هذه الظروف أن أنسى أننا كنا نمضى عبر ما كان قبل عدة أسابيع فقط منازل لمئات الناس. فى الواقع، سيطر على انطباع بأننا لم نكن نتحرك عبر حى سكنى للفقراء، لكن قصر شاسع متهدم به عدد لا نهائى من الغرف. حتى مع هذا، كان يخطر ببالى بين الحين والآخر أنه بين الأنقاض الموجودة تحت أقدامنا يوجد أمتعة تتوارثها الأجيال، ولعب أطفال، وأشياء بسيطة ومحببة من متاع العائلات، وكنت أجد نفسى فجأةً فريسة لغضب متجدد تجاه أولئك الذين سمحوا لمثل هذا المصير أن ينصب فخاخه للكثير من الأبرياء. فكرت ثانية فى هؤلاء الرجال المغرورين المختالين فى المستعمرة الدولية، فى كل المراوغات التى لابد وأنهم قد وظفوها ليتملصوا من مسئولياتهم لسنوات عديدات، وفى مثل هذه اللحظات أحسست بأن سخطى يفور بقوة حتى إننى كنت على حافة الصراخ فى الملازم كى يتوقف، فقط لأتمكن من أن أتخلص من سخطى.

مع ذلك، توقف الملازم عند نقطة محددة طوعًا، وعندما لحقت به قال:

"مستر بانكس، من فضلك أود أن تلقى نظرة فاحصة على هذا." كان يشير إلى اليسار قليلاً، باتجاه بناء يشبه الغلاية، ورغم أنه كان مغطى بغبار الأنقاض، فإنه ظل بدرجة ما أو بأخرى على حاله. "هذه هى المحرقة الغربية. لو نظرت إلى أعلى هناك، سترى أقرب

المدخنتين العاليتين التى رأيناهما قبل قليل من أعلى السطح. المحرقة الشرقية تشبهها فى المنظر، وستكون علامتنا الإرشادية الواضحة التالية. عندما نبلغها، سوف نعرف أننا قد اقتربنا جدًا من المنزل."

تفحصت المحرقة بعناية. مدخنة بمحيط ما تظهر من أعلى جانبيها، وعندما اقتربت بضع خطوات منها ونظرت لأعلى، رأيت أن المدخنة الضخمة ترتفع لأعلى فى السماء. كنت لم أزل أنظر لأعلى عليها عندما سمعت رفيقى يقول:

"من فضلك، يا مستر بانكس. لابد وأن نكمل السير. من الأهمية بمكان أن ننتهى من مهمتنا قبل الغروب."

تغيرت سلوكيات الملازم بوضوح وأصبحت أكثر حذرًا بعد مرور عدة دقائق من تجاوزنا للمحرقة. خطوته أصبحت متروية، وعند كل ثقب، كان ينظر أولاً، وهو يصوب بندقيته أمامه، ويسترق السمع، قبل أن يعبر. أنا أيضًا بدأت أرى عددًا أكثر وأكثر من أجولة الرمل، أو لفات من الأسلاك الشائكة، المتروكة على مقربة من الثقوب. عندما سمعت الرشاش الآلى لأول مرة، تجمدت فجأةً، معتقدًا أننا فى نطاق إطلاق النيران. لكننى رأيت الملازم، حينئذٍ يواصل التقدم للأمام، ومضيت خلفه بعد أن أخذت نفسًا عميقًا.

أخيرًا عبرت ثقبًا ووجدت نفسى فى فضاءٍ أكثر اتساعًا. حقيقةً، فى حالة الإجهاد التى كنت فيها، ظننت أننى قد دخلت فى البقايا المقصوفة بالقنابل لإحدى قاعات الرقص التى دُعيت إليها فى المستعمرة. ثم أدركت أننا كنا نقف فى منطقة كانت تشغلها غرف

عديدة؛ تلاشت حوائط التقسيمات تقريبًا بشكل تام، لدرجة أن الحـائط التالى كان على مسافة خمس وعشرين ياردة. وهناك رأيت سبعة أو ثمانية جنود يصطفون، وجوههم قبالة القرميد. فى البداية ظننت أنهم أسرى، لكننى بعد ذلك رأيت كيف أن كل رجلٍ كان يقف أمام ثقب صغير أدخل فيه ماسورة بندقيته. كان الملازم قد عبر بالفعل كسارة الحجارة وكان يتحدث إلى رجل رابض خلف رشاش آلى مرفوع على حامل ثلاثى القوائم. هذا الرشاش الآلى كان منصوبًا أمام أكبر الثقوب - الثقب الذى ينبغى علينا العبور من خلاله لنكمل رحلتنا. إضافةً إلى أننى رأيت، مع اقترابى، أن محيط الثقب قد تم تحصينه بالأسلاك الشائكة، بما يسمح فقط لماسورة البندقية للمناورة.

اعتقدت فى البداية أن الملازم كان يطلب من الجندى إزاحة هذه العقبة من طريقنا، لكننى رأيت مدى التوتر الذى أصبح فيه كل الحاضرين. لم يرفع الرجل الرابض خلف الرشاش الآلى، أثناء توجيه الكلام إليه من قبل الضابط، عينه عن الثقب الذى أمامه. الجنود الآخرون أيضًا، على امتداد الحائط، ظلوا فى أماكنهم شاهرين فوهات أسلحتهم، وكل انتباههم فى تمام التركيز على أى شىء فى الجانب الآخر.

لحظة انخفضت حدة ما ينطوى عليه هذا المشهد من خطر، أحسست بميل إلى التراجع إلى الثقب السابق. لكننى حينئذٍ رأيت الملازم يعود إلىّ وظل عند المكان الذى كنت أقف فيه.

"نعانى بعض المشاكل،" قال. "منذ بضع ساعات مضت تمكن اليابانيون من الاندفاع إلى الأمام قليلاً. لقد استطعنا الآن حملهم على

التراجع إلى الخلف ثانيةً وقد تم إعادة إقامة الخط الدفاعي حيث كان صباح اليوم. مع ذلك بدا أن عددًا من الجنود اليابانيين لم يتراجعوا مع الآخرين، وقبض عليهم الآن خلف خطوطنا. هم الآن قد انقطعت بهم السبل ولهذا فهم في منتهى الخطورة. رجالي الآن يعتقدون أنهم على الجانب الآخر من ذلك الحائط في هذه اللحظة."

"حضرة الملازم، أنت لا تقترح، أليس كذلك، أن نؤجل حتى يحل الأمر نفسه؟"

"أخشى أننا سوف نضطر للانتظار، بالتأكيد."

"لكن إلى متى؟"

"من الصعب بحال أن نتنبأ. هؤلاء الجنود محتجزون، وسف يتم أسرهم أو قتلهم في النهاية. لكنهم يحملون أسلحة في الوقت نفسه، وهم في منتهى الخطورة."

"تقصد أننا من الممكن أن ننتظر لساعات؟ أو حتى أيام؟"

"هذا وارد. سيكون من الخطورة علينا أن نكمل."

"حضرة الملازم، أنا مندهش منك. كان لدى انطباع بأنك، شخص متعلم، في تمام الوعي بأهمية مشروعنا الراهن. بالتأكيد هناك طريق آخر يمكننا أخذه لنتجاوز هؤلاء الجنود."

"هناك طرق أخرى. لكن يبقى أننا سنظل في خطر حقيقي كلما تقدمنا. لسوء الحظ، يا سيدي، أنا لا أرى أي بديل غير الانتظار. من الممكن أن نحل الموقف بعد قليل. معذرةً."

كان أحد الجنود إلى جوار الحائط يومئ بإلحاح، والآن بدأ الملازم يعبر كسارة الحجارة باتجاهه. لكن حينئذٍ بالضبط انطلقت من الرشاش الآلي سلسلة من الطلقات النارية تصم الآذان، وعندما توقف كانت هناك صرخة طويلة ممتدة تأتي من خلف الحائط. الصرخة بدأت زاعقة ثم بدأت في التلاشي حتى اختُزِلت في نشيج غريب عالي النبرة. كان صوتًا مخيفًا وتحجرت أنا في مكاني وأنا أستمع إليها. فقط عندما عاد الملازم مندفعًا وسحبني لأنبطح خلف بعض مخلفات البناء المتهدمة، أدركت أن هناك طلقات تضرب الحائط الذي خلفي. الرجال الذين كانوا خلف الحائط التالي كانوا يطلقون النار أيضًا، ثم قام الجندي الرابض خلف الرشاش الآلي بإطلاق سلسلة أخرى من النيران. بدا أن هيمنة سلاحه قد أسكتت الأسلحة الأخر، بعدئذٍ، ولفترة بدت وكأنها مبالغ فيها، كان الصوت الوحيد يأتي من الرجل الجريح خلف الحائط. استمر الأنين عالي النبرة لعدة لحظات، ثم بدأ يزعق بشيء ما باليابانية ويرتفع صوته أعلى وأعلى؛ بين الحين والآخر كان الصوت يتحول إلى صراخ مسعور، ثم يتلاشى ويتحول إلى أنين. كان هذا الصوت المجرد يتردد صداه بصورة مثيرة للأعصاب بين الأنقاض، لكن الجنود الصينيين ظلوا في أماكنهم بلا حراك، دون أن يحولوا انتباههم عما يمكن أن يروه من خلال الحائط. فجأة استدار الجندي الرابض خلف الرشاش الآلي وتقيأ بجانبه على الأرض، قبل أن يستدير على الفور عائدًا للثقب المحاط بالأسلاك الشائكة أمامه. لم يكن سهلاً، من خلال الطريقة التي فعل بها هذا، أن نحدد إذا ما كان لمرضه علاقة بأعصابه، أو بصوت الرجل الذي كان يُحتَضر، أو ببساطة ببعض آلام المعدة.

أخيرًا، استرخى الجنود بصورة ملحوظة تمامًا، رغم أن أوضاعهم ومواقعهم لم تتغير. سمعت الملازم إلى جانبى يقول:

"هكذا ترى الآن، يا مستر بانكس، أن التقدم من هنا ليس بالأمر اليسير."

كنا نجثم على ركبنا، ولاحظت أن بدلتى الفلانيلة كانت تقريبًا غارقة تمامًا فى الغبار والأوساخ. استغرقت بضع ثوانٍ لأعيد ترتيب أفكارى قبل أن أقول:

"أنا أقدر حجم المخاطرات. لكننا، رغم ذلك، لابد وأن نواصل. تحديدًا رغم كل هذا القتال الجارى، لا ينبغى ترك والدى فى ذلك المنزل لحظة واحدة أكثر من اللازم. هل لى أن أقترح أخذ هؤلاء الرجال الذين هنا معنا؟ فى هذه الحالة لو طلع علينا هؤلاء اليابانيين، سنكون أكثر قوة."

"لا يمكننى، من موقع مسئوليتى كقائد هنا، التصديق على فكرتك، يا مستر بانكس. لو ترك هؤلاء الرجال مواقعهم، فسوف يكون مركز القيادة عاريًا تمامًا. إضافةً إلى أننى سأكون قد وضعت حياة الجنود فى مخاطرة لا طائل تحتها."

أطلقت تنهيدة سخط وغضب. "ينبغى أن أقول، يا حضرة الملازم، إنه من قبل التفريط من جانب رجالك أنهم سمحوا لليابانيين التقدم خلف خطوطك. لو أن كل رجالك كانوا يؤدون واجباتهم كما ينبغى، لما حدث كل هذا أبدًا حسبما أعرف يقينًا."

"لقد قاتل رجالى بشجاعة جديرة بالثناء والإطـــراء، يـــا مســـتر بانكس. وليس خطؤهم أن المهمة الخاصة بك معرقلـــة فـــى الوقـــت الراهن."

"ماذا تعنى بهذا، يا حضرة الملازم؟ ماذا تقصد؟"

"من فضلك، هدئ من نفسك، يا مستر بانكس. أنا فقط أعنى أنـــه ليس خطأ رجالى لو..."

"خطأ من إذًا، يا سيدى؟ أنا أعى ما تقصد! آوه نعم! أعرف أنك كنت تفكر فى هذا منذ فترة. كنت أسأل متى ستفصح عنها أخيرًا."

"سيدى، لا أعرف عما..."

"أنا أعرف تمامًا فى ماذا كنت تفكر طيلة الوقـــت، يـــا حضـــرة الملازم! رأيت فى عينيك. أنت تظن أن هذا خطئى أنا، كل هذا، كـــل هذه المعاناة القاسية، كل الدمار هنا، كنت أرى فى وجهك عندما كنت تمشى خلال هذا كله الآن تحديدًا. لكن هذا لأنك لا تعـــرف شـــيئًا، لا تعرف شيئًا بالتأكيد، يا سيدى، بخصوص هذا الأمـــر. ربمـــا علـــى الأكثر تكون على دراية بشىء أو شيئين عن القتال، لكن دعنى أقـــل لك إن حل قضية معقدة تعتبر أمرًا مختلفًا. من الواضح أنـــك لـــيس لديك أدنى فكرة عما يكتنف الأمر. مثل هذه الأمور تستغرق وقتًا، يا سيدى! قضية كهذه تتطلب الكثير من الكياسة. أعتقد أنك تتصـــور أن باستطاعتك الاندفاع فيها بـــالحراب والبنـــادق، ألـــيس كـــذلك؟ لقـــد استغرقت وقتًا، أنا أقبل ذلك، لكن هذا يعتبر جزءًا من طبيعة قضـــية كهذه. لكن أنا لا أعرف لماذا على أن أزعج نفسى بترديد كل هـــذا. ماذا تفهم عنها، أيها الجندى البسيط؟"

"مستر بانكس، ليس هناك حاجة للشجار. أنا فقط أحمل لك خالص الأمنيات بالنجاح. أنا ببساطة أخبرك بما هو ممكن..."

"إن اهتمامى يتناقص ويتناقص بفكرتك عن الممكن والمستحيل، يا حضرة الملازم. اسمح لى أن أقول لك، أنت خير دعاية للعسكرية الصينية. هل أتعامل مع الأمر على أنك تتراجع عن وعدك؟ وأنك ترفض مرافقتى إلى ما وراء هذه النقطة؟ أنا أتعامل مع الأمر هكذا. أنا سأتركك لإنجاز هذه المهمة الصعبة بنفسى. حسنًا جدًا، سأفعل ذلك! سأقتحم المنزل بمفردى!"

"أعتقد، يا سيدى، أنك لابد وأن تهدئ من نفسك قبل أن تتمادى فى قول أى شىء آخر..."

"وثمة شىء آخر، يا سيدى! يمكنك أن تثق تمامًا فى أننى لن أذكر اسمك فى الاحتفال الذى سيقام فى جيسفيلد بارك. لو أننى فعلت على الأقل، فسوف يكون ذلك من قبيل المجاملة..."

"مستر بانكس، اسمع من فضلك. لو أنك قررت أن تكمل رغم الخطر، فلن أستطيع أن أمنعك. لكنك بلا شك ستكون فى أمن وأنت وحدك. معى ستكون بالتأكيد معرضًا لإطلاق النار عليك. أنت، على النقيض، رجل أبيض بملابس مدنية. ومادمت تمتعت بكثير من الحرص، فمن الممكن جدًا ألا تتعرض لأى أذى. بالطبع، أنا أكرر عليك نصيحتى بالانتظار حتى يستقر الموقف هنا. لكننى ثانيةً، كشخص له أبوان مسنان، أفهم جيدًا مشاعر الإلحاح داخلك."

وقفت على قدمى ونفضت التراب قدر المستطاع عن ملابسى. "حسنًا إذًا، سآخذ طريقى،" قلت بفتور.

"فى هذه الحالة خذ هذه معك، يا مستر بانكس." كان يمد يده بكشاف صغير. "أنصحك، كما قلت من قبل، أن تتوقف وتنتظر إذا لم تبلغ هدفك قبل حلول الظلام. لكننى أرى من اتجاهك الحالى بأنك ربما تكون أميل للتقدم. فى هذه الحالة، سوف تحتاج بالتأكيد إلى الكشاف. البطاريات ليست جديدة، ولذا فلا تستخدمه إلا عند الضرورة."

أسقطت الكشاف فى جيب الجاكت، ثم شكرته باستنكار، نادمًا بالفعل إلى حدٍ ما على انفجارى فيه. الرجل المُحتَضر، كان وقتئذٍ قد كف عن محاولة الكلام وكان يصرخ فقط ثانيةً. بدأت المشى باتجاه الصوت، عندما قال الملازم:

"لا يمكنك أن تمضى من هذا الطريق، يا مستر بانكس. سوف تضطر للتحرك شمالاً لبعض الوقت، ثم حاول تغيير مسار نفسك فيما بعد. تعال من هنا، يا سيدى."

لبضع دقائق، قادنى على طريق متعامد على الطريق الذى كنا نمشى عليه من قبل. بعد فترة وصلنا إلى حائط آخر به ثقب.

"لابد وأن تأخذ هذا الطريق لمسافة نصف ميل على الأقل قبل أن تتجه شرقًا ثانيةً. ربما تستمر فى المرور بجنود، من الجانبين. تذكر ما قلته لك، حافظ على إخفاء مسدسك، ودائمًا تعلن عن حيادك. لو قابلت أيًا من السكان، اطلب منه أن يوجهك إلى المحرقة الشرقية.

أتمنى لك حظًا سعيدًا، يا سيدى، وأعتذر عن عدم استطاعتى مد يد العون لك أكثر من ذلك."

بعد أن تحركت شمالاً لعدة دقائق، لاحظت أن البيوت كانت أقل خرابًا. مع ذلك، فلم يجعل هذا رحلتى أسهل؛ كان كون أسطح المنازل في حالة أكثر سلامة يعنى أنه يتحتم على أن أتقدم بضوءٍ أكثر خفوتًا – كنت قد قررت أن أدخر الكشاف حتى حلول الليل – وكنت غالبًا أتحسس طريقى على امتداد حائط لمسافة قبل وصولى إلى فتحة. كان هناك، لسببٍ ما، الكثير من الزجاج المهشم فى هذه المنطقة المجاورة، ومنطقة كبيرة غارقة فى الماء الآسن. كنت أسمع باستمرار انطلاقات مجموعات كبيرة من الفئران، وفى إحدى المرات داست قدمى جثة كلبٍ ميت، لكننى لم أستطع أن أسمع أى أصوات قتال.

عند هذه المرحلة من الرحلة تقريبًا، وجدت نفسى أفكر ثانيةً فى جينيفير، وهى تجلس فى حجرة المتميزين، وفى وجهها وهى تقطع على نفسها هذا العهد الغريب، الذى تلفظت به بمنتهى الجدية، أن "تساعدنى" عندما تكبر. ذات مرة، عندما كنت أتلمس طريقى للأمام، عاودتنى صورة عبثية للأطفال الفقراء يلهثون خلفى فى هذه المنطقة الشبحية، لكننى ببساطة لم أستطع أن أتحمل الفكرة وواصلت المشى. هذه الحساسية كلفتنى الكثير، لأننى، ولبعض الوقت، لم أجد فتحة أخرى، وبعد ذلك، هيمن على انطباعٌ بأننى أنزلق أبعد وأبعد عن مسارى.

مع حلول الظلام تمامًا وبداية استخدامى للكشاف، كنت أمر بعلامات أكثر تدل على أن المكان مأهول. كثيرًا ما كنت أتعثر فى

خزانة ذات أدراج، أو ضريح، وفى غرفٍ بكاملها نادرًا مـــا تكـــون أثاثاتها مصابة بأذى، تاركةً انطباعًا بأن الأسرة قد غادرتها وخرجت اليوم. لكن حينئذٍ، وإلى جوار مثل هذه الأمـــاكن مباشـــرةً، اكتشـــفت وجود غرفٍ أكثر مهدمة تمامًا أو غارقة فى الطوفان.

كان هناك أيضًا، أعداد كبيرة من الكلاب الضـــالة - حيوانـــات هزيلة خفت من مهاجمتها لى، لكنها كانت ترتد بعيـــدًا وهـــى تهـــدر مدمدمة كلما صوبت ضوء الكشاف فى اتجاهها. مرة مررت بثلاثـــة كلاب يقومون بوحشية بتمزيق شىء ما؛ سحبت مسدسى، وأنـــا فـــى تمام اقتناعى بأنهم سيأتون لى؛ لكن حتى هذه الحيوانـــات شـــاهدتنى بخنوع وأنا أمر بها، وكأنهم درجوا علـــى احتـــرام المجـــزرة التـــى يستطيع الآدمى أن يقوم بها.

لم أندهش جدًا، إذًا، حينما وصلت أمام الأسرة الأولى. وجـــدتهم يظهرون عندما مددت فيهم ضوء بطاريتى، ينكمشون مذعورين فـــى ركنٍ معتم: العديد من الأطفال، ثلاث نساء، رجل مُسِن. حولهم أمتعة وأوانى معيشتهم. حدقوا فى بذعر، وهم يلوحـــون بأســـلحة مؤقتـــة، أخفضوها قليلاً فقط عندما تلفظت بكلمات طمأنينة. حاولت أن أستفسر عما إذا كنت بالقرب من المحرقة الشرقية، لكنهم أجابونى بنظـــرات قوامها عدم الفهم. مررت بثلاث أو أربع أسر أخـــرى فـــى البيـــوت القريبة - وكنت، بصورة متزايدة، قادرًا على استخدام مداخل الأبواب أكثر من الفتحات الموجودة فى الجدران - لكننى لـــم أجـــدهم أكثـــر استجابة.

بعدئذ، دخلت إلى مكان أوسع، الجانب القصى منه كان غارقًا فى ضوءٍ أحمر من مصباح. كان هناك الكثير من الناس يقفون فى الظلال – ثانيةً، السواد الأعظم منهم كانوا من النساء والأطفال ومعهم قليل من العجائز. بدأت أردد كلمات الطمأنينة المعتادة، عندما استشعرت شيئًا غريبًا فى الجو، توقفت لأتحسس مسدسى.

استدارت الوجوه صوبى على ضوء المصباح. لكن على الفور تقريبًا عادت النظرات إلى الركن القصى حيث يوجد دستة أو أكثر من الأطفال ينكمشون حول شيء ما على الأرض. بعض الأطفال كانوا يدسون عصيهم فيه أيًا كان، ثم لاحظت أن عددًا كبيرًا من الكبار كانوا يشهرون المناجل المشحوذة، والسواطير والأسلحة المرتجلة الأخرى. بدا الأمر وكأننى قد قطعت عليهم طقسًا يقومون به فى الظلام، وكانت رغبتى الأولى هى أن أتحدث عند مرورى بهم. ربما كان ذلك بسبب سماعى لجلبةٍ ما، أو ربما كان نوعًا من الحاسة السادسة؛ لكننى وجدت نفسى، ومسدسى كان لم يزل مسحوبًا، أتحرك باتجاه حلقة الأطفال. بدا الآخرون يمانعون فى الكشف عما لديهم، لكن ظلالهم تفرقت تدريجيًا. ثم رأيت فى الوهج الأحمر الخافت شبح جندى يابانى يستلقى ساكنًا تمامًا على جنبه. يداه مكبلتان خلف ظهره؛ قدماه أيضًا كانتا مغلولتين. عيناه كانتا مسبلتين، واستطعت أن أرى رقعة قاتمة تنفذ إلى زيه العسكرى تحت إبطه من الأرض. وجهه وشعره كانا غارقين فى التراب ويلطخهما الدم. رغم هذا كله، أدركت أنه آكيرا دونما صعوبة تذكر.

* * *

بدأ الأطفال فى التجمع، ثانيةً، فى دائرة، أحد الأطفال نخس جسم آكيرا بعصاه. أمرتهم أن يتراجعوا، وأنا ألوح لهم بمسدسى، وأخيـرًا تراجع الأطفال قليلاً، وكانوا جميعًا يشاهدون بإمعان.

ظلت عينا آكيرا مسبلتين بينما كنت أتفحصه. كان زيه العسكرى ممزقًا من الخلف، مما عرى جلده، بصورة جعلتنى أفترض أنـــه قــد سُحِب على الأرض. من المحتمل أن يكون الجرح الذى كــان تحــت إبطيه قد سببته شظايا قنبلة. كان هناك ما يُشبه الانتفاخ وشــج فــى مؤخرة رأسه. لكنه كان مغطى تمامًا بالأوساخ، والضوء كان خافتًــا جدًا، مما جعل من الصعوبة بحال تحديد مدى خطورة جراحه. عندما صوبت ضوء البطارية عليه، ملأت الظلال الثقيلة كل المكان المحيط به، بما جعل الرؤية بوضوح أمرًا عسيرًا.

ثم، بعد فترة من فحصى له، فتح عينيه.

'آكيرا!' قلت، وأنا أقرب وجهى له. 'إنه أنا، كريستوفر!'

خطر ببالى أن الضوء الذى يسقط من خلف رأســى، ســيجعلنى أظهر وكأننى لست أكثر من سلويت مفزع. ولهذا دعوته باسمه ثانيًا. من الممكن أن يكون هذا الفعل فقط هو ما جعلنى أبدو كشبح بشــع، لأن آكيرا لوى وجهه متقززًا، ثم بصق بازدراء علىّ. لم يســتطع أن يستجمع من قواه وسال اللعاب أسفل خده.

'آكيرا! إنه أنا! رائع أن أجدك هكذا. الآن أستطيع مساعدتك.'

نظر إلىّ، ثم قال: 'دعنى أموت.'

'أنت لا تموت، أيها الفتى العجوز. لقد نزفت بعض الـدم، وقـد مررت بفترة فظة مؤخرًا. لكننا سـوف نأخـذك لتتلقـى المسـاعدة الملائمة، وستكون على ما يُرام، سترى.'

'خنزير. خنزير.'

'خنزير؟'

'أنت. خنزير.' وثانيةً بصق على، وثانيةً سال اللعاب من فمـه دون قوة.

'آكيرا. ألم تزل فعلاً لا تستطيع أن تميز من أنا.'

'دعنى أموت. أموت كجندى.'

'آكيرا، إنه أنا. كريستوفر.'

'أنا لا أعرف. أيها الخنزير.'

'اسمع، دعنى أخلصك من هذه القيود. حينئذٍ ستشعر أنك أفضـل كثيرًا. ثم بعد ذلك سترجع إلى رشدك.'

نظرت أعلى كتفى، وقد فكرت فى طلب آلة ما أقطع بها القيود. حينئذٍ رأيت أن كل الناس فى الغرفة قد تجمعوا واحتشدوا على مقربةٍ خلفى – كثيرون يحملون أسلحة من نـوعٍ مـا أو آخـر – وكـأنهم يأخذون أوضاعهم لالتقاط صورة جماعية مشئومة. جفلت إلى حدٍ ما – لأننى للحظة كنت قد نسيتهم – وتحسست مسدسى. لكن فـى تلـك اللحظة بالضبط، قال آكيرا بقوة جديدة:

'لو قطعت أحد القيود، سأقتلك. احذر، فهمت، أيها الإنجليزى؟'

'عن ماذا تتحدث؟ انظر، يا ضيق العقل، إنه أنا، صديقك. سوف أساعدك.'

'أنت أيها الخنزير. تقطع القيد، سأقتلك.'

'انظر، هؤلاء الناس هنا سيقتلونك بسرعة جدًا. على أية حال، جراحك ستتلوث توًا. لابد وأن تتركنى أساعدك.'

فجأة بدأت امرأتان صينيتان فى الصراخ. إحداهما بدت وكأنها تخاطبنى. للحظة ساد الارتباك، ثم ظهر طفل فى حدود العاشرة يحمل منجلاً. عندما أتى إلى دائرة الضوء، رأيت قطعة فراء – ربما كانت بقايا أحد القوارض – تتدلى من طرف شفرة المنجل. أدهشنى أن الولد كان يحمل المنجل بعناية شديدة حتى لا يسقط على الأرض، لكن حينئذ قامت السيدة التى كانت تزعق فى وجهى بإمساك المنجل وسقط ما كان يتدلى منه إلى الأرض.

'الآن انظروا،' وصرخت فى الحشد. 'لقد ارتكبتم خطأ. هذا رجل طيب. صديقى. صديق.'

صرخت المرأة ثانيةً، مشيرةً إلى أنه ينبغى على أن أتنحى جانبًا.

'لكنه ليس عدوكم،' واصلت كلامى. 'إنه صديق. سوف يساعدنى. *يساعدنى فى حل القضية.*'

رفعت المسدس فتراجعت المرأة للخلف. فى الوقت نفسه، كان الآخرون جميعًا يتحدثون فى الوقت نفسه وبدأ أحد الأطفال فى البكاء. ثم اندفع رجلٌ كبير السن إلى المقدمة، ومعه فتاة تمسك يده.

قال، 'أنا أتحدث الإنجليزية.'

'حسنًا، شكرًا للسماء على ذلك.' قلت. 'من فضلك أخبر كل الحاضرين أن هذا الرجل هنا صديقى. وبأنه سوف يساعدنى.'

'هو. جندى يابانى. لقد قتل العمة يون.'

'أنا واثق أنه لم يفعل. ليس هو شخصيًا.'

'لقد قتلها ونهبها.'

'لكن ليس هذا الرجل. إنه آكيرا. هل رآه أيكم، هذا الرجل *بالتحديد*، يسرق أو ينهب؟ اذهب واسألهم.'

استدار الرجل، على مضض إلى حدٍ ما، وغمغم بشىء. أثار هذا جدلاً أكثر، سلاحٌ آخر، منجل مشحوذ، تناقلته الأيدى وأمسكته المرأة الأخرى التى فى المقدمة.

'حسنًا؟' سألت الرجل الكبير. 'ألست أنا على حق؟ ليس هناك من رأى آكيرا شخصيًا يرتكب أى خطأ.'

هز الرجل العجوز رأسه، ربما على سبيل الشعور بالخزى، ربما ليشير إلى عدم فهمه. خلفى، كان آكيرا يُصدر جلبة فاستدرت إليه.

'انظر، هل تفهم؟ الأمر فقط مثل مرورى صدفةً من هنا. لقد خلطوا بينك وبين شخصٍ آخر، ويريدون قتلك. بحق الله، ألم تزل غير قادرٍ على معرفة منْ أنا؟ آكيرا! إنه أنا، كريستوفر!'

أشحت بوجهي عن الحشد تمامًا، واستدرت له كليةً، وصوبت ضوء البطارية على وجهه ثانيةً. ثم حينما أطفأتها، رأيت إرهاصات الإدراك على وجهه.

'كريستوفر،' قال، بطريقة تجريبية تقريبًا. 'كريستوفر.'

'نعم، إنه أنا. فعلاً. لقد مضى وقتٌ طويل. وتقريبًا يبدو أنها متأخرة جدًا.'

'كريستوفر. صديقي.'

نهضت، ونظرت خلال المحتشدين، ثم أومأت لولد صغير كان يمسك سكين مطبخ ويقترب. عندما أخذت سكين المطبخ منه، تحركت المرأة التي كانت تحمل منجلاً باندفاع تهديدي صوبي، لكنني رفعت المسدس وصرخت فيها أن تقف مكانها. ثم جثوت ثانيةً على ركبتي إلى جوار آكيرا، وبدأت في تقطيع قيوده. لقد تخيلت قد قال 'خيط' بسبب لغته الإنجليزية المحدودة، لكنني الآن رأيت أنه في الحقيقة كان مقيدًا بخيط قنبي قديم انقطع بسهولة تحت الشفرة.

'أخبرهم،' قلت للرجل العجوز، عندما قطعت القيود عن يدي آكيرا، 'قل لهم إنه صديقي. وإننا سوف نحل القضية معًا. قل لهم إنهم ارتكبوا خطأً جسيمًا. هيا، أخبرهم!'

عندما وجهت انتباهي إلى قدمي آكيرا، سمعت الرجل العجوز يغمغم بشيء ما، وبدأ الجدل ثانيةً بين الناس. ثم نهض آكيرا ثانيةً بحرص ونظر إلي.

'صديقى كريستوفر،' قال. 'نعم، نحن أصدقاء.'

أحسست بالجمهور يتحرك ونهضت على قدمى ربما بسبب قلقى على صديقى صرخت بنبرة صارمة: 'ممنـوع اقتـراب أى مـنكم! سوف أطلق النار، سأفعلها حقًا!' ثم استدرت إلى الرجـل العجـوز، زاعقًا: 'أخبرهم أن يتراجعوا إذا ما أرادوا صالح أنفسهم!'

لا أعرف ما الذى ترجمه الرجل العجوز. على أية حال، فتـأثير ما قاله على الناس – من كان حبهم للقتال، كمـا أدركـت الآن، قـد بالغت فى تقديره – أفضى إلى حالة من الارتباك الكامل. نصفهم بـدا وأنه اعتقد أننى كنت أريدهم أن يتراجعوا إلى جوار الحائط الذى كان إلى اليسار منا، بينما تخيل الباقون أننـى أمـرتهم بـالجلوس علـى الأرض. من الواضح أن جميعهم قد خضعوا لسلوكى التحذيرى، ومن تكالبهم على الإذعان للأمر، كانوا ينكفئون على بعضـهم الـبعض، ويصرخون فى ذعر.

آكيرا، وقد أدرك أنه لابد وأن ينتهز الفرصـة، بـذل محاولـة للوقوف على قدميه. رفعته من ذراعه، وللحظة وقفنا نتـأرجح معًـا بصورة غير مستقرة. اضطررت لإعادة المسدس ثانيةً إلى حزامـى كى أحرر منه يدى الأخرى، وحاولنا معًا أن نتقدم خطوة أو اثنتـين. رائحة عفنة كانت تنضح من الجرح، لكننى دفعتها إلى هامش عقلى، وصرخت عبر كتفى، ولم أعد مبالٍ بعدد من سيفهمون منهم:

'سترون فورًا! سترون أنكم ارتكبتم خطأً.'

'كريستوفر،' غمغم آكيرا فى أذنى. 'صديقى كريستوفر.'

'انظر هنا،' قلت له بهدوء. 'لابد وأن نبتعد عن هؤلاء النـــاس. مدخل الباب هذا الذى فى الركن هناك. هل تظن أنك تستطيع المرور منه؟'

نظر آكيرا، وهو يلقى بثقله كله على كتفى، فى العتمـــة. 'نعـــم. هيا.'

بدا أن ساقه لم تجرح وكان يمشى بحالة معقولة. لكن بعد خمس أو ست خطوات معًا، زلت قدمه، وللحظة، بينما كنا نجتهـــد كـــى لا ننهار فوق بعضنا البعض، لابد وأننا كنـــا نبـــدو للنـــاظرين وكأننـــا نصارع بعضنا البعض. لكننا نجحنا فى أن نجد حلاً آخر، وشـــرعنا فى المشى. فى إحدى المرات، جرى طفلٌ صـــغير ليقـــذفنا بـــبعض الوحل، لكنه جُذب إلى الخلف على الفور. ثم وصلت أنا وآكيرا إلـــى مدخل الباب - الباب ذاته كان قد اختفى - وترنحنا عبره إلى المنزل المجاور.

الفصل العشرون

ساعة عبرنا خلال حائطين آخرين، ولم يكن هناك ما يشير إلـــى وجود من يقتفي أثرنا، شعرت لأول مرة بحالة مـــن الابتهـــاج للـــم شملي، أخيرًا، أنا وصديقي القديم. وجدت نفسي أضحك لبضع مرات ونحن نستند بعضنا البعض ونتمايل، ثم ضحك آكيرا أيضًـــا، وبـــدت سنوات فراقنا وكأنها تذوب بيننا.

'كم مضى من الوقت على فراقنا، يا آكيرا؟ لقد مر وقتٌ طويـــل جدًا.'

كان يتحرك إلى جواري متألمًا، لكنه استطاع أن يقـــول: 'نعـــم، وقتٌ طويل.'

'تعرف، لقد رجعت. إلى البيت القديم. أعتقد أن منزلكم لم يـــزل إلى جواره.'

'نعم. إلى جواره مباشرةً.'

'أوه، هل رجعت أنت أيضًا؟ لكن بالطبع، أنت كنت هنـــا طيلـــة الوقت. لا تنظر إلى هذا على أنه شيء له مذاقه الخاص.'

'نعم،' قال ثانيةً، ببعض الجهد. 'وقـــتٌ طويـــل. إلـــى جـــواره مباشرةً.'

اضطررته للتوقف، وأجلسته على بقايا حـــائط. ثـــم تفحصـــت جروحه ثانيةً باستخدام ضوء البطارية وعدســـتي المكبـــرة، بعـــد أن خلعت عنه السترة الرثة لزيه العسكري بعناية شديدة. كنـــت لـــم أزل

غير قادرٍ على التيقن بدرجة كبيرة؛ كنت خائفًا أن يكون الجرح تحت ذراعه قد دخل فى طور غرغرينا، لكن أدهشنى حينئذٍ أن الرائحة الكريهة ربما كان مصدرها شيء قد لطخ ثيابه، ربما من المكان الذى قد كان يرقد فيه على الأرض. على الجانب الآخر، لاحظت أنه ساخن بصورة خطرة وغارق تمامًا فى عرقه.

خلعت سترتى، وقطعت عدة شرائح من الكتان كى أستخدمها كضمادات. ثم بذلت قصارى جهدى لتنظيف الجرح بمنديلى. رغم أننى حاولت إزاحة الصديد برقة قدر المستطاع، فقد أخبرتنى شهقاته الحادة بأننى أؤلمه.

'أنا آسف، يا آكيرا. سأحاول أن أكون أقل جلافة.'

'جلافة،' قال، وكأنه يمعن التفكير فى الكلمة. ثم أطلق ضحكة مباغتة وقال: 'أنت تساعدنى. شكرًا لك.'

'بالطبع أنا أساعدك. وفى التو، سنحصل لك على المساعدة الطبية الملائمة. حينئذٍ ستكون على ما يرام فى أقرب وقت. لكن قبل أن نفعل ذلك، سيتحتم عليك مساعدتى. هناك مهمة عاجلة جدًا أمامنا أولاً، وأنت ستفهم أكثر من أى شخصٍ آخر لماذا هى عاجلة. تعرف، يا آكيرا، لقد حددت الموقع أخيرًا. المنزل الذى يُحتَجَز فيه والدى. نحن على مقربة منه جدًا فى هذه اللحظة. أنت تعرف، أيها الفتى العجوز، لبعض الوقت، كنت أفكر فى الذهاب إلى ذلك المنزل وحدى. كنت سأفعلها وحدى، لكن فى الواقع، ستكون مخاطرة مروعة للغاية. السماء وحدها تعرف كم عدد المحتجزين هناك. أنا، فى

الأصل، قد طلبت عددًا من الجنود الصينيين، لكن ذلك كان مستحيلا. أنا حتى أفكر في طلب العون من اليابانيين. لكن الآن، نحن معًا، سنقوم بالمهمة، سننجح في إنجاز الأمر بكل تأكيد.'

كنت طيلة الوقت أحاول أن أربط الضمادة المستحدثة حول جذعه ورقبته بطريقة تجعل الجرح تحت بعض الضغط. كان آكيرا يشاهدني بإمعان، وعندما توقفت عن الكلام، ابتسم وقال:

'نعم. سأساعدك. أنت تساعدني. حسنًا.'

'لكن، يا آكيرا، لابد أن أعترف. لقد ضللت قليلاً. لقد كنت أمضي في الطريق الصحيح جدًا قبل أن ألتقيك بفترة قصيرة. لكن الآن، لا أعرف أي طريق ينبغي على أن آخذه. لابد أن نبحث عن شيء ما يسمى المحرقة الشرقية. مبنى كبير له مدخنة. أسألك، أيها الفتى العجوز، هل عندك أية فكرة عن مكان وجود هذه المحرقة؟'

كان آكيرا يواصل النظر إلي، فيما صدره يجيش. عندما لمحته هكذا، تذكرت فجأة تلك الأوقات التي عندما كنا كثيرًا ما نجلس معًا على قمة الرابية الصغيرة في حديقتنا، لنستعيد أنفاسنا. كنت على وشك أن أذكره بهذا، عندما قال:

'أنا أعرف. أعرف هذا المكان.'

'تعرف كيفية الذهاب إلى المحرقة الشرقية؟ من هنا؟'

أومأ. 'أنا أقاتل هنا منذ أسابيع عديدة. أنا أعرف المكان هنا تمامًا مثلما' – بغتةً ابتسم ابتسامة عريضة – 'مثلما أعرف قريتي، مسقط رأسي.'

ابتسمت أنا أيضًا، غير أن ملاحظته أربكتنى. 'أى قرية ومسقط رأس هذه؟' سألت.

'القرية مسقط الرأس التى وُلدت فيها.'

'تقصد المستعمرة الدولية؟'

كان آكيرا هادئًا للحظة، ثم قال: 'نعم. نعم. المستعمرة. المستعمرة الدولية. قريتى ومسقط رأسى.'

'نعم،' قلت. 'أعتقد أنها قريتى ومسقط رأسى أنا أيضًا.'

بدأنا نستغرق أنا وهو فى الضحك، ولبضع لحظات واصلنا الهأهأة والضحك معًا بصورة هستيرية قليلاً. عندما هدأنا إلى حدٍ ما، قلت:

'سوف أخبرك بشىء غريب، يا آكيرا. بإمكانى أن أخبرك بهذا. كل تلك السنوات التى قضيتها فى إنجلترا، لم أشعر أبدًا هناك أننى فى وطنى. المستعمرة الدولية. تلك ستكون دائمًا وطنى.'

'لكن المستعمرة الدولية...' هز آكيرا رأسه. 'هشة للغاية. غدًا، اليوم التالى...' لوح بإحدى يديه فى الهواء.

'أعرف ماذا تعنى،' قلت. 'وعندما كنا أطفالاً، كان الأمر يبدو راسخًا لدينا. لكن كما قررتها أنت توًا. إنها قريتنا مسقط رأسنا. المكان الوحيد الذى ننتمى إليه.'

بدأت أخلع عليه سترته ثانيةً، بمنتهى الحذر حتى لا أتسبب فى إيلامه دون ضرورة.

'هل أنت أفضل الآن، يا آكيرا؟ أنا آسف لأنني لا أستطيع أن أفعل المزيد لأجلك الآن. سنوفر لك فحصًا ملائمًا فى أقرب فرصة. لكن الآن، لدينا مهمة مُلحة لابد من إنجازها. أخبرنى أين نتجه.'

كان تقدمنا بطيئًا. كان من الصعب على أن أستمر فى استعمال البطارية، وغالبًا ما كنا نتعثر فى الظلام، مما كان قاسيًا على آكيرا. فى الحقيقة، كان على وشك الإغماء أكثر من مرة فى ذلك الجزء من رحلتنا، وتزايد وزنه حول كتفى. وأنا لم أكن خاليًا من الجراح الخاصة بى؛ فمن المزعج جدًا أن حذائى اليمين قد انشق مما تسبب فى جرح قدمى بصورة سيئة، مفضيًا إلى ألم حاد مع كل خطوة. أحيانًا كنا من التعب بحيث لم نستطع التقدم لأكثر من اثنتى عشرة خطوة دون التوقف ثانيةً. لكننا قررنا ألا نركن إلى الجلوس فى هذه المناسبات، وكنا نقف ونترنح معًا، نلهث من أجل استعادة تنفسنا، ونعيد تعديل توازننا فى محاولة لإراحة ألم على حساب الآخر. تزايدت حدة الرائحة الزنخة التى كان ينضح بها جرحه، وكان صوت الفئران الهائجة الدائم مثيرًا للأعصاب، لكننا لم نكن، فى تلك المرحلة، نسمع أى أصوات للقتال.

فعلت أقصى ما يمكن للحفاظ على ارتفاع روحنا المعنوية، وذلك بالإشارة إلى بعض الملاحظات الطريفة كلما أمكننى ذلك. فى الحقيقة، رغم أن مشاعرى تجاه لم الشمل هذا، خلال تلك اللحظات، كانت ذات طبيعة معقدة. لم يكن هناك شك فى عميق امتنانى للقدر الذى جمع بيننا فى الوقت المناسب تمامًا لإنجاز مهمتنا الكبرى تلك. لكن فى الوقت نفسه، ثمة شىء فىّ انتابه الأسى لأن لم شملنا - الذى كنت،

ولوقت طويل، قد أمعنت التفكير فيه - قد حدث فى مثل هذه الظروف المروعة. لقد كان فى الواقع بعيدًا تمام البعد عن المشاهد التى كنت دائمًا أرسمها فى ذهنى - حيث أنا وهو نجلس فى ردهة مريحة فى فندق ما، أو ربما فى شرفة بيت آكيرا، المطلة على حديقة هادئة، نتجاذب أطراف الحديث، ونستغرق فى الذكريات دونما انقطاع.

فى الوقت نفسه، كان آكيرا يحافظ على إحساس واضح بالاتجاه رغم كل ما كان يشعر به من صعوبات. كثيرًا ما كان يقودنا إلى طريق خفت أن يفضى بنا إلى طريق مسدودة، لأجل ظهور مدخل أو فتحة فقط. بين الحين والآخر، كنا نمر بسكانٍ آخرين، كنا نستشعر حضور بعضهم فى الظلام ليس إلا؛ البعض الآخر كانوا يتحلقون حول نور مصباح أو نار، وكانوا يرمقون آكيرا بنظرات عداء خفت أن نتعرض للهجوم ثانيةً. لكن فى معظم الأحيان كان يُسمح لنا بالمرور دونما مضايقات، وحتى فى إحدى المرات نجحت فى إقناع امرأة عجوز أن تسقينا فى مقابل آخر الأوراق النقدية فى جيبى.

ثم تغيرت تضاريس المنطقة بصورة ملحوظة. لم يكن هناك جيوب سكنية أخرى، ومررنا فقط ببعض أفراد منعزلين تنطوى نظراتهم على شىء من الخذلان واللامعنى، يغمغمون أو يبكون مع أنفسهم. لم يكن هناك أية مداخل أو أبواب أخرى، فقط الفتحات المحفورة بالمظفار من نوعية الفتحات نفسها التى مررت عبرها فى بداية الرحلة. كل واحدة منها عرضتنا لصعوبات بالغة، لأن آكيرا لم يكن قادرًا على المرور عبرها - حتى مع مساعدتى له فى كل حركة - دون أن يشعر بألم مبرح.

منذئذٍ كنا قد توقفنا عن الكلام، وكنا ببساطة نُصدر نخيرًا مع كل خطوة، عندما أوقفنا آكيرا ورفع رأسه. ثم سمعت أنا الآخر صوت شخصٍ ما يُصدر أوامره. كان من الصعب أن نحدد مدى قربنا من الصوت – ربما كان على بعد منزلين أو ثلاثة.

'ياباني؟' سألت هامسًا.

واصل آكيرا الإنصات، ثم هز رأسه.
'كومينتانج، يا كريستوفر، نحن بالقرب جدًا جدًا من... من...'
'الجبهة؟'
'نعم، الجبهة. نحن الآن بالقرب جدًا من الجبهة. كريستوفر، إن هذا يعرضنا لكثير من الخطر.'

'نعم، بالضرورة.'

كان هناك إطلاق مباغت لنيران بندقية، ثم من بعيد جدًا كان هناك رد بالرشاش الآلي. بقوة أحكمنا قبضتنا على بعضنا البعض، ثم حرر آكيرا نفسه من تشبثي به وجلس.

'كريستوفر،' قال بهدوء. 'نرتاح الآن.'
'لكننا لابد وأن نصل إلى المنزل.'
'نرتاح الآن. خطر جدًا أن ندخل في منطقة قتال أثناء الظلام. سنُقتل. لابد وأن ننتظر الصباح.'

رأيت أن هذا معقول، وعلى أية حال، فقد كنا في حالة من الإجهاد بحيث لا نستطيع أن نمضي أبعد من ذلك. أنا أيضًا جلست وأطفأت البطارية.

جلسنا فى العتمة لبعض الوقت، لم يكن يقطع الصمت سوى صوت أنفاسنا فقط. ثم بغتةً بدأ تبادل إطلاق النار ثانية، وربما لمدة دقيقة أو اثنتين استمر إطلاق النار بطريقة وحشية. وانتهى فجأةً؛ ثم بعد فترة قصيرة من الهدوء، بدأت أصوات جلبة عبر الحوائط. كان صوتًا ممتدًا ورفيعا، وكأنه نداء حيوان فى البرية، لكنه توقف بصرخة بعزم الصوت. بعدها سمعنا زعيقًا ونشيجا، ثم بدأ الرجل الجريح يزعق بجمل كاملة. كان صوته يشبه بشكل ملحوظ الجندى اليابانى المُحتَضَر الذى كنت قد سمعته من قبل، وفى حالة الإجهاد التى كنت أعانيها، افترضت أنه لابد هو الرجل نفسه؛ كنت على وشك أن ألفت نظر آكيرا إلى هذا الوقت المشئوم الذى يعيشه هذا الشخص، عندما أدركت أنه كان يزعق بالماندارين، وليس باليابانية. وإدراكى بأن هذه الأصوات كانت من شخصين أثار فىَّ الهلع إلى حدٍ ما. لقد كان أنينهما المتألم متطابقًا بدرجة كبيرة، الطريقة التى تنهار بها صرخاتهما وتتحول إلى توسلات يائسة، ثم تعود إلى صرخات، حتى إن الفكرة التى استبدت بى هى أن كلاً منا يمضى فى طريقه إلى الموت – وأن هذه الضوضاء المزعجة تشترك فى صفاتها الكونية تمامًا مثل صراخ الأطفال حديثى الولادة.

بعد فترة، أدركت الحقيقة التى تؤكد أنه لو أن القتال يتدفق فى غرفتنا، لكنا نجلس في موقعٍ عارٍ تمامًا. كنت على وشك أن أقترح على آكيرا التحرك إلى مكانٍ ما أكثر أمنًا، لكننى لاحظت أنه كان قد غط فى النوم. أضأت مصباح البطارية ثانيةً واستكشفت فى حذر المكان من حولنا.

كان الدمار المحيط بنا، حتى بالمقاييس العصرية، بالغ الحدة والخطورة. رأيت الدمار الذى خلفته القنابل اليدوية، الثقوب التى خلفها الرصاص فى كل مكان، قرميد مهشم وقطع أخشاب. جاموس ماء ميت يرقد على جنبه فى منتصف غرفة على مسافة سبع أو ثمانى ياردات منا؛ كان يغطيه الرماد والأنقاض، وأحد قرونه يشير إلى السقف. واصلت إلقاء شعاع من ضوء البطارية عليها حتى حددت كل النقاط الممكنة التى يمكن أن يدخل منها المقاتلون إلى حظيرتنا. والأهم من هذا كله، أننى اكتشفت، فى الجانب القصى من الغرفة، خلف الجاموس، فجوة قرميد فى الغرفة، كانت فيما قبل موقدًا أو مدفأة. انتابنى الذهول من أن هذا المكان هو الأكثر أمنًا بالنسبة لنا لقضاء الليلة. هززت آكيرا لأوقظه، بأن وضعت ذراعه حول رقبتى، ونهضنا على أقدامنا ونحن نستشعر الكثير من الألم.

عندما وصلنا فجوة القرميد تلك، أزحت جانبًا بعض الدبش ونظفت منطقة بها ألواح خشبية ناعمة بما يسمح لنا بالاستلقاء. فردت سترتى لآكيرا، وبمنتهى الحذر وضعته على الأرض على جانبه السليم. ثم استلقيت أرضًا فى انتظار النوم.

رغم ما كنت أعانيه من إجهاد، فإن الصرخات المتوالية للرجل المُحتَضَر، ومخاوفى من التورط فى القتال، وأفكارى بخصوص المهمة الخطرة التى نحن بصددها منعونى من الاستغراق فى النوم. بإمكانى أن أقول إن آكيرا أيضًا ظل مستيقظًا، وعندما سمعته أخيرًا وقد نهض من رقدته، سألته:

'كيف حال جرحك؟'

'جرحى. ليس هناك مشكلة، ليس هنالك مشكلة.'

'دعنى أراه ثانيةً...'

'لا، لا. ليس هناك مشكلة. لكن أشكرك. أنت صديق جيد.'

رغم أنه لم يكن يفصل بيننا سوى بضع بوصات، فإننا لم نكن نرى بعضنا البعض على الإطلاق. بعد توقفٍ طويل سمعته يقول:

'كريستوفر، لابد وأن تتعلم التحدث باليابانية.'
'نعم، لابد.'
'لا، أنا أقصد الآن. تتعلم اليابانية الآن.'
'حسناً، بأمانة شديدة، أيها الرفيق العزيز، ليس هذا هو الوقت المناسب كى...'

'لا. لابد أن تتعلم. لو أتى الجنود اليابانيون أثناء نومى، لابد وأن تتحدث إليهم. وتخبرهم أننا أصدقاء. لابد وأن تخبرهم وإلا فسوف يطلقون النار فى الظلام.'

'نعم. أفهم مقصدك.'

'لذلك يجب أن تتعلم. فى حالة نومى أو موتى.'

'الآن انظر هنا، لا أريد أيًا من هذا الهراء. سوف تصبح كما الحصان فى أسرع وقت.'

كان هناك توقفٌ آخر، وتذكرت من سنوات مضت كيف كان أكيرا يفشل فى متابعتى إذا ما استخدمت المفردات الدارجة فى كلامى. لذلك قلت بهدوء وبطء:

'سوف تكون فى أحسن حال. أفهمت، يا آكيرا؟ سأهتم بـــالأمر. ستكون فى أحسن حال.'

'عطوف جدًا،' قال. 'لكن الاحتياط أفضل. لابد أن نتعلم الكلام. باليابانية. لو أتى أى جندى يابانى. سأعلمك كلمة. تذكرها.'

بدأ يتلفظ بشيء بلسانه الأصلى، لكن مـــا قالـــه كـــان طـــويلاً واضطررته أن يتوقف.

'لا، لا، لن أتعلم هذا. شيء أقصر بكثير. فقط لنوضح أننا لســـنا أعداء.'

فكر للحظة، ثم نطق جملة أقصر قليلاً فقط من الســـابقة. بـــذلت محاولة، لكنه قال على الفور:

'لا، يا كريستوفر. خطأ.'

بعد بضع محاولات، قلت: 'انظر، ليس ثم من فائدة. فقط أعطنى كلمة واحدة. الكلمة المرادفة لكلمة "صديق" لا يمكننى أن أستطيع تعلم أى شيء آخر الليلة.'

توموداتشى،' قال. 'قُل. *تو- مو- دا- تشى.*'

كررت هذه الكلمة عدة مرات، وأظن كما ينبغى بالفعل، لكننـــى حينئذٍ أدركت أنه كان يضحك فى الظلام. وجدت نفسى أضحك أيضًا، ثم، تمامًا مثلما فعلنا من قبل، بدأنا نضحك بصورة لم نستطع السيطرة عليها. واصلنا الضحك لمدة دقيقة كاملة تقريبًا، بعـــدها أظـــن أننـــى رحت فى النوم بغتةً.

* * *

عندما استيقظت، كانت أوليات تباشير الفجر تخترق الغرفة. نور شاحب، ضارب إلى الزرقة، وكأن طبقة واحدة من الظلام قد تبددت. كان الرجل المُحتَضر وقتئذ قد صمت، ومن مكان ما تسلل إلى المكان تغريدة طائر. رأيت أن السقف الذى فوقنا كان قد تلاشى بصورة كبيرة، لدرجة أننى كنت أرى، من مرقدى حيث كان كتفى يتكئ على القرميد بصعوبة، نجومًا فى السماء.

خطفت انتباهى حركة فنهضت مذعورًا. حينئذٍ رأيت ثلاثة أو أربعة فئران تتحرك حول الجاموس المائى الميت، ولبضع لحظات جلسات أحدق فيهم. حينئذٍ فقط التفت لأنظر على آكيرا، أفزعنى ما وجدت. كان يستلقى إلى جوارى فى تمام السكون، وكان لون وجهه شاحبًا جدًا، لكننى رأيت بارتياح أنه يتنفس بانتظام. وجدت عدستى المكبرة، وبدأت أتفحص جرحه برقة، لكننى نجحت فقط فى إيقاظه.

'إنه أنا،' همست وهو ينهض ببطء وينظر على المكان من حوله. بدا خائفًا ومرتبكا، ثم بدا وقد تذكر كل شيء، وظهرت فى عينيه نظرة عناد غير مبالية.

'هل كنت تحلم؟' سألت.

أومأ. 'نعم أحلم.'

'بمكانٍ أفضل من هذا، حسبما آمل،' قلت وأنا أضحك.

'نعم.' وتنهد، ثم أضاف: 'كنت أحلم بى عندما كنت صبيا.'

استعمرنا الصمت للحظة. ثم قلت:

'لابد وأنها صدمة عنيفة. أن تأتي من العالم الذى كنت تحلم بـــه إلى هذا العالم هنا.'

كان يحدق في رأس الجاموس الناتئة من الدبش.

'نعم،' قال أخيرًا. 'حلمت بي وأنا صبيٌّ. بــأمي، وأبـــي. ولـــد صغير.'

'هل تذكر، يا آكيرا. كل الألعاب التي اعتدنا أن نلعبهــا؟ علـــى الرابية. في حديقتنا؟ هل تذكر، يا آكيرا؟'

'نعم. أذكر.'

'تلك كانت ذكريات جميلة.'

'نعم، ذكريات بالغة الجمال.'

'تلك كانت أيامٌ رائعة،' قلت. 'لم نكن ندرك وقتئذ، بالطبع، مدى روعتها. أعتقد أن الأطفال لا يدركون ذلك أبدًا.'

'عندى طفل،' قال آكيرا بغتةً. 'ولد. في الخامسة من عمره.'

'أحقًا، أود أن أقابله.'

'فقدت صورته. بالأمس. منذ يــوم مضـــى. عنـــدما جُرحـــت. ضاعت مني الصورة. صورة ابني.'

'الآن انظر، أيها الرفيق القديم، لا تقنط هكذا. ستعود لرؤية ابنك في أقرب فرصة فورًا.'

واصل النظر لبعض الوقت على الجاموس. قــام فــأر بحركـــة مباغتة فتطايرت غيمة من الذباب لأعلى، ثم اســتقرت ثانيـــةً علـــى البهيم.

'ابنى. هو فى اليابان.'

'أوه، هل أرسلته إلى اليابان؟ هذا مفاجئ لى.'

'ابنى. فى اليابان. لو متُّ، قل له، من فضلك.'

'أخبره أنك قد مت؟ آسف، لا أستطيع أن أفعل ذلك. لأنك لن تموت. ليس الآن، على أية حال.'

'أخبره. أننى مت من أجل الوطن. أوصه بحسن معاملة أمه. وحمايتها. وأن يبنى عالمًا جميلا.' حينئذٍ كان يتحدث هامسًا تقريبًا، يناضل كى يجد من الكلمات الإنجليزية ما يعبر به، يناضل كى لا ينخرط فى البكاء. 'يبنى عالمًا جميلا،' قال ثانيةً، وهو يلوح بيده فى الهواء وكأنه جصاص يصقل حائطًا. كانت نظرته تتبع يده وكأنها فى حالة من الدهشة. 'نعم. يبنى عالمًا جميلا.'

'عندما كنا صبية،' قلت، 'كنا نعيش فى عالمٍ جميل. هؤلاء الأطفال، هؤلاء الأطفال الذين كنا نمر بهم، كم من المزعج أن يتعلموا فى هذه السن المبكرة مدى ما يصم الأشياء من بشاعة فى الواقع.'

'ابنى،' قال آكيرا. 'فى الخامسة من العمر. فى اليابان. لا يعرف شيئًا، لا يعرف شيئًا. يظن أن العالمَ جميل. والناس طيبون. لعبه. وأمه، وأبيه.'

'أظن أننا كنا هكذا أيضًا. لكننى أعتقد أن الأشياء لم تنهر تمامًا.' كنت أحاول مقاومة نوبة القنوط الخطرة التى انتابت صديقى.

'مع ذلك، فعندما كنا أطفالا، عندما كانت الأمور تخطئ المسار، لم يكن لدينا ما يمكن عمله كي نساعد في عودتها إلى المسار الصحيح. لكننا الآن قد بلغنا من الرشد مبلغا، الآن بإمكاننا. هذه هي الفكرة، فهمت؟ انظر إلينا، يا آكيرا. بعد كل هذا الوقت، يمكننا في النهاية أن نعيد الأمور إلى نصابها الصحيح. هل تتذكر، يا رفيقي القديم، كيف اعتدنا أن نلعب هذه الألعاب؟ مرارًا وتكرارا؟ كيف كنا نمثل أننا بوليس سري يبحث عن أبي؟ الآن كبرنا، يمكننا أخيرًا أن نعيد الأمور إلى نصابها الصحيح.'

لوقتٍ طويل لم يتكلم آكيرا. ثم قال: 'عندما ابني. يكتشف أن العالم ليس جميلا. أتمنى...' توقف، إما بسبب الألم أو لأنه لم يجد من المفردات الإنجليزية ما يكمل به الكلام. قال شيئًا ما باليابانية، ثم واصل كلامه: 'أتمنى أن أكون معه. كي أساعده. عندما يكتشف.'

'اسمع، أيها المقلد العظيم،' قلت، 'هذا كله كآبة فائضة عن الحاجة. سوف ترى ابنك ثانيةً، سأهتم بذلك. وكل هذا عن مدى روعة العالم إبان صبانا. حسنًا، هذا هراء مبالغ فيه بطريقة ما. إنه بالفعل ما قادنا إليه الكبار. الإنسان لا يجب أن يشعر بحنين مفرط إلى الطفولة.'

'ح – ني – ن،' قال آكيرا، وكأنها كلمة كان يناضل كي يجدها. ثم تلفظ بكلمة باللغة اليابانية، ربما مرادف "حنين". ' ح – ني – ن. جميل أن ينتابك الـ – ح – ني – ن. مهم للغاية.'

'صحيح، أيها الرفيق القديم؟'

'مهم. مهم للغاية. نتوق إلى الماضي. عندما نتوق إلى الماضي، نتذكر. عالمًا أفضل من العالم الذي نكتشفه عندما نكبر. نتذكر ونتمنى أن يعود العالم الجميل ثانيةً. لهذا فالأمر غاية في الأهمية. والآن فقط، كنت أحلم. أنني طفل. أمي وأبي على مقربة مني. في بيتنا.'

سكت وواصل النظر بإمعان في الدبش.

'آكيرا،' قلت، وقد استشعرت أنه كلما امتد هذا الحوار، كلما ازداد الإحساس بخطر ما لم أكن أتمنى له أن يظهر. 'أمامنا الكثير من العمل. أمامنا الكثير من العمل.'

أتت سلسلة طلقات نارية من رشاش آلي على سبيل الرد على كلامي. كانت على مسافة أبعد من إطلاق النار في الليلة الماضية، لكننا جفلنا.

'آكيرا،' قلت. 'هل نحن الآن على مسافة بعيدة من المنزل؟ لابد وأن نحاول ونصل إليه قبل أن يبدأ القتال جديدًا مرةً ثانية. كم يبعد الآن عنّا؟'

'ليس بعيدًا. لكن سنتقدم بحرص. الجنود الصينيون على مقربةٍ منّا.'

***

بدا أن النوم لم ينعشنا بقدر ما جعلنا أكثر إجهادًا. عندما وقفنا وألقى آكيرا بثقله علي، اضطرني الألم الذي سرى في رقبتي وكتفي أن أتأوه. لبعض الوقت صار مشينا معًا نوعًا من العذاب، حتى استعاد جسدانا اعتيادهما.

ناهيك عن ظروفنا الجسدية، فقد كانت المنطقة التى نتحرك فيها ذلك الصباح الأصعب على الإطلاق وبكل المقاييس. كان الخراب ممتدًا جدًا، بين الحين والآخر كنا نتوقف، لأننا لم نستطع أن نجد طريقًا بين كومات الدبش. وبينما كانت رؤيتنا لموضع أقدامنا تعتبر عونًا لا يمكن إنكاره، لكن كل البشاعة التى كان الظلام قد أخفاها عادت للظهور أمامنا الآن، مما دق فى نفسينا ناقوسًا عميقًا. فى خضم الدمار، رأينا دماء – أحيانًا كانت جديدة، وفى أحايين أخرى كانت منذ أسبوع – على الأرض، على الحيطان، منتشرة على الأثاثات المهشمة. الأسوأ من هذا – وكانت أنوفنا تنذرنا بوجودها قبل أن نراها بأعيننا – كنا نمر، بانتظام يشوبه الارتباك، بكومات من الأحشاء الآدمية فى مراحل متعددة من التحلل. ذات مرة عندما توقفنا، وجهت ملاحظة لآكيرا بخصوص ذلك، فقال ببساطة:

'الحربة. الجنود دائما ما يغمدون الحربة فى البطن. لو أنك وضعتها هنا،' – وأشار إلى أضلعه – 'فالحربة لا تخرج ثانيةً. هكذا تعلم الجنود. البطن دائمًا.'

'الأجساد على الأقل تهلك. على الأقل يفعلون ذلك كثيرًا.'

واصلنا الاستماع إلى إطلاق النار بين الحين والآخر، وفى كل مرة فعلنا ذلك، كان ينتابنى إحساس بأننا قد اقتربنا منه جدًا. أقلقنى هذا، لكن آكيرا الآن بدا أكثر يقينًا من الطريق من ذى قبل، وفى كل مرة أناقش فيها قراراته، كان يهز رأسه بتضجر.

عندما بلغنا فى تقدمنا المرور بجثتى جنديين صينيين، كانت الشمس تسقط فى رماحٍ قوية من خلال الأسقف المهشمة. لم نقترب

منهما بما يجعلنا قادرين على فحصهما جيدًا، لكننى خمنت أنهما كانا على قيد الحياة قبل بضع ساعات. أحدهما كان وجهه مدفونًا فى الدبش؛ الآخر مات وهو جاثٍ على ركبتيه، ورأسه يستند للحائط القرميدى، وكأن الأسى قد غالبه.

عند نقطةٍ ما، أصبح اعتقادى الراسخ، بأننا كنا على وشك المُضى مباشرةً إلى تبادل النيران، قويًا لدرجة أننى أوقفت آكيرا قائلاً:

'الآن انظر هنا. ما هى خطتك؟ إلى أين تقودنا؟'

لم يقل شيئًا، لكنه وقف قبالتى، ورأسه منحنية، لاستعادة انتظام أنفاسه.

'هل تعرف بالفعل إلى أين نتجه الآن؟ آكيرا، أجبنى! هل تعرف إلى أين نتجه؟'

رفع رأسه متضجرًا، ثم أشار أعلى كتفى.

استدرت – كان على أن أفعل هذا ببطء، لأنه لم يزل يستندنى – ورأيت عبر جزء متهدم من الحائط، على بعد ما لا يزيد عن اثنتى عشرة خطوة، المحرقة الشرقية دون شك.

لم أقل شيئًا، إلا أن اتجه بنا إلى هناك. مثل توأمتها، نجت المحرقة الشرقية من الدمار تمامًا. كانت غارقة فى الرماد، لكنها بدت فعليًا فى حالة جيدة. تركت آكيرا – الذى جلس فورًا على بعض الدبش – اتجهت للأمام مباشرةً إلى المحرقة. وتمامًا مثلما حدث فى

المرة الأخيرة، رأيت المدخنة فوقي تمتد لأعلى باتجاه الغـيم. عـدت إلى حيث كان آكيرا يجلس وبرفق مسست كتفه السليم.

'آكيرا، أعتذر عن نبرتي في الكلام إليك قبل قليـل. أريـدك أن تعرف أنني في غاية الشكر لك. لم يكن ممكنًا أن أصـل إلـى هنـا وحدي. حقيقةً، يا آكيرا، أنا في غاية الشكر.'

'لا عليك.' كان نفسه وقتئذٍ أكثر انتظامًا. 'أنت تسـاعدني. أنـا أساعدك. أوكاي.'

'لكن يا آكيرا، لابد وأننا بالقرب جدًا من المنـزل الآن. دعنـي أرى. على المدى هناك' – أشرت – 'الحارة في ذلك الاتجاه. لابـد أن نتبع الحارة.'

بدا آكيرا كارهًا لفكرة النهوض على قدميه، لكنني رفعته لأعلـى وانطلقنا ثانيةً. بدأت باتباع ما بدا بوضوح أنه الحارة الضـيقة التـي بينها لي الملازم من قمة السطح، لكننا بمنتهى السرعة وجدنا طريقنا مغلقًا تمامًا بالدبش وكسارة الحجارة الساقطة. مررنا من جدار إلـى منزل قريب، ثم انطلقنا على ما تخيلته وجهة سير موازيـة، وشـققنا طريقنا عبر الغرف المفروشة بالدبش.

هذه المنازل التي وجدنا الآن نفسنا فيها كانت أقل تهدمًا، وكانت صحية أكثر من تلك التي عبرنا من خلالها مؤخرًا. كان هناك مقاعد، وتسريحات، أيضًا بعض المرايا والمزهريات كانت لـم يصـبها أي ضر في خضم هذا الدمار. كنت أستحث نفسي على المضـي قـدمًا، غير أن جسم آكيرا بدأ ينتابه الضعف الشديد، واضـطررنا للتوقـف

ثانيةً. جلسنا على دعامة سقف ساقطة، وبينما كنا نستعيد أنفاسنا، وقعت عيناى لوحة مكتوب عليها اسم بخط اليد فى الدبش الذى أمامنا.

لقد انشقت بوضوح إلى نصفين مع تجزع الخشب، غير أن القطعتين سقطتا جنبًا إلى جنب؛ رأيت أيضًا جزءًا من الشراعة التى كانت اللوحة من قبل مثبتة إلى جوارها على واجهة المدخل. لم تكن هذه بكل تأكيد المرة الأولى التى نمر فيها بشىء من هذا القبيل، غير أن غريزة ما لفتت انتباهى إلى هذا الشىء على وجه التحديد. تقدمت إلى اللوحة، واستخرجت قطعتى الخشب من الأنقاض، وأعدتهما إلى حيث كنا نجلس.

'آكيرا،' قلت، 'هل تستطيع قراءة هذه؟' أمسكت القطعتين معًا أمامه.

حدق فى الكتابة لبرهة، ثم قال: 'لغتى الصينية ليست جيدة. اسم. اسم شخصٍ ما.'

'آكيرا، استمع بعناية. انظر إلى هذه الحروف. لابد وأنك تعرف شيئًا ما عنها. من فضلك، حاول أن تقرأها. إن هذا غاية فى الأهمية.'

واصل النظر فى اللوحة، ثم هز رأسه.

'آكيرا، اسمع،' قلت. 'من الممكن أن تكون هذه الحروف هى ييه تشين؟ هل يمكن أن يكون هذا هو الاسم المكتوب هنا؟'

'بيه تشين...' آكيرا نظر بإمعان. 'بيه تشين. نعم، ممكن. هـذا الحرف هنا... نعم ممكن. إنها تقول بيه تشين.'

'فعلاً؟ هل أنت متأكد؟'

'لست متأكدًا. لكن... ممكن. ممكن جدًا. نعم' – أومـأ – 'بيـه تشين. أعتقد هذا.'

وضعت القطعتين وأخذت طريقى بعناية فوق الدبش باتجاه مقدمة المنزل الذى كنا فيه. كان هناك فجوة مهدمة حيث كان مدخل البـاب موجودًا، وبالنظر عبرها، رأيت الحارة الضيقة بالخـارج. نظـرت أمامى على المنزل المقابل مباشرةً. كانت واجهات العقارات المجاورة مهدمة بصورة سيئة، لكن المنزل الذى كنت أنظر قد بقـى بصـورة غريبة دون أن تمسسه أية أضرار. لم يكن هناك أى علامات واضحة تنم على الدمار: مصـاريع النوافـذ، الشـراعة الخشـبية الزلاجـة المصنوعة بطريقة غير متقنة، حتى التعويذة التى تتدلى على مـدخل الباب ظلت كما هى دون أن يصيبها ضر. بعد كل ما مررنا به، بـدا البيت وكأنه شبح من عالم آخر أكثر تحضرًا. وقفت هناك أحدق فيـه لبعض الوقت. ثم أومأت لآكيرا.

'انظر، تعال هنا،' قلت بما يشبه الهمس. 'لا يمكـن أن يكـون هناك منزل غيره.'

آكيرا لم يتحرك، لكنه تنهد بعمق. 'كريستوفر. أنت صديق. أحبه كثيرًا.'

'اخفض من صوتك. آكيرا، لقد وصلنا. إنه هو هـذا المنـزل. أستطيع أن أستشعره الآن بخلجاتى.'

'كريستوفر...' بكل ما أوتى من جهد نهض على قدميه وتقدم ببطء فوق الأرض. عندما أصبح إلى جوارى، وجهت نظره إلى المنزل. كانت شمس الصباح تضرب بأشعتها فى الحارة مما أدى إلى سقوط أشرطة ضوئية ألقت على واجهته.

'هناك، يا آكيرا. ها هو ذا هناك.'

جلس إلى جوار قدمى وتنهد مرةً أخرى. 'كريستوفر. يا صديقى. لابد وأن تكون حذرًا فى تفكيرك. لقد مضت سنوات عديدات. سنوات عديدات الآن...'

'أليس هذا غريبًا،' قلت ملاحظًا، 'كيف أن القتال الدائر لم يمسس ذلك المنزل؟ المنزل المحتجز داخله والدى.'

مع تلفظى بهذه الكلمات، أحسست بغتةً أننى انسحقت تقريبًا. لكننى استجمعت نفسى وقلت: 'الآن، يا آكيرا، لابد وأن ندخل. سنفعل هذا معًا، يدًا بيد. تمامًا مثلما فعلنا فى المرة الأخرى، عندما دخلنا غرفة لينغ تين. هل تتذكر، يا آكيرا؟'

'كريستوفر. يا صديقى العزيز. لابد وأن تفكر بمنتهى الحرص. سنوات طويلات مضت، سنوات طويلات. صديقى، من فضلك، اسمع. ربما يكون أمك وأبوك. الآن مضت سنوات طويلات...'

'سندخل الآن معًا. ثم بمجرد أن نفعل ما ينبغى القيام به، أعدك بأننا سنوفر لك الرعاية الصحية اللازمة. فى الحقيقة، من الممكن أن يكون هناك شىء ما، بعض الإسعافات الأولية، فى ذلك المنزل. على الأقل سنجد بعض الماء النظيف، وربما ضمادات. ستكون أمى قادرة

على العناية بجرحك، وربما تضع لك ضمادة نظيفة. لا تقلق، ستكون على ما يرام في أسرع وقت.'

'كريستوفر. لابد وأن تفكر بمنتهى الحرص. لقد مرت سنوات عديدات...'

صمت حينما انفتح الباب المقابل في الحارة بصرير. لم ألبث أن بدأت أتحسس مسدسي حتى ظهرت فتاة صينية صغيرة.

ربما كانت في السادسة من العمر. كان وجهها يحمل تعبيرًا ساكنًا، وكان جميلاً إلى حد ما. كان شعرها مربوطًا بعناية على هيئة ضفائر صغيرة. كانت سترتها البسيطة وبنطالها الواسع أكبر قليلاً عليها.

نظرت حولها، عيناها كانتا نصف مفتوحتين في ضوء الشمس، ثم نظرت باتجاهنا بجرأة مثيرة للدهشة. توقفت في الحارة على مسافة بضع ياردات، وقالت شيئًا ما بالماندارين، وتحركت عائدة إلى المنزل.

'آكيرا، ماذا تقول؟'

'لا أفهم. ربما تدعونا للدخول.'

'لكن كيف يمكن أن تكون على علاقة بالأمر؟ هل تظن أن لها علاقة بالمُختَطِفين؟ ماذا تقول؟'

'أظنها تطلب منّا المساعدة.'

'سوف ينبغي علينا أن نطلب منها أن تقف بعيدًا،' قلت وأنا أسحب مسدسي. 'لابد وأن نحتاط للمقاومة.'

'نعم، إنها تطلب المساعدة. إنها تقول إن الكلب مجروح. أظن أنها قالت الكلب. لغتى الصينية ضعيفة.'

ثم رأينا، من مكان ما بالقرب من بداية شعرها المربوط بعناية، خطًا رفيعًا من الدم يجرى لأسفل، على جبهتها وأسفل خدها. بدت الفتاة الصغيرة وأنها لم تلحظ شيئًا وتحدثت إلينا ثانيةً، وهى تومئ مرةً أخرى إلى منزلها.

'نعم،' قال آكيرا. 'قالت الكلب. الكلب جريح.'

'كلبها؟ إنها جريحة. ربما بخطورة.'

تقدمت خطوة باتجاهها، عازمًا على فحص جرحها. لكنها ترجمت حركتى على أنها إذعان، واستدارت وعادت بخطوات قافزة باتجاه باب بيتها. فتحته مرةً ثانية، نظرت باتجاهنا مناشدةً إيانا، ثم اختفت بالداخل.

وقفت هناك للحظة مترددًا. ثم مددت يدى لأسفل إلى صديقى.

'آكيرا، إنه هو،' قلت. 'لابد أن ندخل. هيا ندخل الآن معًا.'

حاولت أن أحافظ على إشهار مسدسي أثناء عبورنا الحارة. غير أن ذراع آكيرا كانت حول رقبتي، وكان علي أن أتحمل الكثير من ثقله، لدرجة أنني تخيلت أن مشيتنا المترنحة في دخولنا إلى المنزل بعيدة تمام البعد عن أن تشي بأي سلطة أو قبول. كنت واعيًا على نحو غامض بوجود مزهرية لنباتات الزينة تقف في المدخل، وأعتقد أن الديكور الذي رأيته يتدلى من إطار الباب قد أصدر صوتًا موسيقيًا عندما لمسناه في مرورنا به.

رغم أن واجهة المنزل قد بقيت بصورة عرضية دون أن تُمَس، فإن النصف الخلفي للغرفة التي كنا فيها كانت عبارة عن أنقاض. عندما أفكر اليوم في الأمر، أظن أن قذيفة قد اخترقت السقف، وأدت إلى انهيار الطابق العلوي، ودمرت مؤخرة المنزل، ومعها المنزل المجاور خلفه. لكن في تلك اللحظة كنت أبحث أولاً وكليةً عن والدىَ، ولست واثقًا مما قد لاحظته بالضبط. فكرتي الطائشة الأولى كانت تتلخص في أن المختطفين قد فروا. ثم، عندما رأيت الجثث، أفزعتني فكرة أنها لأمي وأبي – أن المختطفين قد ذبحوهما مع وصولنا. ينبغي أن أعترف أن إحساسي التالي كان ينطوي على راحة عظيمة عندما رأيت أن الجثث الثلاث كانت جميعها لصينيين.

بالقرب من المؤخرة، هناك إلى جوار حائط، كانت جثة امرأة التي ربما كانت أم الفتاة. من الممكن أن يكون الانفجار قد ألقى بها

هناك وأنها كانت ترقد حيث سقطت. كان وجهها يعلن عن تعبير مندهش. أحد ذراعيها كان قد قطع حتى المرفق، وهى الآن تشير بالجَدَعَة إلى السماء، ربما كى تشير إلى الاتجاه الذى أتت منه القذيفة. على بعد بضع ياردات فى الأنقاض، سيدة عجوز أيضًا كانت تحدق فاغرة الفاه إلى ثقب فى السقف. أحد جانبى وجهها كان متفحمًا، لكننى لم أر دمًا أو أى تشوه أو بتر. أخيرًا، ويرقد عند أقرب نقطة من مكان وقوفنا، ولدٌ أكبر قليلاً من الفتاة التى تبعناها فى الدخول إلى البيت، أفزعه فى البداية سقوط رف. إحدى ساقيه كانت مبتورة عند مفصل الفخذ، حيث منها انتشرت أحشاء طويلة بصورة مثيرة للذهول، وكأنها ذيول زينة فى طائرة ورقية، على الحُصر.

'كلب،' قال آكيرا إلى جانبى.

رمقته، ثم تتبعت نظرته. فى منتصف الحُطام، قريبًا من الولد الميت، جثت البنت الصغيرة على ركبتيها إلى جوار كلب جريح يرقد على جنبه وكانت تربت على فرائه برفق. ذيل الكلب كان يتحرك بوهن استجابةً لها. وأثناء استغراقنا فى مشاهدتها، نظرت لأعلى وقالت شيئًا، كان صوتها فى غاية الهدوء والثبات.

'ماذا تقول، يا آكيرا؟'

'أظن أنها تقول يجب أن نساعد الكلب،' قال آكيرا. 'نعم تقول يجب أن نساعد الكلب.' ثم فجأةً، بدأ يقهقه بلا انقطاع.

تحدثت البنت الصغيرة ثانيةً، وفى هذه المرة كانت توجه كلامها لى أنا فقط، ربما تكون قد انصرفت عن آكيرا باعتباره مجنونًا. ثم

اقتربت بوجهها لأسفل من وجه الكلب وواصلت المرور بيدها على فرائه برفق.

تقدمت خطوة صوبها، بعد أن حررت ذراعى من ذراع صديقى، وبينما فعلت ذلك، شق آكيرا طريقه بجلبة شديدة باتجاه الأثاث المهشم. نظرت خلفى فى فزع، لكنه واصل القهقهة، إضافة إلى أن توسلات البنت قد استمرت دونما انقطاع. وضعت مسدسى على شيء ما، وتقدمت صوبها ولمست كتفها.

'انظرى هنا... كل هذا،' – وأومأت إلى أشلاء المجزرة التى بدت ساهية عنها تمامًا – 'إنه لحظ سيئ بمعنى الكلمة. لكن انظرى لقد نجوت وفى الحقيقة، سترين، سوف تقدمين عرضًا رائعًا بهذا إذا أنت فقط... لو أنك فقط حافظت على شجاعتك...' استدرت لآكيرا بانفعال وصرخت: 'آكيرا! كف عن هذه الجلبة! لأجل الرب، ليس هناك ما يثير الضحك! هذه البنت المسكينة...'

غير أن الفتاة أمسكت حينئذٍ بكمى. تكلمت ثانيةً، بحذر وبطء، وهى تنظر فى عينى.

'انظرى، بالفعل،' قلت، 'أنت فى منتهى الشجاعة. أقسم لك، أن من فعلوا هذا أيًا كانوا، من ارتكبوا هذه البشاعة أيًا كانوا، لن يفلتوا من العدالة. ربما لا تعرفين من أنا، لكن على أية حال، أنا... حسنًا، أنا الشخص الذى تريدين. سأهتم بالأمر لن يفلتوا. دعك من القلق، أنا سوف... أنا سوف...' كنت أتحسس سترتى بحثًا عن عدستى المكبرة، ثم وجدتها وأظهرتها له. 'انظرى، أتفهمين؟'

ركلت جانبًا قفص عصافير كان فى طريقى وتقدمت باتجاه الأم. ثم، ربما كالعادة مثل أى شيء آخر، انحنيت لأسفل لأفحصها من خلال العدسة المكبرة. جَذَعَتها كانت تبدو نظيفة فعليًا؛ العظام الناتئة من اللحم بيضاء براقة، وكأن هناك من قام بتلميعها.

ذكرى هذه اللحظات لم تعد واضحة تمامًا. لكن لدى شعور أنه عند هذه النقطة، بالتحديد بعد أن نظرت عبر العدسة المكبرة على جَذَعَة المرأة، اعتدلت وبدأت أبحث عن والدى. أستطيع القول فقط، على سبيل التفسير الجزئى لما حدث نتيجةً لذلك، أن آكيرا كان لم يزل يقهقه فى مكان سقوطه، وأن البنت كانت تواصل الاستجداء بالنبرات المُلحة نفسها. بعبارةٍ أخرى، أصبح الجو ثقيل الوطأة على الأعصاب بكل ما تحمل الجملة من معنى، وربما يبرر هذا إلى حدٍ ما الطريقة التى بها قمت بقلب ما تبقى من هذا المنزل الصغير رأسًا على عقب.

كانت هناك غرفة صغيرة فى مؤخرة المنزل، دمرها القصف تمامًا، وهنا بدأت البحث، برفع ألواح الأرضية المهشمة، وكسر أبواب دولاب مقلوب برجل منضدة لفتحها. ثم بعد ذلك عدت إلى الغرفة الرئيسة وبدأت ألقى جانبًا كومات الحطام، مهشمًا برجل المنضدة كل ما أخفق فى الإذعان لركلاتى ومناوراتى. أخيرًا وعيت إلى أن آكيرا قد توقف عن القهقهة، ويتبعنى فى المكان، يقترب من كتفى ويهمس بشيء ما فى أذنى. تجاهلته وواصلت بحثى، لم أتوقف حتى عندما طرحت إحدى الجثث بعيدًا. ظل آكيرا يقترب من كتفى، وبعد فترة، استدرت إليه غير قادر على أن أفهم لماذا يحاول الشخص

الذى أعول عليه فى مساعدتى يصر على إعـاقتى، وزعقـت فيـه بكلمات من قبيل:

'ابتعد عنى! اتركنى! إذا لم تُرد المساعدة، ابتعد فقط! ابتعد إلـى الركن هناك وقَهقِه!'

'الجنود!' كان يهمس لى. 'الجنود قادمون!'

'ابتعد عن! أمى، أبى! أين هما؟ إنهما ليسا هنا! أين همـا؟ أيـن هما؟'

'الجنود، يا كريستوفر، توقف، لابد أن تهدأ! لابد أن تهـدأ وإلا قُتِلنا! كريستوفر!'

كان يهزنى، وجهه كان قريبًا من وجهى. حينئذٍ أدركت وجـود أصواتٍ بالفعل تأتى من مكانٍ ما قريب.

سمحت لآكيرا أن يسحبنى إلى مؤخرة الغرفة. لاحظت أن البنت الصغيرة قد صمتت تمامًا، وكانت تربت رأس الكلب برقةٍ. كان ذيـل الحيوان لم يزل يمارس الحركة الواهنة نفسها.

'كريستوفر،' قال آكيرا بهمس لحوح. 'لو كان الجنود صـينيين فلابد أن أختبئ.' أشار إلى الركن. 'لابد ألا يجدنى الجنود الصينيون. لو أنهم يابانيون، لابد وأن تقول الجملة التى علمتها لك.'

'لا أستطيع أن أقول أى شيء. انظر، أيها الصديق القـديم، لـو أنك غير مستعد لمساعدتى...'

'كريستوفر! الجنود قادمون!'

مشى مترنحًا بعرض الغرفة واختفى داخل دولاب يقف في زاوية بركن الغرفة. كان الباب مهشمًا بصورة ملحوظة لدرجة أن قصبة ساقه كلها والحذاء كانا واضحين تمامًا من لوح الباب. كانت محاولة بائسة للاختفاء بحيث اندفعت في الضحك، وكنت على وشك أن أزعق قائلاً إننى لم أزل أراه، عندما ظهر الجنود على مدخل الباب.

أطلق الجندى الأول رصاصة من بندقيته عليّ، غير أن الطلقة ضربت الحائط خلفي. حينئذٍ لاحظ يداى المرفوعتين، وحقيقة أننى مدنى أجنبى، وزعق بشيء ما لرفاقه، الذين تزاحموا خلفه. كانوا يابانيين، والشيء التالى الذى أذكره، أن ثلاثة أو أربعة منهم بدأوا يتجادلون بخصوصى، وطيلة الوقت كانوا يغطوننى ببنادقهم. جنود أكثر دخلوا وبدأوا فى تفتيش المكان. سمعت آكيرا يزعق من مخبئه باليابانية، ثم عندما تجمع الجنود حول الدولاب، رأيته يظهر. رأيت أنه لم يكن سعيدًا على وجه التحديد برؤيتهم. رجال آخرون تجمعوا حول البنت الصغيرة، وتجادلوا حول نوع التصرف الذى سيتخذونه حيالها. ثم دخل أحد الضباط، فوقف الرجال جميعًا انتباهًا، وطغى الصمت على الغرفة.

نظر الضابط - كان قائدًا شابًا - فى أنحاء الغرفة. سقطت نظرته على الطفلة، ثم على، ثم استقرت على آكيرا، الذى كان يستند اثنين من الجنود. نشأ حوارٌ باليابانية، لم يشترك فيه آكيرا نفسه. واستوطن عينيه تعبير مستسلم مشوب بالخوف. ذات مرة حاول أن يتفوه بشيء ما للضابط، غير أن الأخير قاطعه على الفور. كان هناك

حوار آخر سريع، بعده بدأ الجنود فى قيادة آكيرا بعيدًا. كان الخوف واضحًا للغاية فى عينيه حينئذ، غير أنه لم يبادر بالمقاومة.

'آكيرا!' صرخت خلفه. 'آكيرا، إلى أين يأخذونك؟ ماذا يحدث؟'

نظر آكيرا إلى الخلف وألقانى بابتسامة متعجلة وحنونة. ثم مضى، إلى الخارج فى الحارة، وغاب عن عينى بسبب من احتشدوا حوله من الجنود الذين اصطحبوه.

كان القائد الشاب ينظر إلى الطفلة. ثم استدار نحوى وقال:

'أنت إنجليزى؟'
'نعم.'
'تعال، يا سيدى، ماذا تفعل هنا؟'

'كنت...' نظرت حولى. 'كنت أبحث عن والدى. اسمى بانكس، كريستوفر بانكس. أحد رجال البوليس السرى المعروفين. ربما تكون قد...'

لم أعرف بالضبط بماذا أكمل، إضافةً إلى أننى أدركت كنت أتنهد بأنفاس لاهثة لبعض الوقت، وأن هذا قد ترك انطباعًا مثيرًا للشفقة لدى القائد. مسحت وجهى: 'أتيت هنا لأبحث عن والدى. لكنهم ما عادا هنا. لقد تأخرت كثيرًا.'

نظر القائد حوله مرةً أخرى على الأنقاض، والجثث، والبنت الصغيرة مع الكلب المُحتَضَر. ثم قال شيئًا ما للجندى القريب منه، الذى لم يرفع عينه عنى أبدًا. أخيرًا قال لى: 'من فضلك، يا سيدى، تعال معى.'

صدرت عنه إيماءة مهذبة لكنها صارمة مفادها حتمية أن أمضى معه إلى الخارج فى الحارة. لم يعد مسدسه إلى جرابه، لكنه لم يصوبه فى وجهى أيضًا.

'وهذه البنت الصغيرة،' قلت. 'هل ستأخذونها إلى مكانٍ ما آمن؟'

عاد ينظر إلى مُحدقًا فى صمت. ثم قال: 'من فضلك، يا سيدى. لابد وأن تغادر الآن.'

* * *

بشكل عام، اهتم اليابانيون بى. احتجزونى فى غرفةٍ خلفية صغيرة فى مركز القيادة الخاص بهم - الذى كان قسم إطفاء سابق - حيث كنت أتناول الطعام ويقوم أحد الأطباء على علاجى من عدة جروح لاحظت بالكاد أننى أُصبت بها. تم تضميد رجلى وأُعطيت حذاءً كبيرًا لألبسه. لم يكن الجنود المسئولون عنى يتحدثون الإنجليزية، وبدوا فى حالة من اللايقين إذا ما كنت سجينًا أم ضيفًا، غير أننى كنت من الإعياء بحيث لم أهتم؛ كنت أستلقى على سرير المعسكر الذى وضعوه فى غرفتى الخلفية، ولعدة ساعات كنت أراوح بين النوم واليقظة. فى حقيقة الأمر، لم يكن الباب مغلقًا علىّ؛ من المحتمل ألا يكون باب المكتب المجاور قريبًا، لذلك كلما كنت أعود للوعى، كنت أسمع جنودًا يابانيين يتجادلون، أو يصرخون فى التليفون، من المحتمل أن يكون صراخهم فى المكالمات التليفونية يخصنى. الآن أشك فى أننى كنت أعانى من حمى خفيفة لوقتٍ طويل

خلال تلك الفترة؛ على أية حال، كلما كنت أراوح بين النوم واليقظة، لم تكن أحداث الساعات القليلات الماضيات فحسب، بل وأحداث الأسابيع القليلة الماضية تحوم في رأسي. ثم بالتدريج، رويدًا رويدا، بدأت العناكب تختفي، لدرجة أنني في أوقات اليقظة، مع بدايات الغروب، ومع وصول الكولونيل هيسجاوا، وجدت أنني أمتلك رؤية واضحة جدًا حول كل ما كان يزعجني بخصوص القضية.

قدم الكولونيل هيسجاوا – رجل أنيق ورشيق في الأربعينيات من عمره – بتأدب قائلاً: 'أنا سعيد أن أراك تشعر بكثير من التحسن، يا مستر بانكس. أنا واثق أن الرجال هنا قد اعتنوا بك جيدًا. يسعدني أن أخبرك بأنني أتيت إلى هنا بتعليمات مفادها مرافقتك إلى القنصلية البريطانية. هل من الممكن أن نتحرك فورًا؟'

'بالفعل، يا سيادة الكولونيل،' قلت، وأن أنهض بحذر شديد على قدمي، 'أفضل أن تأخذني إلى مكانٍ آخر. الأمر غاية في الأهمية. أنا لست متأكدًا من العنوان بالضبط، لكنه ليس بعيدًا عن النانكينغ روود. ربما تكون على دراية به. إنه محل لبيع إسطوانات الجراموفون.'

'هل ترغب بإلحاح في شراء إسطوانات للجراموفون؟'

لم أُضطر لإزعاج نفسي بالتوضيح، لذلك قلت فقط: 'من المهم جدًا أن أكون هناك بسرعة قدر المستطاع.'

'لسوء الحظ، يا سيدي، لدي تعليمات بإحضارك إلى القنصلية البريطانية. أخشى أن نتسبب في ارتباكات كبيرة إذا ما فعلنا غير ذلك.'

تنهدت. 'أعتقد أنك على حق، يا سيادة الكولونيل. على أية حال، أنا أفكر الآن بالأمر، وأتصور أننى قد تأخرت جدًا.'

نظر الكولونيل في ساعة يده. 'أعتقد هذا. لكن اسمح لى أن أقترح عليك. لو تحركنا توًا، حينئذٍ سيمكنك العودة للاستمتاع بموسيقاك المفضلة فى أقرب فرصة.'

ركبنا سيارة عسكرية مكشوفة يقودها مرْسال الكولونيل. كان وقت عصارى جميل والشمس تضرب أشعتها على أطلال تشابى. تحركنا ببطء، فرغم أن كمية كبيرة من الدبش والأنقاض كانت قد أزيحت من طريقنا، فإن كومات ضخمة منها كانت على جانب الطريق – فقد كانت الطريق مفروشة بحفر الألغام. بالصدفة مررنا بشارع ليس به أية علامات للدمار، ثم انعطفنا جانبًا وكانت البيوت أقل ما توصف به أنها عبارة عن كومات الدبش، وكل عمود من أعمدة التلغراف الباقية كانت تميل بزاوية غريبة بين الكابلات المتدلية. مرة، وأثناء تحركنا فى مثل هذه المنطقة، وجدت أنه باستطاعتى رؤية مسافة معقولة عبر الأطلال المستوية بالأرض، ورأيت مداخن المحرقتين.

'إنجلترا بلد رائعة،' كان الكولونيل هيسجاوا يقول. 'هادئة، ومجيدة. الحقول الخضراء الجميلة. ما زلت أحلم بها. وأدبكم. ديكنز، ثيكارى. مرتفعات وزرينغ. أنا مغرم جدًا بديكنز على وجه الخصوص.'

'سيادة الكولونيل، معذرةً لطرح هذا الأمر. لكن عندما وجدني رجالك بالأمس، كنت في صحبة شخص ما. جندي ياباني. هل صادف وبلغك ما حدث معه.'

'ذلك الجندي. لست على يقين بشأنه.'

'أتساءل أين أجده ثانيةً.'

'تتمنى أن نجده مرةً أخرى؟' اعتلت وجه الكولونيل تعبيرات جادة. 'مستر بانكس، أود أن أنصحك بألا تشغل نفسك بعدئذٍ بذلك الجندي.'

'سيادة الكولونيل، هل ارتكب أي جريمة من وجهة نظرك؟'

'جريمة؟' نظر على الأطلال التي تمر بنا بابتسامة رقيقة. 'من المؤكد تقريبًا أن ذلك الجندي كان يمد العدو بمعلومات. من المحتمل أن يكون قد تصافق بهذا الشكل حول مسألة فك أسره. أنا أفهم أنك بنفسك قلت في أقوالك أنك وجدته بالقرب من خطوط كومنتانغ. وهذا ما يجعلنا نفترض بقوة جبنه وخيانته.'

كنت على وشك أن أعترض، لكنني أدركت أنه ليس من صالحي أو صالح آكيرا أن أتجادل مع الكولونيل. وبعد أن بقيت صامتًا لفترة، قال:

'ليس من الحكمة أن تصبح عاطفيًّا sentimental بصورة مفرطة.'

لهجته، التي كانت مثيرة للإعجاب، قد تداعت مع هذه الكلمة الأخيرة، لدرجة أن الكلمة خرجت على هيئة "sen-chee-men-tol".

أزعجتنى إلى حدٍ ما واستدرت بعيدًا دون أن أرد. لكن بعد لحظة سألنى بنبرة متعاطفة:

'ذلك الجندى. هل قابلته فى مكانٍ ما من قبل؟'

'أعتقد أن هذا قد حدث. أعتقد أنه كان من أصدقاء طفولتى. لكن الآن، لست على يقينٍ تام. بدأت أرى الآن، أن أشياء كثيرة ليست كما كنت أفترض.'

أومأ الكولونيل. 'إن طفولتنا تبدو بعيدة جدًا الآن. إحدى شاعراتنا اليابانيات، سيدة بلاط منذ سنوات مضت، كتبت عن مدى ما اعترى ذلك من أسى. كتبت كيف أن طفولتنا تصبح أشبه بأرض غريبة حينما نكبر.'

'حسنًا، يا سيادة الكولونيل، قلما تكون هذه أرض غريبة بالنسبة لى. فبكل الطرق، هى المكان الذى واصلت فيه العيش طيلة حياتى. الآن فقط قد بدأت فى رحلة الابتعاد عنها.'

مررنا عبر نقاط تفتيش يابانية إلى هونغكيو، النطاق الجنوبى من المستعمرة. فى هذا الإقليم أيضًا، كانت هناك علامات لما خلفته الحرب من دمار، وكذلك علامات لتلك الاستعدادات العسكرية القلقة. رأيت كومات عديدة من أجولة الرمل، وسيارات نقل كبيرة محملة بالجنود. عندما وصلنا إلى القنال، قال الكولونيل:

'أنا مغرم جدًا بالموسيقى، يا مستر بانكس، مثلك تمامًا. بيتهوفن على وجه التحديد. ميندلسون، برامز، وتشوبان أيضًا. السوناتا الثالثة بالغة الروعة.'

'رجل مثقف مثلك، يا سيادة الكولونيل،' قلت معلقًا، 'لابــد وأن يكون آسفًا على كل هذا. أعنى كل هذه المجزرة التى تسبب فيها غزو بلادك للصين.'

خفت أن يتملكه الغضب، لكنه ابتسم بهدوء وقال:

'أتفق معك على أن هذا مدعاة للأسف والندم. لكن لو كان لليابان أن تصبح دولة عظيمة مثل بلادكم، يا مستر بانكس، فهذا ضرورى. مثلما كان ضروريًا لإنجلترا ذات يوم.'

انتابتنا حالة من الصمت لبضع لحظات. ثم سألنى:
'أنا متأكد، أنك بالأمس قد رأيت مشاهد بشعة فى تشابى.'
'نعم، حدث بكل تأكيد.'

فجأة، أطلق ضحكة غريبة، جعلتنى أجفل. 'مستر بانكس،' قال، 'هل تدرك، هل لديك أى فكرة عن البشاعة القادمة؟'

'إذا ما واصلتم غزو الصين، فأنا بكل تأكيد...'

'معذرةً، يا سيدى،' – الآن هو فى حالة مفعمة بالحيوية – 'أنــا لا أتكلم فقط عن الصين. *الكون برمته*، يا مستر بانكس، الكون برمته سوف يدخل فى حرب عما قريب. فما رأيته توًا فى تشــابى، لــيس سوى مجرد ذرة غبار مقارنةً بما سيشهده العالم حتمًا فــى القريــب العاجل!' قالها بنبرة منتصرة، لكنه على الفور هز رأسه فــى أســى. 'سيكون بشعًا،' قال بهدوء. 'بشع. أنت لا تعــرف أى شــىء، يــا سيدى.'

***

لا أتذكر بوضوح تلك الساعات الأولى التى تلت عودتى. لكن أعتقد أن وصولى إلى أرض القنصلية البريطانية، محمولاً فى السيارة العسكرية اليابانية، وظهورى بطريقة ما أو بأخرى فى هيئة متسول جوال، لم يؤثر معنويًا على مجتمع موصوم بالقلق. أتذكر بشكل باهت اندفاع الموظفين للخارج لاستقبالنا، ثم، عندما أُخِذت إلى المبنى، نظر القنصل العام وهو ينزل السلم بسرعة. لا أدرى ما هى أولى الكلمات التى وجهها لى، لكننى قلت له، ربما قبل أن أتلفظ بأى كلمة للتحية:

'مستر جورج، لابد وأن أطلب منك أن تقابلنى برجلك ماكدونالد على الفور.'

'ماكدونالد. جون ماكدونالد؟ لكن لماذا تود الحديث إليه، أيها الرفيق القديم؟ انظر، ما تحتاجه هو الراحة. سنقوم باستدعاء طبيب ليقوم بالكشف عليك...'

'أنا أقبل أننى أبدو متهرئ الثياب. لا عليك، سأذهب وأستعيد انتعاشى قليلا. لكن من فضلك، لابد من إحضار ماكدونالد وجعله يستعد لمقابلتى. هذا من الأهمية بحال.'

***

اصطحبونى إلى حجرة للضيوف فى مبنى القنصلية، حيث تمكنت من حلاقة ذقنى وأخذت حمامًا ساخنًا رغم سلسلة كاملة من الناس الذين دقوا بابى. أحد هؤلاء الناس جراحٌ اسكتلنديٌ صارمٌ قام بفحصى لمدة تجاوز نصف الساعة، ولديه قناعة بأننى أخفى عنه جرحًا خطيرًا. آخرون أتوا الواحد تلو الآخر للسؤال عن طلباتى

والعمل على راحتى، رددت ثلاثة على الأقل باستفسار متضجر عن ماكدونالد. وتلقيت فقط مجرد ردودٍ غامضة بخصوص أنه لم يتم العثور عليه بعد؛ ثم، مع حلول الليل، جعلنى الإجهاد - أو ربما شيء أعطانى الجراح إياه - أغط في نوم عميق.

لم أستيقظ إلا متأخرًا في صباح اليوم التالى. طلبت إحضار الإفطار إلى غرفتى، وغيرت ملابسى بملابس أخرى نظيفة تم إحضارها من فندق كاثاى أثناء نومى. حينئذٍ شعرت أننى أفضل كثيرًا، وقررت الخروج للبحث عن ماكدونالد في التو واللحظة.

أعتقد أننى استطعت أن أتذكر الطريق إلى مكتب ماكدونالد من مقابلتنا الأخيرة، غير أن مبنى القنصلية كان مخادعًا بدرجةٍ ما واضطُررت أن أسأل عددًا من الناس الذين قابلتهم عن الاتجاهات. كنت لم أزل تائهًا قليلا، هبطت بسطة من الدرج، عندما لمحت السير سيسيل ميدهورست يقف على البسطة التى تحتى.

كانت شمس الصباح تتدفق عبر النوافذ العاليات لبسطة الدرج، مضيئةً منطقة كبيرة من الحجر الرمادى حوله. لم يكن هناك أى شخص آخر على البسطة، وكان السير سيسيل يتقدم للأمام ببطء، ويداه معقودتان خلف ظهره، ويحدق في أرض القنصلية أسفله. أغوانى التراجع لأعلى السلم، غير أن هذا الجزء من المبنى كان هادئًا، وكانت فرصة سماعه لوقع خطواتي والنظر لأعلى في أى لحظة قائمة. لذا واصلت النزول، وعندما تقدمت باتجاهه، استدار وكأنه طيلة الوقت كان في تمام الوعى باقترابى.

‘مرحبًا، أيها الرفيق القديم،’ قال. ‘سمعت بعودتك. شعرت بشيء من الهلع عندما فقدت، سأخبرك. هل تشعر بتحسن؟’

‘نعم. أنا على ما يُرام، أشكرك. قدمي هذه فقط تتعبني قليلاً. ليست كما ينبغي تمامًا مع ارتداء الحذاء.’

الشمس على وجهه جعلته يبدو عجوزًا ومرهقًا. التفت للخلف ثانية باتجاه النافذة ونظر للخارج. تحتنا، ثلاثة رجال شرطة من السيخ يسرعون جيئة وذهابًا بعرض المرجة، يرصون أجولة الرمل فوق بعضها البعض.

‘بالطبع، عندما فُقِدت فى الوقت نفسه، وصلت إلى نتائج. وأتصور أنه حدث الشيء نفسه مع قلة أخرى من الناس. وهذا ما دفعنى للمجيء هذا الصباح. أن أقدم لك اعتذارى. لكنهم أخبرونى أنك كنت نائمًا. لذلك كنت على وشك... حسنًا، أتمشى فى انتظارك هنا.’

‘ليس هناك ما يدعو للاعتذار، سير سيسيل.’

‘أوه نعم هناك ما يدعو للاعتذار. أتصور أننى درت أردد بضع أشياء فى تلك الليلة. تعرف. الوصول إلى نتائج. بالطبع، الجميع يعرفون الآن أننى تحامقت. لكن فى الوقت نفسه، وجدت أنه من الأفضل أن آتى وأوضح دوافعى.’

أسفل المرجة، وصل عامل صينى بعربة تحمل عددًا آخر من أجولة الرمل. وبدأ رجلا الشرطة السيخ فى إنزالها من العربة.

'هل تركت رسالة؟' سألت، محاولاً أن أظهر عدم اكتراثى.

'لا. لكن تلقيت برقية كبلية(*) صباح اليوم. هي في ماكاو، تعرف. تقول إنها سالمة فى حالة جيدة. تقول إنها وحدها، وأنها ستكتب لى عما قريب.' ثم استدار إلى وأمسك مرفقي. 'بانكس، أعرف أنك ستفتقدها أيضًا. بطريقة ما، تعرف، كنت أفضل لو أنها هربت معك. أعرف أنها... إنها تفكر فيك جيدًا.'

'لابد وأنها كانت صدمة شديدة،' قلت معلقًا، لأننى كنت بحاجة إلى أن أجد شيئًا يُقال.

أشاح السير سيسيل بوجهه بعيدًا وللحظة واصل النظر إلى أسفل على رجلى الشرطة. ثم قال: 'في الواقع لم تكن هكذا بالفعل، لم تكن صدمة على الإطلاق.' ثم استأنف: 'كنت دائمًا أخبرها بأنها لابد وأن ترحل، أخبرتها بأن ترحل وتبحث عن الحب، تعرف، الحب الحقيقى. إنها جديرةً به، ألا تعتقد هذا؟' ذلك هو المكان الذى ذهبت إليه الآن. هربت لتجد الحب الحقيقى. ربما تجده أيضًا. هناك، على بحر الصين الجنوبية، من يدرى؟ ربما تلتقى بمسافر، فى ميناء، فى فندق، من يدرى؟ لقد أصبحت رومانسية، تعرف؟ كان على أن أتركها تمضى.' كانت الدموع الآن تنشع من عينيه.

'ماذا ستفعل الآن، يا سيدى.' سألت برفق.

(*) برقية مرسلة بكبل من كبول الغواصات. (المترجم)

'ماذا سأفعل؟ من يدرى؟ أتوقع أنه ينبغى علـــى العـــودة إلـــى الوطن. أعتقد أن هذا ما سوف أفعل. العودة إلى الوطن. بمجـــرد أن أدفع بعض الديون المستحقة على هنا، هكذا.'

كنت قد أدركت وقع أقدام تنزل السلم خلفنا، لكنها الآن أبطـــأت وتوقفت والتفت أنا وهو. فزعت إلى حدٍ ما عند رؤيـــة جرايســـون، موظف المجلس البلدى.

'صباح الخير، يا مستر بانكس. صباح الخير، ســـير سيســـيل. مستر بانكس، نحن فى غاية السعادة بعودتك سالمًا.'

'شكرًا لك، مستر جرايسون.' وعندما ظل واقفًـــا هنـــاك علـــى الدرج الأخيرة وعلى وجهه ابتسامة حمقاء، أضفت: 'أنا واثق أن كل الاستعدادات الخاصة بحفل الجيسفيلد بـــارك تـــتم بصـــورة ســـتنال رضاك.'

'أوه نعم، نعم.' أطلق ضـــحكة غامضـــة. 'لكـــن الآن، مســـتر بانكس، جئت أبحث عنك لأننى سمعت أنك تود الحديث إلـــى مســـتر ماكدونالد.'

'نعم، هذا صحيح ، ، فى الواقع، لقد كنت لتـــوى فـــى طريقـــى إليه.'

'آه. حسنًا لن يكون فى مكتبه المعتاد. لو أنك تبعتنى، يا سيدى، فسوف آخذك إليه الآن.'

ضغطت بمودة على كتف السير سيسيل - كان قد اســـتدار إلـــى النافذة ليوارى دموعه - ثم تبعت جرايسون بخطوة متحفزة.

قادني إلى جزء مهجور من المبنى، ثم وصلنا إلى كوريدور يضم صفا من المكاتب. سمعت شخصًا يتحدث فى التليفون، وظهر رجل من أحد الأبواب وأومأ لجرايسون. فتح جرايسون بابًا آخر وأشار لى بالدخول أمامه.

خطوت داخل مكتب صغير لكنه جيد الأثاث يهيمن على مساحته مكتب كبير. توقفت على العتبة لأنه لم يكن هناك أحد بالغرفة، لكن جرايسون دفعنى برفق للدخول وأغلق الباب. ثم دار حول المكتب، وجلس، وأشار لى بالجلوس فى المقعد الشاغر.

'مستر جرايسون،' قلت، 'ليس عندى وقت لهذا المزاح الأحمق.'

'معذرةً،' قال جرايسون، 'أعرف أنك تود مقابلة ماكدونالد. لكن كما ترى، مجال عمل ماكدونالد هو البروتوكول. إنه يؤدى مهامه بشكل جيد جدًا، لكن نطاق سلطته فى الحقيقة لا يمتد لأبعد من ذلك.'

تنهدت متضجرًا، لكن قبل أن أنطق بكلمة، استأنف جرايسون كلامه:

'كما ترى، أيها الرجل العزيز، عندما قلت إنك تريد ماكدونالد، ظننت أنك تريدنى. أنا الشخص الذى تود التحدث إليه.'

حينئذٍ لاحظت شيئًا مختلفًا فى جرايسون. لقد تلاشت طريقته المتملقة، وكان يتفحصنى من أعلى مكتبه. عندما رأى أن الاستيعاب قد بدأ يطل على وجهى، أشار لى مرةً أخرى بالجلوس على الكرسى.

'من فضلك استرح، أيها الرجل العزيز. وأنا أعتذر عن ملاحقتى لك إلى حدٍ ما منذ وصولك إلى هنا. لكنك تفهم، كان على أن أتأكـد من أنك لا تفعل أى شيء من الممكن أن يتسبب لنا فى أزمة كبيـرة مع القوى العظمى. الآن، دعنى أرى، فهمت أنك تريد مقابلـة مـع الثعبان الأصفر.'

'نعم، يا مستر جرايسون. أسألك إذا ما كان باستطاعتك ترتيـب مثل هذا الأمر.'

'كما حدث، أخيرًا أخذنا عهدًا أثناء غيابك. كل الأطراف بـدت موافقة على طلبك.' ثم مال إلى الأمام، وهو يقول لى: 'إذًا، يا مستر بانكس. هل تشعر بأنك تقترب؟'

'نعم، يا مستر جرايسون. على الأقل أعتقد أننى أقترب.'

***

هكذا كانت الساعة قد جاوزت لتوها الحادية عشرة ليلـة أمـس، وجدت نفسى أسافر بالسيارة عبر المنطقة السكنية الأنيقة فى الامتياز الفرنسي فى صحبة اثنين من ضباط البوليس السرى الصينى. مضينا على طرقٍ تكتنفها الأشجار من الجانبين، مـرورًا ببيـوت كبيـرة، بعضها يختفى تمامًا خلف أسوار وسياج عالية. ثم وصلنا إلى بوابات عليها حراسات ثقيلة من رجال يرتدون عباءات وقبعات، وتوقفنا فـى فناء مفروش بالحصباء. منزل معتم، على ارتفاع أربعـة أو خمسـة طوابق، يقف أمامنا.

بالداخل، كانت الإضاءة منخفضة، وحراس أكثر يختبئون فى كل مكان فى الظلال. أثناء تقدمى خلف مرافقى لصعود السلم المركزى، سيطر على انطباع بأن المنزل كان لفترة قريبة يملكه أحد أثرياء أوربا، لكنه الآن، ولسبب ما، سقط فى أيدى السلطات الصينية؛ رأيت ملاحظات وجداول رديئة الشكل مثبتة على الحوائط مباشرةً إلى جانب أعمال رائعة من الفن الأوربى والصينى.

وبالنظر إلى الديكور، كانت الغرفة التى أُشير لى بالدخول إليها فى الطابق الثانى كانت تحتوى حتى وقتٍ قريب مضى على طاولة بلياردو. الآن توجد مساحة واسعة فى منتصف الغرفة، تمشيت حولها أثناء انتظارى. بعد عشرين دقيقة أو أكثر، سمعت صوت سيارات أخرى تصل إلى الفناء، لكن حينما حاولت أن أنظر من النوافذ، وجدتها تطل على الحدائق الجانبية للمنزل، ولم أستطع أن أرى شيئًا على الإطلاق من واجهة المنزل.

مرت نصف ساعة أخرى على وجه التقريب قبل أن يتم إحضارى أخيرًا. تمت مرافقتى إلى بسطة أخرى من الدرج، ثم إلى كوريدور مرورًا بعدد آخر من الحرس. ثم توقف الحراس عن مرافقتى، وأشار أحدهم إلى باب على بعد عدة ياردات أمامنا. مضيت فى المرحلة الأخيرة من الرحلة وحدى، ودخلت ما يشبه غرفة مكتب كبيرة. كانت هناك سجاجيد ثخينة أسفل قدمى، وكانت الحوائط كلها تقريبًا تصطف بالكتب. فى الطرف القصى، حيث كانت الستائر الثقيلة مشدودة على النوافذ الناتئة، كان هناك مكتب بمقعدين على جانبيه. على المكتب أباجورة قراءة أوجدت بركة دافئة من النور، ما عدا ذلك

كانت معظم الغرفة غارقة فى الظلال. وبينما كنت أقف محاولاً مسح الأشياء المحيطة بى، نهض شخص من خلف المكتـــب، ودار حولـــه بحذر، وأومأ للخلف إلى الكرسى الذى كان قد قام عنه.

'لماذا لا تجلس فى هذا الكرسى، يا بفن؟' قال العم فيليب لـــى. 'تَذْكُر، أليس كذلك؟ كنت دائمًا تحب الجلوس فى الكرسى الخاص بى خلف المكتب.'

الفصل الثاني والعشرون

لو لم أكن أتوقع أن أرى العم فيليب، لكان من الممكن جدًا أن أخفق في التعرف عليه. لقد زاد وزنه مع مرور السنوات، رغم أنه لم يكن رشيقًا، لدرجة أن رقبته قد اكتنزت وتدلت وجنتاه. كان شعره خفيفًا ويعتريه المشيب. غير أن عينيه كانتا هادئتين ومرحتين حسبما أتذكر.

لم أبتسم وأنا أتقدم نحوه؛ ولم أمض باتجاه خلف المكتب إلى الكرسي الذي عرضه علي. 'سأجلس هنا،' قلت، وأنا أتوقف إلى جانب الكرسي الآخر.

هز العم فيليب كتفه غير مبالٍ. 'حسنًا، ليس مكتبي على أي حال. في الحقيقة، أنا لم أطأ هذا المنزل من قبل. هل ثمة علاقة لك بهذا المكان؟'

'أنا أيضًا لم آت أبدًا إلى هنا من قبل. هل يمكن أن نجلس؟'

عندما فعلنا ذلك، استطعنا أن نرى بعضنا البعض بوضوح على الضوء المنبعث من أباجورة المكتب، وأمضينا لحظة نتفحص فيها قسمات وجه بعضنا البعض بعناية.

'تعرف إنك لم تتغير كثيرًا، يا بفِن،' قال. 'حتى الآن من السهل أن أرى الولد داخلك.'

'سأكون ممتنًا لك لو لم تنادني بذلك الاسم.'

'معذرةً. أعترف بأن هذا ينطوى على بعض الصفاقة. إذًا، ها نحن، لقد استطعت أن تقتفى أثرى وتجدنى. ظللت أرفض مقابلتك فيما سبق. لكن فى النهاية، أعتقد أننى بدأت أرغب فى رؤيتك ثانيةً. أتوقع أننى مدين لك بتوضيح أو اثنين. لكن، تعرف، لم أكن واثقًا من الكيفية التى تنظر بها إلىّ. صديق أم عدو، شىء من هذا القبيل. علاوة على أننى فى هذه الأيام لا أثق فى معظم الناس فى هذا الموضوع. أتعرف، قالوا لى أن أحمل هذا معى على سبيل الاحتياط؟' وأخرج مسدسًا فضيًا صغيرًا ورفعه فى النور. 'هل تصدق ذلك؟ ظنوا أنك ربما تريد مهاجمتى.'

'لكننى أرى مع ذلك أنك أحضرته معك.'

'أوه، لكننى أحمله فى كل مكان. كثيرون فى هذه الأيام يودون إلحاق الأذى بى. أنا فى الحقيقة لم أحمله بسببك. أحد هؤلاء الرجال الواقفين بالخارج هناك. ربما يكون قد تلقى رشوة للاندفاع إلى هنا كى يطعنّى. من يدرى؟ لهذا السبب فإنه معى، درءًا للخوف. منذ أن بدأ مزاح الثعبان الأصفر.'

'نعم. يبدو أنه عُرضة بشكل كبير للخيانة.'

'إن فى هذا قدرًا من الفظاظة، إذا ما كنت تعنى ما أظن أنك تعنيه. فبقدر ما يهم الشيوعيين، حسنًا جدًا، نعم، لقد تحولت إلى خائن. وحتى مع ذلك، لم تكن أبدًا هذه نيتى، أنت تعرف. لقد قبض على رجال تشيانج ذات يوم وهددونى بالتعذيب. أعترف، أنا لم أتصور ذلك كثيرًا، لم أتصوره ولا مرة. لكنهم فى النهاية، قاموا

بشيء غاية فى الذكاء. خدعونى وورطونى فى خيانة أحد مجموعتى. ثم، كما تفهم، على هذا جرى الأمر. لأنه، كما قد فهمت، ليس هناك من يعاقب الخارجين عن معتقداتهم واتجاهاتهم بطريقة أكثر قسوة من رفاقى القدامى. لم تكن هناك طريقة أخرى للحفاظ على حياتى. على أن أعتمد على الحكومة كى أحمى رفاقى.'

'طبقًا لتحرياتى،' قلت، 'كثيرون فقدوا حياتهم من خلالك. وليس فقط هؤلاء الذين قمت بخيانتهم. فى إحدى المرات، منذ سنة مضت، عندما سمحت للشيوعيين أن يصدقوا أن الثعبان الأصفر رجل آخر. العديد من أفراد أسرته، بما فى ذلك ثلاثة أطفال، قُتِلوا فى الموجة الأولى من الانتقامات.'

'أنا لا أعتبر نفسى مثار إعجاب. أنا جبان، وأنا أعرف ذلك منذ وقتٍ بعيد. لكن لا يمكن أن يتم احتجازى لأبرر همجية الحُمْر. لقد أثبتوا بكل الطرق أنهم فاسدون تمامًا مثلما كان تشيانج كيا-شيك دائمًا، ولم يعد لهم أى احترام عندى. لكن انظر هنا، لا أتوقع أنك أتيت إلى هنا لتناقش كل هذا.'

'نعم، هذا صحيح.'

'إذًا، يا بفن. أنا آسف. كريستوفر. إذًا. ماذا لدى كى أخبرك به؟ من أين نبدأ؟'

'أبى وأمى. أين هما؟'

'مع الأسف، مات. لقد حدث منذ سنوات. أنا آسف.'

لم أقل شيئًا وانتظرت. أخيرًا قال:

'قل لي، يا كريستوفر. ما الذى تظن أنه حدث لأبيك؟'

'هل تخصك اعتقاداتى فى شىء؟ لقد أتيت هنا لأسمع منك.'

'حسنًا جدًا. لكن الفضول دفعنى لمعرفة الذى تصورته بينك وبين نفسك. مع هذا، فلقد صنعت لنفسك سمعة جيدة فى مثل هذه الأمور.'

أثار انفعالى بهذا، لكن خطر ببالى أنه سيدلى بما لديه فقط وفقًا لشروطه هو. لذلك قلت أخيرًا: 'فى تصورى أن أبى قد اتخذ موقفًا، موقفًا شجاعًا، ضد رؤسائه فيما يخص أرباح تجارة الأفيون فى تلك الأيام. وباتخاذه هذا الموقف، ظننت أنه وضع نفسه ضد مصالح ضخمة وكثيرة، ومن ثم تم اقتلاعه.'

أومأ العم فيليب. 'كنت أعتقد أنك تظن شيئًا من هذا القبيل. أنا وأمك ناقشنا بعناية ما يجب أن ندفعك للاعتقاد به. وقد كان بطريقةٍ ما أو بأخرى موازيًا لما قلت به. لذلك فقد أصبنا النجاح معك. والحقيقة، للأسف، يا بفن، أكثر ابتذالاً بكثير. لقد هرب أبوك ذات يوم مع رفيقته. عاش معها فى هونج كونج لمدة عام، امرأة اسمها إليزابيث كورنواليس. لكن هونج كونج، كما تعرف، مزدحمة وبريطانية على نحو رهيب. كان وجودهما عبارة عن فضيحة، وفى النهاية، اضطرا إلى الفرار إلى مالاكا أو ما شابه. ثم أصيب بالتيفود ومات، فى سنغافورة. كان هذا بعد عامين من رحيله عنك. معذرة، أيها الرفيق القديم، أعرف أنه من الصعب عليك أن تسمع كل هذا.

لكن تمالك نفسك. لأن لدى الكثير وأود أن أخبرك به قبل انقضاء المساء.'

'تقول إن أمى كانت تعرف؟ فى وقتها؟'

'نعم. انتبه، ليس فى أول الأمر. لم تعرف قبل مرور شهر أو أكثر. لقد استطاع والدك تغطية خطوط سيره بقدر من المهارة. أمك اكتشفت الأمر فقط لأنه كتب لها. أنا وهى كنا الوحيدين اللذين يعرفان الحقيقة.'

'لكن المخبرين السريين. كيف بالله فشل المخبرون السريون فى معرفة ما فعل؟'

'المخبرون السريون؟' أطلق العم فيليب ضحكة. 'هؤلاء من لا يتحصلون على مستحقاتهم كما ينبغى، من يُثَقَّلون بالأعمال حتى تدمى أقدامهم؟ إنهم لا يستطيعون معرفة مكان فيل اختفى فى طريق نانكينج.' ثم حينما ظللت صامتاً، قال: 'كانت ستخبرك فى النهاية. لكننا فضلنا حمايتك. ولهذا السبب دفعناك للاعتقاد بما قلت.'

بدأت أشعر بعدم الارتياح فى جلستى بالقرب من أباجورة المكتب، غير أن الكرسى مستقيم الظهر منعنى من فرد ظهرى. ثم بعد أن حافظت على صمتى بضع لحظات أخرى، قال العم فيليب:

'دعنى لتحدث بإنصاف عن أبيك. كان الأمر صعبًا عليه. دومًا كان يحب أمك، كان يحبها بقوة. أنا فى تمام يقينى بأنه لم يتوقف عن حبها أبدًا حتى النهاية. كانت تلك هى الأزمة بصورةٍ أو بأخرى، يا بفن. كان يحبها جدًا، ويعتبرها مثالاً يُقتدى به. وكان الأمر بالفعل

أكبر من احتماله، أن يحاول الارتفاع إلى مستواها وفق تصوره. لقد حاول. أوه نعم، حاول، وحطمته المحاولة تقريبًا. بالفعل كان يقول دائمًا: "انظرى هنا، بإمكانى أن أفعل الكثير وكفى، أنا هو أنا." لكنه كان يعشقها. لقد كان يريد باستماتة أن يصبح جيدًا بما يكفى كى يليق بها، وعندما اكتشف أنه لم يستطع من داخله، حسنًا، هرب. مع امرأة لا تمانع فى قبوله كما هو. فى اعتقادى أنه كان يريد فترة راحة ليس أكثر. لا تكن سيئ الظن به، يا بفن. لا أصدق أنه تنازل أبدًا عن حبه لك أو لأمك.'

'وأمى؟ ماذا عنها؟'

مال العم فيليب للأمام على مرفقيه وتراجع برأسه للخلف قليلاً. 'ما حدود معرفتها بما آلت إليها حياتها فعليًا؟' سأل.

الخفة التى اتسم بها صوته قبل قليل، تلاشت تمامًا. الآن يبدو رجلاً عجوزًا منزعجا، تستعمره كراهية نفسه. كان يحدق فى بإمعان رغم رأسه المتراجعة إلى الخلف، والنور الأصفر المنبعث من لباجورة المكتب أظهر شعرات بيضاوات ناميات فى فتحتى أنفه. من مكان ما فى الطابق الأرضى، سمعت صوت فونوجراف تنبعث منه موسيقى عسكرية صينية.

'أنا لا أحاول مضايقتك،' قال، حينما لم أرد. 'لا أريد أن أسمع نفسى أتحدث عن الأمر أكثر مما ينبغى على. هيا. إلى ماذا وصلت بك تحرياتك؟'

'إلى وقت قريب كنت أسير انطباع بأن أمى وأبى محتجزان فى تشابى. ومن ثم، إننى لست ذكيًا على الإطلاق.'

انتظرته كى يتكلم. لكنه ظل فى وضعه المتحفز الفضولى لبعض الوقت، ثم اعتدل للخلف وقال:

'لن تتذكر هذا. لكن بعد وقتٍ قصير من رحيل والدك، أتيت إلى بيتكم لزيارة أمك. وفى ذلك اليوم نفسه أتى رجلٌ موثوق به. جنتلمان صينى.'

'تقصد القائد العسكرى، وانغ كو.'

'آه. إذًا لم تكن غبيًا لتلك الدرجة.'

'لقد اكتشفت اسمه. لكن فيما بعد، لكن أظن أننى كنت مشغولاً بما لم يسمح لى بتعقب أثر مزيف.'

تنهد ونصب أذنه للاستماع. 'اسمع،' قال. 'أناشيد كومينتانغ. يشغلونها على الفونوغراف لمضايقتى. أينما أخذونى، يحدث الشىء نفسه. يحدث بصورة متكررة تستعصى على المصادفة.' ثم عندما لا أتفوه بشىء، نهض على قدميه وتقدم بخطواته فى الظلال باتجاه الستائر الثقيلة.

'أمك،' أخيرًا قال، 'كرست حياتها لحملتنا. لتوقف تجارة الأفيون وجلبه إلى الصين. كانت العديد من الشركات الأوربية، بما فيها شركة أبيك تحقق أرباحًا طائلة من توريد الأفيون الهندى إلى الصين وتحويل ملايين الصينيين إلى مدمنين لا حول لهم ولا قوة. فى تلك الأيام، كنت أحد أولئك المركزيين للحملة. لفترة طويلة، كانت إستراتيجيتنا بسيطة وساذجة إلى حدٍ ما. ظننا أنه بإمكاننا أن نُخزى تلك الشركات بحيث تتنازل عن أرباحها من تجارة الأفيون. كتبنا

خطابات، وأحطناهم علمًا بالأدلة التى تثبت ما يسببه الأفيـون مـن خسائر للصينيين. نعم، ربما تضحك، كنا غاية فـي السـذاجة. لكـن لعلمك، كنا نظن أننا نتعامل مع إخواننا فى المسـيحية. حسـنًا، فـى النهاية رأينا أننا نمضي في طريق مسدودة. اكتشفنا أن هؤلاء الناس، لا يحبون الأرباح فحسب، لكنهم بالفعل كـانوا يريـدون أن يصـبح الصينيون كائنات لا جدوى لها. كانوا يريدونهم في حالة من الفوضى والتشوش التام، مدمنى مخدرات، غير قادرين علـى حكـم أنفسـهم بطريقة مناسبة. بهذه الطريقة، يمكـن إدارة الدولـة فعليًـا وكأنهـا مستعمرة، لكن دون اللجوء إلى الضغوط المعتادة. لذلك غيرنـا مـن تكتيكنا. أصبحنا أكثر تطورًا وحنكة. في تلك الأيام، تمامًا مثلما زالوا يفعلون إلى الآن، شحنات الأفيون كانت تأتى عن طريق اليـانغتزى. كان على المراكب الصغيرة أن تحملها أعلى النهر إلى ريف ينتشـر فيه قطاع الطرق. وطالما لم تكن هناك حماية كافية، كانت الشـحنات تمضى كثيرًا فيما وراء مدخل اليانغتزى دون أن تُنهَب. لذلك اعتادت كل هذه الشركات، باترفيلد آند سواير، جاردين ماثيسـون، جميعهـا، اعتادت عقد الاتفاقيات مع قادة الحرب المحليين التى تمر الشـحنات في مناطقهم. قادة الحرب هؤلاء، فى واقع الأمر، لم يكونـوا سـوى قطاع طرق مبجلين. لم نعد نناشد الشركات التجارية. كنا نناشد قـادة الحرب. نناشد فيهم اعتدادهم بأصولهم وأعراقهم. وضحنا لهم أن فى أيديهم القضاء على التربح من تجارة الأفيون، أن ينقلبوا على العـائق الأكبر الذى يمنع الصينيين من تقرير مصـيرهم، وتقريـر مصـير وطنهم بأنفسهم. بطبيعة الحال، كان البعض يتوقـون للمبـالغ التـى يتلقونها. لكن كان لدينا بعض المهتدين. كان وانغ كو فى ذلك الوقـت

أحد قادة قطاع الطرق الأكثر قوة. كانت منطقته تغطى مئات الأميال المربعة فى شمال هونان. رجل فى منتهى الوحشية، لكنه كان مهيبًا ومحترمًا بما جعله عالي القيمة بالنسبة للشركات التجارية. الآن أصبح وانغ كو متعاطفًا جدًا مع قضيتنا. غالبًا ما كان يأتى إلى شنغهاى، وكان يحب الحياة السامية هناك، واستطعنا أن نقنعه أثناء هذه الزيارات. بفن، هل أنت بخير؟'

'نعم، أنا بخير. أسمع'

'ربما ينبغى عليك أن تذهب الآن، يا بفن. لست مضطرًا لسماع ما أوشك على إخبارك به.'

'قل. أنا أسمع.'

'حسنًا جدًا. أشعر أنك ينبغى أن تسمع، إذا كانت لديك القدرة على التحمل. لأن... حسنًا، لأنك لابد أن تجدها. لم تزل هناك فرصة فى معرفة مكانها.'

'إذًا، أمى لم تزل على قيد الحياة؟'

'ليس هناك ما يبرر الاعتقاد فى عكس ذلك.'

'أخبرنى إذًا. أكمل ما كنت تقول.'

عاد إلى المكتب وجلس ثانيةً أمامى. 'فى ذلك اليوم أتى وانغ كو إلى منزلكم،' قال. 'من الملائم أن تتذكر ذلك اليوم. أنت فى منتهى الصواب إذ هاجسك الشك فى أهميته. لقد كان اليوم الذى اكتشفت فيه أمك أن دوافع وانغ كو كانت بعيدة تمامًا عن البراءة. افترض ببساطة، أنه خطط لمهاجمة شحنات الأفيون بنفسه. بالطبع، لقد قام

باستعدادات معقدة، حتى يتفرق الأمر بين ثلاثـــة أو أربعـــة أحـــزاب أخرى، فكر صينى خالص، لكن فى النهاية، نعم، هذا ما وصلت إليه الأمور. كان معظمنا يعرف بالفعل، لكن أمك لم تكن تعرف. لقد أبقينا عليها فى الظلام، ربما بحماقة، أحسسنا أنها لن تقبل. بقيتنا، بطبيعـــة الحال كانت تنتابنا مخاوف، مع هذا، قررنا أن نعمل مع وانغ. نعـــم، باع الأفيون للعملاء أنفسهم الذين كانت الشركات تقوم بالبيع لهم. لكن الشيء المهم كان إيقاف الواردات. كى تصبح التجارة غير مربحـــة. لسوء الحظ، فى ذلك اليوم، الذى أتى فيه وانغ كو إلى بيتكم قال شيئًا جعل أمك تتحقق لأول مرة من حقيقة علاقته معنا. فى ظنـــى أنهـــا شعرت بالغباء. وربما كانت تشك فى الأمر طيلة الوقت، لكنها لم تكن تتمنى أن تعره اهتمامًا، وانتابتها نوبة من الغضب من نفســـها ومنّـــا مماثلة لغضبها من وانغ. على أية حـــال، فقـــدت أعصـــابها تمامًـــا، وبالفعل لطمته. بخفة فقط، فهمت، لكن يدها لمست خـــده. وبـــالطبع قالت، قالت كل شيء اضطرت إلى التصريح به فى وجهه. أدركـــت وقتها أن ثمة ثمن بشع لابد وأن يُدفع. فى التو واللحظة، حاولت القيام بتذويب الأمر. أوضحت له كيف هرب والدك قبل وقتٍ قصـــير، وأن أمك بالفعل كانت فى حالة من الانزعاج الشديد، حاولت أن أنقل لـــه كل هذا وهو يغادر. ابتسم وقال لا تقلق، لكننى قلقت، آه نعم، انتابنى القلق تمامًا. كنت أعرف أنا ما قد فعلته أمك لن يزول بسهولة. أقـــول لك، كنت سأشعر بالارتياح لو أن كل ما فعله وانغ ردًا على ذلك هو التوقف عن المشاركة فى خطتنا. لكنه كان يريد الأفيون، وقد قام فعلاً بترتيبات كافية. إضافةً إلى أنه قد أُهين بواسطة امرأة أجنبيـــة، وأراد أن يضع الأمور فى نصابها الصحيح.'

عندما ملت باتجاهه فى وهج الأباجورة، انتابنى شعورٌ غريب أن العتمة خلف ظهره قد تزايدت وتزايدت، حتى أن فضاءً معتمًا شاسعًا قد انفتح هناك. توقف العم فيليب عن الكلام ليمسح بعض العرق عن جبهته بباطن كفه. لكنه الآن قد نظر لى بإمعان وأكمل:

'ذهبت لمقابلة وانغ كو متأخرًا فى ذلك اليوم نفسه فى المتروبول. فعلت كل ما فى مستطاعى محاولاً وقف النكبة التى كنت أعرف بوقوعها. لكن بلا جدوى. ما قاله لى عصر ذلك اليوم هو أنه بعيدًا عن غضبه مما فعلته أمك، فقد وجد أن روحها – هذا ما قال به، "روحها" – غاية فى الجاذبية. لدرجة أنه يريد العودة بها كمحظية، العودة بها إلى هونان. لقد اقترح "ترويض" أمك، كما يفعل مع المهرة الجامحة. الآن لابد وأن تفهم، يا بفن، مسار الأمور وقتئذٍ، فى شنغهاى، فى الصين، لو أن رجلاً من فصيل وانغ كو قد قرر أمرًا كهذا، فنادرًا ما يوجد من يمنعه. هذا ما ينبغى أن تفهم. لم يكن هناك ما يمكن عمله حال طلب البوليس أو أى شخص آخر أيًا كان لحراسة أمك. وهذا ما جعل الأمور تمضى ببطء قليلا، لكن هذا كل ما فى الأمر. لم يكن هناك من يستطيع حماية أمك من نوايا رجلٍ من ذلك النوع. لكن تعرف، يا بفن، لقد كان خوفى الأعظم عليك. لم أكن أعرف نواياه تجاهك، وهذا ما كنت أتوسل لأجله بالفعل. فى النهاية، وصلنا إلى اتفاق. أن أقوم أنا بترتيب الأمور بحيث تصبح أمك وحدها، دون حراسة، وفى الوقت نفسه أستطيع إبعادك عن المشهد تمامًا. هذا كل ما أردت أن أفعل. لم أكن أريده أن يأخذك أنت أيضًا. أمك، كان أمرها مفروغًا منه. لكن بالنسبة لك، كان هناك ما يمكن أن أتوسله لأجلك. وهذا ما فعلت.'

ثمة توقف محتمل. ثم قلت:

'لعد هذا الترتيب المقنع، هل أفترض أن وانغ كو قد استمر في التعاون مع خطتكم؟'

'لا تسخر، يا بفن.'

'لكنه قد حدث؟'

'حدث بالفعل. إن أخذ أمك قد شفي غليله. بإمكاني أن أقول إنه فعل ما طلبنا منه، إسهاماته كانت عاملاً فاعلاً في دفع الشركات لقرار إنهاء هذه التجارة.'

'لذلك تم التضحية بأمي، كما تقول، لأجل هدفٍ أعظم.'

'انظر، يا بفن، لم يكن ثمة اختيار لدى أي منّا. لابد وأن تفهم ذلك.'

'هل رأيت أمي بعدئذٍ؟ بعد أن اختطفها ذلك الرجل؟'

رأيته يتردد. لكنه بعدئذٍ قال:

'نعم، في الحقيقة، رأيتها. مرة واحدة، بعد سبع سنوات. صادف أنني كنت أمر بهونان وقبلت دعوة وانغ لاستضافتي. وهناك، في قلعته، نعم، رأيت أمك بالفعل لآخر مرة.'

كان صوته يهمس تقريبًا. الفونوجراف في الطابق السفلي لم يعد يعمل، لدرجة أنني أحسست باستكانة معلقة بيننا.

'ثم... ثم ماذا حدث لها؟'

'كانت بصحة جيدة. كانت، بالطبع، واحدة من محظيات كثيرات. يمكنني القول بأنها، تحت وطأة الظروف، تكيفت مع حياتها الجديدة جيدًا.'

'وكيف كانت تُعامل؟'

أشاح العم فيليب بوجهه بعيدًا. ثم قال بهدوء: 'عندما رأيتها، بطبيعة الحال سألت عنك. أخبرتها بما قد كنت أعرف. كانت سعيدة. تعرف، حتى رأيتها في تلك المرة، كانت منقطعة تمامًا عن العالم الخارجي. لسبع سنوات، لم تكن تسمع فقط سوى ما يختاره وانغ لتسمعه. ما أعنيه هو، لم تعرف يقينًا أن الترتيبات المالية تسير على ما يُرام. لذلك، فحينما رأيتها، لم تكن تريد أن تعرف سوى هذا الأمر، واستطعت أن أطمئنها أن الأمور على ما يُرام. بعد سبع سنوات من عذابات الشك، ارتاح عقلها. لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى ارتياحها. "هذا كل ما أردت معرفته،" وتظل تقول "ذلك كل ما أردت معرفته."'

كان يرمقني الآن بمنتهى الإمعان. بعد لحظةٍ أخرى، منحته السؤال الذي كان ينتظره مني.

'عم فيليب، أي ترتيبات مالية؟'

نظر لأسفل على ظهر يديه، وتفحصهما جيدًا لبرهة. 'أنا أعرف أنه لولاك، لولا حبها لك، يا بفن، لكانت أمك قد فرت بحياتها دون تردد قبل أن يتمكن هذا النذل من مسها بطرف إصبعه. كانت ستجد طريقة، وكانت ستنجو بها. لكن كنت أنت على رأس الاعتبارات.

لذلك في النهاية، عندما رأت الموقف على ذلك الوضع، وضعت خطة. أن يتم دعمك ماليًا في مقابل... خضوعها. أشرفت على معظم نقاط ذلك الاتفاق بنفسي، وقمت بترتيبه من خلال الشركة. كان هناك رجل في شركة سواير، لم يكن يعرف مبرر كل ذلك. لذلك كان يحاول تأمين طرق آمنة لأفيونه. ها ها! كان رجلاً أحمق، ذلك الرجل!' هز العم فيليب رأسه وابتسم. ثم عاودت القتامة وجهه مرةً أخرى، وكأنه قد استسلم للمسار الذى اختطه مسارنا في الحوار.

'نصيبي،' قلت بهدوء. 'إرثي...'

'خالتك في إنجلترا. لم تكن ثرية أبدًا. لقد كان وانغ كو هو كفيلك الوحيد طيلة هذه السنوات'

'لقد كنت طيلة هذا الوقت، إذًا، أعيش... أعيش على...' لم أستطع أن أكمل، وتوقفت ببساطة.

أومأ العم فيليب. 'دراستك. مكانك في مجتمع لندن. حقيقة إن ما حققت من ذاتك ما أنت عليه الآن. تدين به إلى وانغ كو. أو بدرجةٍ ما إلى تضحية أمك.'

وقف ثانيةً، وعندما نظر إليّ رأيت شيئًا جديدًا على وجهه، شيئًا يشبه الكراهية تقريبًا. ثم استدار وانتقل بعيدًا فى غياهب الظلال، ولم أر ذلك الشيء ثانيةً.

'في تلك المرة التي رأيت فيها أمك،' قال. 'في تلك القلعة. كانت قد فقدت كل اهتمامها بحملة مكافحة الأفيون، كانت تعيش فقط لأجلك، وتقلق لأجلك. في ذلك الوقت، حُرمت هذه التجارة. لكن حتى ذلك

الخبر لم يعد يعنى لها شيئًا. بالطبع، أحسست بالمرارة تجاه حالتها هذه، تمامًا كما حدث للآخرين منا الذين ضحوا بسنوات من أجل الحملة. ظننا أننا فى النهاية حققنا هدفنا. انتهت تجارة الأفيون. واستغرقنا من الوقت عامًا أو اثنين لنعرف ماذا يعنى إلغاء هذه التجارة بالفعل. لقد غيرت هذه التجارة أياديها ببساطة، هذا كل ما فى الأمر. إنها الآن تحت إدارة حكومة تشيانغ. عدد أكبر من المدمنين أكبر من أى وقت مضى، لكنها حينئذٍ كانت تنتشر من أجل دفع نفقات جيش تشيانغ كيا-شيك، دفع نفقات سلطته. وهكذا عندما انضممت للحمر، يا بفن. اعتقدت أن أمك ستنهار حين تعرف ما آل إليه أمر حملتنا، لكنها لم تعد تكترث. كل ما كانت تريده هو أن يُعتَنى بك. كانت دائمًا تريد أن تعرف أخبارك. هل تعرف، يا بفن' – اعتلى صوته بغتةً حافة غريبة – 'عندما رأيتها فى تلك المرة، كانت تبدو فى حالة جيدة تمامًا. لكن أثناء وجودى هناك، سألت بعض الآخرين فى المكان، ممن يعرفون. كنت أريد أن أعرف الحقيقة، أعرف كيف كانت تُعامَل، لأننى... لأننى كنت أعرف أن هذه اللحظة، هذه اللحظة التى نعيشها الآن، كانت مُحتملة الحدوث. وعرفت. آه نعم، اكتشفت. كل شيء.'

'هل تحاول تعذيبى عمدًا؟'

'لم تكن مجرد مسألة... مسألة الخضوع له فى السرير. لكنه كان يجلدها بانتظام أمام ضيوفه على العشاء. وكان يُسمى ذلك ترويض المرأة البيضاء. ولم يكن هذا كل ما فى الأمر. هل تعرف...'

كنت فعلاً قد غطيت أذنى، لكننى الآن صرخت: 'كفى! لماذا تعذبنى هكذا؟'

'لماذا؟' كان صوته الآن مشوبًا بالغضب. 'لماذا؟ لأننى أريدك أن تعرف الحقيقة! طيلة هذه السنوات، كنت تنظر إلى على أننى مخلوق خسيس. ربما أكون هكذا، لكن هذا صنيع هذا العالم بك. لم أقصد أبدًا أن أكون هكذا. لكننى قصدت أن أفعل خيرًا فى هذا العالم. ذات مرة اتخذت قرارات شجاعة بطريقتى. انظر إلى الآن. أنت تحتقرنى. لقد احتقرتنى طيلة هذه السنوات، يا بفن، يا أقرب الناس لمفهوم الابن بالنسبة لى، وما زلت تحتقرنى. لكن الآن هل ترى حقيقة العالم بالفعل؟ كيف أصبحت مخبرًا سريًا شهيرًا؟ مخبر سرى! ما الخير فى هذا بالنسبة لأى شخص؟ مجوهرات مسروقة، أرستقراطيون يُقتلون لأجل تركاتهم. هل تعتقد أن فى كل هذا ما يشيع السعادة فى النفس؟ أمك، كانت تريدك أن تعيش فى عالمك الساحر للأبد. لكن هذا مستحيل. فى النهاية لابد وأن يتهشم. معجزة أن يظل باقيًا هكذا كل تلك الفترة لأجلك. الآن، يا بفن، هنا. سأمنحك هذه الفرصة. هنا.'

أخرج مسدسه ثانيةً. تقدم من الظلال باتجاهى، وعندما نظرت لأعلى، كان يلوح بطيفه فوقى، كثيرًا ما كان يفعل ذلك أيام طفولتى. طرح سترته للخلف وضغط بمسدسه فى صدّريته بالقرب من قلبه.

'هنا،' قال، وهو ينحنى ويهمس لدرجة أننى شممت عطانة أنفاسه. 'هنا، يا ولد. بإمكانك أن تقتلنى. كما أردت دائمًا. لهذا السبب أبقيت على حياتى لوقتٍ طويل. هذا الامتياز لا ينبغى لأى شخصٍ

آخر. لقد أنقذت نفسي. اسحب الزناد. هنا، انظر. سنجعل المسألة تبدو وكأنني هاجمتك. سأمسك بالمسدس، وسأسقط فوقك. عندما يدخلون، سيرون جسدي منهارًا فوقك، ستبدو وكأنها دفاع عن النفس. انظر، هنا، أنا أمسكه. وأنت تسحب الزناد، يا بني.'

كانت صدريته تتماس مع وجهي، وتتحرك لأعلى مع صدره الذي كان يجيش. شعرت باشمئزاز، وحاولت أن أتحرك بعيدًا، غير أن يده الأخرى – ببشرتها التي بدت جافة بصورة غير قابلة للوصف – قبضت على ذراعي بقوة كي تجذبني إليه. خطر ببالي أنه من الممكن أن يضغط على الزناد بنفسه بمجرد لمسة يدي للمسدس. تراجعت بعنف، وترنحت بعيدًا عنه دون أن أستطيع الحفاظ على توازن الكرسي.

لثانية نظر كلٌ منّا باتجاه الباب بإذناب لنرى ما إذا كانت هذه الفوضى ستدفع الحراس للدخول. لكن لا شيء حدث، وفي النهاية ضحك العم فيليب، وأعاد وضع الكرسي في مكانه أمام المكتب بعد أن التقطه. ثم أجلس نفسه عليه، ووضع المسدس على المكتب، وظل بعض الوقت يستعيد أنفاسه. ابتعدت بضع خطوات أخرى عن المكتب، لكن لم يكن هناك أي شيء آخر في تلك الغرفة الغائرة، واضطُررت للتوقف ببساطة، وظهري كان لم يزل قبالته. ثم سمعته يقول:

'وهو كذلك. حسنًا جدًا.' ازدرد بضع أنفاس أخرى من الهواء. 'إذًا، سأخبرك. سأعلن لك عن أسوأ اعترافاتي.'

لكن كل ما استطعت أن أسمعه خلفى، فى الدقيقة التالية، كانت أنفاسه اللاهثة. ثم قال أخيرًا:

'حسنًا جدًا. سأعترف لك بالحقيقة. حقيقة المبرر الذى بسببه وافقت على اختطاف وانغ كو لأمك في ذلك اليوم. ما قلته من قبل، نعم، كان صحيحًا جدًا. كان على أن أؤمنك. نعم، نعم، كل شيء قلته من قبل صحيح بطريقةٍ ما أو بأخرى. لكن لو أردت بالفعل أن، لو أننى أردت فعلاً إنقاذ أمك، أعرف أننى كنت سأجد طريقة لذلك. سأخبرك الآن بشيء، يا بفن. شيء لم أكن أقدر أن أعترف له حتى لنفسى لسنوات عديدة. لقد ساعدت وانغ كو فى الاختطاف لأن جزءًا منى كان يريدها أن تُستَعبَد. أن تُنتَهك بتلك الطريقة، ليلة بعد أخرى. لأنك تعرف، أننى كنت دائمًا أشتهيها، منذ الأيام الأولى لاعتيادى التردد على بيتكم. آه نعم، كنت أرغبها، وعندما هرب أبوك بتلك الطريقة، اعتقدت أنها فرصتى، وأننى الخليفة الطبيعى. لكن... لكن أمك، لم تكن تنظر إلى أبدًا بهذه الطريقة، أدركت هذا بعد هروب أبيك. كانت تبجلنى معتقدةً أننى شخص جدير بالاحترام... لا، لا، كان هذا مستحيلاً. ولم يكن ممكنًا أن أتقدم نحوها حتى لو ظللت إلى جوارها ألف سنة، ولا حتى بتلك الطريقة. غضبت. غضبت جدًا. وعندما حدث كل هذا، مع وانغ كو، أثارنى ما حدث. هل تسمعنى، يا بفن؟ *أثارنى ما حدث!* بعد أن أخذها، فى أكثر ساعات الليل عتمة، كان ذلك يثيرنى. طيلة تلك السنوات، عشت منتصرًا من خلال وانغ. بدا لى الأمر تقريبًا وكأننى قهرتها أنا أيضًا. كنت أمنح نفسى اللذة، لمرات ومرات عديدة، وأنا أتخيل نفسى أننى من فعل بها ذلك. الآن،

الآن، اقتلني! لماذا تصفح عني؟ لقد سمعت كل شيء! تفضل، اقتلني كفأر ليس أكثر!'

لوقتٍ طويل، ظللت أقف في الركن المعتم من الغرفة، وظهري له، أنصت لصوت تنفسه. ثم استدرت إليه ثانيةً وقلت، بمنتهى الهدوء:

'قلت قبل قليل إنك تعتقد أن أمي لم تزل على قيد الحياة. ألم تزل مع وانغ كو؟'

'لقد مات وانغ كو قبل أربع سنوات. وقام تشينج، على أية حال، بتسريح قواته. أنا لا أعرف مكانها الآن، يا بفن. بالأمانة، لا أعرف.'

'حسنًا، سوف أجدها. لن أتهاون.'

'لن يكون الأمر سهلاً، يا بني. هناك حرب مشتعلة في كل أنحاء البلاد. وسوف تندلع في العالم كله عما قريب.'

'نعم،' قلت. 'أنا على يقين من أن العالم كله سينغمس فيها. لكن هذه ليست غلطتي. لم يعد هذا يهمني، في الحقيقة. أنا أقصد لابد أن أبدأ من جديد، وسأجدها في هذه المرة. هل هناك شيء آخر تود أن تخبرني به ويساعدني في بحثي؟'

'للأسف لا، يا بفن. لقد أخبرتك بكل شيء.'

'إلى اللقاء إذًا، عم فيليب. أعتذر لأنني لا أستطيع أن أتفضل عليك بمعروف.'

'لا عليك. كثيرون يودون التفضل على الثعبان الأصفر.' أطلـق ضحكة سريعة. ثم قال بصوت مكتئب وحزين: 'إلى اللقاء، يا بفـن. أتمنى أن تجدها.'

الظلام

الكتاب السابع

لندن ١٤ نوفمبر ١٩٥٨

الفصل الثالث والعشرون

كانت هذه هى أولى رحلاتى الطويلة خلال عدة سنوات، وليومين بعد وصولنا إلى هونج كونج، ظللت فى حالة من الإعياء الشديد. إن السفر جوًا سريع بصورة مروعة، لكن الظروف معقدة ومُربكة. فقد عاودتنى آلام مفصل الفخذ بإفراط مع صداع لازمنى لفترة طويلة من إقامتى، مما جعل وجهة نظرى، بلا شك، تنطوى على كثير من التحامل ضد تلك المستعمرة. أعرف عن هؤلاء الذين خرجوا فى رحلات إلى هناك وعادوا منتفخين بالكثير من المديح. 'مكان متقدم،' دائمًا يقولون. 'وجميل بشكل مثير للدهشة.' ومع هذا كانت السماء غائمة والشوارع مزدحمة بصورة تثير الضيق لوقت طويل من ذلك الأسبوع. أعتقد أننى أعجبت هنا وهناك - فى اللافتات الصينية خارج المحلات، أو فقط فى النظر إلى الصينيين وهم يقومون بأداء أعمالهم فى الأسواق - بما يشبه الصدى الغامض لشنغهاى. لكننى ثانيةً أقول، كانت هذه الأصداء كثيرة جدًا بحيث لم أستطع أن أعتبرها مريحة. وكأننى قد التقيت فجأة، فى واحدة من حفلات العشاء المملة التى حضرتها فى كينسينجتون أو بايسواتر، بإحدى قريبات امرأة ربطتنى بها علاقة حب ذات مرة؛ وكانت حركاتها وإيماءاتها وتعبيرات وجهها تخدش الذاكرة برفق، لكنها تظل، فوق هذا كله، محاكاة غريبة وسخيفة أيضًا بصورة عالقة فى الذهن بقوة.

فى النهاية كنت سعيدًا بصحبة جينيفير. عندما ألمحت فى البداية بإمكانية المجىء معى، تجاهلتها عامدًا. لأنها حتى فى تلك المرحلة المتأخرة – أنا أتحدث فقط عن خمس سنوات مضت – كانت تميل إلى اعتبارى نوعًا من المرضى، خاصة مع عودة ظهور الماضى أو الشرق الأقصى فى حياتى. أعتقد أن جزءًا منى قد استاء طويلاً من هذا القلق المفرط، وعندما تأكد لى أنها بالفعل تود الخروج من الأشياء لفترة – وأنها تعانى من قلقها الخاص، وأن مثل هذه الرحلة ربما تكون خيرًا لها – عندئذٍ فقط وافقت على حتمية سفرنا معًا.

إن محاولة مد فترة الرحلة إلى شنغهاى كانت فكرة جينيفير، وأعتقد أن هذا لم يكن مستحيلاً. لقد استطعت لن أتحدث إلى بعض المعارف الراشدين، رجال ممن لم تزل لهم كلمتهم فى وزارة الخارجية، وأنا متأكد من أننا حصلنا على إذن دخول للبر الرئيسى من الصين دون مواجهة صعوبات كبيرة. أنا أعرف عن آخرين فعلوا مثل هذا. لكن وبكل ما للكلمة من معنى، شنغهاى اليوم هى ظل شبحى للمدينة التى كانت من قبل. الشيوعيون قد أحجموا عن إتلاف المكان وهدمه ماديًا، لذلك فقد بقى الكثير مما كان يسمى فى الماضى المستعمرة الدولية كما هو عليه دون أن يمسسه الأذى. الشوارع رغم إعادة تسميتها، معروفة جدًا، ويُقال إن أى شخص من الكبار يعرف شنغهاى يعرف طريقه فيها. لكن الأجانب، بالطبع، قد تم إبعادهم جميعًا، والفنادق والنوادى الليلية التى كانت فى وقت ما موجودة بكثرة أصبحت الآن مكاتب لحكومة الرئيس ماو. بعبارةٍ أخرى، شنغهاى اليوم أثبتت أنها لا تقل فى كونها محاكاة ساخرة مؤلمة للمدينة القديمة عن هونج كونج.

لقد سمعت، بشكل عرضي، أن الكثير من الفقر - وأيضًا إدمان الأفيون الذى حاربته أمي بقوة ذات يوم - قد تراجع تحت حكم الشيوعيين. إلى أى مدى لم تزل هذه الشرور المستأصلة باقية، لكن يبدو واضحًا أن الشيوعية قد تمكنت فى بضع سنوات من تحقيق ما عجزت عنه الحملات الخيرية المتحمسة فى عقود. أذكر متعجبًا ومتسائلاً بينى وبين نفسى ما الذى كانت ستفعله أمي بمثل هذه الفكرة فى تلك الليلة التى قضيناها فى هونج كونج، عندما كنت أمشى حول غرفتى فى فندق إكسليسيور، لعلاج مفصل فخذى ومحاولة استعادة توازنى بشكل عام.

لم أذهب إلى الروسدال مانور إلا فى اليوم الثالث. لقد ظل مفهومًا لفترة طويلة أننى سأقوم بالرحلة وحدى، ورغم أن جينيفير تابعت كل حركاتى طيلة الصباح، فقد رأتنى أنطلق بعد الغداء دون جلبة كبيرة.

فى تلك الظهيرة، كانت الشمس فى ذروتها، وعندما صعدت منحدرات التل فى التاكسى، كانت فرق من عمال البستنة الذين تخلصوا من ثيابهم تقوم برى المروج المقلمة جيدًا على كلا الجانبين. أخيرًا أصبحت الأرض مستوية وتوقفت سيارة التاكسى أمام بيت كبير أبيض شُيِّد على طراز المستعمرات البريطانية له صفوف من نوافذ ذات مصاريع وجناح إضافى يمتد من جانبه. لابد وأنه، فى وقت ما، كان بيتًا فخمًا، يطل ،كما كان، على المياه ومعظم الجانب الغربى من الجزيرة. عندما وقفت فى النسيم ونظرت عبر الميناء، كنت أرى مباشرة على مد البصر حتى رأيت التليفريك يمضى بعيدًا إلى تل

بعيد. مع هذا رأيت، مع استدارتى للبيت نفسه، أنه قد سُمح لـه بـأن يصبح ضبابيًا، فالدهانات التى على أفاريز إطارات النافـذة والبـاب على وجه التحديد قد تشققت وتقشرت.

بالداخل، فى الردهة، كانت هناك رائحة سمك مسـلوق خافتـة، غير أن المكان بدا فى غاية النظافة. قادتنى راهبة صينية إلى أسـفل حيث كوريدور يرتد فيه الصدى إلى مكتب الأخت بليندا هيينى، امرأة فى منتصف الأربعينيات من عمرها ذات ملامح جادة وبدرجـةٍ مـا صارمة. وهناك، فى المكتب الصغير الضيق، أُخبِرت أن المرأة التى يعرفونها باسم 'ديانا روبرتس' قد أتت إلـيهم مـن خـلال منظمـة علاقات متبادلة تعمل على مستوى وزارات الخارجية فـى الصـين الشيوعية. كل السلطات الصينية كانت تعرف أنها، وقـت تسـليمها، كانت تعيش فى مؤسسة للأمراض العقلية فى تشانكينغ منـذ انتهـاء الحرب.

'من الممكن أن تكون قد قضت معظم سـنوات الحـرب هنـاك أيضًا،' قالت الأخت بليندا. 'الأمر لا يحتمل مجرد التفكير، يا مسـتر بانكس، فى أى مكان كانت. فالإنسان، بمجرد احتجازه فى مثل هـذا المكان، من الصعب بحال أن تسمع عنه ثانيةً. فقط لأنها امرأة بيضاء فقد تميزت. الصينيون لم يعرفوا ماذا يفعلون معها. مع كل هذا، فهـم يريدون إخراج جميع الأجانب من الصين. لذلك فقد أُحيلت أخيرًا إلى هنا، وهى معنا الآن منذ عامين تقريبًا. عندما أتت إلينـا لأول مـرة، كانت فى غاية القلق والهياج. لكن خلال شهر أو أكثر، بـدأت كـل المعاونات المعتادة للروسيدال مانور، ممثلـة فـى الأمـن والنظـام

والصلوات، تؤدى واجباتها. لن تعرفها الآن على أنها المخلوق المسكين الذى وصل إلى هنا. لقد بلغت حدًا رائعًا من الهدوء والطمأنينة. أنت من أقاربها، هل قلت ذلك؟'

'نعم، هذا ممكن،' قلت. 'ومادام أننى فى هونج كونج، فقد فكرت أنه من الصواب بالفعل القيام بزيارة. هذا أقل ما يمكن القيام به.'

'حسنًا، أى أخبار من الأقارب، والأصدقاء وثيقى الصلة، وأى اتصال مع إنجلترا، يسعدنا أن نسمع به. وفى الوقت نفسه، مرحبًا بالزائرين دائمًا.'

'هل لديها الكثير؟'

'هناك من يزورها بصورة منتظمة. نحن ننفذ خطة مع طلاب كلية سانت جوزيف.'

'فهمت. وهل هى على علاقات طيبة بالآخرين من زملائها؟'

'أوه نعم. وهى لا تثير أى مشاكل لنا على الإطلاق. نستطيع أن نقول إنها مثل الأخريات!'

قادتنى الأخت بليندا أسفل كوريدور آخر إلى غرفة واسعة مشمسة – ربما كانت فيما قبل غرفة الطعام – بها حوالى عشرون أنثى جميعهن ترتدين سمَق(*) بيج تجلس أو تمشين جيئة وذهابًا فى حدود المكان. الأبواب فرنسية الطراز كانت تنفتح على الأراضى المحيطة، وكانت الشمس تسقط بأشعتها من خلال النوافذ على

(*) ثوب خارجى فضفاض، يُرتدى لوقاية الملابس من الاتساخ. (المترجم)

الأرضيات الباركيه. لولا العدد الكبير من المزهريات المليئة بالأزهار اليانعة، لكنت أخطأت القاعة وحسبتها حضانة أطفال؛ كانت هناك ألوان مائية براقة مُثبّتة على كل الجدران، وفي نقاط عديدات، طاولات عليها بنات يلعبن الورق، أو يرسمن على الورق بألوان الشمع. تركتني الأخت بليندا أقف عند المدخل بينما تقدمت إلى راهبة أخرى تجلس على بيانو، وعدد من النساء توقفن عما كن يقمن به لترمقنني. أخريات بدين واعيات وحاولن إخفاء أنفسهن. كلهن تقريبًا كن غربيات، رغم أنني رأيت واحدة أو اثنتين من أوراسيا. ثم بدأت واحدة تنتحب بصوتٍ مرتفع في مكان ما من المبنى خلفي، ومن المثير للفضول أن هذا كان من أثره وضع النساء في حالة من الارتياح. سيدة سلكية الرأس على مقربةٍ مني ألقتني بابتسامة عريضة وقالت:

'لا تقلق، يا حبيبي، إنها مارثا. إنها تستعيد عنفوانها وتوردها مرةً أخرى!'

سمعت لهجة يوركشير في طريقة نطقها، وكنت أتساءل أي مقادير أتت بها إلى هذا المكان، عندما عادت الأخت بليندا.

'لابد وأن ديانا بالخارج،' قالت. 'لو سمحت اتبعني، يا مستر بانكس.'

خرجنا عبر الأبواب الفرنسية الفضاء المحاط بالأسوار الذي يعلو وينخفض في كل الاتجاهات، ويذكرنا بأننا على مقربة من قمة تل. وأنا أمشي خلف الأخت بليندا مرورًا بأحواض الزهور بما فيها من

أزهار الجربارة والزنابق، أخذت لمحة بانورامية من الشجيرات المشذبة بعناية فائقة. هنا وهناك، سيدات مسنات كن يجلسن في الشمس الساطعة يترابطن اجتماعيًا، يدردشن معًا أو يغمغمن مع أنفسهن دون عنف. عند نقطة ما، توقفت الأخت بليندا وتلفتت حولها، ثم قادتني أسفل مرجة منحدرة عبر بوابة بيضاء إلى حديقة صغيرة يلفها سور.

الشخص الوحيد الذي كان موجودًا هنا كان سيدة مسنة تجلس في الشمس في الركن القصي من العشب الرقيق، تلعب الورق على طاولة معدنية مزخرفة. كانت مستغرقة في لعبتها ولم ترفع عينيها عندما كنا نقترب منها. لمست الأخت بليندا كتفها وقالت:

'ديانا. هنا جنتلمان أتى لزيارتك. إنه من إنجلترا.'

رفعت أمي وجهها بابتسامة لكلينا، ثم عادت للعب بالكوتشينة.

'ديانا لا تفهم دائمًا ما يُقال لها،' قالت الأخت بليندا. 'لو أردت منها أن تفعل شيئًا ما، فعليك فقط أن تكرره مرارًا وتكرارًا.'

'أنا أسأل إذا ما كان ممكنًا أن أتحدث إليها على انفراد.'

لم تكن الأخت بليندا متحمسة لهذه الفكرة وللحظة بدت تحاول التفكير في سبب يبرر عدم إمكانية ذلك. لكنها في النهاية، قالت: 'لو أنك تفضل ذلك، يا مستر بانكس، فلا مانع بالتأكيد. سأكون في القاعة النهارية.'

لحظة تركتنا الأخت بليندا، رمقت أمي بإمعان وهي تلقي بالورق. كانت أصغر بكثير مما توقعت وكان لكتفيها حدبة حادة. كان

شعرها فضيًا ومعقوذًا بإحكام على شكل كعكة. بين الحين والآخـر، وبينما كنت أواصل النظر إليها، كانت تنظر لأعلى وتبتسـم، لكننـي لمحت أثر خوف يعتريها لم يكن موجودًا فى حضور الأخت بليندا. لم يكن وجهها قد تجعد كثيرًا، لكن أسفل عينيهـا كـان هنـاك طيتـان سميكتان عميقتان تشبهان الندوب. رقبتها، ربما بسبب جـرح مـا أو وضع اجتماعى قد انسحبت عميقًا إلى جسمها لدرجة أنها عندما كانت تنظر من جانبٍ إلى آخر على أوراق الكوتشينة، كانت تضطر أيضـًا إلى تحريك كتفيها. كان هناك قطـرة صـغيرة تتـدلى مـن أنفهـا، وأخرجت منديلى لأمسحها قبل أن أدرك أننى بفعلتى هذه سـأفزعها بطريقة غير لائقة. أخيرًا قلت بهدوء:

'أنا آسف، لم أستطع أن أحذرك بأى شكل. أعرف أن هذا ربمـا يكون بدرجةٍ ما صادمًا لك.' توقفت، مادام كان من الواضح أنهـا لا تسمع. ثم قلت: 'أمى، إنه أنا. كريستوفر.'

نظرت لأعلى، وابتسمت مثلما ابتسمت من قبل ابتسامة عريضة، ثم عادت إلى أوراق الكوتشينة. تصورت أنها تلعب سـوليتير، لكـن عندما أمعنت النظر، رأيت أنها تمارس نظامًا غريبًا خاصًا بها. فـى لحظةٍ ما أسقط النسيم بعض الكروت من على الطاولة، لكنهـا بـدت غير مكترثة. عندما جمعت لها الكروت من على العشـب وأعـدتها إليها، ابتسمت قائلةً:

'شكرًا جزيلاً لك. لكن، تعرف، ليس ثم من حاجـة لـذلك. أنـا شخصيًا، أحب أن أتركها حتى تتراكم كمية أكبر من الكـروت علـى

العشب. حينئذٍ فقط، أقوم وأجمعها كلها مرة واحدة. مع ذلك، لا يمكن أن تتطاير جميعها معًا، أليس كذلك؟'

واصلت مراقبتها خلال البضع لحظات التاليات. ثم بدأت تغني. كانت تغني لنفسها في هدوء، بصوت مكتوم تقريبًا، بينما مضت يداها في التقاط الكروت ووضعها. كانت صوتها خافتا – لم أستطع تحديد الأغنية التي كانت تتغنى بها – لكنها كانت بالبداهة شجية. ومع مواصلة المشاهدة والاستماع، عاودتني لمحة من الذاكرة: ذكرى أحد الأيام الصيفية المنسمة في حديقتنا، كانت أمي على الأرجوحة، تضحك وتغني بأعلى صوتها، وأنا أقفز لأعلى وأسفل أمامها، طالبًا منها أن تتوقف.

تقدمت للأمام ولمست يدها برفق. وعلى الفور سحبت يدها بعيدًا وحدقت في بغضب.

'دع يديك لنفسك، يا سيدي!' قالت بهمسة مصدومة. 'دعهما لنفسك فقط!'

'آسف.' تحركت للخلف قليلاً كي أشيع الطمأنينة في نفسها. عادت إلى كروت الكوتشينة وعندما نظرت لأعلى في المرة التالية، ابتسمت وكأن شيئًا لم يكن.

'أمي،' قلت ببطء، 'إنه أنا. لقد أتيت من إنجلترا. أنا آسف فعلاً لأن هذا استغرق وقتًا طويلا. أعرف أنني خذلتك بصورة مؤسفة. بصورة مؤسفة. لقد بذلت ما في وسعي، لكن كما ترين، في النهاية، كان الأمر أكبر مني. أعرف أن الوقت تأخر تمامًا.'

لابد وأننى كنت قد شرعت فى البكاء، لأن أمى نظرت لأعلى وحدقت فى. ثم قالت:

'هل تشعر بألم فى الأسنان، يا سيد؟ لو الأمر كذلك، من الأفضل أن تتحدث إلى الأخت آجنيس.'

'لا، أنا بخير. لكننى أتساءل إذا ما كنت قد فهمت ما قلت؟ إنه أنا، كريستوفر.'

أومأت وقالت: 'لا فائدة من تأجيل الأمر، يا سيدى. ستقوم الأخت آجنيس بملء الاستمارة.'

حينئذٍ أتتنى فكرةً. 'أمى،' قلت، 'إنه بفن. *بفن*.'

'بفن.' بغتةً، تجمدت تمامًا. 'بفن.'

أمى لم تقل شيئًا لوقتٍ طويل، غير أن التعبيرات على وجهها قد تغيرت الآن تمامًا. عادت تنظر لأعلى ثانيةً، غير أن عيناها كانتا مثبتتين على شيء فوق كتفى، وجعدت وجهها ابتسامة رقيقة.

'بفن،' رددت الاسم بهدوء بينها وبين نفسها، وللحظة بدت مستغرقةً فى السعادة. ثم هزت رأسها وقالت: 'ذلك الولد. إنه عبء ثقيل على.'

'معذرةً،' قلت. 'معذرةً. على افتراض أن هذا الولد هو ابنك، بفن هذا. على افتراض أنك اكتشفت أنه بذل كل ما فى وسعه، حاول بشتى الطرق أن يجدك، حتى لو أنه فى النهاية لم يستطع. لو عرفت كل هذا، هل تعتقدين... هل تعتقدين أنك ستستطيعين الصفح عنه؟'

واصلت أمى النظر بإمعان عبر كتفى، لكن الآن اعترت وجهها نظرة مرتبكة.

'أسامح بفن؟ هل قلت أسامح بفن؟ على ماذا؟' ثم اتقـدت ثانيـة بالسعادة. 'ذلك الولد. يقولون إنه على ما يُرام. لكـن لا يمكنـك أن تطمئن أبدًا مع ذلك الشخص. إنه عبءٌ ثقيلٌ على.'

***

'ربما تنطوى المسألة على شيء من الحمق بالنسبة لك،' قلـت لجينيفير عندما كنا نناقش الرحلة مرة أخرى الشهر الماضى، 'فقـط عندما قالت ذلك أدركت. ما أقصده هو، أدركت أنها لم تكف أبدًا عن حبها لى، ليس من خلال أى كلمة مما قالت. كل ما كانت تريده طيلة حياتها أن أنعم بحياة طيبة. وكل ما تبقى من المسألة، كل محـاولاتى للعثور عليها، محاولاتى لإنقاذ العالم من الانهيار لم يكن ليطـرح أى اختلاف من أى نوع. مشاعرها تجاهى، كانت دائمًا هناك فقـط، لـم تكن تعتمد على أى شيء. أعتقد أن هذا لم يكن يبدو مثيرًا للدهشـة. لكننى استغرقت الوقت كله كى أدرك ذلك.'

'هل تعتقد حقًا،' سألت جينيفير، 'أنها لم تكن لديها ولـو مجـرد فكرة طفيفة عن هويتك؟'

'أنا على يقين بأنها لم تعرفنى. لقد كانت تعنى ما قالت، وكانـت تعى ما كانت تقول. قالت ليس هناك شيء أسامحك عليه، وارتبكـت بالفعل حين افترضت أن هناك ما يدعو للصفح. لو أنك رأيت وجهها،

عندما نطقت ذلك الاسم لأول مرة، لما هاجسك الشك فى هذا أيضًا.
لم تتوقف أبدًا عن حبها لى، ولو للحظةٍ واحدة.'

'عمو كريستوفر، لماذا تعتقد أنك لم تخبر الراهبات بهويتك على الإطلاق؟'

'لست متيقنًا. أعرف أن المسألة تبدو غريبة، لكن فى النهاية لم أفعل. إضافةً إلى أننى لم أجد سببًا لأخذها من هناك. كانت تبدو، بدرجةٍ ما، راضية. لم تكن بالضبط سعيدة. لكن وكأن الألم قد انقضى أمره. لم تكن لتصبح أفضل بعيدًا فى بيت فى إنجلترا. أعتقد أن الأمر يتطابق تمامًا مع سؤال حول مكان دفنها. بعد أن ماتت، فكرت فى إعادة دفنها هنا. لكن هناك ثانيةً، عندما أعدت التفكير فى الأمر، قررت ألا أفعله. لقد عاشت كل عمرها فى الشرق. وأظن أنها كانت ستفضل أن تُدفن هناك.'

كان صباح من أكتوبر صقيعى، وكنت مع جينيفير نتمشى أسفل أحد الممرات الملتوية فى جلوشيسترشير. كنت قد أقمت الليلة فى فندق قريب من البنسيون الذى تقيم فيه الآن، وبعد فترة قصيرة من تناول الإفطار دعوتها. ربما لم أستطع أن أخفى حزنى جيدًا على رثاثة أماكن الإقامة التى تنقلت بينها فى الفترة الأخيرة، لأنها أصرت بسرعة، رغم البرد، على أن نرى المنظر من حوش كنيسة قريبة على وادى ويندراش. مع تقدمنا أسفل الممر، رأيت فى الأسفل بوابات مزرعة؛ لكن قبل أن نصل إليها، انحرفت بى عن الممر عبر فتحة فى الوشيع.

'عمو كريستوفر، تعال وانظر.'

أخذنا طريقنا عبر رقعة كثيفة من نبات القُراص حتى وقفنا إلـى جوار بعض القضبان. حينئذٍ رأيت الحقول تمتد على جانب الوادى.

'إنه منظر رائع.' قلت.

'من حوش الكنيسة، يمكنك أن ترى لمسافة أبعد. ألا تفكر فـى الانتقال إلى هنا أيضًا؟ لندن مزحمة الآن للغاية.'

'أنا آسف،' قلت لها، 'لم آت إلى هنا كثيرًا فى الفترة الأخيـرة. أعتقد أنه قد مر بضعة أشهر أو يزيد الآن. لا أفكر إلى أى مدى قـد وصلت الأمور.'

'آوه، لا ينبغي عليك أن تقلق كثيرًا بشأنى.'

'لكننى قلق. بالطبع، قلق.'

'كل شىء خلفى الآن،' قالت، 'كل أحداث العام الماضـى. لـن أجرب أى شىء بهذا الحمق مرةً أخرى. لقد وعدتك فعلاً بذلك. لقـد كانت فترةً رديئة بالفعل، هذا كل ما فى الأمر. بجانب أننى لم أكـن أقصد أن أرتكب ذلك. تأكدت أن النوافذ كانت قد تُركت مفتوحة.'

'لكنك ما زلت امرأة شابة، يا جينى. وأمامك الكثيـر. يحبطنـى أنك فكرت حتى فى مثل هذا الأمر.'

'امرأة شابة؟ فى الواحدة والثلاثين، بلا أطفال، بلا زواج. أعتقد أنه لم يزل هناك وقت. لكن على أن أبحث عن الإرادة، تعرف، كـى أمضى فى غمار هذا كله ثانيةً. أنا مجهدة جدًا الآن، أحيانًا أفكر فـى

أننى بسعادة سوف أستقر وحدى بحثًا عن حياة هادئة فى معية ذاتى. بإمكانى أن أعمل فى محل فى مكان ما، أذهب إلى السينما مرة فى الأسبوع، ولا أسبب أى أذى لأى شخص. ليس ثم من خطأ فى حياة كهذه.'

'لكنك لن تستقرين هكذا. تبدين غير جينيفير التى أعرفها.'

أطلقت ضحكة صغيرة. 'لكنك لا تعرف كيف يبدو الأمر. امرأة فى سنى، تحاول أن تجد الحب فى مكان كهذا. أصحاب الشقق والمساكن يتهامسون عنك فى كل مرة تخطو فيها خارج غرفتك. ماذا تظن أنى فاعلة حقًا؟ أنشر إعلان؟ الآن، سيجعلهم هذا يتكلمون جميعًا، وليس أننى لا أكترث بهم على الإطلاق.'

'لكنك امرأة غاية فى الجاذبية، يا جينى. ما أقصده هو، عندما ينظر إليك الناس، يستطيعون رؤية روحك، طيبتك، رقتك. أنا واثق بأن هناك شيئًا سوف يحدث لك.'

'أتظن أن الناس ترى روحى؟ عمو كريستوفر، هذا فقط لأنك تنظر إلى ومازلت ترى البنت الصغيرة التى عرفتها ذات يوم.'

استدرت وأمعنت النظر إليها. 'آه، لكنها لم تزل هناك،' قلت. 'أستطيع أن أراها، فى العمق، تنتظر. لم يغيرك العالم كثيرًا كما تظنين، يا عزيزتى. لقد صدمك فقط بطريقة ما، هذا كل ما فى الأمر. وعلى فكرة، هناك قليل من الرجال المحترمة فى هذا العالم، لعلمك. فقط عليك التوقف عن بذل كل ما فى جهدك لتجنبهم.'

'وهو كذلك، يا عمو كريستوفر. سأحاول وسأتصرف أفضل فى المرة القادمة. لو كانت هناك مرة قادمة.'

للحظة ظللنا نحدق فى المنظر، هبت رياح خفيفة على وجهينا. أخيرًا قلت:

'أنا آسف، يا جينى، لابد وأننى تسببت لك فى الكثير.'

'لكن فى ماذا تسببت لى؟ لو أننى حملته فى رأسى الحمقاء كى...'

'لا، كنت أقصد... أقصد فيما مضى. عندما كنت صغيرة. كان ينبغى أن أكون معك هناك لوقت أطول. لكننى كنت مشغولاً للغاية، فى محاولة حل مشاكل العالم. كان ينبغى على أن أبذل الكثير لأجلك. أنا آسف. دائمًا كنت أقصدها. معذرة.'

'كيف لك أن تعتذر، يا عمو كريستوفر؟ أين كنت سأكون الآن دونك؟ كنت يتيمة، بلا أحد. لا ينبغى عليك أن تعتذر أبدًا. أنا مدينة لك بكل شىء.'

تقدمت للأمام ولمست خيوط العنكبوت المعلقة بين القضبان. تمزقت وتدلت من أصابعى.

'آه، أكره ذلك الإحساس!' تساءلت. 'لا يمكننى تحمله!'

'كنت دائمًا أحبه بدرجةٍ ما. عندما كنت صغيرًا، كنت أخلع قفازاتى لأفعل هذا فقط.'

'آه، كيف كنت تستطيع؟' ضحكت بصوت عال، ورأيـت بغتـة جينيفير الماضى. 'وماذا عنك، يا عمو كريستوفر؟ ماذا عن زواجك؟ ألا تفكر فى هذا أبدًا؟'

'لقد تأخر الوقت على هذا تمامًا.'

'أوه، لا أعرف. إنك تستطيع جيدًا أن تحيا وحدك. لكن هـذا لا يتلاءم معك كثيرًا. حقيقةً لا. إن العزلة تجعلك عكر المزاج. لابد أن تفكر فى الأمر. دائمًا ما تذكر صديقاتك من السيدات. ألن تسـتطيعك واحدة منهن؟'

'سوف يمتلكننى على الغداء. لكن ليس لأكثر من ذلك، للأسف.' ثم أضفت: 'كانت هناك واحدة ذات مرة. من زمان. لكنها مشت فـى الطريق المعاكس.' أطلقت ضحكة سريعة. 'على وجه العموم، مهنتى العظيمة كثيرًا ما كانت عقبة فى الطريق.'

لابد وأننى أشحت بوجهى بعيدًا عنها. أحسست بها تلمس كفـى، وعندما نظرت حولى، كانت تحدق برقة فى وجهى.

'لا يجب أن تتحدث دائمًا بهذه المرارة عن مهنتـك، يـا عمـو كريستوفر. دائمًا ما أُعجبت بك بسبب ما حاولت القيام به.'

'حاولت كلمة صحيحة. وكل ذلك أفضى إلى نتائج ضـئيلة فـى النهاية. على أى حال، كل ذلك خلف ظهرى الآن. أهم طموحاتى فى الحياة هذه الأيام هو الحفاظ على عدم تفاقم هذا الروماتيزم.'

ابتسمت جينيفير فجأة وأدخلت ذراعها فى ذراعى. 'أعرف ماذا سوف نفعل،' قالت. 'عندى خطة. لقد قررت. سأجد رجلاً محترمًـا

طيبًا أتزوجه، وسأنجب ثلاثة، لا أربعة أطفال. وسوف نعيش في مكان ما قريب من هنا، حيث يمكننا المجئ لرؤية هذا الوادى. ويمكنك أن تترك شقتك الصغيرة المزدحمة في لندن وتأتي للعيش معنا. مادام أن صديقاتك السيدات لن يتمكنّ منك، بإمكانك أن تقبل صفة العم لكل أطفالى القادمين.'

أجبتها بابتسامة. 'تبدو خطة رائعة. رغم أننى لا أعرف إذا ما كان زوجك سيقبل وجودى فى منزله طيلة الوقت أم لا.'

'أوه، وقتها سوف نرتب لك سقيفة قديمة أو أى شيء.'

'الآن، يبدو الأمر مغريًا. حافظى على نهاية صفقتك وأنا سأمعن التفكير فيها.'

'لو أن هذا وعد، فمن الأفضل أن تترقب إذًا. لأننى أؤكد لك أنه سيحدث. وحينئذ سوف تأتى وتعيش فى سقيفتك.'

***

خلال هذا الشهر الأخير، وأنا أنجرف مع هذه الأيام القاتمة فى لندن، أتجول في حدائق كينسنجتون فى صحبة سائحى الخريف وعمال المكاتب الخارجين لتناول الغداء، وبين الحين والآخر أتجه إلى أحد المعارف القدامى، وربما أنطلق معه لتناول الغداء أو الشاى، كنت غالبًا ما أجد نفسى أعيد التفكير فى حوارى مع جينيفير فى ذلك الصباح. لا أنكر أنه أسعدنى. كل الشواهد تدفعنى للاعتقاد فى أنها الآن قد عبرت النفق المعتم فى حياتها إلى الطرف الآخر منه. وما ينتظرها هناك يبقى واضحًا، لكنها ليست بطبيعتها من النوع الذى

يقبل الهزيمة بسهولة. في الحقيقة، من الممكن جدًا أن تحقق الخطة التي أخبرتني بخطوطها – بطريقة تنطوي على ما يشبه المداعبة – أثناء مشيتنا بالخارج فوق الوادي ذلك الصباح. وفي بضع سنوات أخذت الأمور المسار الذي تمنته بالفعل، وبلا جدال سوف أضع اقتراحها بالذهاب والعيش في الريف عندها موضع التنفيذ. بالطبع، لم أتخيل سقيفتها كثيرًا، لكن من الممكن دائمًا أن آخذ منزلاً ريفيًا بالقرب منها. أنا في غاية الامتنان لجينيفير. إننا نفهم هموم بعضنا البعض بالغريزة، وما تبادلناه من حوارات في ذلك الصباح الصقيعي هو ما أثبت هذه القاعدة من المواساة بالنسبة لي مع مرور السنوات.

لكن ثانيةً، الحياة في الريف ربما بدت هادئة بصورة تبعث على الموت، وأنا قد اعتدت على لندن القديمة. إضافة إلى أن هناك أشخاصًا، يتذكرون اسمي من قبل الحرب ويتصلون بي بين الحين والآخر بغية استشارتي في بعض الأمور. في الأسبوع الماضي فقط، في الحقيقة، عندما ذهبت إلى العشاء مع أسرة أوسبورن، تعرفت على سيدة أمسكت يدي على الفور، متسائلةً بتعجب: 'تعني أنك كريستوفر بانكس؟ المخبر السري؟'

اكتشفت أنها أمضت معظم حياتها في سنغافورة، حيث كانت إحدى صديقات سارة الحميمات. 'لقد كانت تتحدث عنك طيلة الوقت،' أخبرتني. 'حقيقةً أشعر أنني أعرفك بالفعل.'

كانت أسرة أوسبورن قد دعت الكثير من الناس، لكن لحظة جلسنا لتناول الطعام، وجدت نفسي قد أجلست بجانب السيدة نفسها، ولم يكن من الممكن تجنب أن ينجرف الحوار ثانية حول سارة.

'كنت أحد أصدقائها المقربين، أليس كذلك؟' سألت فى لحظةٍ ما. 'كانت تتكلم عنك بإعجاب دائمًا.'

'كنا أصدقاء، بالتأكيد. بالطبع، فقدنا الاتصال ببعضنا البعض إلى حدٍ ما منذ أن رحلت إلى الشرق.'

'كانت دائمًا تتحدث عنك. كان لديها العديد من القصص عن المخبرين السريين المعروفين، وظللنا فى حالة من الاستمتاع عندما نمل من لعب البريدج. كانت تتحدث عنك دائمًا ببالغ التقدير.'

'كان يثير سعادتى أن أفكر فى أنها تتذكرنى جيدًا. كما أقول، لقد فقدنا الاتصال ببعضنا البعض بدرجةٍ ما، رغم أننى تلقيت رسالة منها ذات مرة، بعد انتهاء الحرب بعامين تقريبًا. لم أكن أعرف حتى تلك اللحظة كيف قضت سنوات الحرب. كانت مستخفة بالاعتقالات أثناء الحرب، لكننى كنت على ثقة أنها لم تكن دعابة.'

'آه، أنا واثقة أنها لم تكن دعابة. كان من الممكن أن نعانى أنا وزوجى من المصير نفسه. لقد استطعنا أن ننجو بأنفسنا إلى أستراليا فى الوقت المناسب بالضبط. لكن سارة وم دى فيلفورت، كانا يثقان بالقدر كثيرًا. كانا نوعًا من الأزواج الذين يخرجون فى المساء بلا خطة ولا هدف، وفى منتهى السعادة لرؤية من يلتقون بهم مصادفةً. كان اتجاهًا حياتيًا ساحرًا معظم الوقت، لكن ليس الأمر هكذا عندما يكون اليابانيون على عتبة بابك. هل تعرفه أيضًا؟'

'لم أتشرف أبدًا النبيل. أعرف أنه عاد إلى أوربا بعد موت سارة، لكن لم تتقاطع طرقاتنا أبدًا.'

'أوه، ظننت من الطريقة التى تتحدث بها عنك، أنك كنت صديقًا حميمًا لهما فى الوقت نفسه.'

'لا. تعرفين، فى الحقيقة أنا عرفت سارة فقط خلال فترة مبكرة من حياتها. أستميحك عذرًا، ربما لا يكون لديك طريقة للإجابة على هذا. لكن هل فوجئت بأنهما زوجان سعيدان، أقصد سارة وهذا الرجل الفرنسى؟'

'زوجان سعيدان؟' لقد ظن صديقى للحظة. 'بالطبع، الإنسان لا يمكن أن يعرف بالتأكيد، لكن بكل أمانة، من الصعب أن تظن العكس. كانا يبدوان فى غاية الإخلاص لبعضهما. لم يكن لديهما الكثير من المال أبدًا، وهذا يعنى أنهما لم يكونا أبدًا بلا هموم كما كانا يتمنيان. لكن هذا النبيل الأوربى كان دائمًا يبدو فى غاية، حسنًا، *الرومانسية*. تضحك، يا مستر بانكس، لكن هذه هى الكلمة المناسبة هنا. تعرف، الاعتقال هو ما فعل ذلك. مثل كثيرين آخرين، لم تنعم أبدًا باستعادة حالتها الصحية تمامًا. أنا أفتقدها. هذه الصاحبة الفاتنة.'

منذ هذه المقابلة فى الأسبوع الماضى، أخرجت رسالة سارة وقرأتها عدة مرات - الرسالة الوحيدة التى تلقيتها منذ أن افترقنا فى شنغهاى طيلة تلك السنوات الماضيات. كان تاريخها الثامن عشر من مايو ١٩٤٧، وكتبت من أحد المصايف الريفية فى مالايا. ربما كنت أتمنى أن أكتشف، بعد حوارى مع صديقتها، فى هذه السطور المتكلفة إلى حدٍ ما، المتملقة تقريبًا، أكتشف بُعدًا ما خفيًا اليوم. لكن الرسالة فى الحقيقة لم تكن تنطوى على شيء أكثر من تفاصيل حياتها منذ رحيلها من شنغهاى. كانت تتحدث عن ماكاو، هونج كونج، سنغافورة

على أنها مبهجة وبديعة الألوان، وجذابة. ذكرت رفيقهـا الفرنسـى مرات عديدة، لكن بصورة عابرة دائمًا وكأننى كنت بالفعل أعرف كل شيء عنه. كان هناك ذكر مرح للاعتقال فى السجون اليابانية، كانت تذكر مشاكلها الصحية بشيء من التضجر. طلبتنى للذهاب بطريقـة مهذبة ووصفت حياتها الخاصة فى سنغافورة الحرة بأنها شيء غايـة فى الروعة تستحق أن أشاركها إياها. هذا هو نموذج الرسـالة التـى يمكن أن يكتبها المرء فى بلد أجنبية، دفقة واحدة ذات عصارى إلـى صديق خطر بباله بشكل مبهم. مرة واحدة، قرب نهاية الرسالة، كان إيقاع الرسالة ينم عن الحميمية التى جمعت بيني وبينها فى وقتٍ ما.

'ليس لدى ما يمنع فى أن أخبرك، يا كريستوفر العزيز،' كتبت، 'أننى طيلة الوقت أشعر بإحباط، على الأقل من الطريقة التى ظهرت بها الأشياء بيننا. لكن لا عليك، لقد توقفت منذ وقـت طويـل عـن الشجار معك. كيف لى أن أظل على شجار بينما القدر قد اختار فـى النهاية أن يبتسم لى بعطف شديد؟ بجانب أننـى أعتقـد الآن فـى أن القرار الصواب كان هو عدم ذهابك معى فى ذلك اليوم. دائمًا كنـت تشعر أن لديك مهمة ينبغى إنجازها، ويمكننى أن أقول بأنك لم تكـن لتقدر على منح قلبك لأى إنسان أو أى شيء قبل أن تتمها. بإمكـانى فقط أن أتمنى لك أن تكون قد انتهيت من مهمتـك، وأن تكـون قـد استطعت أن تجد السعادة والرفقة التى استطعت أن أضـمنها لنفسـى مؤخرًا.'

ثمة شيء فى هذه المقاطع من الرسالة – وفـى هـذه السـطور الأخيرة على وجه التحديد – لم يبدُ حقيقيًا تمامًا. ملاحظة ماكرة تمتد

فى كل سطور الرسالة – حقيقةً، قيامها بفعل الكتابة لى فى تلك اللحظة – تتعارض مع تقريرها عن أيام وارفة بالسعادة والرفقة. هل كانت حياتها مع صديقها الفرنسى بالفعل هى الحياة التى فرت للبحث عنها يوم أن خطت باتجاه الميناء فى شنغهاى؟ بدرجةٍ ما أشك فى ذلك. أشعر أنها تفكر فى نفسها بقدر ما تفكر فى عندما تتحدث عن معنى المهمة، وعبثية محاولة التملص منها. ربما يكون هناك من الناس من يستطيعون عيش حياتهم وهم متحررون تمامًا من مثل هذه الهموم. لكن بالنسبة لأمثالنا، فمصيرنا أن نواجه العالم كيتامى، يطاردون لسنوات طوال ظلال الآباء الغائبين. ليس ثم من شىء حيال ذلك سوى المحاولة والاهتمام حتى النهاية، بقدر ما نستطيع، لأنه لن يُسمح لنا بأى قدرٍ من الهدوء إلا حين ننتهى من مهمتنا.

لا أريد أن أبدو متأنقًا؛ لكن خلال انجرافى فى أيامى هنا فى لندن، أظن أنه بإمكانى فى الواقع الحصول على شىء من الرضا. أستمتع بحياتى فى المنتزهات، أزور المعارض الفنية؛ وبشكل متزايد فى الفترة الأخيرة، اعتدت أن يتملكنى بعضٌ من زهو أحمق حين أمحص فى تقارير الصحف القديمة التى كانت تدور حول قضاياى فى غرفة القراءة بالمتحف البريطانى. هذه المدينة، بعبارةٍ أخرى، أصبحت وطنى، ولا ينبغى أن أمانع فى أقضى ما تبقى من أيامى هنا. رغم ذلك، هناك أوقات يستعمر الفراغ فيها أوقاتى، وسوف أواصل التفكير بجدية فى دعوة جينيفير.

المؤلف فى سطور:

كازو إيشيجورو

كاتب وروائى بريطانى من أصول يابانية، وقد كتب خمسة أعمال روائية هى "منظر شاحب للتلال" ١٩٨٢ A Pale View of Hills و"فنان العالم الطافي" ١٩٨٦ An Artist of the Floating World، بقايا اليوم ١٩٨٩ The Remains of the Day،"ومن لا عزاء لهم" ١٩٩٥ The Unconsoled، و"عندما كنا يتامى" ٢٠٠٠ When We Were Orphans. تُرجمت كتبه إلى ٢٨ لغة. بدأ نشاطه الإبداعى فى عام ١٩٨١ عندما صدرت له عدة قصص قصيرة فى Introduction 7: Stories by New Writers. فاز بجائزة Whitbread لأحسن كتاب عام ١٩٨٦ عن روايته "فنان العالم الطافى". أكثر رواياته شهرة كانت رواية "بقايا اليوم" التى فازت بجائزة بوكر The Booker Prize عن العام ١٩٨٩، والتى وزعت أكثر من مليون نسخة فى الطبعة الإنجليزية فقط. وقد تم تحويل رواية "بقايا اليوم" لفيلم سينمائى، قام ببطولته إيما تومسون وآنتونى هوبكينز. علاقة الحب القوية تلك التى ربطت بين كبير الخدم فى أحد القصور الإنجليزية ومديرة المنزل. علاقة الحب التى أجهضتها الأعراف الاجتماعية. جدير بالذكر أن "بقايا اليوم" هى الرواية المعاصرة الوحيدة التى قرأتها الملكة، كذلك رُشحت رواية عندما كنا يتامى لجائزة بوكر عن العام ٢٠٠٠.

المترجم فى سطور:

طاهر البربرى

كاتب ومترجم مصرى. صدر له:

١- فى مجال الترجمة:

- أرض المساء وقصائد أخرى (مختارات من شعر ديفيد هربرت لورانس David Herbert Lawrence) صادر عن المشروع القومى للترجمة، بالمجلس الأعلى للثقافة، وزارة الثقافة المصرية 2001.

- الترجمة العربية الكاملة لرواية (إله الأشياء الصغيرة The God of Small Things) للكاتبة الهندية آرونداتى روى Arundhati Roy، الرواية الفائزة بجائزة بوكر البريطانية العام ١٩٩٧ صادر عن دار ميريت للنشر والمعلومات العام ٢٠٠٣.

- الترجمة العربية الكاملة لكتاب (نحو لغة وطنية للتقدم العلمى والتكنولوجى فى إفريقيا) بالاشتراك مع الأستاذ حلمى شعراوى، صادر عن مركز الدراسات العربية والإفريقية والتوثيق، المنيل، القاهرة ٢٠٠١.

- من لا عزاء لهم The Unconsoled للكاتب الإنجليزى كازو إيشيجورو Kazuo Ishiguro صدر عن المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، وزارة الثقافة المصرية ٢٠٠٥.

- الترجمة الإنجليزية الكاملة لديوان الشاعر رفعت سلام (إنها

تومئ لى) الديوان الفائز بجائزة فنسـطنطين كفـافيس للشـعر، باليونان العام ١٩٩٤.

٢- صدر له فى مجال الكتابة الإبداعية:

- توقيعات على جسد المساء (شعر) الهيئة المصرية العامة لقصور الثقافة، ١٩٩٧.
- مدن فارهة للنسيان (شعر) الهيئة المصـرية العامـة للكتـاب، ٢٠٠١.
- قنص الأحلام (رواية) الهيئة المصرية العامة لقصـور الثقافـة، طبعة أولى، طبعة ثانية بالهيئة المصرية العامة للكتاب (مكتبـة الأسرة) العام ٢٠٠٢.
- ظلالهم كانت هنا (رواية) الطبعة الأولى، دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة.

التصحيح اللغوى: علا طعمة

الإشــــراف الفنى: حسن كامل

ذاكرة الراوى فى رواية " عندما كنا يتامى " موصومة بالتشوش – مثل كل الرواة فى أعمال إيشيجورو الروائية؛ إيتسوكو أرملة نجاساكى فى رواية "منظر شاحب للتلال"، أونو فى رواية "فنان العالم الطافى"، ستيفنس كبير الخدم فى رواية "بقايا اليوم" – فهو على مضض، يمارس خداع ذاته؛ كما أنه يقمع الذكريات أو الأكاذيب المؤلمة ليجعلها أكثر لذة، يقدم أيامه المدرسية على أنها أفضل فترات حياته، ويصر على هذا بعناد وتصلب شديدين. وحينما يلتقى زملاء الدراسة يتضح أنه كان بالنسبة لهم نموذجًا شاذًا حتى فى عزلته وتعاسته للدرجة التى جعلت منه هدفًا للسخرية.

لوحة الغلاف: بابلو بيكاسو   تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح